973.008
8297
D593

جيرالد ف. ديركس

المسلمون في التاريخ الأمريكي:
إرث منسي

ترجمة:

أ. د. سعد البازعي

الطبعة الأولى 1431هـ 2010م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)

المسلمون في التاريخ الأمريكي: إرث منسي
جيرالد ف. ديركس

E184, M88 D5712 2010
Dirks, Jerald

المسلمون في التاريخ الأمريكي / تأليف جيرالد ف. ديركس؛ ترجمة سعد البازعي.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة و التراث، كلمة، 2010.
ص 348: 17×24سم.
ترجمة كتاب: Muslims in American history
تدمك: 3-611-01-9948-978
1 - المسلمون-تاريخ-الولايات المتحدة الأمريكية. 2 - الولايات المتحدة الأمريكية - الأحوال الاجتماعية.
أ- بازغي، سعد. ب - العنوان:

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:

Jerald Dirks
Muslims in American History: A Forgotten Legacy
Copyright© 1427 AH/2006AC
Amana Publications

www.kalima.ae
KALIMA

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+

www.cultural.org.ae
أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن آراء الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

المسلمون في التاريخ الأمريكي:

إرث منسي

المحتويات

مقدمة المترجم 11

مقدمة المؤلف 15

الفصل الأول: القصة المنسية 17

مقدمة 17

ألف سنة من الاتصال الإسلامي الأمريكي 17

الحضور الإسلامي في أمريكا المعاصرة 18

نظرة عامة 21

الفصل الثاني: فترة ما قبل كولومبس 23

الأسطورة 23

الأرض المنبسطة في مقابل البيضة 25

المسلمون الأندلسيون في أمريكا 28

المسلمون الأفارقة في أمريكا 36

المسلمون العثمانيون في أمريكا 43

تأكيد من غير المسلمين من الغربيين 45

تأكيد آثاري 50

البينة اللغوية 52
إعادة النظر في كولومبس.. 54
ملخص ونتائج.. 55

الفصل الثالث: المستكشفون «الأوروبيون» 57
مقدمة 57
الموريسكيون 58
مستكشفون مسلمون وموريسكيون في العالم الجديد 64
ملخص ونتائج.. 72

الفصل الرابع: تجارة العبيد.. 75
نظرة تاريخية 75
تجارة العبيد عبر الأطلسي.. 77
العرق والعبودية.. 83
العبيد المسلمون في أمريكا.. 86
الدور الإسلامي في ثورة العبيد.. 103
بعض السير الموجزة.. 118
المسلمون يساعد بعضهم بعضاً.. 166

الفصل الخامس: مسلمون وأمريكيون أصليون 179

مقدمة 179

مراجعة موجزة 179

مزيد من الاقتراحات... 183

الهنود السود 185

ملخص ونتائج.. 200

الفصل السادس: الميلونجون 201

مقدمة 201

السجل التاريخي... 204

السجل العلمي.. 213

نتائج 218

الفصل السابع: بقايا إسلامية في الحياة الأفرو أمريكية 223

مقدمة 223

أسلاف مسلمون.. 224

مشروع كتّاب السافانا 228

بعض النماذج المتفرقة... 236

معبد العلم المغاربي 240

أمة الإسلام 253

الفصل الثامن: المهاجرون 275

مقدمة 275

المهاجرون الأوائل........................ 276

موجة إثر موجة 281

الأحمدية في أمريكا 290

نتائج 292

الفصل التاسع: المعتنقون 293

مقدمة 293

بعض السير الموجزة لمعتنقي الإسلام........................ 293

نتائج 322

الفصل العاشر: الإسلام في أمريكا الشمالية المعاصرة 323

مقدمة 323

عدد المسلمين في أمريكا الشمالية 324

تركيبة المجتمع الإسلامي في أمريكا الشمالية 330

المساجد والمراكز الإسلامية في أمريكا الشمالية........................ 334

المنظمات الإسلامية في أمريكا الشمالية 336
المطبوعات الإسلامية في أمريكا الشمالية 341
الدراسات الإسلامية في التعليم العالي 342
نتائج 343

مقدمة المترجم

لو سألت مسلماً في معظم أنحاء العالم عما يعرفه، أو تعرفه، عن الإسلام في الأمريكتين الشمالية والجنوبية، لما وجدت سوى معلومات عامة ومبهمة وقد تكون مغلوطة. قد تتضمن أن في أقطار تلكما القارتين مسلمين وربما اشتملت على ذكر اسم أو اسمين من مشاهير المنتمين إلى الإسلام (محمد علي كلاي، مثلاً). لقد طرحت هذا السؤال على نفسي وأنا أعمل على الكتاب قارئاً ومترجماً ثم طرحته على غيري فوجدت أنني على الأرجح أمثل شريحة ليست صغيرة من المسلمين في ضعف معلوماتي في هذا الجانب، مع أنني عشت طالباً عربياً مسلماً في الولايات المتحدة الأمريكية قرابة الثمانية أعوام. ولربما كان العرب هم الأكثر حاجة بين غيرهم من المسلمين إلى معرفة المزيد عما يسميه جيرالد ديركس إرثاً إسلامياً في أمريكا، فما كتب بالعربية عن الإسلام في أمريكا، وترجم إليها، هو من النزر اليسير على كل حال. كما أن ما تحمله وسائل الإعلام لا يتناسب مع حجم المجتمعات الإسلامية في تلك الجهة من الكرة الأرضية.

لكن لعل المفارقة الأكبر هي أن ضعف المعلومات حول الإسلام في أمريكا ليس حكراً على المسلمين خارج الأمريكتين، فالمعلومات حول الموضوع قد لا تقل داخلهما عما هي عليه خارجهما. ذلك أن مؤلف الكتاب، وهو مسلم أمريكي أبيض (والتحديد اللوني والإثني مهم في هذا السياق)، لم يؤلف كتابه للمسلمين عامة بقدر ما أراده للمسلمين داخل أمريكا نفسها. ومؤشر ذلك ليس أن الكتاب ألف باللغة الإنجليزية – فتلك لغة المؤلف الأم التي قد لا يسهل عليه التأليف بغيرها. وإنما المؤشر هو في نوع القارئ المتوخى والذي يلمسه القارئ في ثنايا الأسطر وتوجهات الخطاب. فثمة الكثير من الإشارات والإحالات والرموز التي يعرفها المقيم في أمريكا أو المنتمي للثقافة الأنغلو سكسونية والتي استلزمت بعض الشروح الهامشية التي أدرجتها بوصفي مترجماً.

ومع ذلك فإن القارئ لن يعدم ما يشير إلى أن الكتاب ألف للقراء في كل مكان، ليس

للمسلمين داخل أمريكا أو خارجها فحسب وإنما للقارئ العام بغض النظر عن دينه وانتمائه العرقي أو الإثني أو الجغرافي. هو كتاب يعرف بمجتمع كبير وفاعل في الحياة الثقافية في قارتين كبيرتين ومؤثرتين في حياة البشرية أيما تأثير. ذلك المجتمع الإسلامي، على اختلاف أطيافه هو الآخر، له تاريخ وفي ذلك التاريخ إرث، ومن حق التاريخ والإرث أن يعرفا سواء من جانب الورثة المباشرين للتاريخ والموروث أو ممن يهمهم بوازع الانتماء للعائلة الإنسانية الكبرى. وتزداد أهمية التعرف على ذلك التاريخ وإرثه بشكل خاص لأنهما مما أصابه النسيان. إننا إزاء «إرث منسي»، كما يقول المؤلف في عنوان كتابه. لقد أصاب النسيان بداية الحضور الإسلامي فقلل من دور المسلمين في «اكتشاف» أمريكا أحياناً أو تم تجاهل ذلك الدور تماماً في الغالب. وقد أبلى المؤلف بلاء حسناً في التعريف بتلك البدايات التي تجعل المسلمين رواداً قبل كولومبس ومعه وبعده في استكشاف الأمريكتين وفي صياغة المجتمعات الأمريكية شمالاً وجنوباً. ومع أن الكتاب يتركز على أمريكا الشمالية والولايات المتحدة بشكل خاص، فإن الفصول الأولى عامة في إشارتها إلى الحضور الإسلامي على مستوى القارتين.

ومما يتميز به الكتاب اجتهاد مؤلفه في استقراء الشواهد وما يسميه «بقايا» الحضور الإسلامي، لأن موضوع البحث في نهاية الأمر «إرث منسي»، أي عالم كاد ماضيه أن ينطمس كما تنطمس الآثار فيعكف الباحثون على الحفر المتأني لاستنطاقها من جديد بعد أن صمتت قروناً. ويتضح أن جهد الباحث في هذا السياق وغيره مدفوع بعاطفة قوية تتحول إلى مثابرة تتوخى الموضوعية والدقة دون أن تنجرف إلى مرافعة مبالغ بها للإعلاء من شأن الدور الإسلامي، مع أن هناك من سيرى في ما يقوله المؤلف نوعاً من المبالغة. عاطفة المؤلف تأتي من كونه مسلماً يحرص على إزالة الظلم عن الإسهام الذي قدمه دين وثقافة وأفراد ينتمون إليهما في صياغة مجتمعات العالم الذي سمي يوماً «العالم الجديد». أما توخي المؤلف للموضوعية فيدفعه عاملان رئيسان فيما أرى:

العامل الأول: أن المؤلف أكاديمي متخصص في علم النفس الأكلينيكي ومن جامعة

أمريكية شهيرة في ذلك المجال وغيره، هي جامعة هارفرد. فلغته أقرب إلى لغة المختبرات والمكتبات منها إلى لغة التأليف الآيديولوجي، لغة هادئة ودقيقة إلى حد الإملال أحياناً، كما يتضح من كثرة الأرقام والتواريخ ومن الاعتماد على التكرار، تكرار الأسماء والمعلومات حتى من جملة إلى أخرى، ومن فقرة إلى التي تليها.

العامل الثاني: أن المؤلف كان رجل دين مسيحي وعالم لاهوت عرف المسيحية معرفة ممتازة في العمق، ثم اهتدى إلى الإسلام فجاءت معرفته به معرفة مقارنة يصعب أن تتحول مع تلك الخلفية وما يسندها من تعليم نفسي إكلينيكي وأكاديمي إلى مجرد دفاع عن الإسلام والمسلمين وإلباسهم غير لبوسهم.

هذان العاملان اللذان يتسم بهما الكتاب، يسندهما عامل ثالث لا صلة له بالمؤلف مباشرة وإنما بطبيعة الكتاب نفسه. فالكتاب، كما يوضح المؤلف منذ البدء، ويتضح مع مرور الصفحات، ليس «تأليفاً» بالمعنى المألوف، أي ليس من اجتهاد الكاتب نفسه في تقصي المعلومات، بقدرما أنه من اجتهاده في جمع تلك المعلومات من مصادر مختلفة والتأليف بينها. وقد يقال هنا أن ذلك هو من طبيعة التأليف، وهو حق، لكن مستوى حضور المؤلفات الأخرى في عملية التأليف المتعارف عليها يكون أدنى عادة مما يقدمه المؤلف نفسه، بمعنى أن المؤلف ينتج من أفكاره أكثر مما يلخص أو يستعير. وهذا ليس ما يحدث هنا، فالكتاب هو اجتهاد في «جمع ... المعلومات وتلخيصها»، كما يقول المؤلف في مقدمته. ولذا فهو، كما يقول أيضاً، لا يقدم «سوى عرض وتكثيف لمساعٍ بحثية قام بها آخرون». فالمؤلف يقتحم مجالاً لم يتدرب فيه أو يقضي السنين الطويلة في تقصّي جوانبه، ولكنه قرأ عدداً من المنجزات البحثية وأراد أن ينفع القارئ بجمعها وتلخيصها.

لكن إبراز هذا العامل والتأكيد عليه سيتضمن ظلماً للمؤلف إن نحن توقفنا عند هذا الحد. فالحق أن المؤلف يتواضع كثيراً وهو يقلل من دوره في عملية الجمع والتلخيص التي يتحدث عنها. فالعملية المشار إليها ليست سهلة بحد ذاتها على كل حال، كما أن القيام بها عمل كبير ومهم في الوقت الذي يتجاوز جهد المؤلفين الآخرين بأنه «يؤلف» بينهم فيوحد جهودهم

في اتجاهات ربما لم تخطر لهم ببال (وكم من مؤلِّف عده الناس مفكراً مبدعاً وهو لم يتجاوز تلك المرحلة من الجمع والتلخيص التي لم يعترف بها!). لكن جيرالد ديركس لم يتوقف بطبيعة الحال عند مرحلة الجمع والتأليف، ولم يكن بإمكانه أن يفعل ذلك حتى لو أراد، فالقارئ سيلمس شخصيته وهي تتحرك خلف الجمل والفقرات والفصول ليرى عقلاً يرسم الصورة العامة بالاستقراء والتحليل والاستنتاج. صحيح أنه يؤلف بين جهود الآخرين لكن له ذاتاً حاضرة، ذاتاً لا تجعل المعلومات ثانوية بالقياس إلى أفكارها ولكنها تصوغها بحيث تحافظ على مستوى الدقة والتجرد في التعريف. بل إن المؤلف على الرغم من حرصه على التواري في مجمل الكتاب من خلال الابتعاد عن إصدار الأحكام وعدم استعمال ضمير الأنا إلا فيما ندر، يقف في نهاية الكتاب موقفاً ذاتياً في تقييمه للتحديات التي يواجهها المسلمون في الولايات المتحدة التي يتركز الكتاب على البحث فيها.

إن كتاب «المسلمون في التاريخ الأمريكي: إرث منسي» كتاب مهم للقارئ سواء كان مسلماً أمريكياً أم غير أمريكي، بل هو مهم للقارئ أياً كان لأن موضوعه مهم. ولقد كانت تجربتي في ترجمته تجربة مثرية معرفياً وإنسانياً وأود أن أشكر مشروع «كلمة» في أبو ظبي، وعلى رأسه الدكتور علي بن تميم، على أن أتاح لي فرصة العمل على الكتاب وتقديمه للقارئ العربي.

أ.د. سعد البازعي

الرياض – ديسمبر 2009

استهلال

تضطلع الدراسات المعاصرة بالكشف عن كم ضخم من التفاعل الأمريكي الإسلامي الممتد تسلسلياً إلى حقبة ما قبل كولومبس والذي استمر على نفس الوتيرة حتى هذه اللحظة. وبجمع هذه المعلومات وتلخيصها فإني لا أقدم سوى عرض وتكثيف لمساعٍ بحثية قام بها آخرون. غير أن تلخيصاً يجمع تلك الجهود يبدو مبرراً الآن بالنظر إلى أنَّ معظم الوثائق المتعلقة بالموضوع مشتتة هنا وهناك في حقول تخصصية ثانوية ضمن الدراسات التاريخية، دون أن يبذل سوى القليل من الجهود لجمع تلك المعلومات في صيغة تاريخية.

إنني آمل أن يحقق هذا الكتاب عدة أهداف من خلال توفير تلك المعلومات في مصدر واحد. فمن ناحية، أتمنى أن يوسع هذا الكتاب من فهم الجمهور الأمريكي للدور الأساسي الذي لعبه المسلمون عبر التاريخ الأمريكي. ومن ناحية أخرى، أرجو أن يشكل هذا الكتاب مرجعاً مرافقاً للكتب الدراسية الرسمية المتعلقة بالتاريخ الأمريكي في المدارس الثانوية والكليات الجامعية، وكتاباً مدرسياً أساسياً في المدارس الثانوية والإعدادية الإسلامية الخاصة في الولايات المتحدة.

إنني، كما أنا دائماً، مدين وبعمق لزوجتي، ديبرا ل. ديركس، التي عشت معها 35 عاماً. لقد كرست وقتها بكرم بالغ لنقد النسخ المتعددة لهذا الكتاب وقراءتها قراءة فاحصة، موجدة بذلك بيئة يمكنني العمل فيها، وموفرة الدعم المعنوي والعاطفي الذي يحتاجه أحياناً مؤلف كثير المساءلة لنفسه. لقد ضحت أثناء ذلك بوقت الكتابة الذي تحتاجه لخدمتي (فهي محررة مشاركة لكتاب «الإسلام خيارنا: صور لنساء أمريكيات معاصرات»، الذي يمكن الحصول عليه من «منشورات أمانا»).

إضافة إلى ذلك، أود أن أشكر طلابي السابقين في أكاديمية كريسنت فيو في أورورا، بولاية كولورادو وفي مدرسة النور الإسلامية في ويتشيتا، بولاية كانساس. لقد كان تفاعلي معهم في الدراسات الاجتماعية هو الذي اجتذب انتباهي إلى الحاجة إلى جمع المعلومات

المقدمة في هذا الكتاب. فقد كان كل منهم أمريكياً ومسلماً. ومع ذلك فإن الكتب المدرسية لم تمنحهم أي أمل بالوصول إلى موروثهم الطبيعي ضمن التاريخ الغني والمتعدد للمسلمين في أمريكا. إن هذا الكتاب مهدى إليهم بقدر ما هو مهدى إلى أي شخص آخر.

لقد سعيت، بشكل عام، لجعل هذا الكتاب متاحاً للقارئ العام. ولذا فقد ضيقت من استعمال الهوامش، مع أن نهاية الكتاب تتضمن ببليوغرافيا كاملة بالمراجع التي عدت إليها. لكن بعض المواد المعروضة هي مما قد يراه بعض القراء محل جدال. تلك المواد هي ما رفدته بهوامش مفصلة لكي يعرف القارئ المظان الدقيقة التي تم استعمالها.

جيرالد ف. ديركس

15 يوليو، 2004

1. الحكاية المنسية

أ. مقدمة

ابتداءً من العقدين الأخيرين من القرن العشرين، أخذت في التنامي في الغرب أعمال بحثية تسائل الكثير من معرفتنا التقليدية بالتاريخ الأمريكي. ويصدق ذلك بشكل خاص على أولئك الذين من بيننا تلقوا تعليمهم الابتدائي والثانوي أثناء فترة الخمسينيات التي اتسمت بالهدوء والستينيات التي اتسمت بالاضطراب. بتعبير مباشر، إننا الآن نشهد مراجعة رئيسة للتاريخ الأمريكي. معتقدات مكرسة لأمد طويل وأساطير عزيزة تأخذ طريقها إلى أكداس الخردوات من الفكر الذي تم تجاوزه. وأثناء تلك العملية فإننا نتعلم بأن ثمة موروثات كثيرة ضمن التاريخ الأمريكي تعرضت بالصدفة للنسيان أو للكبت المتعمد. أحد تلك الموروثات المنسية هو ما يرد هذا الكتاب إليه اعتباره – دور المسلمين في التاريخ الأمريكي.

لقد اعتاد الأمريكيون أن ينظروا إلى الإسلام بوصفه ديناً غريباً وأجنبياً لا علاقة له تذكر بالأمريكي العادي أو بالمشهد الضخم والمتعدد الوجوه للتاريخ الأمريكي. الأمريكيون المنتمون إلى جيل أكبر سناً قد يتذكرون الإسلام لأول مرة مرتبطاً بما يسمى «حركة المسلمين السود» التي حققت بروزاً وانتشاراً شعبياً أثناء حركة الحقوق المدنية في الخمسينيات والستينيات. أما الأمريكيون الأصغر سناً فلربما عرفوا الإسلام في أمريكا لأول مرة نتيجة لتسليط الضوء على الإسلام في أعقاب مأساة الحادي عشر من سبتمبر، 2001. غير أن تاريخ الإسلام في حقيقة الأمر، وعلى نحو مناقض لهذه المفاهيم، يمكن العودة به عبر القرون لما يبدو متجاوزاً الألف عام.

إن تاريخ الإسلام في أمريكا هو للأسف حكاية منسية إلى حد كبير، موروث يمكن إعادة تركيبه فقط عبر بحث متأنٍ وعبر-ثقافي ومن خلال عملية نخل لتفاصيل تاريخية وآثارية كثيراً ما تتعرض للتجاهل. إنه إزالة الستار عن حالة من الغموض المكثف الذي تترامى مفاتيحه على مساحة تمتد عبر تركيا وإسبانيا وغرب إفريقيا حتى أمريكا. وأثناء ذلك من

الضروري ربط النصوص التاريخية المترجمة عن المصادر العربية والعثمانية بالنقوش الآثارية المحفورة على الصخور الأمريكية بلغة الماندينكا في إفريقيا الغربية، بالتحليل اللغوي للغات الأمريكيين الأصليين، بالتواريخ الشفاهية الصعبة التذكر، وحتى بالدراسات الوبائية في حقل الطب الحديث. وغني عن القول، فإن هذه المفاتيح المشتتة بشكل واسع تتطلب تعاوناً بين حقول متعددة من أجل إعادة تركيبها بجهد مضنٍ في عملية تشبه اكتشاف القطع المتناثرة إذ يستعاد تركيبها.

1. ألف عام من الاتصال الإسلامي الأمريكي

الصورة التي تتمرأى أمامنا من بين القطع المتناثرة توحي بتاريخ مركب من العلاقات الداخلية المتكررة بين المسلمين والأمريكيين، علاقات تمتد زمنياً إلى نهاية القرن التاسع حين قامت أول رحلة موثقة من الأندلس المسلمة (إسبانيا والبرتغال المعاصرتين) إلى الأمريكتين. تأسيساً على نقطة الانطلاق تلك يستمر التاريخ الإسلامي في أمريكا في فترة ما قبل كولومبس عبر رحلات متتالية للمسلمين من الأندلس، إلى جانب نقطتي انطلاق مختلفتين على الأقل من إفريقيا، بالإضافة إلى نقطة انطلاق محتملة من الإمبراطورية العثمانية.

بالإضافة إلى ذلك لم يتوقف الاتصال الإسلامي بأمريكا مع رحلة كولومبس والاستكشاف الإسباني للأمريكتين. لقد أبحر المسلمون، في الحقيقة، مع كولومبس وكانوا جزءاً أساسياً من الاستكشاف الإسباني فيما بعد. ومع ذلك فإن التواريخ المعاصرة قلما تهتم بالإشارة إلى أن الكثير من أولئك المستكشفين «الإسبان» كانوا مسلمين من أصول عربية وبربرية.

بيد أن المسلمين سواء كانوا مستكشفين أو تجاراً أو مستوطنين لم يكونوا وحدهم الذين جاؤوا بالإسلام إلى أمريكا. لقد ارتفع معدل الحضور الإسلامي في أمريكا على نحو استثنائي مع جرائم الاتجار بالعبيد ما بين إفريقيا وأمريكا. ابتداءً من أوائل القرن السادس عشر وحتى أوائل التاسع عشر، استطاعت تجارة العبيد الإلقاء بملايين الأفارقة المسلمين في قيود العبودية على الشواطئ الأمريكية. من بين تلك الملايين من المسلمين المستعبدين الذين سجنوا وعذبوا

على التراب الأمريكي، ربما يكون الأشهر هو كونتا كنتي، الذي كان من مسلمي الماندينكا الذين خلدهم أليكس هيلي في روايته «جذور».

لقد تعرض أولئك المسلمون المستعبدون في معظم الوقت لاضطهاد شديد بسبب دينهم ومنعوا من نقل ذلك الدين إلى أولادهم. ومع ذلك فإن بقاياً من العقيدة الإسلامية ظلت حية تنتقل من جيل إلى جيل بين أحفادهم من الأفارقة الأمريكيين. بل إن من تلك البقايا الإسلامية ما انعكس على الأقل في طقس كنسي تطور لاحقاً وهو مما تتفرد به الديانة المسيحية في صورتها الإفريقية الأمريكية.

مجموعة أخرى ممن أسهموا في الحضور الإسلامي في أمريكا الاستيطانية كانوا جماعة عرفت بالميلونجون الذين عاشوا في أمريكا، كما تشير الشواهد، منذ مطلع القرن السابع عشر ويبدو أنهم منحدرون من جماعة إسلامية ذات خلفية إثنية مختلطة. أولئك الميلونجوني تمركزوا في منطقة الأبالاش، ولأن خلفيتهم الإثنية والعرقية يشوبها الغموض فقد تعرضوا في كثير من الأحيان للتمييز العنصري والاضطهاد.[1] ولهذه الأسباب احتفظوا بنوع من الوجود شبه السري في الأجزاء الأكثر عزلة من جبال الأبالاش. ففي حين يمكن تحديد هوية الأفراد من ذوي الانتماء الميلونجي، فإن جذورهم الإسلامية تكاد تكون في عتمة النسيان.

المجموعات الإسلامية التي سبقت الإشارة إليها ممن سبقوا كولومبس من مستكشفين وتجاراً ومستوطنين «إسبان» وعبيداً أفارقة وميلونجيين، تبدو وقد اتصلت في الغالب من خلال التزاوج مع قبائل الهنود الأمريكيين وفي بعض الأحيان امتصت في تلك القبائل. وفي حين أن القليل من الطقوس والمعتقدات الدينية الإسلامية استمر على ما يبدو عند أولئك الهنود الأمريكيين الذين عرف أجدادهم الإسهامات الإسلامية، فإن عدداً من الكلمات التركية والعربية والماندينكاوية صارت جزءاً من مفردات لغوية هندية أمريكية متنوعة. إلى جانب ذلك فإن من السهل التعرف على بعض الأسماء الإسلامية التي بقيت عند الهنود من

(1) يستعمل المؤلف مصطلحي «الإثنية» و«العرقية» وهما مصطلحان مختلفان في الاستعمال المتداول حالياً، إذ يشير الأول إلى مجموع السمات الثقافية والاجتماعية والعرقية التي يتسم بها شعب أو مجتمع أو جماعة، في حين تنحصر دلالة «العرقية» في السمات الفيزيائية أو الجسدية كالملامح واللون وغيرها (المترجم).

قبيلة الشيروكي حتى القرن التاسع عشر.

لقد شهد القرن التاسع عشر أول موجة من الهجرات الإسلامية الحديثة إلى الولايات المتحدة قادمة من الولايات العربية ضمن الإمبراطورية العثمانية. أولئك المهاجرون كانوا في المقام الأول من مناطق صارت فيما بعد دولاً حديثة عرفت بسوريا ولبنان والأردن إلى آخر ذلك. ثم تتالت الموجات من المهاجرين المسلمين من الشرق الأوسط، وشبه القارة الهندية، وأماكن أخرى طوال معظم سنوات القرن العشرين.

أدت الهجرات الإسلامية إلى الولايات المتحدة طوال القرن الماضي إلى بناء المساجد الأمريكية وإقامة عدد من المؤسسات الإسلامية. من تلك مثلاً الهلال الأحمر، الذي يقابل الصليب الأحمر الدولي، والذي أسس في ديترويت عام 1920. هذا بالإضافة إلى أن الهجرات الإسلامية إلى أمريكا في أوائل القرن العشرين أشعلت الاهتمام مرة أخرى ما بين الأمريكيين الأفارقة لاكتشاف جذورهم الإسلامية. وعلى الرغم من ضرورة الاعتراف بأن صورة الإسلام الذي قدمته منظمات مثل «معبد العلْم المغاربي» و«أمة الإسلام» اللتين ظهرتا إبان الثلث الأول من القرن العشرين فإن ظهورهما كان ضمن محاولة الأمريكيين الأفارقة استعادة تراثهم الإسلامي.

ترافق مع اكتشاف الأمريكيين الأفارقة جذورهم الإسلامية واستعادة تلك الجذور أن أمريكا في القرن العشرين شهدت أيضاً ظاهرة التحول إلى الإسلام وبأعداد كبيرة بين الأمريكيين المولودين على الأرض الأمريكية. وفي حين كان اعتناق الإسلام أكثر بروزاً بين الأمريكيين الأفارقة، فقد وجد الإسلام أيضاً عدداً آخر من المقبلين عليه بين الأمريكيين الأوروبيين، والأمريكيين اللاتينيين والهنود الأمريكيين.

ج. الحضور الإسلامي في أمريكا المعاصرة

نتيجة لعاملي الاعتناق والهجرة صار الإسلام في نهاية القرن العشرين أسرع الأديان نمواً في

أمريكا والثاني من حيث الحجم. وعلى الرغم من غياب السجلات الدقيقة فإن تقديرات عدد المسلمين في أمريكا تتراوح من مليونين إلى ثمانية ملايين. وقد أشارت إحدى الدراسات على الأقل إلى أن عدد المسلمين في الولايات المتحدة تضاعف مابين عامي 1990 و2001. المساجد والمراكز الإسلامية موجودة الآن في كل المدن الأمريكية تقريباً. منظمات الطلاب المسلمين موجودة تقريباً في المدن الجامعية لمعظم الكليات والجامعات الكبيرة. يضاف إلى ذلك أن العائلات المسلمة غالباً ما تعيش وتعمل دون ضجيج في معظم المدن الصغيرة عبر العمق الأمريكي، أحياناً دون علم جيرانهم بانتمائهم الديني الإسلامي. وهكذا يتضح أن الحضور الإسلامي صار جزءا من التركيبة الأساسية لإناء الذوبان الذي تعرف به أمريكا.

د. نظرة عامة موجزة

يقدم الكتاب المتواضع الحالي دمجاً لاكتشافات متفرقة متصلة بالإرث المنسي للمسلمين في أمريكا. ينظر الفصل الثاني إلى دلائل الحضور الإسلامي في أمريكا قبل رحلة كولومبس الملحمية عام 1492. أما الفصل الثالث فيتفحص الدور الذي لعبه المسلمون في الحملات الاستكشافية «الإسبانية» و«الأوروبية» المبكرة للأمريكتين. الفصل الرابع يستعرض الحضور الأساسي والمؤثر للمسلمين بين الأرقاء الأفارقة الذين أحضروا إلى أمريكا في أسر قاس وغير إنساني. الفصل الخامس ينظر إلى ما قدمه المسلمون للقبائل الهندية الأمريكية. الفصل السادس يتناول قصة الميلونجيين، تلك الجماعة غير المعروفة إلى حد بعيد والتي سكنت الأمريكتين لعدة قرون ولها أصول إسلامية. الفصل السابع يقدم رؤية داخلية للرواسب الإسلامية في حياة الأفارقة الأمريكيين وثقافتهم. الفصل الثامن يركز على دور من هاجر من المسلمين إلى الولايات المتحدة ابتداءً من القرن الثامن عشر واستمراراً حتى القرنين التاسع عشر والعشرين. الفصل التاسع يناقش ظاهرة انتشار التحول نحو الإسلام أثناء القرن العشرين. وأخيراً، يتناول الفصل العاشر الإسلام والمسلمين في أمريكا المعاصرة.

2. فترة ما قبل كولومبس

1. الأساطير

« في عام ألف وأربعمائة واثنين وتسعين أبحر كولومبس عبر المحيط الأزرق...»

أجيال من تلامذة المدارس الأمريكية تعلموا الأنشودة المقتبسة أعلاه أثناء تلقيهم المعلومات الأولى حول «اكتشاف أمريكا». وينكشف التمركز الأوروبي في معلومات كتلك حالما يتذكر المرء أن كولومبس لم ينزل في أرض من الصخور والتراب خلو من السكان. كان الهنود الأمريكيون موجودين قبل ذلك في أمريكا بل كانوا على أرضها منذ آلاف السنين. كانوا قد طوروا حضاراتهم، وأنظمة حكم خاصة بهم، كما طوروا حياتهم الدينية والثقافية. وأثناء تلك العملية تنامى لديهم ألفان من اللغات المختلفة ستمائة منها في أمريكا الشمالية وحوالي ألف وأربعمائة وخمسون في أمريكا الجنوبية. كان في أمريكا حين وصول كولومبس، حسب أفضل التقديرات التي توصل إليها مكيفيدي وجونز، وهما متخصصان في حقل تقدير حجم التجمعات السكانية القديمة، حوالي 14 مليون هندي، نصفهم في أمريكا الشمالية وجزر الكاريبي والنصف الآخر في أمريكا الجنوبية.

ومع ذلك فإن أسطورة كولومبس مكتشفاً لأمريكا استمرت عالقة في الذات الأمريكية، وما يزال يوم الثاني عشر من أكتوبر 1492، اليوم الذي وصل فيه كولومبس إلى جزيرة سان سلفادور في المحيط الكاريبي، ينظر إليه بوصفه نقطة فاصلة في التاريخ الأمريكي. يضاف إلى ذلك أن الأسطورة الكولومبية ظلت كما هي إلى حد بعيد على الرغم من أن ثمة اعترافاً على مضض بأن كولومبس لم يكن أول أوروبي يضع قدميه في الأمريكتين. بالتدريج بدأت مقررات المرحلة الابتدائية تتضمن بعض الإشارات إلى رحلة «لايف إريكسون» إلى نيوفاوندلاند حوالي العام 1000 وتأسيس مستوطنة للفايكنغ لم تدم طويلاً على الشاطئ الشرقي لكندا.

بيد أن الأسطورة الكولومبية تتعرض الآن لهجوم جديد مع بدء جيل جديد من الباحثين الغربيين في تفحص كم لا بأس به من الوثائق العربية القديمة تتضمن تفاصيل عن حضور إسلامي في الأمريكتين في فترة تعود إلى القرن التاسع. فضلاً عن ذلك، ليس هذا الحضور الإسلامي في التاريخ الأمريكي السابق لكولومبس محصوراً في فترة واحدة، ولا هو ناتج عن اتصال حضارة إسلامية واحدة بالأمريكتين. إنه في الحقيقة انعكاس لسلسلة من الاتصالات (استمر بعضها لفترات طويلة)، ولقيام مستوطنات وطرق تجارية منتظمة، وكذلك للتزاوج مع عدد من قبائل الهنود الأمريكيين والاختلاط بهم.

إن من الغني عن القول أن ذلك الاتصال الطويل بين الهنود الأمريكيين والمسلمين سواء كانوا مستكشفين أو تجاراً أو مستوطنين لم يمض دون أثر على التاريخ الأمريكي. الترسبات والأدوات التي تشهد بالحضور الإسلامي ما قبل الكولومبي في أمريكا كثيرة نسبياً لكنها مما حصل تجاهله أو إساءة فهمه في الماضي من قبل غالبية المؤرخين الغربيين. ولعل القارئ يتساءل كيف حدث ذلك الخطأ الكبير في فهم التاريخ الأمريكي.

من ناحية حدث ذلك لأن الأكاديميات الغربية صارت شديدة التخصص. الباحثون في حقل ما ليست لديهم معرفة بالحقول الأكاديمية الأخرى. المؤرخ الأمريكي التقليدي لم يطلع يوماً على أنماط الكتابة العربية أو رموز وأشكال الكتابة الماندیكاوية، ولذا فهو غير قادر على التعرف على اللغة العربية أونقوش الماندينكا المحفورة على المشهد الطبيعي الأمريكي. وبالقدر نفسه فإنه نسبياً لا يعرف الإسلام وثقافة المسلمين ولا يستطيع التعرف عليها أو بقاياها حين يصادفها في أماكن غير متوقعة. هذا بالإضافة إلى أنه ليس لديه الوقت أو الرغبة في الغوص في جبال من السجلات القديمة والكتب التي كتب معظمها بالعربية وتوزعت في إسبانيا والشرق الأوسط الإسلامي. ولو كان لديه الوقت والمهارات اللغوية والهوى لفعل ذلك، لوجد السجلات الموثقة التي تشهد بتكرار المرات التي أبحر فيها المسلمون إلى الأمريكتين من الأندلس (إسبانيا والبرتغال) وغرب إفريقيا، وفيما يبدو أيضاً من الإمبراطورية العثمانية.

فيما يلي يمهد القسم «ب» لرؤية الاختلاف بين كيف كان فهم أوروبا المسيحية للأرض، من ناحية، وفهم العالم الإسلامي من ناحية أخرى. الأقسام «ج» وحتى «ز» تورد بالتفصيل ما يوثق الحضور الإسلامي في أمريكا في مرحلة ما قبل كولومبس. هذه الأقسام قسمت حسب المواقع (الأندلس، غرب إفريقيا، الإمبراطورية العثمانية) التي انطلق منها أولئك المسلمون إلى القارة الأمريكية. القسم «ح» يفحص الكم المدهش من الوثائق التي بقيت في المصادر غير الإسلامية فيما يتعلق بالحضور الإسلامي في أمريكا فيما قبل كولومبس، في حين يستعرض القسم «ط» الأدلة الآثارية. وأخيراً يعيد القسم «ي» تفحص رحلات كولومبس الأربع إلى الأمريكتين ويبرز التأثير الإسلامي على تفكير كولومبس وحملته.

2. الأرض المنبسطة في مقابل البيضة

في القرون التي سبقت الاستكشاف الإسباني للأمريكتين كان معظم مسيحيي أوروبا يعتقدون أن الأرض منبسطة. إن أبحرت أكثر مما ينبغي نحو الغرب فستجد المحيط الأطلسي ثم تسقط عند حدود الأرض. أما إن أبحرت أكثر مما ينبغي نحو الشرق وعبر المحيط الهادي فسيحدث لك الشيء نفسه. غير أن «معظم» ليست «كل» وفي أوروبا المسيحية كانت علية العلية المثقفة، على الرغم من عددها الضئيل نسبياً بين سكان أوروبا، تعرف أن الأرض كانت في الأساس جسماً كروياً. وكان فيثاغورث في القرن السادس قبل الميلاد قد اقترح أن الأرض جسم كروي. ثم جاء أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد وأيد الاقتراح، كما فعل إيراتوستينيس في القرن الثالث قبل الميلاد وهيباركوس في القرن الثاني قبل الميلاد أيضاً. في القرن الثاني الميلادي كتب بطليموس أن الأرض جسم كروي، وحتى كريستوفر كولومبس كان فيما يبدو مطلعاً على ما كتبه بطليموس. ومع ذلك فإن الفهم السائد في أوروبا كان أن الأرض منبسطة.

إن من الغني عن القول أن مفهوم انبساط الأرض المتضمن أن المرء يبحر إلى طرف العالم كان عقبة في وجه رحلات الاستكشاف البحري. البحارة العاديون لم يكونوا يعرفون

بطليموس ولم يكونوا متعلمين.بما يكفي لتجاوز المعتقد الشعبي بأن الأرض منبسطة. فمن هو البحار العادي الذي كان على استعداد لجعل حياته رهينة لنظرية أن الأرض جسم كروي؟ ولذا في فترة ما قبل كولومبس كان استكشاف الأرض من قبل الشعوب المسيحية لا يخرج عن نطاق اليابسة أو في نطاق الإبحار الملتصق بالسواحل.

في تباين واضح مع الفهم الأوروبي كان فهم المسلمين للعالم هو أنها كروية على نحو ما، وإن مالت لأن تكون بيضاوية. ذلك الاعتقاد الإسلامي السابق لكولومبس لم يكن جغرافياً محضاً. كان أيضاً جزء من معتقد ديني. في القرآن (النازعات:30)[1] توصف الأرض بالكلمة العربية «دحاها» التي تترجم عادة إلى «منبسطة» أو «ممددة». لكن ترجمة أكثر حرفية ستتضمن كون الأرض كالبيضة من حيث الشكل.

إشارة القرآن إلى الأرض بوصفها جسماً كروياً أو تشبه البيضة جعلت العلماء والجغرافيين المسلمين يسرعون في حساب حجم ذلك الجسم. ما فعلوه هو أنهم ساروا على خطى الجغرافيين اليونانيين من قبلهم، مثل إيراتوسثينيس في القرن الثالث قبل الميلاد وبطليموس في القرن الثاني الميلادي، وذلك بتقسيم الأرض إلى 360 درجة طولاً وعندئذٍ بدؤوا يحسبون طول الدرجة الواحدة عند خط الاستواء. باستعمال التقنية الحديثة نعلم الآن أن المسافة بين خطوط الطول عند خط الاستواء هي 111,32 كيلو متراً (حوالي 69,18 ميلاً). إذا تذكرنا ذلك الرقم سنعجب بدقة العلماء المسلمين ونقارنها بمحاولات أسلافهم اليونانيين لحساب قطر الأرض. حسابات أرسطو، مثلاً، تمخضت عن قطر مقترح للأرض (400,000 ستاديا [يعادل الاستاد حوالي 600 قدم]) هو في الواقع ضعف قطرها الفعلي. إراتوسثينيس توصل إلى رقم يزيد عن الرقم الفعلي بحوالي 15٪، وبطليموس قدر المسافة الصحيحة بما يقل عنها بأكثر من 16٪. في اختلاف مميز قدر أبو العباس أحمد الفرغاني (الفرغانوس) تلك المسافة بـ 122 كيلومتراً (مختلفاً بأقل من 10٪)، في حين قدر العلماء السبعون الذين حشدهم الخليفة عبد الله

(1) الآية الكريمة هي: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾. يكتفي المؤلف في مجمل الكتاب بإيراد رقم السورة والآية، كما أنه حين يشير إلى القرآن لا يضيف صفة المقدس التي تترجم إلى «Holy» بالإنجليزية، وقد رأيت الاحتفاظ بلفظ المؤلف حفاظاً على الدقة (المترجم).

المأمون (حكم ما بين 814 و833 للميلاد) المسافة بـ 115,35 كيلومتراً (مختلفين بأقل من 4٪). إلى جانب ذلك قدم محمد ابن موسى الخوارزمي (عاش ما بين 780 و850 تقريباً) حسابات إضافية لطول الدرجة الأرضية، والخوارزمي أحد العلماء الذين عملوا في مشروع المأمون لحساب قطر الأرض.

بيد أن دور العلماء المسلمين في دراسة الأرض لم يكن محصوراً في حساب المسافة بين درجات الطول عند خط الاستواء. ما بين القرنين التاسع والعاشر اخترع ابن يونس ومحمد بن جابر بن سنان الباني الحراني الصابئي (ألبطانيوس، ألباتيغنوس، ألباتيغنيوس أو ألباتيغني) أو طور أصنافاً من البوصلة وربع الدائرة والأسطرلاب والسدسية،[1] التي أسهمت إلى حد كبير في قدرة الإنسان على الإبحار في المحيطات. لعدة قرون ظلت تلك المخترعات الإسلامية هي «المقياس الذهبي» للإبحار عبر المحيطات. هذا بالإضافة إلى أن البطاني، وهو عالم فلك عربي عاش ما بين 858 و929 تقريباً، حسن حسابات بطليموس الفلكية باستبدال الحسابات الهندسية بحساب المثلثات. وأكثر من ذلك حدد أبو الريحان بن أحمد البيروني (973–1048) بدقة خطوط العرض والطول ما بين المدن الرئيسية وحسب المسافات بينها مقترحاً أن الأرض تدور حول محورها. (مضت بضع مئات من السنين قبل أن يصل غاليليو في أوروبا إلى نتائج مشابهة). في القرن الحادي عشر اخترع الزرقالي أسطرلاباً بسطح واحد (أزافي)[2] يعمل على كل خطوط العرض وكان البحارة يستعملونه حتى القرن السادس عشر.

على الرغم من الدقة المثيرة الإعجاب التي توصل إليها العلماء والجغرافيون المسلمون فقد اختار كولومبس أن يعتمد على ما أنجزه الأوروبيون على ما فيه من أخطاء. فعلى سبيل المثال،

(1) السدسية (السيكستانت) آلة لقياس ارتفاع الأجرام السماوية (المترجم).

(2) إبراهيم بن يحيى النقاش، المعروف بابن الزرقالة أو الزرقالي. ويعرف في اللاتينية باسم Arzachel. ‏420هـ / 1087–1029م. ابن الزرقالي من علماء طليطلة بالأندلس، ويورد المؤلف اسمه بصيغة «ابن الزرقالو» ويبدو أن مصدره إسباني لأنه يلفظ قريباً من ذلك بالإسبانية فهو إما Azarquiel أو Al-Zarqalluh، وتذكر بعض المصادر أنه توفي عام 1100م. وقد أصدرت الحكومة الإسبانية طابعاً تذكارياً لابن الزرقالي بوصفه عالم فلك عربي– إسباني. أما «الأزافي» فآلة فلكية طورها ابن الزرقالي وقد يكون الاسم تحوير أجنبي لكلمة «الضافي». وبشكل عام فإن المؤلف يورد أسماء أولئك العلماء المسلمين بشكليها العربي واللاتيني (المترجم).

استنتج الطبيب الإيطالي باولو توسكانيلي[1] استنتاجاً خاطئاً هو أن المسافة من لشبونه إلى اليابان لا تزيد عن 3000 ميل. ومثل تلك كانت النتيجة التي توصل إليها مارتن بيهايم، صانع الخرائط الألماني، حين اعتقد بأن الصين كانت تبعد بحوالي 4000 ميل غرب أوروبا. ومما يزيد من المشكلة أنه حتى لو اعتمد كولومبس على أفضل التقديرات العربية الإسلامية للمسافة بين خطوط الطول عند خط الاستواء (112 كيلومترا، التي كانت أبعد من الرقم الفعلي بأقل من 1٪)، فإنه كان للأسف سيخطئ الهدف لأنه كما يبدو كان سيعتمد على الميل الإيطالي (4,847 قدماً) لتقدير المسافة بين خطوط الطول عند خط الاستواء، بدلاً من الميل العربي (6,481 قدماً). هذا الخطأ البسيط بين طولين مختلفتين للميل الواحد كان سيجعل كولومبس يقلل تقديره للمسافة بحوالي 25٪. لكن لأن كولومبس اعتمد على التقديرات الخاطئة فلا غرابة في أنه ظن أنه وصل إلى الهند بينما هو في سان سلفادور في الثاني عشر من أكتوبر 1492.

إن كولومبس لم يكن مخطئاً فقط فيما يتعلق بالمسافة بين أوروبا والشرق باتجاه الغرب، وإنما كان مخطئاً أيضاً في افتراضه بأنه نزل في الهند وأن السكان الأصليين كانوا «هنوداً». وأهم من ذلك فيما يتصل بما نناقشه هنا أن كولومبس لم يكن أول المستكشفين من العالم القديم في الوصول إلى أمريكا.

ج. المسلمون الأندلسيون في أمريكا

ج1. شبه الجزيرة الأيبيرية قبل الإسلام

كانت شبه الجزيرة الأيبيرية، أو إسبانيا والبرتغال في الوقت الحاضر، طوال تاريخها مكاناً لموجات متتالية من الغزاة. أول المستوطنين في شبه الجزيرة كانوا الأيبيريين، والسلت، والباسك. هذه الجماعات الثلاث تعرضت للزعزعة الجزئية على يد الفينيقيين واليونان والقرطاجيين.

---

(1) عرف توسكانيلي (Toscanelli 1397 – May 10 ،1482) بأنه عالم رياضيات وفلكي لكنه تخرج من جامعة بادوا بإيطاليا بدرجة في الطب (المترجم).

بدأ الفينيقيون بالاستيطان في شبه الجزيرة حوالي 800 ق.م. غير أن مستوطناتهم مثل «غادير» (كادز) كانت في الأساس محدودة بكونها على مساحات ساحلية صغيرة. وبحلول 575 ق.م. أسس اليونانيون مستوطنتين صغيرتين على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة. أما القرطاجيون القادمون من شمال إفريقيا فقد غزوا الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة ابتداءً من 237 قبل الميلاد ضمن استعداداتهم للحروب البونيقية[1] ليؤسسوا عاصمة لهم عند «كارتاغو نوفا» (قرطاجة الجديدة) عام 228 قبل الميلاد. وللرد على التهديد القرطاجي بدأت الإمبراطورية الرومانية تفرض نفسها على شبه الجزيرة الأيبيرية عام 218 ق. م.، وهزمت القرطاجيين في شبه الجزيرة عام 206 ق.م.، ثم فرضت سيطرتها الكاملة على شبه الجزيرة في العام التاسع عشر ق.م.

ومع ذلك فإن موجات الغزو لشبه الجزيرة لم تتوقف عند ذلك الحد. بحلول القرن الخامس كان الحكم الروماني ينهار عبر معظم أوروبا. هنا جاء دور القبيلة الجرمانية المعروفة بالفاندال مستغلة تضعضع القوة الرومانية ومبتعدة عن ضغط قبائل الهون القادمة من الشرق. غزا الفاندال شبه الجزيرة الأيبيرية عام 409م، ونتيجة لذلك سمي المكان «فاندالوسيا» التي اشتق منها الاسم «أندالوسيا». غير أن حكم الفاندال كان قصيراً نسبياً فلم يتجاوز العام 429. ترك الفاندال عندئذٍ شبه الجزيرة واتجهوا عبر المتوسط إلى شمال إفريقيا حيث أسسوا مملكة استمرت حتى العام 534.

في منتصف القرن الخامس أسست قبيلة جرمانية أخرى هي قبيلة القوط مملكة إلى الجنوب من بلاد الغال (فرنسا) وغزوا شبه الجزيرة الأيبيرية من الشمال. في عام 507 طرد الفرانك القوط من جنوب فرنسا ما أدى إلى توغل القوط في شبه الجزيرة وتأسيسهم عاصمة في طليطلة. استمرت مملكة القوط حتى العام 711.

كانت هناك عوامل عدة أدت إلى دمار مملكة القوط، العامل الرئيس بينها كان الاضطهاد الديني. ومن هذه الناحية ينبغي ملاحظة أن القوط كانوا في البدء مسيحيين آريين، أي أنهم

---

(1) الحروب البونيقية Punic Wars هي ثلاث حروب دارت بين روما وقرطاجة ونتجت عن توسع الإمبراطورية الرومانية وسيطرتها على العالم القديم (المترجم).

كانوا مسيحيين يرفضون قداسة عيسى المسيح ويرونه ابناً «متبنىً» لله.[1] ومن هنا فقد سعى ملك القوط ليوفيغيلد عام 570، بكل العنف الذي يمكن للتشدد الديني أن يولده، لفرض المذهب الآري على المسيحيين الأخرين في شبه الجزيرة سواء كانوا روماً كاثوليك أو أرثوذكساً كاثوليك. وكان من الطبيعي أن يولد ذلك تذمراً واسعاً بين السكان غير القوطيين في شبه الجزيرة، فأدت تلك المحاولات القوطية إلى نتائج معاكسة حين تحول ابن ليوفيغيلد، ريكاريد إلى مذهب الروم الكاثوليك.

غير أن التشدد والاضطهاد الديني اللذين ابتدآ في مملكة القوط لم يكونا محصورين ما بين المسيحيين. كان هناك سكان من اليهود يعيشون على شبه الجزيرة الأيبيرية صاروا هم أيضاً هدفاً للاضطهاد الديني من قبل حكامهم المسيحيين. ففي عدة مناسبات دعا المسؤولون المسيحيون إلى التعميد القسري لكل طفل يهودي في المملكة. أما من يرفض من الأهالي الانصياع لتلك الأوامر فكان عقابه أن يؤخذ منهم الأطفال ويعطون لعائلات مسيحية. وثمة أدلة إضافية على الاضطهاد الذي مورس في المملكة القوطية ضد اليهود في مجموعة القوانين المعروفة بـ «فورَم جوديكم» التي سنت ما بين 649 و652. ففي عدد من تلك القوانين منع اليهود من الاحتفال بعيد الفصح اليهودي [الباسوفر]، أو أن يتزوجوا من خارج دينهم، أو أن يمارسوا شعيرة الختان، أو أن يتمسكوا بالقوانين اليهودية المتعلقة بالطعام، أو أن يشهدوا ضد مسيحي في المحكمة، أو أن يساعدوا مسيحياً على اعتناق اليهودية بأي شكل من الأشكال. بالإضافة إلى ذلك تضمنت القوانين أن المسيحيين ممنوعون من الدفاع عن اليهود أو حمايتهم.

عامل آخر أدى إلى سقوط المملكة القوطية كان الصراع على ولاية العهد. بعد موت الملك ويتزيا عام 710 قام الدوق لوذريق بالاستيلاء على الحكم من أكيلا، ابن ويتزيا. لكن عائلة ويتزيا لم تقبل ذلك وخططت للانتقام.

---

(1) يشير اسم «الآرية» هنا إلى تعاليم القس المسيحي آريوس الذي عاش ما بين القرنين الثالث والرابع وفسر فيها طبيعة المسيح على نحو يخالف ما تراه المذاهب المسيحية الأخرى، وقد عدت تلك المذاهب آريوس مهرطقاً أو كافراً (المترجم).

هكذا تطلعت مجموعتان مختلفتان، اليهود المضطهدون في شبه الجزيرة الأيبيرية وعائلة الملك ويتزيا، جنوباً عبر مضيق جبل طارق إلى المسلمين في شمال إفريقيا. أرسلت المجموعتان مبعوثين إلى موسى بن نصير، حاكم شمال إفريقيا من قبل الخليفة الأموي في دمشق طالبين منه غزواً إسلامياً لشبه الجزيرة الأيبيرية. أوكل موسى بن نصير المهمة لطارق بن زياد فأرسلت فرقة استكشافية عام 710. وحين عادت تلك الفرقة بتقرير مشجع عبر طارق بن زياد المضيق، تعاونه عائلة ويتزيا ويهود شبه الجزيرة بالإضافة إلى الحاكم المسيحي لمدينة سبتة. ويذكر أن طارق عند نزوله قال لجنوده: «البحر من ورائكم والعدو أمامكم». كان ذلك في أبريل أو مايو من عام 711، حين بدأ الغزو الإسلامي لشبه الجزيرة الأيبيرية.

في يوليو من عام 711 هزم الجيش الإسلامي وحلفاؤه جيش الملك لوذريق والجيش القوطي هزيمة حاسمة، وفي فترة قصيرة كان جيش طارق بن زياد يواصل تقدمه إلى الشمال ويصل إلى طليطلة في شتاء 711. وفي العام التالي قاد موسى بن نصير جيش إسلامياً ثانياً إلى شبه الجزيرة الأيبيرية فلم يأت عام 714 حتى كان معظم شبه الجزيرة تحت السيطرة الإسلامية.

ج 2. الأندلس الإسلامية

يمكن تقسيم تاريخ الأندلس الإسلامية إلى سبع مراحل تمتد على القرون المتصلة ما بين 711 و1492. المراحل الثلاث الأولى تتسم بتزايد هيمنة المسلمين وقوتهم على طول شبه الجزيرة الأيبيرية، في حين تتسم المراحل الأربعة الأخيرة بالانحدار االسياسي والعسكري للأندلس الإسلامية.

الفترة التي ساد فيها المسلمون في الأندلس هي الممتدة ما بين 711 و1031. ويمكن تحديد ثلاث مراحل من التطور ضمن تلك المحددات الزمنية.

(1) الأعوام من 711 حتى 756 تمثل المرحلة الأولى المعروفة بالإمارة التابعة. أثناء تلك المرحلة الأولية كانت الأندلس إقليماً تابعاً للخلافة الأموية في دمشق (سوريا)، مع

أن التوسع الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية وغرب أوروبا استمر حتى هزم الجيش الإسلامي من قبل شارل مارتيل في معركة تورز (فرنسا) [بواتييه أو بلاط الشهداء].

(2) المرحلة الثانية، التي امتدت من 756 حتى 929 هي المعروفة بالإمارة المستقلة. تلك الإمارة هي إمارة الأندلس المستقلة التي أسسها الأمير عبد الرحمن الأول الذي كان أحد أفراد العائلة المالكة الأموية في دمشق والذي استطاع أن يهرب من الشرق الأوسط أثناء الحرب الأهلية التي استطاعت الخلافة العباسية في بغداد أثناءها أن تقتلع الخلافة الأموية في دمشق لتصير العائلة الحاكمة في الشرق الأوسط الإسلامي. أثناء هذه المرحلة الثانية كانت الأندلس تحكم بوصفها مملكة من قبل عبد الرحمن الأول وأحفاده.

(3) المرحلة الثالثة من الأندلس الإسلامية تمتد من 929 حتى 1031 وتمثلت في الخلافة الأموية في الأندلس. هذه المرحلة بدأت حين أعلن عبد الرحمن الثالث، وهو من الجيل السابع بين أحفاد عبد الرحمن الأول، نفسه خليفة وقطع آخر الصلات بين الأندلس والخلافة العباسية في بغداد.

الخلافة الأموية في الأندلس انتهت عام 1031 وكان ذلك إيذاناً ببدء الانحدار للهيمنة الإسلامية السياسية والعسكرية على الأندلس. ويمكن تحديد المراحل من الرابع حتى السابع بأنها تمثل تلك المرحلة من الانحدار.

(4) اتسمت الأعوام من 1031 حتى 1086 بصراعات داخلية متقطعة وحرب أهلية على طول الأندلس الإسلامية. ظهرت أثناء ذلك عدة ممالك إسلامية (مثل ملقة وإشبيلية وقرطبة) وبدأت مملكتا ليون وقشتالة المسيحيتان توسعان حدودهما في الأندلس.

(5) رداً على التهديد القادم من مملكتي ليون وقشتالة دعى المسلمون الأندلسيون سلالة المرابطين في شمال إفريقيا لغزو شبه الجزيرة الأيبيرية. نجح الغزو وأعاد المرابطون تأسيس سلطتهم المركزية فحكموا ما بين 1086 و1147.

(6) بعد ذلك جاء دور المرابطين ليرحلوا ويحل محلهم الموحدون القادمون من شمال إفريقيا. حكم الموحدون الأندلس الإسلامية ما بين 1147 وحتى 1212، غير أن حكمهم انهار وحلت محلهم ممالك صغيرة لتحكم الأندلس ما بين 1212 و1492. أخيراً هزم آخر الحكام المسلمين عام 1492 على يد الملك فرديناند والملكة إيزابيلا، اللذين رعيا رحلة كرستوفر كولومبس.

لقد ظلت الأندلس الإسلامية عبر تاريخها، سواء إبان قوتها المتعاظمة وحتى انحدارها فيما بعد، نبراساً يشع العلم والثقافة في أوروبا التي كانت تبدأ للتو في الخروج من العصور المظلمة. سواء في الزراعة أو العمارة أو الأدب أو العلم كانت الأندلس تستبق عصر النهضة الأوروبي. كانت قرطبة مثلاً أكبر مدن أوروبا وأكثرها تحضراً أثناء الحكم الإسلامي للأندلس. كان حريرها ومطرزاتها المعقدة ومجوهراتها ومصنوعاتها الجلدية هي ما تنتظره أوروبا والشرق الأوسط بلهفة. أما كتبتها فقد أحيوا وحفظوا بترجماتهم العربية أعمال المؤلفين اليونانيين، مثل أفلاطون وأرسطو.

كانت الأندلس الإسلامية أيضاً أنموذجاً رائعاً للحوار بين الأديان. استطاع دارسو الدين وعلماؤه فيها، سواء كانوا يهوداً أم مسيحيين أم مسلمين، أن يحققوا تقدماً مهماً في التفاهم الديني وفي التعاون في المجالات المتصلة بالدين. ففيما يتصل بالنقطة الأخيرة، لا يحتاج المرء إلى أكثر من استحضار أن شخصيتين هما أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد (أفيرّوس، 1126–1198) وأبو عمران موسى بن ميمون بن عبيد الله (ميمونيديس، 1135–1204) كانا يقيمان في قرطبة إبان القرن الثاني عشر. كان الأول يمثل الإسلام والثاني اليهودية، وكان كل منهما شخصية شامخة في تطور اللاهوت الفلسفي أثناء العصور الوسطى. فضلاً عن ذلك فإن مقارنة النقاط الثماني المتعلقة بالدين الإسلامي التي طورها ابن رشد بالثلاث عشرة نقطة التي طورها ابن ميمون فيما يتعلق باليهودية ستوضح أن الأول ترك أثراً على تفكير الثاني.

أمثلة أخرى من الزمالة والتعاون عبر الأديان في الأندلس الإسلامية نجدها لدى عالم

اللاهوت المسيحي الشهير هارفي كوكس. من تلك الأمثلة يورد كوكس التالي:

(1) تحت رعاية الأسقف ريموند الإشبيلي كان الباحثون المسلمون بأعمتهم، وأحبار اليهود بلحاهم، والرهبان المسيحيون بأروابهم، يتحلقون جميعاً على طاولة يتدارسون ويقرؤون مخطوطات قديمة.

(2) الخليفة عبد الرحمن الثالث، حاكم الأندلس من 912 حتى 961، عين حسائي بن شبروت، وهو باحث وطبيب وحبر يهودي ليكون وزير خارجيته.

(3) «الكوميديا الإلهية» لدانتي تأثرت بمصادر عربية.

(4) علم اللاهوت لدى القديس جون الصليبي تأثر تأثراً عميقاً بالتصوف الإسلامي.

بالنظر إلى هذه الروائع التي أنتجتها الأندلس الإسلامية، لن يكون من المدهش أن نكتشف أن مسلمي الأندلس ربما كانوا أيضاً قادة للعالم في الإبحار عبر المحيطات، كما في اكتشافها واستكشافها. فيما يلي نجد ثلاث روايات تصف رحلات لمسلمي الأندلس نحو أمريكا.

ج3. أولى الرحلات المسجلة[1]

أبو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي (871–957) مؤرخ وجغرافي وعالم أندلسي شهير ألف حوالي عام 956 كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» متضمناً التوثيق المكتوب الأول لأول اتصال إسلامي بالأمريكتين. كتب المسعودي عن رحلة كبرى من رحلات الاكتشاف تمت أثناء عهد الخليفة عبد الله بن محمد (888–912)، الحاكم الأموي على الأندلس. في عام 889 أبحر خشخش بن سعيد بن أسود، أحد سكان قرطبة الأندلسية، غرباً عبر المحيط الأطلسي مع مجموعة من البحارة المسلمين من ديلبا (بالوس)، الميناء الذي سيبحر منه كولومبس بسفنه الثلاث بعد ستمائة عام. وبعد رحلة طويلة وجد خشخش عالماً جديداً أشار إليه المسعودي بـ «الأرض الجديدة». عاد خشخش من رحلته التاريخية ومعه، حسب

(1) المعلومات الواردة في هذا القسم مأخوذة من كويك، أ.هـ. Quick AH (1998) ومروه، و Mroueh. Y (1996).

ما ذكر، غنيمة ضخمة حصل عليها كما يفترض من التجارة وفتحه للأمريكتين.

ج4. الرحلة المسجلة الثانية[1]

توثيق لاتصال آخر بين مسلمي الأندلس والأمريكتين يمكن العثور عليه في أعمال أبي بكر بن عمر القوطية. لقد روى القوطية قصة حول ابن فروخ، وهو مسلم من غرناطة، أبحر غرباً عبر الأطلسي إلى قادش عام 999، في عهد الخليفة هشام الثاني (976–1009). ففي فبراير من ذلك العام نزل ابن فروخ، كما ذكر، في جزر الكناري وزار الملك غواناريغا ليواصل بعد ذلك إبحاره غرباً. وبعد مدة اكتشف جزيرتين يفترض أنهما في الكاريبي أسماهما كابراريا وبلويتانا. ثم عاد بعد ذلك إلى إسبانيا في مايو 999. ومن المتوقع أن رحلته التي دامت من ثلاثة إلى أربعة أشهر مكنته من الوصول إلى الأمريكتين ثم العودة إلى أوروبا.

ج5. الرحلة المسجلة الثالثة[2]

إضافة إلى ما سبق يمكن التعرف على اتصال ثالث بين مسلمي الأندلس والأمريكتين في كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للشريف أبي عبد الله محمد الإدريسي (القرن الثاني عشر)، الجغرافي والطبيب العربي الشهير الذي كان أيضاً مستشاراً في بلاط روجر الثاني ملك صقلية. كتب الإدريسي حول مجموعة من ثمانية بحارة مسلمين من شمال إفريقيا أبحروا نحو الأطلسي من لشبونه (في البرتغال) التي كانت حينئذٍ جزءا من الأندلس. كانت رحلتهم معبأة بما يكفيهم من المؤونة لعدة أشهر. وبعد أن أبحروا لما لا يقل عن 31 يوماً وصل القارب إلى جزيرة غير معروفة كانت أيضاً من جزر الكاريبي كما يفترض. هناك تعرضوا مباشرة للأسر على يد قبيلة من الهنود، فقيدوا واحتفظ بهم أسرى لمدة ثلاثة أيام. في اليوم الرابع ظهر مترجم يعرف العربية! ساءل المترجم البحارة ورتب فيما يبدو نقلهم إلى قبيلة

(1) المعلومات الواردة في هذا القسم مأخوذة من Quick AH (1998) وMroueh Y (1996).

(2) المعلومات الواردة في هذا القسم مأخوذة من Quick AH. (1998) Mroueh Y. (1996).

أخرى من الهنود. تطلب ذلك النقل رحلة على زورق لمدة ثلاثة أيام. أطلق عندئذٍ سراحهم ووضعوا على قارب وأخبروا أن بلادهم تقع على بعد شهرين إلى الشرق. بعد ذلك وصلوا إلى الأندلس.

من الجوانب المدهشة في قصة الإدريسي ظهور مترجم يعرف العربية بين الهنود. حضور شخص كذاك يوحي بتاريخ طويل وإن كان قد نسي من الاتصال الإسلامي الهندي. العربية لغة يصعب امتلاكها ووجود هندي يتحدث العربية يشترط وجود اتصال بين أولئك الهنود والمسلمين العرب، ربما كانوا تجاراً من غرب إفريقيا.

ج6. تلخيص ونتائج

بعيداً عن القصص المختصرة التي وردت أعلاه، هناك القليل من الأدلة التي بقيت لتشير إلى وجود مسلمي الأندلس في أمريكا. ومع ذلك فإن غياب الأدلة ليس دليلاً على الغياب. ففي النهاية هناك القليل من الأدلة الآثارية في الأمريكتين لإثبات أن كولومبس وصل بالفعل إلى هنا، مع أنه ليس ثمة شك في أنه قد فعل.

د. الأفارقة المسلمون في أمريكا

د1. رحلة من المغرب

في عام 682 سار جيش إسلامي بقيادة عقبة بن نافع غرباً عبر شمال إفريقيا نحو ما يعرف اليوم بالمغرب. سار الجيش حتى وصل الأطلسي، متجهاً جنوباً إلى حد سوس ودراع فيما يعد الآن جنوب المغرب. وتعد تلك الأحداث بداية الحكم الإسلامي للمغرب، وبحلول العام 705 كان المغرب ولاية إفريقية تتبع للخلافة الأموية في دمشق.

على مدى عدة قرون تلت تعاقبت على المغرب عدة عائلات إسلامية حاكمة. في السنوات التي تلت 740 صار المغرب جزءاً من إمارة بني مدرار السجلماسي. وفي أوائل

القرن التاسع صار معظم المغرب تحت سيطرة الأدارسة الفاسيين، وهي عائلة تدّعي الانتساب للرسول محمد. في عام 921 غزا الفاطميون من مصر الأدارسة، والفاطميون أيضاً كانوا يدّعون الانتساب للنبي محمد. بعد ذلك وبدءاً من عام 1056 بدأ المرابطون غزوهم للمغرب. ثم تحول المغرب ما بين عام 1133 و1147 تدريجياً ليصير تحت سيطرة الموحدين. في منتصف القرن الثالث عشر نجح المرينيون في الحلول محل الموحدين حكاماً للمغرب.

يوثق عدد من المصادر العربية رحلة قامت من جنوب المغرب إلى الأمريكتين أثناء حكم الملك أبي يعقوب سيدي يوسف المريني (1286—1307). وحسب تلك المصادر فإن الشيخ زين الدين علي بن فاضل المزندراني أبحر غرباً نحو الأطلسي من الطرفية عام 1291. وبعد رحلة طويلة نزل في «الجزيرة الخضراء»، التي يفترض أنها في البحر الكاريبي، ثم عاد بعد ذلك إلى المغرب. لكن البقايا الآثارية لهذه الرحلة بالتحديد هي، مرة أخرى، إما غير موجودة أو لم تكتشف بعد.[1]

د2. مملكة مالي الإسلامية الماندينكاوية

ازدهرت التجارة ما بين غرب إفريقيا والتجار المسلمين من شمال الصحراء الكبرى في فترة مبكرة تعود إلى القرن الثامن. وأمام إغراء التجارة بالذهب والملح أسست طرق القوافل عبر الصحراء الكبرى اتصالات تجارية مابين التجار المسلمين ونظرائهم غير المسلمين في كومبي، عاصمة مملكة غانا غرب إفريقيا، التي كان يحكمها شعب السونينكي. غير أن الذهب والملح لم يكونا مادتي الاتجار الوحيدة في أسواق كومبي. إلى جانب تلك كانت الأفكار والمعرفة تنتقل من يد إلى أخرى أيضاً. فعلى سبيل المثال أدخل التجار المسلمون إلى غرب إفريقيا أول نظام للكتابة وأول معرفة بالأرقام، ولم يطل الوقت حتى تبنى شعب غرب إفريقيا نظام الكتابة العربي.

وكما ينبغي أن نتوقع فإن ضخ العرب للمعرفة في غرب إفريقيا لم يكن وقفاً على الكتابة

---

(1) Mroueh Y (1996).

والأرقام. لقد تضمن أيضاً العقائد والممارسات الدينية، الأمر الذي أدى إلى أن يجد الإسلام موطئ قدم بين معتنقيه من الغانيين. ومع الزمن بدأ المعتنقون يتكاثرون وبدأ الانتشار الحتمي للإسلام بين السكان المحليين في غرب إفريقيا. لكن المعتنقين لم يكونوا سوى عامل واحد بين عوامل أخرى أدت إلى تنامي الإسلام في تلك المنطقة. عامل آخر كان هجرة العرب المسلمين من شمال الصحراء إلى هناك.

نتيجة لدخول أنظمة الكتابة والأرقام العربية إلى غرب إفريقيا ازدادت في مملكة غانا الاستعانة بالعرب من شمال الصحراء ليصيروا مسؤولين حكوميين، الأمر الذي منح غانا سكاناً من العرب المسلمين. وبحلول القرن العاشر كان التجار العرب المسلمون من شمال الصحراء قد تحولوا إلى مقيمين دائمين في كومبي لتقسم المدينة إلى أحياء مسلمة وأخرى غير مسلمة. وقد أدى وجود السوق الرئيسي لكومبي في الحي المسلم إلى ازدهار ذلك الحي. ثم تميز الحي بعنصر آخر تمثل في مبانيه السكنية التي كانت غالباً من طابقين في حين كانت مباني الحي الآخر من الطين والخشب. يضاف إلى ذلك اثنا عشر مسجداً ما لبثت أن ملأت المشهد.

طوال تلك الفترة التي تسارع فيها انتشار الإسلام وهجرة المسلمين ظلت مملكة سونينكي في غانا غير مسلمة، باستثناء فترة وجيزة امتدت ما بين 1076 و1087 استولت فيها حركة المرابطين على الحكم من السونينكي. ولكن ملوك السونينكي حين استعادوا الحكم كانوا قد ضعفوا بشكل حاد بالإضافة إلى أنهم كانوا يحاولون السيطرة على مناطق يكثر فيها السكان المسلمون.

على حدود غانا الشرقية كان الماندينكا بحلول القرن الثاني عشر قد تحولوا جميعاً إلى الإسلام وازدادوا بالتدريج ثراء وقوة سياسية. في النهاية، وكما كان سيحدث حتماً، شكل الماندينكا تهديداً سياسياً حقيقياً للسونينكي لينتهي ذلك أخيراً في معركة كيرينا عام 1203، باستيلاء الملك سوندياتا من الماندينكا على مملكة غانا وتأسيسه عاصمة جديدة في نياني على نهر النيجر لتكون عاصمة لإمبراطورية مالي الإسلامية في غرب إفريقيا. تلك الإمبراطورية

أثبتت سريعاً تفوقها على مملكة السونينكي السابقة بما حصلت عليه من ثراء نتيجة لطرق التجارة عبر الصحراء الكبرى وعلى طول نهر النيجر، وكذلك بسبب مناجم الذهب في بيور وونغارا.

كانت مدينة تمبكتو دون شك أكثر مدن مملكة الماندينكا في مالي شهرة. فبعد بداية متواضعة كبلدة صغيرة عام 1100 بلغت تمبكتو بسيطرة مالي عليها حوالي عام 1325 مبلغاً ضخماً من الحجم والشهرة. فمع أن أهمية تمبكتو الاقتصادية كانت ثانوية قياساً لدورها كمحطة للقوافل ومكان للصناعة وملتقى للتجارة والتصدير، فإن عظمتها تجلت بتحولها إلى مركز للمعرفة. مكتباتها، التي بلغت مجلدات بعض الخاص منها ما يزيد على السبعمائة مجلد، ومدارسها التي نيفت على 150 أثناء القرن السادس عشر، وجامعتها في مسجد سانكور، كل تلك اجتذبت الطلاب والباحثين من أماكن لا تقل بعداً عن بلاد العرب. في تلك المؤسسات الأكاديمية كان الطلاب يتلقون الدراسات الإسلامية (القرآن، والتفسير، والعقيدة، وعلوم الحديث، والفقه) إلى جانب النحو، والأسلوب الأدبي، والبلاغة، والمنطق، والتاريخ، والرياضيات، والفلك، والخرائط. وأدى النظام التعليمي المنفتح إلى أن يتعلم الجميع على الرغم من أية صعوبات مالية.

بالنظر إلى المجد الاقتصادي والعلمي الذي حققته تمبكتو فقد لا يكون من الغريب أن نجد إنجليزياً مثل رتشارد جوبسون يكتب عام 1620 أن سقوف المنازل في تلك المدينة كانت مغطاة بصفائح الذهب وأن قيعان الأنهر كانت تلمع بشمس ذهبية.

د3. مانسا موسى

بلغت مالي أوج قوتها ومجدها تحت حكم مانسا كانكان موسى الأول، الذي كان مسلماً تقياً حكم 25 عاماً بدأت إما عام 1307 أو عام 1312 (هناك اختلاف بين الباحثين حول التاريخ الدقيق). ما بلغه موسى شخصياً وبلغته مالي في عهده من نجاح يمكن تبينه من الروايات التي تضمنت تفاصيل رحلته للحج إلى مكة عام 1324. حسب تلك الروايات، كان يرافق موسى

ما لا يقل عن 60 ألفاً من البشر وألف من الجمال التي تحمل المؤونة، بالإضافة إلى 80 إلى 100 من الجمال التي حمل كل واحد منها بمائة رطل من الذهب.

لو قدرنا أونصة الذهب بتقديرها الحالي البالغ 600 دولار لكل أونصة من الذهب وعلى افتراض أن كل واحد من تلك الجمال المائة حمل مائة رطل من الذهب فإن مجموع الثروة التي يمثلها الذهب وحده في قافلة مانسا موسى يعادل 96 مليون دولاراً من العملة الأمريكية المعاصرة. ومن هنا فإن من غير المستغرب أن الروايات المتعلقة بذلك الحج تشير إلى أن اقتصادات عدة دول قد تغيرت جذرياً بمرور قافلة مانسا موسى عبرها.

ومع ذلك فإن ما خلفته حملة موسى للحج لم تكن مقتصرة على الذهب والثروات الاقتصادية. لقد قامت تلك الحملة أيضاً بنشر المعلومات الضرورية لإدراك دور المسلمين في التاريخ الأمريكي على النحو الذي سجله شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فضل العمري (1384–1300).

د4. رحلات الماندينكا البحرية[1]

كان شهاب الدين العمري جغرافياً عربياً تمكن من جمع معلومات ريادية من مصادر متنوعة ومن مخبرين مختلفين. في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، ترك العمري رواية مثيرة نقلها عن ابن عامر حاجب، حاكم القاهرة. روى ابن عامر حديثاً جرى بينه وبين مانسا موسى عام 1324 أثناء رحلة موسى عبر القاهرة إلى الحج.

ذكر السلطان موسى أن أخاه أبا بكاري الذي سبقه على عرش مالي (1285 حتى 1307 أو 1312) قد سمح بقيام رحلتين عبر الأطلسي. الرحلة الأولى تضمنت 400 سفينة مائتان منها محملة بطعام وماء وذهب يكفي البحارة لعدة سنوات. أرسل ذلك الأسطول مع تعليمات بألا يعود إلا وقد وصل إلى الحد الأقصى من المحيط أو أن يكون الطعام والماء قد انتهيا.

---

(1) Numan FH (---). Muhammad ANA (2001). Mroueh Y (1996). Quick AH (1998). Smallwood AD (1999). and Shelton SM (---).

وبعد مرور مدة طويلة من الزمن لم يعد سوى سفينة واحدة. ذكر قبطان تلك السفينة أن سفينته انفصلت عن السفن الأخرى بفعل تيار بحري، والأقرب أن يكون ذلك هو التيار الاستوائي الشمالي أو تيار الأنتيل، الأمر الذي يعني أنه أثناء وصول السفينة العائدة كانت السفن الأخرى المبحرة من مالي قد اقتربت من أمريكا وهو ما يثير الدهشة.

عندئذٍ أمر السلطان أبو بكاري ببناء أسطول من 2000 سفينة استعمل نصفها في المقام الأول لحمل المؤونة. كانت تلك المؤونة من الوفرة بحيث تضمنت كما يبدو فيلة إفريقية أخذت لتكون حيوانات يستفاد منها في الأشغال وفي الشؤون الحربية. ثم أبحر الأسطول عبر الأطلسي إما عام 1307 أو عام 1311 تحت إمرة السلطان أبو بكاري. لكن ذلك الأسطول لم يعد.

د5. الماندينكا في أمريكا[1]

يمكن الاستنتاج من نقوش الماندينكا التي ذكر أنها وجدت في البرازيل والبيرو والولايات المتحدة أن رحلة السلطان أبي بكاري كانت ناجحة وأن عدداً كبيراً من الماندينكا نزلوا في العالم الجديد. لو رسمنا مساراً مبنياً على تلك النقوش وعلى الأثر اللغوي للماندينكا على لغات الهنود الحمر إلى جانب الأدوات الأخرى، فسيبدو أن الماندينكا اتصلوا في البدء بالبرازيل بوصفها الأرض الأقرب إلى ميناء غرب إفريقيا الذي أبحروا منه. وجودهم في البرازيل تؤكده رموز منقوشة في باهيا وميناس غيرايس. ومن البرازيل يبدو الماندينكا وقد عبروا أنهار أمريكا الجنوبية قبل أن يمضوا على اليابسة بالاتجاهين الغربي والشمالي.

تحرك الماندينكا إلى غرب البرازيل ليصلوا إلى منطقة بحيرة تيتيكا وبوليفيا. هناك أقاموا صلات امتدت لفترة طويلة مع هنود جزيرة الكواتي ليورثوهم نظام الكتابة بالرموز. لكن العلاقة لم تكن حسنة بين الماندينكا وهنود بوليفيا فقد تعرضوا، كما يبدو، لهجوم أدى إلى مقتل عدد من محاربيهم. غير أن ذلك لم يوقفهم، فاستمروا، كما يبدو، باتجاه الغرب حتى

(1) Quick AH (1998).

وصلوا إلى شواطئ المحيط الهادي بالقرب من يلو في البيرو حيث تركوا كما تشير التقارير نقشاً دينياً بنظام الكتابة الماندينكاوية يتضمن أن هدف الإنسان هو عبادة الله، وأن يصل إلى النضج ثم يموت في النهاية.

أولئك الماندينكا الذين تحركوا من أمريكا الجنوبية عبروا في النهاية أمريكا الوسطى والمكسيك حيث تزاوجوا مع هنود الكاريب الذين اشتق من اسمهم البحر الكاريبي. فمثلاً يبدو أن بعض الماندينكا بقوا في بنما حيث شكل أحفادهم قبيلة مختلفة عرفت بالماندينغ، وهو اسم واضح التحريف عن ماندينكا. وحين مضوا قدماً تحرك الماندينكا نحو ما عرف فيما بعد بالولايات المتحدة حيث وردت تقارير عن اكتشاف نقوش على طول نهر المسيسبي وفي أريزونا. النقوش المشار إليها توحي بأن الماندينكا اعتمدوا على نهر المسيسبي لاستكشاف الجهات الشمالية من الولايات المتحدة امتداداً إلى كندا. هذه المجموعة من الماندينكا ربما تزاوجت مع قبائل الإيروكواز والألغونكوين من الهنود الحمر ثم اندمجت بها. مجموعة النقوش التي وردت الإشارة إليها قبل قليل والتي وجدت في أحد كهوف منطقة «الفور كورنرز»، الجزء الواقع في أريزونا، تصف حرارة الصحراء وتشير إلى أن العديد من الفيلة التي أحضرها الماندينكا مرضت من الجوع.

ج6. ملخص ونتائج

يصعب تقدير التأثير العميق الذي تركه الماندينكا على الأمريكتين، الشمالية والجنوبية. ليس ثمة بقايا آثارية غير قابلة للنقاش فيما يتعلق بوجودهم في الأمريكتين، ومن المؤكد أن الإسلام الذي أتوا به إلى العالم الجديد لم يعش حتى العصر الحالي. ومع ذلك، وكما سيتضح فيما بعد، هناك كم لا بأس به من الأدلة الثانوية التي تؤكد وجود الماندينكا في الأمريكتين.

هـ. المسلمون العثمانيون في أمريكا

هـ1. الإمبراطورية العثمانية

ينسب الفضل في تأسيس الإمبراطورية العثمانية عادة لعثمان الأول، وهو رئيس قبيلة من البدو التركمانيين الرحل يعودون إلى القرن الحادي عشر. قاد عثمان قبيلته المسلمة إلى الأناضول (تركيا الحديثة) في مسعى للهرب من جحافل المغول التي كانت تدفعهم باتجاه الغرب. في بدء التأسيس كان المكان لا يتجاوز منطقة قبلية صغيرة تمتد من إسكايسيهر (دوريلايوم) إلى نيسيا، لكن حدود الإمبراطورية في قمة ازدهارها حكمت عالماً مسلماً اشتمل على ما يعرف الآن بهنغاريا، صربيا، البوسنة، رومانيا، اليونان، أوكرانيا، ألبانيا، العراق، سوريا، لبنان، إسرائيل، الأردن، مصر، شمال إفريقيا حتى الجزائر، ومعظم شبه الجزيرة العربية. غير أن الإمبراطورية العثمانية تفتت عام 1922 لتحل محلها الجمهورية التركية وعدد من الدول المستقلة والمستعمرات الأوروبية.

أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر، تحت حكم السلطان محمد الثاني (1451—1481) والسلطان بايزيد الثاني (1481—1512)، كانت الإمبراطورية العثمانية تزهو بأقوى الأساطيل البحرية في العالم. ذلك الأسطول سيطر بالكامل على شرق المتوسط وكان من المعروف أنه يبحر غرباً حتى إسبانيا بشيء من الانتظام. ومن هنا فإن من غير المستغرب أن نكتشف دلالات خرائطية تشير إلى أن مسلمي الإمبراطورية العثمانية أبحروا إلى أبعد من إسبانيا.

هـ2. خارطة البيري رتز[1]

في أكتوبر من عام 1929 أنجز اكتشاف في غاية الدهشة والدلالة في مكتبة سيرالو في إسطنبول بتركيا. ففي مكان منزوٍ من المكتبة اكتشفت خارطة رسمها في مارس 1513 بحار وخرائطي تركي يدعى بيري محيي الدين رئيس. في تلك الخارطة نجد غرب إفريقيا والمحيط الأطلسي والأمريكتين. غير أن الخارطة مضت إلى أبعد من ذلك. ففي تصويرها للأمريكتين،

(1) Quick AH (1998); Numan FH (---). and Shelton SM (---).

أوضحت الخارطة ملامح جغرافية لم تكن معروفة عندئذٍ في أوروبا المسيحية. فمثلاً نجد في الخارطة وبشكل واضح جبال الأنديز في موضعها الجغرافي الصحيح، مع أنها لم تكتشف في أوروبا حتى جاءت حملة بيزارو عام 1527. أكثر من ذلك، أظهرت الخارطة معرفة بماراجو، وهي جزيرة تقع عند مصب نهر الأمازون لم تكتشفها أوروبا المسيحية حتى عام 1543. بل إن الخارطة تجاوزت ذلك إلى تصوير تعرجات والتفافات نهر أتراتو في كولومبيا بشكل صحيح ولمسافة تقارب الثلاثمائة ميل. وأخيراً عرضت الخارطة وعلى نحو صحيح نهر الأمازون وخطوط الطول والعرض الرئيسة فيما يتصل بإفريقيا والأطلسي والأمريكتين.

كتب بيري روزا أن خارطته بنيت على خرائط سابقة، منها خرائط كولومبس. بيد أن كولومبس لم يستكشف من قبل أرض أمريكا والسمات الطبوغرافية المسجلة للأمريكتين لم تكن معروفة في أوروبا المسيحية عام 1513. إن من الواضح أن المعلومات السابقة التي اعتمد عليها بيري رئيس في رسم خارطته للأمريكتين جاءت من مصادر إسلامية، وعلى الأغلب من مستكشفين عثمانيين غير معروفين سبق لهم أن سافروا براً عبر شمال أمريكا وجنوبها.

هـ3. نتائج

إن من الواضح أن الشواهد المتعلقة بالوجود العثماني في الأمريكتين قبل كولومبس ليست موثوقة في أفضل الحالات. قد تكون المعلومات المسجلة في خارطة بيري رئيس استقيت من رحلات أندلسية أو مغربية أو ماندينكاوية إلى الأمريكتين. بيد أن الأقرب أن العثماني بيري رئيس كان يعتمد على مصادر عثمانية. هذه النتيجة تنسجم مع الدعاوى التركية بأن الرحلات العثمانية إلى الأمريكتين سبقت كولومبس.(1)

(1) Kennedy NB. Kennedy RV (1997).

و. تأكيد من الغرب غير الإسلامي

و1. مقدمة

ثمة قدر مدهش من المعلومات لدى المستكشفين الأوروبيين الغربيين التي تؤكد أسبقية التجار والمستكشفين المسلمين في الوصول إلى الأمريكتين. لكن لسوء الحظ فضل المؤرخون الغربيون في معظم الأحيان أن يتجاهلوا تلك المعلومات لأنها لم تنسجم مع النظرية السائدة حول اكتشاف الأمريكتين والاستيطان بهما من قبل أوروبا المسيحية. ومع ذلك فإن ما نشر مؤخراً من معلومات توثق حضوراً إسلامياً في الأمريكتين قبل كولومبس بوقت طويل يتضمن تأكيداً للمعلومات التي أهملت أو تركت دون تفسير بشأن ذلك الحضور قبل عصر الكشوفات الإسباني.

ولعل أكثر الشهود إلحاحاً بين غير المسلمين فيما يتصل بكون المسلمين ذهبوا إلى أمريكا قبل كولومبس هو كرستوفر كولومبس نفسه بما له من مصداقية استثنائية. ففي مواضع عديدة من النصوص التي كتبها هو وتلك التي كتبها ابنه، فرديناند، وابن أخيه، فرناندو، يقال إن كولومبس قد أكد بشكل مباشر وغير مباشر حضور المسلمين في أمريكا حين وصل إليها.

ف2. الحضور الغرب إفريقي[1]

في الثاني عشر من أكتوبر، 1492 نزل كولومبس في البهاما التي سماها سان سلفادور. لكن الاسم الأصلي للجزيرة كان غواناهاني. كلمة «غوانا» هي تحريف ماندينكاوي للكلمة العربية «إخوانا» التي تعني «إخوة». كلمة «هاني» هي اسم عربي أو إسلامي مألوف. فبالنقل من العربية عبر الشكل الماندينكاوي المحرف إلى الإنجليزية يصبح اسم الجزيرة «أخوان هاني» وهو أول شهادات كولومبس بأن مسلمي غرب إفريقيا سبقوا في الحضور إلى الأمريكتين.

أثناء رحلته الثانية إلى الأمريكتين، أخبر هنود الهسبانيولا كولومبس أن أناساً ذوي بشرة

---

(1) Mroueh Y (1996). Vincent-Barwood A (---). Quick AH (1998). and Smallwood AD (1999).

سوداء سبقوه إلى الجزيرة وتركوا بعض الرماح. تلك الرماح كانت مغموسة بمادة صفراء أطلق عليها الهنود اسم «غوانين»، وهو اسم محرف عن الكلمة الماندينكاوية «غانين» التي تعني «أشابة الذهب»، والكلمة الماندينكاوية محرفة بدورها للكلمة العربية «غنى» (أو ثروة). في عودته إلى أوروبا أخذ كولومبس معه تلك المادة حيث تبين أنها ذهب من عيار 18، ستة من أجزائها فضة وثمانية نحاس، وهي نفس النسبة التي دخلت في صناعة أشابة الذهب كما صنعه علماء المعادن الغرب إفريقيون في غينيا منذ مطلع القرن الثالث عشر.

عند بدء رحلته الثالثة إلى العالم الجديد عام 1498 لاحظ كولومبس في يومياته أن حملته صادفت سفينة محملة بالبضائع يفترض أنها للتجارة. كانت تلك السفينة تغادر غرب إفريقيا وتتجه غرباً باتجاه الأمريكتين. مرة أخرى يبدو ذلك دالاً على أن مسلمي غرب إفريقيا كانوا على اتصال بالأمريكتين على الأقل منذ عهد كولومبس.

في كتابه «حكاية الرحلة الثالثة»، أثبت كولومبس حضوراً سابقاً للماندينكا وغرب إفريقيا في الأمريكتين عندما ذكر أن سكان جزيرة سانتياغو أخبروه أن جزيرة إلى الجنوب الغربي من جزيرة هويغو في كيب فيرديس كانت تأتيها القوارب من غرب إفريقيا وفيها تجار وبضائع للمتاجرة والمقايضة. وفي ملاحظة كولومبس ما يوحي بأنه كان هناك تاريخ من التبادل التجاري المستمر بين المسلمين في غرب إفريقيا وجزر الكاريبي. الشيء الوحيد الغائب عن تقرير كولومبس هو المعلومات المتعلقة بتاريخ تلك التجارة: متى بدأت. هل كانت تجري منذ عقود أم منذ قرون؟ فكما يبدو من التقارير المتعلقة برحلات الغرب إفريقيين إلى الأمريكتين من غير الممكن استبعاد المدة الزمنية الطويلة.

من ناحية أخرى، نجد لدى فرديناند كولومبس، ابن كرستوفر، ما يدعم الأدلة التي تشير إلى حضور الماندينكا في أمريكا ما قبل كولومبس. فقد كتب فرديناند في كتاب «حياة الأدميرال كرستوفر كولومبس» أن والده صادف أناساً سود البشرة في المنطقة التي تعرف الآن بهندوراس.

تأكيد غربي إضافي للحضور الماندينكاوي في أمريكا ما قبل كولومبس نجده في الكتابات

المتبقية من رحلة المستكشف الإسباني فاسكو نونيز دي بالبوا. أحد رواة رحلة بالبوا، واسمه غومارا، لاحظ أن بالبوا حين وصل إقليم كواريكا (بنما) عام 1513 وجد أناساً سود البشرة كانوا أرقاء لملك ذلك الإقليم. ولاحظ غومورا أن أولئك الأرقاء كانوا لا يختلفون في شيء عن الناس الموجودين على طول ساحل غينيا في غرب إفريقيا. من ناحية أخرى، سجل بيتر مارتير، وهو راوٍ آخر من رواة بالبوا، أن محاربين سود البشرة عثر عليهم في جبال إقليم كواريكا. وتضمن وصف مارتير لأولئك المحاربين أنهم أفارقة غرقت سفينتهم وأنهم في أمريكا مع أحفادهم منذ عدة أعوام. ومما يؤكد اكتشاف بالبوا للمسلمين الغرب إفريقيين في العالم الجديد ما ذكره رودريغو دي كولميناريس في كتاب «مذكرة ضد بالبوا». ذكر كولميناريس أن قبطاناً أخبرهم أن أناساً سود البشرة يعيشون في خليج سان ميغيل. يضاف إلى ذلك ما كتبه كثيرون من القرنين التاسع عشر والعشرين بشأن فرع الغاريفونا من قبيلة الكاريب الهندية ذوي البشرة السوداء، مشيرين إلى أن لغتهم تختلف عن لغة الفروع الأخرى من الكاريب وأن تلك اللغة تبدو وكأنها من أصل إفريقي. كما أشاروا إلى أنهم يمتنعون عن أكل لحم الخنزير (وأكل لحم الخنزير محرم في الإسلام)، وأنهم يثمنون الميداليات والمجوهرات ذات الشكل الهلالي (والهلال يستعمل في الغالب رمزاً للإسلام).

أكثر من ذلك، لاحظ الكثير من الشهود أن العديد من الأسماء القبائل في أمريكا الوسطى تبدو كما لو كانت تشير بوضوح إلى أصول ماندينكاوية. في كتابه «بربر أمريكا» يقول غايلز غوفير، مثلاً، أن إحدى القبائل في هندوراس قبل مجيء كولومبس كانت تعرف بالماميس، وهو اسم محرف عن كلمة من الماندينكا تقابل كلمة «إمام» العربية (أي من يؤم المسلمين في الصلاة). هذا بالإضافة إلى أن قبيلة من سود البشرة كانت تقيم في تيغيولسيغالبا بالقرب من الحدود مع نيكاراغوا كانت تعرف باسم «جرس»، وهذا فيما يبدو كان تحريفاً لكلمة الماندينكا «جرة»، وهو اسم قبيلة من الماندينكا كانت تعيش في غامبيا. في فترة قريبة نسبياً هي عام 1861 كتب الأب براسيور دي بوربون في كتابه «بوبول – فوه: كتاب أمريكا القديمة المقدس وأساطيرها»[1] أن السكان المحليين في «دارين» (بنما) يمكن تصنيفهم تحت اسمين

(1) الأب براسور دي بوربون، واسمه الكامل شارل إتيان براسور دي بوربون (1814–1874)، كان قساً فرنسياً =

حسب أصولهم المختلفة: ماندينغا (ماندينكا) وتول.

و3. مساءل عامة[1]

في 21 أكتوبر من عام 1492 سجل كولومبس أثناء رحلته الأولى أنه رأى مسجداً على قمة جبل. في ذلك الوقت كانت سفينته تبحر قريباً من غيبارا على الساحل الشمالي الشرقي من كوبا.

في عام 1498 أرسل كولومبس، وكان في رحلته الثالثة، بعض بحارته إلى الشاطئ على القارة الأمريكية الجنوبية. ووجد بحارته، كما يقال، سكاناً محليين يلبسون قماشاً ملوناً منسوجاً بطريقة متناسقة أشار إليها كولومبس بـ «الميزر»، الكلمة العربية للباس الملتف على الجسد أو الغطاء أو المريلة أو التنورة.[2] هذا اللون من اللباس مشهور في غرب إفريقيا (مع أنه كان موجوداً أيضاً في المغرب والأندلس الإسلامية)، وقد وصف كولومبس اللباس على وجه التحديد بأنه يشبه أغطية الرأس وملابس الخاصرة في غرب إفريقيا المسلمة.

في 31 يوليو من عام 1502 كتب كولومبس أثناء رحلته الرابعة إلى الأمريكتين مسجلاً أنه أثناء إبحاره قبالة سواحل جامايكا قابلته سفينة بمجاديف أكبر من سفينته هو. قال في وصفه لها أنها زورق هائل عرضه ثمانية أقدام تقريباً وفي وسطه قبة مغطاة بالنخل. وحين مرت السفينة على قرب يسمح برؤية ما فيها، ذكر ابن كولومبس فرديناند أن عليها حوالي أربعين رجلاً وامرأة، وحمولة من المعدات، وأدوات نحاسية، وأفران لصهر النحاس. والأكثر غرابة، كما ذكر فرديناند، أن الرجال والنساء على هذه السفينة الغامضة كانوا يلبسون قمصاناً طويلة بلا أكمام وذات ألوان ونقوش زاهية. ثم مضى ليقارن تلك الملابس تحديداً بملابس المسلمين

= باحثاً في التاريخ ومتخصصاً في تاريخ الحضارات القديمة في أمريكا أسهم بشكل أساسي في إحياء الاهتمام بتلك الحضارات، وكتاب «بوبول فوه» هو الكتاب المقدس لـ «الكيش» Quiche من شعب المايا الذي ترجمه شارل إتيان إلى الفرنسية (المترجم).

(1) Muhammad ANA (2001). Mroueh Y (1996). Quick AH (1998). Kennedy NB. Kennedy RB) (1997).

(2) من الواضح أن المقصود هو «المئزر» (المترجم).

في غرناطة بالأندلس ويقابل بينها وبين الملابس التي رأى الأمريكيين الهنود يلبسون. عندئذٍ أكد القول بالوجود الإسلامي بالإشارة إلى أن النساء على السفينة كن يرتدين غطاء للوجه مثلما تفعل نساء المسلمين. فمن المؤكد أن هذا الوصف لا ينطبق على اللباس التقليدي للهنود الأمريكيين، في حين أنه ينسجم تماماً مع ما هو معروف عن اللباس التقليدي للمسلمين.

معلومات أخرى تضمنتها رحلة كولومبس الرابعة تشير إلى وجود إسلامي في أمريكا سابق لرحلاته. من الأمثلة على ذلك أن بحارة كولومبس حين نزلوا في جزيرة غواديلوب وجدوا إبريقاً حديدياً وسارية خلفية لسفينة في كوخ أحد السكان، وفي وصف ذلك الصاري قيل أنه بدا كما لو أنه جاء من سفينة أوروبية (الأندلس؟) وأن من غير الممكن أن تكون السارية من سفينة «سانتا ماريا» التي سبق أن غرقت، لأن «سانتا ماريا» غرقت في مكان أبعد من أن يمكن الإتيان بشيء منها إلى الكوخ. (كانت «سانتا ماريا» قد غرقت قبالة ساحل هايتي أثناء رحلة كولومبس الأولى وكانت قد فككت لتوفير الخشب لبناء حصن على تلك الجزيرة. وتقع جزيرة غواديلوب على مسافة تزيد عن 400 ميل إلى الجنوب من هسبانيولا، في حين تقع هايتي على الجزء الغربي من جزيرة هسبانيولا). فوق ذلك يصف ابن أخ كولومبس، فيرناندو، الذي شارك في رحلة كولومبس الرابعة، مواجهة مع «هنود» رسموا نقوشاً على أيديهم وأجسادهم على طريقة الموريسكيين.

قبل مضي وقت طويل على رحلات كولومبس وصف هيرنان كورتيز، المستكشف والفاتح الإسباني، ملابس بعض النساء الهنديات اللاتي قابلهن قائلاً إنها تتألف من خمر طويلة. وأضاف واصفاً ملابس بعض الرجال الهنود قائلاً إنها سروال قصير وأغطية برسوم تشبه رسوم الستائر الموريسكية. ويتفق هذا مع وصف فرديناند كولومبس في «حياة الأدميرال كرستوفر كولومبس» لبعض الهنود الذين يلبسون السراويل القصيرة ذات التصاميم المشابهة وقطعة القماش التي تشبه الشال الذي تلبسه النساء المسلمات في غرناطة بالأندلس.

دلائل إضافية، وإن كانت ثانوية، يمكن العثور عليها في خريطة تركتها حملة فرنسية إلى فلوريدا عام 1564. في تفاصيل هذه الخريطة أسماء توحي بمستوطنات إسلامية مبكرة. تظهر

هذه الخريطة اسماء مثل: ميار كا (مايوركا)، كاديكا (قادش)، ومراكو (مراكش)، وهذه كلها أسماء عربية/إسلامية.

و4. نتائج

ترسم التقارير والملاحظات السابقة التي قدمها غربيون غير مسلمين نسقاً متصلاً من الأدلة التي توحي بوجود إسلامي في أمريكا ما قبل كولومبس. هذه الأدلة تكون قوية بشكل خاص حين تتصل بالماندينكا من أهالي غرب إفريقيا إذ تؤكد وصولهم إلى العالم الجديد قبل كولومبس.

ز. تأكيد آثاري

حتى هذه اللحظة ليس في السجل الآثاري سوى القليل من الأدوات التي تؤكد وجود المسلمين في أمريكا ما قبل كولومبس. غير أن غياب الأدلة الكافية ينبغي أن يقيم بالمقارنة مع ما يوازي ذلك من قلة البقايا الآثارية التي عثر عليها لرحلات كولومبس الأربع إلى العالم الجديد. وباختصار، غياب الأدلة ليس دليلاً على الغياب، لاسيما إزاء الكم الضخم من المعلومات التاريخية التي توثق الوجود الإسلامي في أمريكا قبل كولومبس. فضلاً عن ذلك، فإن ثمة بقايا آثارية قاومت عوادي الزمن وتوفر بالفعل أدلة داعمة للوجود الإسلامي السابق لكولومبس.

كما سبقت الإشارة فقد اكتشفت رموز للماندينكا في الأمريكتين الشمالية والجنوبية على حد سواء وفي هذه الأدلة من الكتابات الماندينكاوية في أمريكا ما قبل كولومبس ما يحمل الدليل على الوجود الإسلامي.

بالإضافة إلى ذلك، اكتشفت في حطام أحدى السفن قبالة سواحل فنزويلا ثروة من العملات القديمة ذات الضرب الروماني والعربي. العملات الرومانية ضربت ما بين القرن

الأول والقرن الرابع وكانت تلك العملات ما تزال تتداول عبر أوروبا أثناء العصور الوسطى. لكن العملات العربية تعود إلى القرن الثامن وقد اكتشف أحدثها بين المجموعة النمِّيَّة.[1] ومن هذه الزاوية يمكن القول على الأرجح أن تحطم السفينة حدث في القرن الثامن أو التاسع وأنها كانت إحدى سفن الأندلس الإسلامية أو غرب إفريقيا الإسلامي.

في مجموعها تمثل الأدلة الآثارية المتوفرة دعماً للسجلات الوثائقية التي تشهد بوجود إسلامي في أمريكا سابق لكولومبس.

ح. البينات اللغوية

نوع آخر ومثير بشكل خاص من الأدلة التي تشهد بوجود إسلامي في أمريكا سابق لكولومبس يمكن العثور عليه بتفحص العلاقة ما بين عدد من المفردات الهندية الأمريكية وما يقابلها من مفردات في اللغتين التركية (العثمانية) والكرواتية. (الكرواتية هي لغة كرواتيا والبوسنة اللتين كانتا جزءاً من الإمبراطورية العثمانية في القرن الذي سبق رحلة كولومبس الأولى). مثلاً، سميت ولاية كنتاكي تبعاً للكلمة الهندية (كين تك) التي تعني «الأرض المظلمة والدموية». الكلمة التركية «كان توك» تعني «يتخلله الدم أو مليء بالدم». ومثل ذلك مدينة شيكاغو التي يقال أن اسمها من الكلمة الهندية التي تعني «أرض مزعجة وذات روائح كريهة». الكلمة التركية «تشي كاهكاه» لها نفس المعنى. يضاف إلى ذلك أن الكلمة التركية «تيبي» تعني أي مبنى ذا بروز أو crested، أي «تيبي». في الجدول التالي نجد نموذجاً من هذه العلاقات اللغوية المتداخلة.

(1) «النُمّيّات» هو علم دراسة وجمع القطع النقدية والأوراق المالية (المترجم).

البينة اللغوية

المفردة/المعنى الشيروكي	المفردة/المعنى بالتركية
آني– يون– ويا = الشعب الرئيس	آنا– يون= الشعب الأول
أتا= أب	أتا=أب
أتا– كولا– كولا= الأب الروحي لكل الرؤساء	أتا– كولا–كول= الأب الروحي للرجال الحمر
أنا–تا = امرأة	أنا–تا= الأم الأبدية
دوالي = اسم رئيس إحدى قبائل الشيروكي في تكساس	دوا– فالي = رئيس باركه الله
غاتونوالي = عصيدة	كاتي– ثان– فالي= جزء رئيسي من قمح قاسٍ أو كثيف مطحون
غنت–سوس–كوالي= سهام قصيرة	غونا– ساز– كاليل= أي نوع من السلاح القصير
تسونياتيغا= أناس عراة	سونا– يات– تيكي = أن تلبس مجرد سلك على الخاصرة
توكوو = ديك رومي	تاه– ووك : دجاجة
أوكو = لص أبيض	أكولو = زعيم أو متمرد أبيض
يوني– وينيغيسكي = أكلة لحوم البشر	يانا– فاهام– نيسيز– كي: مطبوخ للمحرومين على يد القذرين أو المجانين
المفردة/المعنى بلغة الكرين/سيمينولي	**المفردة/المعنى بالتركية**
ميكو: إداري سفينة تركية	ميكو = إداري قبلي
هادجو= المحارب الأقوى والأكثر حكمة	حجة: رجل الدين الأكثر حكمة أو القائد
المفردة/المعنى بلغة ألغونكين	**المفردة/المعنى بالتركية**
إنا – إن – داوغووت = مسموح به	إغني – أنا – دافا = اتباع القانون
تكاهو = —، نبتة بشكل البطاطس	تر – كيه – أوت = نبتة مستديرة ومتسخة
المفردة/المعنى بلغة الباوهاتان	**المفردة/المعنى بالتركية**
ويروانسي = دليل/رئيس قبيلة	ويرا– هاهن = قائد ديني يخاف الله
ماتشكورس = جلود أو ملابس	مكأد – كار = أغطية للثلج
موكاسنس = أحذية	ماه – كاهد – ساهن = أغطية دافئة
توسان = أسرة	دوسن = الذهاب للنوم

بوكاتاور = نار	باك – آتيس – فيرا = نار الخلق المقدسة
أتونس = سهام	أتأن [الطعن] = رمي رمح أو سهم
أوموهاوغ = هدف	أم – أهاش – هوك =هدف ترابي محفور أو مرسوم
توماهوك = فاس على شكل هراوة	تام توماك = هراوة خشبية قصيرة للقطع
بوساكس = سكاكين	با بكاك = سكين قوية
بوبكونز = غلايين للتدخين	بيبو – كان = غليون دموي (رسمي) للتدخين
متافسين = نحاس	مأدن – سن = معدن مصنّع
سكاهانا = ماء	سو – كاغ – آنا = ماء مستخرج من الأرض
نوغما = سمكة	نون ما = سمكة نهرية
ساورهون = دم	سو– وي – آه – هاهن = سائل في عروق الملك
نيتوبيو = أصدقاء	ني – تا – بو – فد = أي صداقة رائعة دائمة
مارافوغ = أعداء	مار – بوك = أناس لا يصلحون لشيء
ما ساكباو = أسوأ الأعداء	ما – آسكير – بوك = جنود أعداء لا يصلحون لشيء
ماوشيك شماي = أفضل الأصدقاء	ما سد كاميا = مجموعة أصدقاء رائعين
بوماهمبز = نجوم	با – ماد – هوم = مكان دائم في السماء لعودة الحياة
بوكوساكس = بنادق	بو – كز – سأكا – كس = صواعق قوية، غاضبة، وقاتلة
مفردات/معان من لغة التشيبياو	**المفردة/المعنى بالتركية**
بوغ – او – ناي –كيشيغ = ثقب في السحب	بوغو – غونو – ني – كي – إسيك = السحب
ندوأوديم = أنا صديقك	نديم أديم [نديم قديم؟] = أنا صديقك
شا – هوكا = محارب قوي إعزب	سا – هوكا =قائد عظيم للمؤمنين

لابد من الاعتراف بأن المداخل السابقة ليست متساوية في القوة والوضوح. غير أن القائمة، إذا ما نظر إليها بشكل كلي، تقدم دليلاً مقنعاً على أنه كان هناك تأثير تركي يشمل لغات أمريكية هندية متنوعة. بالإضافة إلى ذلك ينبغي أن نتذكر أن القائمة المثبتة هنا ليست كل ما هنالك. أخيراً، ينبغي أن نلاحظ أن العديد من المداخل التركية في القائمة هي من شكل قديم للغة التركية وأنها غير موجودة في اللغة التركية الحديثة. يوحي ذلك بأن الأثر التركي على عدة لغات هندية أمريكية كان سابقاً لكولومبس ويدعم القول بأنه كان هناك اتصال عثماني بالعالم الجديد قبل المرحلة الكولومبية.

الشواهد اللغوية على الوجود الإسلامي في أمريكا فيما قبل كولومبس ليست محصورة في اللغة التركية. عام 1750 قرر ج. س. بيرلايوس، وهو تبشيري من موارفيا، أن يبقى مع النانتيكوك من الهنود الأمريكيين على الشاطئ الشرقي لولاية ماريلاند، وأنفق وقتاً غير قليل مع النانتيكوك يجمع مفردات لغتهم. عند التحليل اللغوي لما جمعه بيرلايوس اتضح أن لغة النانتيكوك هي في الأساس لغة المسلمين المنادينكا من غرب إفريقيا.

كيف يمكن لأي شخص تفسير تمكن لغة الماندينكا القادمة من غرب إفريقيا اقتلاع لغة النانتيكوك بحلول عام 1750؟ تحتاج اللغة إلى مدة طويلة لكي تتمكن من الحلول محل لغة أخرى، ويبدو من الصعب تصور أن يحدث ذلك التحول عن طريق فئة قليلة من الأرقاء الهاربين الذين يعودون بأصولهم إلى الماندينكا والذين انضموا إلى النانتيكوك في القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر. الوضع القائم يجعل من الضروري الاعتراف بأن عدداً كبيراً من الماندينكا كانوا موجودين وقد انضموا إلى النانتيكوك لبضعة قرون سبقت جمع بيرلايوس لمفردات النانتيكوك. إن من الصعب ألا يقول المرء إن هذا يشير إلى الرحلات التي قام بها الماندينكا في مطلع القرن الرابع عشر تحت إمرة السلطان أبو بكاري.

ح. إعادة تقييم كولومبس

في ضوء ما تقدم من بينات تقترح وجوداً إسلامياً قادماً من الأندلس والمغرب وغرب إفريقيا والإمبراطورية العثمانية في أمريكا ما قبل كولومبس، من المفيد أن نتفحص ما يمكن أن يكون قد توفر لكولومبس من معرفة بتلك الزيارات الإسلامية. إعادة النظر الهادئة في حياة كولومبس توحي بأنه من المحتمل جداً أنه كانت لديه على الأقل شكوك بأن المسلمين كانوا يسافرون غرباً عبر الأطلسي نحو أرض بعيدة قبل 1492 بأمد طويل، حتى وإن ظن مخطئاً أن الأرض كانت هي الشرق. الاعتبارات التالية تتضمن ما يبدو وكأنه تأكيد لذلك الاتجاه.

ما بين عامي 1482 و1485 كان كولومبس مشغولاً بالتجارة والشحن التجاري على طول الساحل الغربي لإفريقيا، وهي تجربة لاشك أنها ساعدت فيما بعد على تعرفه على اللباس

الذي وجده في «العالم الجديد» بوصفه «الميازر» ذات التصميم الغرب إفريقي. أثناء تلك الأعوام ربما يكون قد وجد حكايات حول رحلات الماندينكا السابقة عبر الأطلسي.

حوالي عام 1485، وبعد وفاة زوجته، اتخذ كولومبس خليلة من قرطبة اسمها بياتريز دي هارانا. وكانت قرطبة قبل ذلك مركزاً للعلوم والثقافة لدى مسلمي الأندلس، ولربما سمعت بياتريز قصصاً عن الاتصال الأندلسي بالأرض الواقعة وراء الأطلسي. بدورها ربما نقلت بياتريز تلك القصص إلى كولومبس.

على أقل تقدير كان كولومبس نفسه على صلة ما بمسلمي الأندلس نتيجة لكونه حاضراً عند سقوط غرناطة، المعقل الإسلامي الأخير في شبه الجزيرة الأيبيرية، وذلك في الثاني من يناير 1492. ومن هنا ربما يكون كولومبس قد سمع مباشرة وليس من بياتريز فحسب عن منجزات خشخش وابن فروخ وغيرهما ممن أبحروا من الأندلس إلى عالم واقع وراء ما كان معروفاً من الأطلسي.

أخيراً لقد اقترح البعض أن كولومبس كان مطلعاً على وربما متأثراً ببعض أعمال الإدريسي، الباحث والجغرافي المسلم الذي عاش في القرن الثاني عشر، وأن كولومبس كانت لديه بالفعل نسخة من كتاب الإدريسي على سفينته «سانتا ماريا» عام 1492 وكان من ثم عارفاً بما رواه الإدريسي عن البحارة المسلمين الثمانية الذين أبحروا غرباً إلى أرض جديدة من لشبونه بالبرتغال.

فعلى الرغم مما يحوط الأمر من تخرصات، فإنه ليس من المبالغة الشديدة أن نتصور رحلات كولومبس نفسها إلى العالم الجديد وقد بنيت على اتصالات إسلامية سابقة بالأمريكتين.

ط. تلخيص واستنتاجات

السجلات التاريخية التي تركها المؤرخون والجغرافيون المسلمون توثق لاتصالات متواترة بين الأمريكتين والعالمين الإسلاميين في الأندلس وإفريقيا. القول بذلك تدعمه عدة روايات

للمستكشفين الأوائل الذين قدموا إلى الأمريكتين من أوروبا المسيحية، وذلك بالاعتماد على تحليل المفردات والأسماء الموجودة في لغات الهنود الأمريكيين والماندينكا، وكذلك بالاعتماد على المكتشفات الآثارية القليلة. إذا نظر إليها مجتمعة فستقدم هذه السلسلة من الشواهد دليلاً أقوى على وجود المسلمين في أمريكا في فترة ما قبل كولومبس مما كان متوفراً منذ خمسين عاماً مضت لتؤكد أيضاً أن لايف إريكسون قام برحلته، التي لم تعد الآن محل شك، إلى العالم الجديد حوالي عام 1000.

لعلنا لا نبالغ كثيراً لو قلنا إنه بعد خمسين عاماً من الآن ستتضمن الكتب المدرسية للتلامذة الأمريكيين قصصاً عن مآثر خشخش بن سعيد بن أسود وابن فروخ، وهو ثامن مسلم يبحر غرباً من لشبونه، والشيخ زين الدين علي بن فضل المزندراني وأبو بكاري إلى جانب مجموعاته من الماندينكا. تلك الكتب الدراسية المستقبلية ربما يصل بها الأمر أن تبدأ بتأمل، إن لم يكن تأكيد، احتمال أن يكون البحارة والجغرافيون المسلمون قد أثروا على الرحلات الأخيرة لكريستوفر كولومبس.

3: المستكشفون «الأوروبيون»

1. مقدمة

كما رأينا في الفصل السابق، هناك ما يبرر الاعتقاد بأن المسلمين من أهل الأندلس وشمال إفريقيا وغربها والإمبراطورية العثمانية جاؤوا إلى شواطئ العالم الجديد قبل أن يفعل ذلك كولومبس، وأنهم جاؤوا في فترة مبكرة ليست أقرب من القرن التاسع. في بعض الحالات قد لا تكون تلك الرحلات الإسلامية أكثر من رحلات معزولة لا تنتظمها رحلات تتلو. ومع ذلك ففي حالات أخرى يبدو أن أولئك المستكشفين المغامرين أسسوا خطوط تجارة منتظمة واتصالات مستمرة مع السكان المحليين.

مع أولى رحلات كولومبس عام 1492 أصبح الطريق مفتوحاً للاستكشاف الإسباني للأمريكتين. على مدى عدة عقود تلت أبحرت موجات تلو موجات من المستكشفين والغزاة الإسبان إلى العالم الجديد، هدفهم الاستغلال المالي والغزو وتنصير الجماهير. غير أن عدداً كبيراً من الأفراد جاؤوا تحت مسمى مستكشفين إسبان في حين أنهم لم يكونوا مسيحيين إسبان البتة أو كانوا كذلك بالاسم فقط.

مع سقوط غرناطة المسلمة عام 1492، التي كانت آخر آثار المسلمين على شبه الجزيرة الآيبيرية، بقي العديد من المسلمين تحت حكم صاحبي الجلالة الكاثوليكيين، الملك فرديناند والملكة إيزابيلا. بعض أولئك الأفراد استمروا على دينهم الإسلامي بحرية وأمام الناس. آخرون خافوا أو أرغموا على «اعتناق» المسيحية، غالباً تحت تهديد الموت. هذه الفئة الأخيرة عرفوا بالموريسكيين (أي المغربيين الصغار).

2. الموريسكيون

ب1. الريكونكويستا[1]

يؤرخ عادة لبداية «الريكونكويستا» للأندلس الإسلامية من قبل الدول المسيحية في شبه الجزيرة الآيبيرية بمعركة كوفادونغا عام 718 حين استطاعت دولة النمسا الداخلية أن تصمد أمام تقدم المسلمين. غير أن «الريكونكويستا» لم تكن أكثر من اسم حتى القرن الحادي عشر حين بدأت الوحدة السياسية الإسلامية تتداعى وأخذت الأندلس الإسلامية تتفكك إلى دول داخلية مستقلة. ومع تفكك الأندلس الإسلامية إلى ممالك وإمارات صغيرة مختلفة، استطاع التقدم المسيحي في شبه الجزيرة الآيبيرية أن يحقق اندفاعاً. في عام 1118 سقطت أراغون ذات الصبغة الإسلامية، ثم سقطت فالنسيا المسلمة عام 1238، وبحلول منتصف القرن الثالث عشر كان معظم شبه الجزيرة تحت الحكم المسيحي مرة أخرى.

تزامناً مع توسع السيطرة المسيحية على شبه الجزيرة الآيبيرية، وجد الكثير من المسلمين أنفسهم تحت سيطرة مسيحية. ومع أن أولئك المسلمين كانوا يمنحون عادة حرية الممارسة الدينية، على الأقل على مستوى اللفظ أو على الورق، فإنهم في الحقيقة كانوا خاضعين في الغالب لتحيز اقتصادي وسياسي وديني هائل. نتيجة لذلك بدأ بعض أولئك المسلمين في اعتناق المسيحية علناً. في بعض تلك الحالات كان الاعتناق صادقاً. لكن في حالات عديدة أخرى كان الاعتناق بالاسم فحسب وكان للاستهلاك العام ليس إلا. في حياتهم الخاصة استمر أولئك الأفراد في ممارسة إسلامهم على أفضل ما كان ممكناً، حتى حين كانوا يتعرضون لضغوط كبيرة للتخلي عن دينهم.

ب2. الاتحاد

في عام 1469 رتب الملك جون الثاني، ملك أراغون، (التي تشكل شرق إسبانيا تقريباً)

(1) يطلق مصطلح «ريكونكويستا» عادة على الغزو المعاكس الذي قامت به الدويلات المسيحية في شبه الجزيرة الآيبيرية عند تضعضع الحكم الإسلامي للأندلس (المترجم).

زواج ابنه الأمير فرديناند من الأميرة إيزابيلا، الأخت غير الشقيقة للملك هنري الرابع، ملك قشتالة (التي تشكل غرب إسبانيا تقريباً). وفي عام 1474، إثر وفاة الملك هنري الرابع وما تلا ذلك من حرب أهلية نتيجة الصراع على خلافته، تولى الملك فرديناند عرش قشتالة بوصفه الملك فرديناند الخامس. بعد ذلك بأربعة أعوام تولى حكم أراغون خلفاً لوالده بوصفه الملك فرديناند الثاني. وهكذا اتحدت إسبانيا الكاثوليكية تحت الحكم المزدوج للملك فرديناند والملكة إيزابيلا. ذلك الاتحاد لأراغون وقشتالة شكل حضوراً عسكرياً ضخماً في شبه الجزيرة الآيبيرية سيؤدي فيما بعد إلى هزيمة غرناطة المسلمة في الثاني من يناير 1492. عند ذلك المنعطف كان «الريكونكويستا» الإسباني قد اكتمل من الناحية العملية.

بسقوط غرناطة وافق فرديناند وإيزابيلا على شروط السلام التي منحت الحرية الدينية لمسلمي غرناطة. غير أن الحرية الدينية التي منحها الملكان الكاثوليكيان لم تلبث أن تحولت إلى تنصير قسري شامل ابتدأه خمينيز دي سيزنيروس، قس الاعتراف الخاص بالملكة إيزابيلا والذي صار فيما بعد كاردينال الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وفي وجه ذلك التجريد الكامل من الحرية الدينية أعلن مسلمو غرناطة التمرد عام 1499. لكن ذلك التمرد أخمد عام 1500 وكان على مسلمي غرناطة أن يختاروا ما بين التنصير العلني أو الطرد من شبه الجزيرة الآيبيرية. أمام ذلك الاختيار، فضل العديد من المسلمين اعتناق المسيحية علناً مع احتفاظهم سراً بمعتقدهم وممارساتهم الإسلامية.

لاشك أن كثيراً من المسلمين كانوا شديدي الانزعاج من فكرة الاعتناق الظاهري للمسيحية. غير أن ذلك الانزعاج كان كثيراً ما يخف بفعل عدد من الفتاوى التي أصدرها علماء مسلمون في شمال إفريقيا. تلك الفتاوى قررت أن التنصير الظاهري لم يكن مخالفاً للإسلام وذلك بناء على قاعدة الضرورة القائلة بأن الفرد ليس مسؤولاً عن أفعال يقوم بها مضطراً. بتعبير آخر، بالنظر إلى الاضطهاد القائم آنذاك للمسلمين في إسبانيا، فإن الموريسكي طالما استمر في تبني معتقده الإسلامي وواصل ممارسة ما يفرضه الإسلام سراً، فإنه لم يتخل بأي شكل عن دينه الإسلامي. تلك الفتاوى كانت مؤسسة على آيات من القرآن تقول ما

يلي:

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾. (النحل: 106).

ب3. محاكم التفتيش الإسبانية

في عام 1478، العام الذي أسسا فيه حكمهما المشترك لقشتالة وأراغون، تلقى صاحبا الجلالة الكاثوليكيين، الملك فرديناند والملكة إيزابيلا، أمراً من البابا سيكستوس الرابع يسمح بقيام محاكم التفتيش الإسبانية المرعبة. تلك المحاكم، التي أقيمت رسمياً تحت سلطة مفتش عام في العام 1483، كانت في الأصل قد أقيمت لإجبار اليهود الإسبان إما على التنصر (وقد عرف اليهود المتنصرون وذريتهم بـ «الكونفيرسوس» أو «المارانوس») أو أن ينفوا من إسبانيا.

عندما أوجدت محاكم التفتيش منحت صلاحيات تضمنت إمكانية القيام بأسوأ الأعمال الوحشية والتخلي عن أبسط الحقوق المدنية والإنسانية.

(1) بحلول عام 1483 كان البابا سيكستيوس الرابع قد أوكل تعيين كل مسؤولي التفتيش للملك فرديناند والملكة إيزابيلا ففقدت الكنيسة الكاثوليكية عندئذٍ أي تأثير مخفف كان يمكنها ممارسته على مسار التفتيش.

(2) كانت إجراءات التفتيش سرية.

(3) لم يكن للمتهم حق في الحصول على استشارة قانونية.

(4) لم يكن للمتهم الحق في مواجهة خصمه في محكمة علنية.

(5) لم تكن هناك أية إمكانية لتقديم استئناف للسلطات الكنسية أو للبابا في روما، ولذا فلم يكن هناك أي نوع من الضوابط أو القيود على الإطلاق.

(6) كان التعذيب روتينياً في الحصول على الاعتراف.

(7) حين تصدر إدانة التفتيش فإن جميع ممتلكات المتهم تصادر ويعاد توزيعها بين التاج والتفتيش وموجهي الاتهام. بتعبير آخر كان هناك حافز هائل وراء محاكم التفتيش للعثور على مذنب، وللأفراد ليفتعلوا أي سبب لاتهام شخص آخر بأنه خائن دينياً.

بتوجيهات توماس دي توركويميدا، أول مفتش عام في محاكم التفتيش الإسبانية، قتل ثلاثة عشر ألفاً من اليهود إما من خلال التعذيب أو الإعدام نتيجة أحكام التفتيش. هذا إلى جانب ألفي شخص أحرقوا علناً على الحطب. أخيراً في عام 1492 واجه اليهود مرسوماً أصدره صاحبا الجلالة الكاثوليكية تضمن أن على جميع اليهود إما أن يتنصروا ويعمّدوا أو ينفوا من إسبانيا. وفي حين خضع بعض اليهود لهذا الابتزاز الديني وقبلوا بالمسيحية، على الأقل ظاهرياً، فإن حوالي مائة ألف إلى مائة وسبعين ألفاً رفضوا التنصر ونفوا من إسبانيا.

حين سمع السلطان بايزيد الثاني بما حل باليهود في إسبانيا المسيحية، أمر ذلك المسلم الذي كان يحكم الإمبراطورية العثمانية بإرسال أسطول تحت إمرة كمال رايس لإخلاء المقهورين والمضطهدين من اليهود من إسبانيا. وبعد ذلك قام بتوطين أولئك المشردين ضمن حدود الإمبراطورية العثمانية، الكثير منهم في محيط منطقة أدرنة وثيسالونيكا، وذلك في ربيع عام 1492. هناك، وضمن حدود دولة وحكومة إسلامية، منح هؤلاء اليهود حرية ممارسة دينهم، ومهنهم، ومنحوا استقلالية ذاتية محدودة في حكم أنفسهم. ويقال أن السلطان بايزيد الثاني قال في إشارته إلى إعادة توطين هؤلاء اليهود القادمين من إسبانيا: «لقد أفقر (فرديناند وإيزابيلا) مملكتهما وأغنوا مملكتي». إن معظم اليهود في تركيا الحديثة وعددهم 25 ألفاً هم أحفاد أولئك اليهود الذين أنقذوا من الاضطهاد المسيحي على يد مسلمي الإمبراطورية العثمانية.

لكن محاكم التفتيش الإسبانية ما لبثت أن بدأت في استهداف المسلمين والموريسكيين غير مكتفية بالأساليب البربرية التي استعملتها ضد اليهود. بدأ الهجوم على المسلمين والموريسكيين في عام 1492، وبحلول الحادي عشر من فبراير 1502 كان التفتيش الإسباني قد استهدف المسلمين والموريسكيين على طول إسبانيا وعرضها. ففي الفترة ما بين عامي

1530 و1609 كان ثلاثة آلاف وخمسمائة موريسكي قد حوكموا في إقليم فالنسيا وحده. وبحلول منتصف القرن السادس عشر كان المئات إن لم يكن الآلاف من الموريسكيين الإسبان قد خنقوا أو أحرقوا على الحطب لأنهم «ارتدوا» إلى الإسلام، أي أنهم استمروا في ممارسة الإسلام سراً. وليس من المعروف عدد الموريسكيين الآخرين الذين عذبوا دون رحمة.

في تزامن مع اضطهاد المسلمين والموريسكيين من قبل التفتيش الإسباني، أصدرت الملكية الإسبانية سلسلة قوانين تنزل المزيد من العقاب القاسي على المسلمين وتحد من عدد الموريسكيين المتزايد في ممارسة الإسلام في عزلة وفي الخفاء. فمثلاً خير مسلمو غرناطة عام 1502 بين التعميد أو الطرد من إسبانيا. وفي الوقت نفسه تم حرق المكتبات الإسلامية العظيمة علناً مع بيع ألفين من النساء المسلمات الغرناطيات تقريباً في سوق النخاسة. نتيجة لذلك اعتنق كثير من المسلمين المسيحية علناً ولكنهم استمروا في ممارسة إسلامهم خفية.

في عام 1521 أصدر الحكم الملكي قانون «البراغماتيكا» وهو قانون ملكي يمنع المسلمين والموريسكيين في قشتالة من إغلاق شبابيكهم أو أبوابهم يوم الجمعة، أثناء عطل المسلمين، وأثناء الزواجات والجنائز، وذلك للتأكد أنه لن تكون هناك تلاوة للصلوات الإسلامية، ولا أية ممارسة للدين الإسلامي، الخ. كما أجاز قانون «البراغماتيكا» سجن الأشخاص الذين يلاحظ أنهم يمتنعون عن الخنزير أو الخمر أثناء تناول الوجبات (الخنزير والمشروبات الكحولية محرمة في الإسلام). وكان من يسجن يتعرض وبشكل دائم لمصادرة ممتلكاته من قبل الدولة وتحول زوجاته وأطفاله إلى متشردين. وفي كثير من تلك الحالات كان الموريسكيون يحرقون لعدم شربهم الخمر، أو لرفضهم أكل الخنزير، أو لرمي الحلوى في الأعراس (وهذه إحدى عادات مسلمي الأندلس)، أو لاستعمال الحنا (وكان ذلك تقليداً متبعاً بين المسلمين في ذلك الوقت).

في عام 1526، أجبر مسلمو فالنسيا وأراغون، مثلما أجبر من قبلهم مسلمو غرناطة، على اعتناق المسيحية. ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى منع الإسلام رسمياً في إسبانيا كلها. وحين يُشك في أن أياً من الموريسكيين ما يزال على الإسلام في حياته الخاصة فإنه تفرض

عليه ضرائب متحيزة. ثم بدأت الدولة تصادر أراضي الموريسكيين وممتلكاتهم في أوائل الستينيات من القرن السادس عشر. في عام 1566 أصدر الملك فيليب الثاني مرسوماً ملكياً منع الموريسكيين من استعمال أسمائهم الإسلامية (أو العربية)، أو لبس ملابسهم التقليدية، أو التحدث بالعربية. وفي الثاني والعشرين من سبتمبر 1609 صدر مرسوم يأمر بطرد جميع الموريسكيين من إسبانيا.

ما بين عام 1609 و1615 تم طرد مابين 275 إلى 300 ألف من الموريسكيين من إسبانيا، حيث ذهب معظمهم إلى شمال إفريقيا. على أن العديد من الموريسكيين فروا إلى جنوب فرنسا حيث لجؤوا، لتفادي الاضطهاد، إلى الادعاء بأنهم من «الهيوغينوت»، أي من مذهب بروتستانتي مسيحي ناشئ حديثاً. فيما بعد ذهب بعض أولئك المسلمين المتنكرين تحت اسم «الهيوغينوت» إلى ما يعرف الآن بولاية كارولاينا الجنوبية.

ب4. المسلمون والموريسكيون في إسبانيا الكاثوليكية

من الصعب التوصل إلى الرقم الدقيق لعدد المسلمين والموريسكيين في إسبانيا الموحدة. إلا أن التقديرات تقول إن 20٪ من سكان أراغون وأكثر من 30٪ من سكان فالنسيا كانوا من الموريسكيين. وإذا كان عدد سكان تلك المناطق يبلغ 270 ألفاً في نهاية القرن الخامس عشر، فإن ذلك يعني أن ما لا يقل عن 135 ألفاً كانوا من الموريسكيين. لكن هذا الرقم لا يشمل الموريسكيين المقيمين في قشتالة وكاتالونيا وفي الممالك الصغيرة الأخرى التي تتألف منها أسبانيا الموحدة. ومن هنا أمكن تصور عددٍ من المسلمين والموريسكيين يتجاوز الربع مليون على امتداد إسبانيا في أوائل القرن السادس عشر. بعض الباحثين يرفع العدد إلى 500 ألف. وبالنظر إلى عدد بهذا الحجم فإنه لن يكون من المدهش أن نجد عدداً من المسلمين والموريسكيين بين «الإسبان» الأوائل من مستكشفي الأمريكتين.

ب5. المسلمون والموريسكيون في البرتغال

لم يتعرض المسلمون والموريسكيون للتمييز والاضطهاد في إسبانيا الكاثوليكية وحدها. فبالتزامن مع التفتيش الإسباني سمح عدد من الملوك البرتغاليين (مثل خواو الثالث وسيباستياو، وفيليب الثالث) بأن يكون لديهم تفتيش أيضاً. بل إن التفتيش البرتغالي اشتهر بأنه أكثر سوءاً وخطورة من أي شيء حدث في إسبانيا.

ب6. نتائج

بالنظر إلى العدد الكبير من المسلمين والموريسكيين في إسبانيا والبرتغال وبالنظر إلى التفرقة التي رعتها الدولة ضد أولئك، فإنه من غير المدهش أن يختار العديد منهم مغادرة شبه الجزيرة الآيبيرية. وفي حين أن الكثير بحثوا عن الملجأ في شمال إفريقيا وعدد قليل ذهب إلى جنوب فرنسا، فإن عدداً لا بأس به تطلعوا إلى الفرار إلى أراضٍ أبعد، ومن تلك الأمريكتان. لكن هؤلاء المسلمين والموريسكيين الذين جاؤوا إلى العالم الجديد مستكشفين ومستوطنين يظلون للأسف وحتى اليوم في ظلال النسيان. ومما يؤسف له أكثر أنهم حين يتذكرون فإنهم يبدون عادة مغامرين «إسبان». فيما يلي استعادة موجزة لذكرى بعض أولئك الأفراد الشجعان.

ج. المستكشفون المسلمون والموريسكيون في العالم الجديد[1]

ج1. الأخوة بنزون

ولد مارتن ألونزو بنزون في بالوس بإشبيلية (إسبانيا) حوالي عام 1441 وتوفي عام 1493 في المكان نفسه. أما أخوه الأصغر فسنتي يانيز بنزون فقد ولد حوالي عام 1460 في بالوس ولا يعرف عنه شيء بعد عام 1523. وهناك القليل من المعلومات حول أخ ثالث لهما واسمه فرانسيسكو. لقد كان الأخوة الثلاثة من أصول مسلمة، وكانت عائلة بنزون ذات صلة بأبي

.Mroueh Y (1996). Mohammad ANA (2001). and – (2003x) (1)

زين محمد الثالث، سلطان المغرب الماريني الذي حكم من عام 1362 حتى عام 1366. كان الأخوة الثلاثة من ملاك السفن الأغنياء، ومن مجهزيها إلى جانب كونهم بحارة لعبوا دوراً رئيساً في الاستكشاف الإسباني المبكر للأمريكتين.

كان مارتن بنزون شريكاً في ملكية سفينتي «بنتا» و«نينا»، وهما اثنتان من السفن الثلاث التي عبرت المحيط الأطلسي أثناء رحلة كولومبس الأولى. بالإضافة إلى ذلك كان هو الذي جهز السفن الثلاث والمسؤول عن تأمين البحارة على تلك السفن. أبحر مع كولومبس عام 1492 قائداً لسفينة «بنتا». ومن الجدير بالذكر أن مارتن هو الذي اقترح تغيير الاتجاه الذي أدى إلى نزول أسطول كولومبس في سان سلفادور في 12 أكتوبر 1492. بعد ذلك، وبغرض البحث عن الذهب والبهارات، انفصل مارتن بسفينة «بنتا» عن السفينتين الأخريين في أسطول كولومبس الصغير، لينظم مرة أخرى بعد عدة أشهر.

كان فنسنتي بنزون أيضاً ممن أبحروا مع كولومبس أثناء رحلته التاريخية عام 1492 وعمل قائداً لسفينة «نينا». في أواخر عام 1499 أبحر فنسنتي مرة أخرى إلى الأمريكتين ونزل على الشاطئ البرازيلي عند سانتا ماريا دي لا كونسولاسيون. وفي إبحاره إلى الشمال من حيث نزل لأول مرة في البرازيل استكشف مصب نهر الأمازون وخليج باريا في الشمال الشرقي من فنزويلا. ثم قام فنسنتي برحلتين إضافيتين إلى الأمريكتين قبل عام 1508. ثم قام برحلته الأخيرة إلى العالم الجديد عام 1508 مع خوان دياز دي سوليس على ما يبدو لاستكشاف ما يعرف الآن بأمريكا الوسطى، ثم عاد إلى إسبانيا في أغسطس عام 1509.

كان فرانسيسكو بنزون هو الأخ الثالث الذي يبحر مع كولومبس في رحلة 1492، وكان بحاراً على سفينة «بنتا».

ج2. بيدرو أولنزو نينو[1]

كان بيدرو المسلم أو الموريسكي الرابع ممن أبحروا مع كولومبس في رحلة 1492. لكن

(1) Smallwood AD (1999).

كل ما هو معروف عن بيدرو لا يكاد يتجاوز كونه إفريقياً ساعد على الإبحار عبر الأطلسي واستكشاف جزر الكاريبي.

ج3. رودريغو دي تريانا[1]

كان رودريغو دي تريانا، المعروف برودريغو دي ليبي (وليبي بلدة في الأندلس) أحد أولئك البحارة الشجعان الذين غامرو بحياتهم أثناء رحلة كولومبس الأولى نحو العالم الجديد. الحقيقة تقول إن رودريغو هو أول عضو في الرحلة يرى الأرض. ومع أنه كان مسيحياً قبل الرحلة التاريخية وأثناءها، فإن رودريغو اعتنق الإسلام حال عودته إلى إسبانيا عام 1493. وسيتضح مدى الإيمان الذي دفع رودريغو إلى اعتناق الإسلام إذا تذكرنا ما كان المسلمون والموريسكيون قد بدؤوا في التعرض له من اضطهاد في إسبانيا آنذاك. ومن ناحية أخرى، ليس بوسع المرء سوى أن يخمن ما واجهه رودريغو أثناء رحلة كولومبس الأولى ليدفعه نحو تحوله الديني فيما بعد.

ج4. نوفلو دي أولانو[2]

كان نوفلو دي أولانو إفريقياً رافق فاسكو نونيز دي بالبوا في رحلة الأخير الاستكشافية لأمريكا الوسطى. كان نوفلو عضواً في مجموعة بالبوا الاستطلاعية التي عبرت الأمريكتين لأول مرة لرؤية المحيط الهادي من الشواطئ الأمريكية.

ج5. إستيفانيكو الزموري[3]

ولد إستيفانيكو (أو ستيفن الصغير) في أزمور بالمغرب حوالي عام 1500. وكان اسمه

(1) Quick AH (1998).

(2) Smallwood AD (1999).

(3) Katz WL (1997). Smallwood AD (1999). Muhammad ANA (2001). Numan FH (---). and Shelton MS (---).

عند ولادته مصطفى الزموري. في عام 1513 استولى ملك البرتغال مانويل على أزمور ومن المحتمل أن يكون استيفانو قد وقع في الرق عندئذٍ. غير أن المعروف عن حياته قبل عام 1527 قليل، ويبقى مكان وزمان استرقاقه على وجه الدقة مجالاً للظنون.

في السابع عشر من يوليو عام 1527 أبحر سيد إستيفانو الإسباني أندريس دورانتيس على سفينة في سانلوكار دي باراميدا الإسبانية متجهاً نحو الأمريكتين. وحين وصل إستيفانو وأندريس إلى هسبانيولا[1]، انضما إلى حملة بانفيلو دي نارفايز باتجاه فلوريدا. وعلى مدى الاثني عشر عاماً التالية، وقبل أن يقتل على يد الهنود بالقرب من أريزونا عام 1539، استكشف إستيفانو أجزاء كبيرة من أمريكا الشمالية.

حملة دي نارفايز لعام 1527 اكتنفتها سلسلة سريعة من الكوارث، فحتى قبل النزول في فلوريدا كان أسطول دي نارفايز المؤلف من خمس سفن قد دمر جزئياً نتيجة تعرضه لإعصار. هذا إلى جانب مقتل عدد من أفراد الحملة إما على يد الهنود أو بالمرض. حين توفي نارفايز تولى القيادة كابيزا دي فاكا، وبوصول الحملة إلى أولى القرى الهندية في طريقهم كان عدد الرجال الكلي البالغ خمسمائة إلى ستمائة قد هبط إلى ثمانين.

على مدى التسعة أعوام التالية عمل إستيفانيكو دليلاً لبقية المجموعة ومبعوثاً إلى الهنود الذين وجدوهم على الطريق. قاد المجموعة التي بقيت على قيد الحياة عبر ما عرف فيما بعد بجنوب الولايات المتحدة، في رحلة طولها خمسة آلاف ميل ابتدأت من فلوريدا عبر الجنوب الشرقي للولايات المتحدة وإلى المكسيك حتى وصلوا إلى المحيط الهادي، ثم استمروا حتى بلغوا شط الأمان في مكسيكو ستي. لقد تساقط أفراد آخرون من الحملة على الطريق الواحد تلو الآخر حتى لم يبق منهم، حين ألقى الهنود عليهم القبض، سوى أربعة: إستيفانيكو، أندريس دورانتيس، كابيزا دي فاكا وشخص آخر. أولئك الأربعة استطاعوا الفرار من آسريهم واستمروا في رحلتهم. أثناء الرحلة روى لهم الهنود قصصاً عن سيبولا، مدن الذهب السبع الأسطورية.

(1) هسبانيولا أكبر جزر الأنتيل وتقع شرق كوبا (المترجم).

في عام 1536 تمكن استيفانيكو، أخيراً، من قيادة الأفراد الثلاثة المتبقين من حملة نارفايز إلى المقر الإسباني في المكسيك حيث تحدثوا عن معاناتهم والقصص التي سمعوها عن سيبولا. إن إعادة صياغة لرحلات إستيفانيكو باستعمال أسماء جغرافية حديثة توحي برحلة بدأت في محيط مدينة تامبا بفلوريد مروراً بمدينة موبيل بولاية ألاباما ثم غالفستون فأوستن فـ إل باسو وكلها بولاية تكساس، ثم رنكون بولاية أريزونا ويوريس وسينالوا وسيولياكان بالمكسيك، انتهاءً بمكسيكو ستي.

رفاق إستيفانيكو الثلاثة غادرو إلى إسبانيا حال تجاوزهم ما عانوه في رحلة التسعة أعوام. أما استيفانيكو نفسه لم يكن محظوظاً مثلهم، فقد استعبد وبيع إلى الحاكم الإسباني في هسبانيولا، أنطونيو دي ميندوزا.

في عام 1538 نظم دي ميندوزا حملة دفعه إليها تلهفه للحصول على الثروات التي حكت عنها الأساطير في سيبولا، وذلك لاكتشاف مدن الذهب السبع ونهبها. عين ماركوس دي نيزا، وهو راهب فرانسيسكاني، على رأس الحملة. لكنه اختار إستيفانيكو ليكون دليلاً وليعمل أيضاً مترجماً مع أي هنود قد تصادفهم الحملة.

قاد إستيفانيكو الحملة الباحثة عن مدن الذهب السبع في سيبولا عام 1538، وأثناء الرحلة أصبح إستيفانيكو أول إنسان غير هندي يزور قرى الهنود الحمر «البويبلوس» في شمال المكسيك. بعد ذلك اكتشف أريزونا ونيومكسيكو قبل أن يقتل، كما قيل، على يد هنود الزوني عام 1539 عند إحدى المدن الهندية. لقد استكشف إستيفانيكو أثناء الثلاثة عشر عاماً التي قضاها في أمريكا فلوريدا والمسيسيبي وألاباما وتكساس ونيومكسيكو وأريزونا. وتدين اثنتان من تلك الولايات على الأقل ببداياتهما لهذا المسلم.

ج6. مستوطنة سانتا إلينا

في عام 1566 أسس الإسبان مستوطنة في سانتا إلينا، بولاية كارولاينا الجنوبية. وكان يحمي تلك المتسوطنة حصن، إلى جانب خمسة حصون تابعة أنشئت وأديرت قرب المدن:

روما بجورجيا، غرينفل في كارولاينا الجنوبية، آشفل بكارولاينا الجنوبية، وجونسون ستي بتنسي. أما أوائل المستوطنين، وهم مائتا جندي، قام بتجنيدهم من الجبال الغاليسية في شمال إسبانيا والبرتغال، الكابتن جواو بادرو، وهو ضابط بحري إسباني من أصول برتغالية. ذلك التجنيد للمستوطنين من الجبال الغاليسية مهم لأنها منطقة في البرتغال وإسبانيا يكثر فيها المسلمون البربر واليهود السيفارديون. ومن هنا نجد ما يبرر فرضية أن العديد من المسلمين والموريسكيين كانوا ضمن سكان مستوطنة سانتا إلينا. في الحقيقة، قد يكون أكثرية المستوطنين من المسلمين والموريسكيين.

مع أن تلك المستوطنة الإسبانية قلما يشار إليها في كتب التاريخ الأمريكية، فإنها قد استمرت مزدهرة لمدة تزيد على العشرين عاماً. ولزيادة إمكانيات تلك المستوطنة عاد إليها بيدرو بعد عامين أو ثلاثة من بدء الاستيطان ومعه مستوطنون جدد، ربما كان من بينهم رجال ونساء من الأتراك. بتلك المنعة، استمرت سانتا إلينا بحصونها النائية موجودة حتى عام 1587.

في عام 1587 قام مستوطنو سانتا إلينا بحرق مستوطنتهم تحت وطأة التهديد البريطاني لوجود تلك المستوطنة. أبحر الكثير منهم جنوباً نحو مستوطنة سانت أوغسطين في فلوريدا وقد تركوا بعض مستوطني سانتا إلينا عند الحصون النائية. وفيما بعد هرب أولئك المستوطنون، بعددهم البالغ 125 من الرجال وعائلاتهم ومعهم مسلمون وموريسكيون، إلى الجبال في كارولاينا الشمالية حيث يبدو أن بعضهم ارتبطوا بعلاقات تزاوج مع الهنود من قبائل الشيروكي والكريك والكاتاوبا.

ج7. لاجئو الروانوك[1]

في عام 1584 اكتشف السير والتر رالي جزيرة روانوك التي كانت عندئذٍ جزءاً من فرجينيا

(1) Kennedy NB (1997). Campbell H (2001). Hirschman EC (2005). Kennedy NB (2003a). and Kennedy NB. Kennedy RV (1997.

ولكنها الآن جزء من كارولاينا الجنوبية. كان جزء من مهمة رالي لعام 1584 هو العثور على مكان مناسب لمستوطنة بريطانية جديدة. بدت روانوك مناسبة لتحقيق المطلوب فجاء رالي بعد سنة بمجموعة من المستوطنين البريطانيين على الجزيرة ليؤسس بذلك على جزيرة روانوك مستوطنة «رالف ب. لاين» للبريطانيين. لكن تلك المستوطنة لم تدم أكثر من سنة واحدة.

في الفترة مابين 1585 و1586 شن السير فرانسيس دريك، وتحت قيادته مابين خمس وعشرين إلى 30 سفينة إنجليزية، غزوات جريئة ضد الإسبان والبرتغاليين في جزر الهند الغربية، على طول ساحل البرازيل، وعلى بلدة سانت أوغسطين بفلوريدا. في تلك العملية استطاع أن يخلص 400 إلى 500 من الأسر كان من بينهم حوالي 300 من المغاربيين والأتراك من عبيد السفينة. وعبيد السفينة هؤلاء هم مسلمون وقعوا في الأسر في معارك على البحر المتوسط. (فيما بعد أشار دريك إلى هؤلاء السجناء المحررين بوصفهم أتراكاً ومغاربيين وبرتغاليين ويونانيين اعتنقوا الإسلام).

بعد أن حمل معه أولئك اللاجئين البالغ عددهم مابين 400 و500 على سفينته، أبحر دريك شمالاً إلى جزيرة روانوك حيث حاصره بعض المستوطنين الإنجليز الذين أرادوا أن يهجروا مستوطنتهم ويعودوا إلى إنجلترا. ولكي يجد دريك مكاناً لأبناء وطنه على السفينة، اضطر، كما يبدو، لترك مائتين من اللاجئين المسلمين في روانوك.

بعد أسبوعين أبحر السير والتر رالي إلى روانوك لكنه لم يجد أثراً للمسلمين الذين تركهم دريك على الجزيرة. وفيما يبدو، فإن أولئك المسلمين المغامرين تركوا روانوك ووصلوا البر الرئيسي وتزاوجوا فيما بعد بالهنود من قبائل باوهاتان والبامونكي والنانسيموند والكرواتان والهاترز.

إلحاقاً بقصة روانوك ينبغي الإشارة إلى سيمون فرنانديز، وهو بحار على إحدى السفن التي كانت تأخذ المستوطنين إلى روانوك. وصف فرنانديز بأنه برتغالي (موريسكي؟) وبأنه كان قرصاناً من الساحل البربري. كلا الوصفين يوحي بأن فرنانديز كان بالفعل مسلماً مغاربياً.

ج8. الأتراك الكاراتشاي والكافكاز[1]

شهد القرن السادس عشر أيضاً تطوراً قلما يشار إليه في كتب التاريخ الأمريكية، ذلك هو استيراد عمال متخصصين في الحرير والمشغولات النسيجية التركية من الكاراتشاي والكافكاز في ترانس قوقازيا. هؤلاء المسلمون الأتراك تم توطينهم على يد الإسبان في كوبا والمكسيك وفلوريدا وجنوب الغرب الأمريكي.

شهد مطلع القرن السابع عشر دفعتين أخريين من عمال الحرير الأتراك والأرمنيين، سواء من الرجال أو النساء، الذين جاؤوا من الإمبراطورية العثمانية إلى المستعمرة البريطانية في جيمس تاون بفرجينيا. ومن المتوقع أن يكون معظم أولئك الأتراك والأرمنيين تقريباً من المسلمين، وقد شكلوا نسبة كبيرة من طبقة الخدم الملتزمين[2] في جيمس تاون. تلك الشحنات تمت في أواسط القرن السابع عشر، فأول وثيقة تتصل بالوجود التركي في جيمس تاون تعود إلى عام 1631. وقد ازداد عدد أولئك الأتراك في جيمس تاون إلى حد أن ولاية فرجينيا أصدرت في القرن السابع عشر قانوناً يمنع استيراد المزيد من «الترك» ومن يسمون «الكفار» (أي المسلمين) إلى تلك المستعمرة. وقد هرب بعض أولئك «الترك» على الأرجح مما ألزموا به من خدمة واندمجوا في قبائل الهنود.

في «فرجينيا كارولورُم»[3] نجد بين أسماء الخدم الملزمين في فرجينيا الاستيطانية أفراداً مثل: «مهْمِت [محمد] التركي، أحمد التركي، جوزيف الأرمني، سيان التركي» إلى غير ذلك. وتوجد معلومات إضافية توثق للوجود التركي والأرمني في فرجينيا الاستيطانية في

(1) - Kennedy NB (1997). Kennedy NB (2002). Kennedy NB (2003a). Kennedy NB (2003b). and Wikler W (2004b.

(2) الخدم الملتزمين Indentured servants هم من يقومون بالخدمة لفترة محددة بعد توقيع عقد يلزمهم بالعمل لقاء تكاليف السفر والإعاشة (المترجم).

(3) كتاب توثيقي حول ولاية فرجينيا في عهد الاستيطان، أي قبل الاستقلال الأمريكي، وبالتحديد في عهد الملكين الإنجليزيين تشارلز الأول والثاني. وصفة «استيطاني» Colonial صفة تطلق على تلك الفترة من التاريخ الأمريكي، أي عندما كانت الأراضي الأمريكية مستوطنات تابعة للتاج البريطاني (المترجم).

الإذن الذي أصدرته جمعية فرجينيا بشأن 4000 باوند من التبغ وذلك لاستمالة «جورج الأرمني» لكي يبقى في فرجينيا تاجراً للحرير. في وثيقة تعود إلى العام 1652 نجد إشارة إلى تركي في فرجينيا كتب باللغة التركية. في عام 1552 أشار حاكم فرجينيا وليم بيرد في إحدى رسائله إلى تاجر تركي.

د. ملخص ونتائج

كان المسلمون والموريسكيون جزءاً أساسياً من معظم الاستكشافات الإسبانية والبريطانية المبكرة للعالم الجديد. وكما سبقت الإشارة فإن أربعة مسلمين أو موريسكيين على الأقل رافقوا كولومبس في رحلته الأولى إلى الأمريكتين. ومع ذلك فإن الإسهام الإسلامي والموريسكي في استكشاف الأمريكتين لم يتوقف عند ذلك الحد. حين أسست إسبانيا مستوطنتها الدائمة الأولى في العالم الجديد على هيسبانيولا عام 1494، كان المسلمون والموريسكيون ذوي الأصل الإفريقي هناك بوصفهم جنوداً ومستكشفين. في واقع الأمر، كان المسلمون والموريسكيون قد سافروا بصفة بحارة ومستوطنين ومستكشفين وغزاة مع كولومبس، وبالبوا، وكورتيس، وفالاس، وألفادرو، وبيزارو، وألماغرو، وفالديفيا، وألاركون، وكورونادو، ونارفاييز، وباردو، وكابيزا دي فاكا.

عند وصولهم إلى العالم الجديد تخلى العديد من الموريسكيين عن اعتناقهم المعيب للمسيحية، وبدؤوا مع المسلمين ممارسة دينهم الإسلامي علناً وفي دعوة الهنود المحليين إلى الإسلام. غير أن التاج الإسباني، وقد خشي من مجتمع إسلامي كبير في الأمريكتين، أصدر سلسلة من المراسيم الملكية التي تمنع المسلمين والموريسكيين وحتى الأفارقة الذين تربوا لدى الموريسكيين من أن يكونوا مرافقين لمن يذهبون إلى الأمريكتين، سواء كانوا أحراراً أم أرقاء. في بعض الحالات امتدت ذراع التفتيش الإسباني إلى العالم الجديد، وهناك قصص عن موريسكيين ظلوا يحرقون على الحطب حتى القرن السابع عشر فيما يعرف اليوم بتكساس

ونيو مكيسكو.[1]

ومع ذلك فإن الوجود الإسلامي والموريسكي لم يكن مقتصراً على الاستكشاف الإسباني للأمريكتين. فقد أبحرت أعداد غفيرة من المسلمين والموريسكيين أيضاً مع أوائل البرتغاليين لاستكشاف أمريكا الجنوبية. وكان العديد من هؤلاء المسلمين والموريسكيين من أصل مغاربي وشمال إفريقي، لكن بعض المسلمين كانوا من أرقاء السفن الذين كانوا قبل ذلك سجناء للبرتغاليين. كان المسلمون والموريسكيون في الحقيقة يشكلون أغلبية بين المستكشفين البرتغاليين إلى حد أن كلمة «برتغالي» نفسها ظلت لفترة من الزمن تستعمل مرادفة لكلمتي مسلم وموريسكي.[2]

---

(1) Quick AH (1998) and Hirschman EC (2005).

(2) Kennedy NB. Kennedy RV (1997).

4: تجارة العبيد

1. رؤية تاريخية عامة[1]

إن ذلك الشيء الشنيع المسمى الاستعباد الإنساني يعود إلى بداية التاريخ المعروف. ففي فترة ما صارت تلك الممارسة انحطاطاً تبنته كل الثقافات الإنسانية تقريباً في العالم أجمع.

في آسيا يمكن تتبع الاستعباد تاريخياً إلى 3900 عام. فقوانين إيشنونا (حوالي 1900 ق.م.) وقوانين حمورابي (حوالي 1750 ق.م.) مأسست العبودية ونظمتها في مجتمع بلاد مابين النهرين (العراق).[2] وتبنت الصين العبودية في فترة تعود في القدم إلى سلالة شانغ (القرن الثامن عشر حتى الثاني عشر ق.م.)، وبمجيء سلالة هان (206 ق.م.) كان 5٪ من السكان من الأرقاء، ولم يلغ الرق في الصين حتى صدر مرسوم إمبراطوري عام 1906 لم يصبح نافذاً إلا في 31 يناير من عام 1910. العبرانيون القدامى وبنو إسرائيل مارسوا الاسترقاق كما تشير إلى ذلك نصوص من العهد القديم.[3] وفي فترة مبكرة تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد تضفي قوانين مانو السنسكريتية الشرعية على الرق داخل الهند التي قدر عدد الرقيق فيها في عام 1841 مابين ثمانية وتسعة ملايين، والتي لم يصبح الاسترقاق فيها جريمة حتى عام 1861. مابين القرنين الثامن والثامن عشر كان عدد العبيد في كوريا ما بين 30 و50٪ من مجمل السكان. ومع أن العبودية ألغيت قانونياً في كوريا عام 1894 فإنها بقيت واقعاً معاشاً حتى عام 1930. كان ما بين 25 و33٪ عبيداً في تايلاند القرن السابع عشر وبورما القرن التاسع عشر. ويمكن العثور أيضاً على نماذج من الرق في الفلبين ونيبال وماليزيا وإندونيسيا واليابان والشرق الأوسط

---

(1) Hellie R (2003).

(2) . إيشنونا إحدى المدن السومرية القديمة في بلاد الرافدين تنسب إليها قوانين كتبت باللغة الأكدية تعد الأقدم في تاريخ تلك المنطقة (المترجم).

(3) . انظر مثلاً: سفر التكوين، الإصحاحات: 9: 18–29؛ 12: 16؛ 15: 1–4؛ 16: 1–8؛ 17: 12–13، 23–27؛ 20: 14؛ 21: 8–13؛ 24: 34–35؛ 25: 12؛ 32: 3–5؛ سفر الخروج، الإصحاحات 13: 43–44؛ 20: 10، 17؛ 21: 1–9، 20–21، 26–27، 32؛ 23: 12؛ سفر اللاويين 19: 20–21؛ 25: 6، 44–46؛ سفر التثنية 5: 14، 21؛ 12: 12، 18؛ 15: 13–17؛ 16: 11، 14؛ سفر القضاة 9: 18؛ سفر الملوك الأول: 9: 20–21؛ سفر أخبار الأيام الأول 2: 34–35.

وفي البلاد التي تشكل وسط آسيا.

وكان الرق أيضاً علامة فارقة على التاريخ الأوروبي. كان العبيد في أثينا القديمة يشكلون حوالي 33٪ من السكان ما بين القرن الخامس والثالث ق.م. وكان حوالي 30٪ من سكان إيطاليا الرومانية عبيداً ما بين القرن الثاني والرابع. في «كتاب القيامة» الذي يعود إلى 1086 ما يؤكد أن 10٪ من سكان إنجلترا كانوا أرقاء حتى ذلك التاريخ.[1] كما يمكن تتبع تاريخ للرق في فرنسا وألمانيا وبولندا ولثوانيا وروسيا وسكاندينافيا.

بالإضافة إلى ذلك كان الاستعباد الإنساني يمارس لدى العديد من القبائل الهندية في العالم الجديد. وتشمل القائمة المختصرة للقبائل التي مارسته الكريك والكومانتش والكاليناغو والتوبينامبا والإنكا والتهويلتشي والكلاماث والبوني واليوروك والأزتك.

كانت العبودية بارزة بشكل خاص في بعض مناطق إفريقيا. فقد ازدهرت مثلاً في مصر القديمة. أثناء القرن التاسع عشر كان العبيد يمثلون من 65٪ إلى 90٪ من السكان في زنجبار، و90٪ من السكان في كينيا و50٪ من السكان في مدغشقر. وفي الفترة ما بين 1750 و1900 كان ما بين 33٪ و67٪ من السكان في الدول الفولانية في غرب ووسط إفريقيا مستعبدين. وكان العبيد أثناء القرن التاسع عشر يمثلون حوالي 50٪ من شعب هويده. وكانت العبودية منتشرة أيضاً في القرن السابع عشر وحتى الثامن عشر في كانم حيث تمثلت في 33٪ من السكان. مابين 1580 و1890 كان حوالي 40٪ من شعب بورنو أرقاء. وكانت نسبة الرقيق في سينيغامبيا حوالي 33٪ ما بين 1300 و1900. أما في نهاية القرن التاسع عشر فقد مثل العبيد 50٪ من سكان سيراليون. هذا بالإضافة إلى أن العبودية لم تلغ من ليبيريا حتى 1930.

الحقيقة المشتركة بين هذه الأمثلة التاريخية المشار إليها هنا هي أن الرقيق هو من يطبق عليه القانون وليس من يضعها أو يطبقها. بتعبير آخر كان الرقيق نوع من المتاع أو الأثاث الذي يملكه شخص آخر. لم يكن يمتلك حرية شخصية ويفتقر إلى معظم، إن لم يكن كل، الحقوق المدنية. لم يكن له الحق في اختيار مهنته أو زوجته. أكثر من ذلك كان ينظر إليه باعتباره في

(1) «كتاب القيامة» سجل للحياة في إنجلترا أمر به وليم الفاتح عام 1066 وما زال موجوداً حتى اليوم (المترجم).

أسفل سلم المجتمع الإنساني، المكان الذي ورثه بدخوله العبودية التي دخلها نتيجة لأسره في الحرب، أو نتيجة الاختطاف، أو نتيجة إدانته بجريمة، أو بتحمله ديناً لم يستطع سداده، أو بأن باعته عائلته إلى العبودية، أو بأن باع نفسه إلى العبودية باعتبار تلك وسيلة للهروب من الفقر.

على الرغم من أوجه الشبه التي تربط مختلف مؤسسات الاستعباد فإن ثمة اختلافات مهمة تطورت عبر الزمان والمكان. أحد تلك الاختلافات كان في وظيفة العبد. في ما يعرف بالعبودية المنزلية، أو الأبوية أو الأهلية، كان العبيد يؤدون ما يعد خدمات منزلية أساسية لسادتهم. واجباتهم الأولية تضمنت أداء الواجبات المنزلية الأساسية، ونادراً ما كانوا يوظفون في العمل المنتج. في حالات كتلك كان العبيد استنزافاً لأرصدة سادتهم طالما أن خدماتهم لم تنتج دخلاً يغطي تكلفة الإنفاق عليهم. لذا كان العبيد في الأساس رمزاً للمكانة ويملكهم الأغنياء في المقام الأول.

في المقابل كانت العبودية المنتجة مؤسسة استخدمت العبيد لإنتاج الدخل لملاكهم. هذا النوع من العبودية كان أكثر انتشاراً في المناطق التي ركزت على الأنشطة التي تعتمد على جهد العمال كما في المناجم وبعض أنواع الزراعة. ذلك النوع من العبودية هو الذي هيمن على تجارة العبيد عبر الأطلسي في الأمريكتين.

ب. تجارة العبيد عبر الأطلسي

ب1. أصل العبودية في أمريكا الأوروبية

بدأت تجارة العبيد عبر الأطلسي بكرستوفر كولومبس نفسه. بدأ كولومبس باستعباد 10 رجال ونساء من قبيلة الأرواك من الهنود الأمريكيين وأرسلهم إلى إشبيلية بإسبانيا. ثم أتبع ذلك باستعباد 1100 من الرجال والنساء من قبيلة التاينو الهندية الأمريكية وأرسلهم على أربع من السفن الإسبانية. غير أن كثرة العدد وقسوة الطقس إلى جانب التعرض للأمراض

الأوروبية أدى إلى ألا يبقى من أولئك الهنود التاينو بعد الرحلة سوى 300. لكن كولومبس لم يثنه ذلك فأرسل إلى الملك فرديناند والملكة إيزابيلا أن أمريكا مصدر للرقيق لم يصل إليه أحد: «من هنا، وباسم الثالوث المقدس، يمكننا إرسال كل الرقيق الذين يمكن بيعهم».[1]

بدأ الفاتحون الإسبان الأوائل في أسر الناس في الأمريكتين مع بدء استيطانهم فيهما وذلك باستعباد الأمريكيين الهنود ليعملوا في المناجم. غير أن تلك الغزوة الاستعبادية المبكرة لم تؤد الغرض للإسبان، نتيجة للمعدل العالي من الوفيات بين الهنود المستعبدين الذين افتقروا إلى القدرة الطبيعية على مقاومة الأمراض الأوروبية التي تعرضوا لها للمرة الأولى. أدى ذلك مبدئياً إلى الرغبة في استيراد العبيد من أماكن أخرى. ولم يطل الوقت قبل أن تلبى تلك الرغبة باستيراد العبيد من إفريقيا، وكان معظم أولئك قد تعرضوا مسبقاً لمعظم الأمراض الأوروبية. وهكذا وصلت أول شحنة من العبيد الأفارقة إلى الأمريكتين عام 1501.

الرغبة المبدئية في استيراد الرقيق من إفريقيا لم تلبث أن تزايدت بشكل كبير نتيجة لاتجاه المستعمرين الأوروبيين إلى المشاريع الزراعية في العالم الجديد. وكان أول محصولين تتم زراعتهما من قبل المستعمرين الأوروبيين في الكاريبي هما التبغ وقصب السكر. مع مرور الزمن أضيفت إلى السكر والتبغ محاصيل أساسية أخرى مثل الأرز والنيلة والقطن. هذه المحاصيل الخمسة تطورت تدريجياً لتصير المحاصيل الرئيسة في التصدير حيث تشحن من الأمريكتين إلى أوروبا. ومما تشترك فيه المحاصيل الخمسة أن استنباتها وإنمائها وحصادها يعتمد اعتماداً مكثفاً على اليد العاملة فنتج عن ذلك طلب كبير جداً على المزيد من العبيد. وقد استجيب لذلك الطب بشحن أعداد متزايدة من العبيد الأفارقة إلى الأمريكتين.

من بين المحاصيل الخمسة كان التبغ في البدء المحصول الأساسي في ما يعرف الآن بالولايات المتحدة. لكن اختراع إيلي وتني لآلة القطن عام 1793 أدى إلى أن يصبح إنتاج القطن أسهل وأكثر ربحية، فابتدأت بذلك مرحلة «ملك القطن».[2] وبحلول 1860 بلغ مردود

---

(1) Katz WL (1997).

(2) آلة القطن cotton gin، وهي اختصار لـ cotton engine ، آلة تستطيع فصل أوراق القطن عن بذوره وهي عملية كانت قبل ذلك تتم باليد. وقد شاع اسم «ملك القطن» بشيوع تلك الآلة (المترجم).

ما تصدره الولايات المتحدة من القطن 191 مليون دولار، وهو مبلغ يعادل 57٪ من مجموع صادرات الولايات المتحدة. الجانب المحزن من مرحلة «ملك القطن» هي الزيادة الحادة في الطلب على العبيد. لذا بلغت نسبة العبيد الذين يعملون في إنتاج القطن في الولايات المتحدة عام 1850 حوالي 67٪ من مجموع العبيد العاملين في الزراعة.

ب2. الارتباط الإفريقي

لم تكن الممالك والشعوب الإفريقية المختلفة مجرد ضحية بريئة لتجارة العبيد عبر الأطلسي. لقد كانوا أيضاً مشاركين بالضرورة في تلك التجارة. لقد دخلوا، سواء بالإكراه أو من خلال القسر الاقتصادي والعسكري غير المباشر، في علاقة تواطؤ مع المستعبِدين الأوروبيين.

بشكل عام، كان تجار العبودية الأوروبيون مترددين حين يتصل الأمر بالتوغل في الأراضي الإفريقية التي رأوها مظلمة ومخيفة وخطرة إلى جانب كونها غير معروفة. وأسهمت قصص مختلقة حول أكل لحوم البشر وغيره من المخاطر الغرائبية التي كان يرويها المحليون الأفارقة في إبقاء الأوروبيين محصورين ضمن المناطق الساحلية الآمنة. وبهذا الشكل اضطر أولئك الأوروبيون المتاجرون بلحوم البشر إلى الاعتماد على وسطاء أفارقة لدفع العبيد إلى الساحل حيث تتم المتاجرة بهم مع الأوروبيين.

لقد كان لدى الأفارقة بالتأكيد أشياء أخرى قيمة يمكنهم الاتجار بها مع الأوروبيين إلى جانب الرقيق الإنساني. كانت إفريقيا تنتج كميات كبيرة من الذهب والصمغ والعاج والجلود وزيوت النخيل والماشية والحبوب والنسيج والخشب، وكلها كانت مطلوبة بشدة في أوروبا. لكن التجار الأوروبيين كانوا على استعداد للمتاجرة ببضاعتهم الأقل قيمة فقط لقاء تلك المواد. عندما كان الأمر يتعلق بالأسلحة والذخائر وبعض أنواع الأقمشة، فإن البضاعة الوحيدة التي كانوا يقبلون بها كانت العبيد.

من الواضح أنه كان بإمكان الأفارقة ألا يشتروا الأسلحة أو الذخائر أو الأقمشة. لكن

لكي يبقى النوعان الأولان في عداد الضروريات للأفارقة، نشط الأوروبيون وبمهارة في إشعال الحروب مابين الممالك والقبائل الإفريقية المتجاورة. وبمجرد اشتعال الحرب كان من السهل نسبياً تبادل الأسلحة والذخائر مع أحد الفرقاء لقاء العبيد. ذلك التبادل جعل أحد الفريقين يعتمد بشكل حيوي على تبادل العبيد مع الأوروبيين من أجل الحصول على الأسلحة والذخائر. وباختصار استغل الأوروبيون الصراعات الموجودة بإشعال صراعات أخرى من أجل بدء صراع تسلح ترك القبائل والممالك الإفريقية المختلفة في مأزق الخيار بين خسارة الحرب والاتجار بالعبيد من أجل التموين العسكري.

مع أن العبودية كانت موجودة في إفريقيا قبل بدء تجارة العبيد عبر الأطلسي، فإن وجودها كمؤسسة كان متواضعاً نسبياً حين يقارن بما حدث مع مجيء العبودية في الأمريكتين. في المجتمع الأفريقي التقليدي، كان العبيد يستخدمون في المقام الأول لتوسيع الإمكانات المتاحة للرؤساء والملوك والأمراء فيما يتصل بالنسل. فمؤسسة العبودية في إفريقيا كانت منسجمة، من هذه الناحية، مع النوع العائلي، الأبوي أو المنزلي الذي سبقت الإشارة إليه. في المقابل كانت العبودية في الأمريكتين من النوع المنتج في المقام الأول.

هذا الانقسام ما بين العبودية الأبوية في إفريقيا والمنتجة التي تزعمتها الأمريكتان أنتج اختلافاً جندرياً[1] ما بين العبيد الذين تم الاحتفاظ بهم في إفريقيا والعبيد الذين شحنوا إلى العالم الجديد. في إفريقيا كان الطلب أساساً على النساء اللاتي يمكن أن يعملن خادمات وأمهات لتوسيع دائرة النسل لزعماء مختلفين. وعلى عكس ذلك كان الطلب في الأمريكتين على العبيد الرجال ممن يمكن تشغيلهم عمالاً زراعيين. وهكذا كان 65٪ إلى 70٪ من العبيد الذين أرسلوا إلى العالم الجديد من الرجال.

(1) مصطلح «جندري» من الكلمة الأجنبية (Gender) ويشير إلى الفروق بين الذكورة والأنوثة والعلاقة بينهما، في مقابل «جنس» التي تحمل إيحاءات أخرى، فالاختلاف الجندري غير الاختلاف الجنسي (المترجم).

ب3. الممر الأوسط

كما سبقت الإشارة، كان اصطياد العبيد في إفريقيا في البداية مهمة يقوم بها الأفارقة وحدهم تقريباً. وبمجرد الإمساك بهم كان أولئك العبيد يسيّرون على اليابسة نحو الساحل في رحلة تستغرق عدة أسابيع. كانوا مقيدين بالسلاسل طوال الطريق ومجبرين على نقل أحمال ثقيلة (أحياناً تكون بضائع للمتاجرة، وفي أحيان أخرى مجرد صخور) وذلك للتأكد من أنهم مرهقين إلى درجة العجز عن الهرب. وحالما يصلون إلى الساحل كانوا يحشرون في حظائر تعتقلهم حتى يتم تبادلهم مع تجار العبيد الأوروبيين. بسقوطهم في أيدي الأوروبيين، كان العبيد يوسمون في البدء بأسياخ حديدية حارة ثم يخضعون لعملية الشحن عبر الأطلسي، وهي عملية باتت تعرف بالممر الأوسط.

ما يكتنف الممر الأوسط من رعب يتجاوز قدرة اللغة على وصفه تقريباً. كان العبيد يجردون من ثيابهم (من ناحية للحيلولة دون أن يقوموا بشنق أنفسهم، ومن ناحية أخرى لكي تبدأ عملية تجريدهم من إنسانيتهم التي يفترض أن تنتهي من الناحية النظرية بخنوعهم وقبولهم بعبوديتهم) ويقيدون بعضهم إلى بعض ويجمعون مثل السردين في معتقلات السفن. حالما تبدأ عملية الإبحار كان العبيد يمنحون كميات قليلة من المؤونة والماء، وكان توزيع الطعام والماء غالباً ما يتسم باللامبالاة. بالإضافة إلى ذلك كان العبيد يحضرون أحيناً ليرقصوا ويغنوا لإمتاع البحارة الأوروبيين، وكانوا كثيراً ما يضربون، وفيما عدا ذلك يبقون مقيدين في أوضاع مزعجة. أكثر من ذلك كانت الإمكانات المتاحة للنظافة في معتقلات السفن غير موجودة عملياً. طوال الرحلة كان يسمح للعبيد بأن يغتسلوا مرتين، المرة الثانية تكون قبيل وصولهم إلى المرفأ في الأمريكتين.

من الغني عن القول أن الافتقار للنظافة العامة والضرب المتكرر الذي يقع على العبيد كان يولّد العديد من الأمراض والأضرار البدنية. لذا كانت عمليات التفتيش التي تجري بين الحين والآخر تؤدي إلى عزل المرضى والمصابين بأضرار جسمانية بين العبيد. أولئك الذين يظهر أنهم أكثر هزالاً من أن يجلبوا سعراً جيداً في العالم الجديد كانوا يرمى بهم من السفينة أثناء

الرحلة وذلك لتوفير الأجر الزهيد الذي كان سينفق على مجرد إبقائهم على قيد الحياة. أما في الحالات التي تلد فيها النساء أطفالاً على السفينة، فإن الغالب هو أن الأطفال يلقى بهم في البحر مباشرة.

إذا أخذنا هذه الظروف في الاعتبار ونظرنا إلى أن رحلة الممر الأوسط العادية تستغرق من عدة أسابيع إلى بضعة أشهر، فإنه لن يكون من المدهش أن يقدر عدد المتوفين من العبيد أثناء الانتقال إلى الأمريكتين ما بين 10٪ وما يزيد على 20٪. في حالة واحدة على الأقل (الرحلة التي حملت عبداً يعرف فقط بأنه مسلم بول) 33٪ من العبيد الذين صعدوا السفينة لم يصلوا إلى العالم الجديد أحياء.

ب4. العبيد الأفارقة في الأمريكتين

حين يصل العبيد الأفارقة إلى العالم الجديد كانوا يباعون فوراً إلى أعلى المساومين في مزادات ضخمة للعبيد في الكاريبي والبرازيل وفي جنوب الولايات المتحدة. وما إن يباعوا حتى يؤخذ العبيد مباشرة إلى العمل ليمروا بمرحلة من اختبار القدرة على البقاء للتأكد من قدرتهم على احتمال بيئة الأمراض في الأمريكتين. كثير من العبيد كانوا يموتون أثناء السنة الأولى من الاختبار. أكثر العبيد الذين تم بيعهم في الولايات المتحدة قبل القرن الثامن عشر كان عليهم أن يمروا بفترة الاختبار على البقاء في جزر الكاريبي.

عدد العبيد الأفارقة الذين شحنوا إلى العالم الجديد غير معروف. السجلات ناقصة والتوثيق غير موجود غالباً. لذا ما يزال الجدل قائماً بين المؤرخين حول هذه المسألة. ومما أعاق الجدل أن شحن العبيد من إفريقيا إلى الولايات المتحدة منعه القانون بعد 1 يناير 1808. وعلى الرغم من أن شكلاً من أشكال المتاجرة غير القانونية بالعبيد استمر بعد 1860 فإن السجلات المتصلة بها تبقى غير موثوقة.

ما هو متفق عليه بشكل عام الآن هو أن التقديرات السابقة التي تقول بأن عدد الأفارقة

المستعبدين الذين أحضروا إلى الأمريكيتين بلغ تسعة ملايين ونصف أقل بكثير من الرقم الحقيقي. مع تزايد المعلومات التي اكتشفت وحللت عبر السنوات الماضية ترفع التقديرات المعاصرة الرقم إلى ما يقارب الخمسة عشر مليوناً وربما العشرين مليوناً. من أولئك يبدو أن عشرة ملايين أو أكثر شحنوا إلى ما صار الآن الولايات المتحدة، وكانت الشحنة الأولى مرسلة إلى لوكاس دي ليون عام 1526.

بغض النظر عن عدد العبيد الذين أرسلوا إلى الأمريكتين، المؤكد هو أنهم شكلوا نسبة كبيرة من السكان. عندما ننظر إلى جزر الكاريبي نجد أن ما يقارب 33٪ من السكان في كوبا القرن الثامن عشر كان من العبيد. غير أن المقارنة بجزر الكاريبي الأخرى تجعل هذا العدد عادياً. فقد بلغت نسبة العبيد 90٪ في جامايكا عام 1730، وفي أنتيغوا عام 1775، وفي غرينادا في 1834. وفيما يتعلق بأمريكا الجنوبية، كان 50٪ من السكان في البرازيل عبيداً في عام 1800. وفي الولايات المتحدة ومستعمراتها السابقة كان 64٪ من السكان في كارولاينا الجنوبية من العبيد عام 1720. وكان سكان المسيسبي يتألفون من 55٪ من العبيد في عامي 1810 و1860. وبلغت نسبة العبيد في الجنوب الأمريكي 40٪ من السكان في عنفوان ما يعرف بـ «ملك القطن» في القرن التاسع عشر، وكان أكثر من 36٪ من العبيد بين سكان العالم الجديد موجودين في الولايات الجنوبية الأمريكية في عام 1825.

2. العرق والرق

قبل أن نلتفت إلى الأفارقة العبيد الذين كانوا من المسلمين، من المفيد أن نتوقف قليلاً لنتأمل في العلاقة الحميمة ما بين العرق والعبودية في تجارة العبيد عبر الأطلسي.

طوال التاريخ المعروف كان الاستعباد الإنساني مؤسسة خارجية. فباستثناء الاستعباد نتيجة للدين أو الإجرام، كان الرقيق يجلبون من مناطق سكانية تعد «خارج» المناطق السكانية لمن يملكون أولئك الرقيق. بهذا الشكل كان العبيد يتم الحصول عليهم من قبائل وبلاد ومجموعات عرقية وانتماءات دينية تختلف عن تلك التي ينتمي إليها المالك. غير أن هذه العملية لم تحصر

العبودية في مجموعة إثنية واحدة أو عرق واحد.

العبودية التي مارسها الأوروبيون كانت منسجمة أساساً مع السيناريو المشار إليه. كان العبيد خارجيين بالنسبة للسكان الذين ينتمي إليهم المالك، لكن العبيد لم يكونوا يجلبون حصرياً من عرق واحد: لم تكن هناك معادلة ضمنية مابين العبودية والعرق. مع بداية القرن السادس عشر تغير هذا النمط في أوروبا وصارت العبودية الأوروبية تمارس على الأفارقة وحدهم. في أحد وجوهه كان التغير انعكاساً للأمر البابوي الذي أصدره البابا نيكولاس الخامس عام 1454 والبابا كاليكستوس الثالث عام 1456. كلا الأمرين برأ تجارة العبيد البرتغالية وبررها بالنظر إليها بوصفها حملة صليبية من أجل المسيحية في وجه الوثنيين والمسلمين في إفريقيا. ومن ناحية أخرى، كان ذلك التغير انعكاساً للتفسير الحرفي للنص التالي من «العهد القديم»:

> وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما وحاما ويافث وحام هو أبو كنعان. هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض. وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرما. وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا. فاخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته. وقال مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبدا لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبدا لهم. (سفر التكوين 9: 18–127)

ثمة وجوه عديدة للقصة الواردة في العهد القديم سيجدها القارئ الواعي بلا معنى مطلقاً: أحد أنبياء الله يسكر، وأحد الأحفاد تحل عليه اللعنة لأن أباه شاهد ما يدّعى من عري نوح، والعبودية الدائمة التي يمنى بها نسل أحد الأبناء بسبب عمل غير مقصود، الخ. على الرغم من هذه السخافات، كانت هذه القصة مما يؤمن به أتباع الموروث المسيحي–اليهودي إيماناً راسخاً، ولهذا الايمان تأثير مباشر على فهم جذور التحيز العرقي في الثقافة الأوروبية الأمريكية غير الرسمية وفي تجارة العبيد عبر الأطلسي.

لفهم هذا الارتباط لابد من معلومتين: الأولى تضمنت القائمة التي تسمى «قائمة الشعوب» الواردة في سفر التكوين 10: 1—32، أن حام هو أبو الشعوب الإفريقية. ثانياً، قرّ في الذهن المسيحي الشعبي عبر القرون الماضية اعتقاد طاغ بأن لعنة نوح المدعاة أدت إلى أن يكون لنسل حام جلد أسود، وذلك على الرغم من أن هذا الاعتقاد ليس له ما يسنده من الكتاب المقدس.[1] هذا الجذر المسيحي – اليهودي للتحيز والتعصب والظلم ظل يتلقى الدعم حتى منتصف القرن العشرين، وأذكر جيداً أنني كنت أُدرَّس وأنا صبي صغير في مدرسة الكتاب المقدس أثناء الإجازة أن حام ونسله حوّلوا إلى سود نتيجة للعنة نوح.. لكن دعني أضيف أنه على الرغم من وجود أصوات معزولة لبعض الأفراد المسيحيين الذين ما يزالون يعظون الناس بهذا المبدأ، فإني لا أعرف كنيسة مسيحية واحدة تتبنى هذه الرؤية علناً.

باختصار لم يكن الظلم العرقي في التاريخ الأمريكي والممارسات الوحشية التي اتسمت بها تجارة الرقيق عبر الأطلسي مجرد نتيجة للممارسات الثقافية الأوروبية – الأمريكية، وإنما كانت في جوهرها مسألة مبدأ ودوغما دينية شعبية. كانت جزءاً من نسيج الموروث اليهودي – المسيحي في التاريخ الأمريكي وقصة لعنة نوح للشعب الحامي سمحت للكثير من الكنائس المسيحية أن تعتقد أن الرق والإهانة والتعامل غير الإنساني للأفارقة الأمريكيين هو من تشريع السماء. يضاف إلى ذلك أنه ترافق مع النظر إلى مجتمع الكنيسة بوصفه إسرائيل جديدة، وإلى عيسى المسيح بوصفه إبراهيم جديداً، أن بعض الكنائس المسيحية رأت المسيحي الأوروبي الأمريكي متفوقاً من حيث الجوهر على من عداه، ليس لمجرد كونه منحدراً من أصل غير حامي، وإنما أيضاً نتيجة انتمائه الديني.

من الغني عن القول أنه ضمن هذه المرجعية، وجد العبيد الأفارقة ذوو الانتماء الديني الإسلامي أنفسهم ملعونين لعناً مضاعفاً. فهم من ناحية منحدرون من حام وكنعان، أحفاد مكرسون «من السماء»، كما هو مفترض، ليكونوا عبيداً للآخرين. ومن ناحية أخرى، لم يكونوا غير مسيحيين فحسب، وإنما مسلمين، أي من فئة يراهم معظم مسيحيي القرن

(1) ليست هذه القصة غريبة على الموروث العربي الإسلامي فقد ذكرها ابن الأثير في كتابه «الكامل»، ج1 وإن أشار إلى عدم اعتقاده بصحتها تماماً (المترجم).

العشرين بوصفهم أسوأ من الوثنيين.

ج. العبيد المسلمون في الأمريكتين

بدأ الاتصال الإسلامي بإفريقيا عام 615 حين سمح النبي محمد لأربعة عشر ويقال ستة عشر من المسلمين الأوائل أن يسعوا إلى اللجوء الديني في مملكة الحبشة المسيحية (إثيوبيا وإريتريا). وبمجيء القرن السابع، كان معظم شمال إفريقيا واقعاً تحت حكم الخلافة الإسلامية، ومعظم السكان في شمال إفريقيا وصحرائها قد اعتنقوا الإسلام. وفي وقت مبكر من القرن الحادي عشر، حقق الإسلام مكانة بارزة في غرب إفريقيا نتيجة لتحول حاكمين بارزين إلى الإسلام هما وار ديابي وكوسوي. كان الأول يحكم المنطقة المعروفة الآن بشمال السنغال في حين كان الأخير يحكم ما صار الآن مالي. لقد انتشر الإسلام مابين 1725 ومنتصف القرن التاسع عشر إلى ما صار الآن غامبيا وغينيا وشمال مالي. بالإضافة إلى ذلك كان التجار العرب وسيطاً مهماً في نشر الإسلام على امتداد الساحل الشرقي لإفريقيا.

أثناء فترة تجارة العبيد عبر الأطلسي، كانت قبائل عديدة في غرب إفريقيا مسلمة أساساً. قائمة تلك القبائل المسلمة تشمل: فولبي، فولاني، أو التكولور؛ ماندي أو ماندينكا؛ ماندارا؛ ولوف؛ فاي؛ نوباي، سوسا؛ أشانتي؛ ويوروبا أو ناغو. حدود التأثير الإسلامي لهذه القبائل يمكن أن تتضح من خلال حقيقة أن حوالي 50٪ من اليوروبا، وحوالي 90٪ من الهوسا والماندينكا، وحوالي 95٪ من الفولاني مسلمون.

د2. التوزيع السكاني للعبيد المسلمين في أمريكا

كما سبقت الملاحظة، ليس ثمة أدلة موثقة تدعم أية استنتاجات نهائية بشأن العدد الدقيق للأفارقة الذين أحضروا إلى أمريكا عبيداً. من هنا فإنه ليس أمام الدارسين والباحثين سوى أن يخمنوا ويفترضوا بناءً على الدلائل المتوفرة، علماً بأن التقديرات المعاصرة لأعداد العبيد

الذين جيء بهم إلى العالم الجديد يتراوح ما بين 15 و20 مليوناً.

تزداد صعوبة المسألة حين نحاول أن نحدد نسبة المسلمين بين هؤلاء الأفارقة العبيد. قوائم السفن لا تسجل، كالعادة، أي انتماء ديني للعبيد المنقولين. ومثل ذلك يمكن أن يقال عن قوائم مزادات بيع العبيد وتملكهم في الأمريكتين، فهي أيضاً لا تقول شيئاً في العادة عندما يأتي الأمر إلى ديانة العبد.

بناء على ما تقدم، من الضروري أن يخرج الدارسون المعاصرون باستنتاجات مبنية على ثلاثة اعتبارات. أولاً، بعض العبيد كانت لهم أسماء إسلامية واضحة. ولأن غير المسلمين من الأفارقة لم يستعملوا أسماء إسلامية، فإن وجود اسم إسلامي في قائمة أسماء إحدى السفن، أو في قائمة مزاد، أو قائمة عبيد في مزرعة، هو مؤشر واضح ولا يقبل الشك أن الفرد المشار إليه مسلم. ومع ذلك بما أنه كان هناك عدد كبير من العبيد الذين منحوا أسماء مسيحية، وبما أن الأفارقة المسلمين لم يحملوا جميعاً أسماءً إسلامية واضحة، فإن المرء لا يستطيع الاعتماد على هذا الاعتبار الأول. اعتبار ثانٍ وبالغ الأهمية يتصل بالانتماء القبلي للعبد. كان الانتماء القبلي يشار إليه أحياناً في بعض السجلات المدونة المتعلقة بالعبيد. إذا كان العبد ينتمي لقبيلة الماندينكا أو الهاوسا أو الفولاني أو أية قبيلة أخرى من القبائل المسلمة، فإن من الممكن إلى حد كبير استنتاج أن العبد مسلم على الأرجح مع تباين الترجيح حسب نسبة المسلمين في القبيلة المقصودة. أخيراً، هناك بعض الحالات التي لا يعرف فيها لا الاسم الإفريقي ولا الانتماء القبلي للعبد. في حالات كهذه يغلب أن تعرف المنطقة الإفريقية التي أخذ منها العبد بشكل عام. إذا كان العبد التقط من غرب إفريقيا، فإن احتمال كون العبد مسلماً يكون أكثر مما لو التقط من إقليم الكونغو.

على أساس الاعتبارات الثلاثة هذه قدم الباحثون عدداً من التقديرات فيما يتصل بنسبة العبيد الأفارقة المسلمين. كما هو الحال في يتعلق بتقدير العدد الكلي للعبيد الأفارقة المحضرين إلى العالم الجديد، فإن التقديرات المبكرة تميل إلى أن تكون أقل من التقديرات الحديثة. فقد كتب أوستن عام 1984، مثلاً، أنه يقدر نسبة العبيد المسلمين بـ 10٪ من مجموع العبيد المنقولين

من غرب إفريقيا (التي نقل منها ما يزيد على نصف العبيد المنقولين إلى أمريكا الشمالية). بعد 14 عاماً قدر ديوف عدد المسلمين بما يتراوح بين 15 و20٪ من مجموع العبيد المنقولين. أحد أسباب رفع ديوف للنسبة هو أنه نظر في الاعتبارات التالية: 1) 29٪ من الأفارقة الذين كانوا يعيشون في المكسيك عام 1549 كانوا من قبائل مثل الوولف والتكولور والماندينكا، وكل أولئك كانوا معروفين بارتفاع نسبة الإسلام بينهم؛ 2) 15٪ من الأفارقة العبيد في البيرو ما بين عامي 1560 و1650 كانوا من قبائل الوولف والماندينكا والفولاني والسوسو؛ 3) 30٪ من العبيد المستوردين إلى كارولاينا الجنوبية ما بين 1733 و1807 كانوا من غرب إفريقيا الذي يهيمن عليه الإسلام؛ 4) 58٪ من العبيد المحضرين إلى فرجينيا ما بين 1710 و1769 كانوا من غرب إفريقيا؛ 5) حوالي 67٪ من العبيد المستوردين إلى لويزيانا على يد الفرنسيين كانوا من سينيغامبيا في غرب إفريقيا؛ 6) ما يزيد بقليل على 46٪ من كل العبيد المحضرين إلى أمريكا الشمالية يبدو أنهم جاؤوا من مناطق في غرب إفريقيا ذات الوجود الإسلامي الكبير. ومع ذلك فإنه لم تكد تمضي خمسة أعوام على تحليل ديوف العلمي حتى قام أحمد بمراجعة التقديرات ورفعها مقترحاً أن ما يقارب الثلاثين بالمائة من كل العبيد الأفارقة كانوا من المسلمين.

في الوقت الحالي يبدو أن من الممكن أن نخلص إلى أن ما بين 20 و30٪ من جميع الأفارقة العبيد المحضرين إلى العالم الجديد كانوا مسلمين. وإذا كان عدد العبيد الأفارقة المحضرين إلى العالم الجديد يقدر بما بين 15 إلى 20 مليوناً، فإن هذا يوحي بأنه ما بين ثلاثة وستة ملايين إفريقي مسلم تم استعبادهم في الأمريكتين.

كما سبقت الإشارة، كان ما يقارب 65٪ من الأفارقة العبيد المحضرين إلى الأمريكتين من الرجال. غير أنه يبدو أن من بين العبيد المسلمين كانت نسبة النساء أقل بكثير إذ تراوحت ما بين 30 و35٪ من مجموع أعداد العبيد المجلوبين. ويعكس هذا من ناحية الموقف الإسلامي التقليدي المتعلق بحماية النساء مهما كان الثمن. فديوف مثلاً يقدر أنه مابين 15 إلى 20٪ من مجموع المسلمين المستعبدين في الأمريكتين كن من النساء.

د3. من هم العبيد المسلمون

إحدى التصورات النمطية المؤسفة والتي عاشت طويلاً في الولايات المتحدة هي أن الأفارقة العبيد الذين أحضروا إلى هذه البلاد لم يكونوا أكثر من متوحشين أميين، غير متعلمين وبلا حضارة. جانب من هذا التصور النمطي الخاطئ ربما تم تكريسه ليدعم الادعاء الذي لا يقل ضلالاً وهو أن العيش في العبودية الأمريكية كانت للعبيد الأفارقة أفضل من العيش في الحرية الإفريقية. وعلى الرغم مما في تلك التصورات من أوهام في تصوير العبيد الأفارقة بشكل عام، فإنها تصبح أكثر إيهامية وسوء نية حين تطبق على العبيد المسلمين.

حسب التعاليم الإسلامية الأساسية، كان التعليم ذا أهمية كبيرة عبر إفريقيا الغربية. فكما أشير سابقاً في الفصل الثاني، كانت تمبكتو واحدة من مراكز غرب إفريقيا الأكاديمية الكبرى. كانت تمبكتو، الموجودة في مالي الحالية، مزدانة بالعديد من المكتبات (بل إن بعض المكتبات الخاصة ضمت أكثر من 700 مجلد)، والعديد من المدارس (أكثر من 150 مدرسة أثناء القرن السادس عشر)، إلى جانب جامعة شهيرة اسمها «الجامعية» وكانت موجودة في مسجد سانكور حيث اجتذبت طلاباً وباحثين من مناطق لا تقل بعداً عن شبه الجزيرة العربية. ما بين القرن الرابع عشر ونهاية تجارة العبيد عبر الأطلسي، قامت المعاهد الأكاديمية في تمبكتو بتدريب الآلاف المؤلفة من الطلاب في الدراسات الإسلامية، واللغة العربية، والأسلوب الأدبي، والبلاغة، والمنطق، والتاريخ، والرياضيات، والفلك، والفلسفة، وعلم الخرائط.

ومع ذلك فلم تكن تبمكتو نجم التعليم الوحيد الذي زين سماء إفريقيا الغربية المسلمة. في كانو بنيجيريا كان ما يقارب الثلاثة آلاف معلم عند نهاية القرن الخامس عشر. كانت قبيلة الفولاني في بندو (في السنغال حالياً) قد أسست مدارس في كل مدينة. بنهاية القرن التاسع عشر، كان 60٪ من الناس في السنغال يستطيعون القراءة بالعربية. في الحقيقة، طوال فترة الاتجار بالعبيد عبر الأطلسي، كانت أكثرية مسلمة في غرب أفريقيا متعلمة ومثقفة، ومن ذلك ما يقارب 20٪ من النساء المسلمات. أكثر من ذلك، كان معظم أفراد قبيلة الماندينكا تقريباً يقرؤون ويكتبون.

بالمقارنة مع وضع التعليم الناجح في غرب إفريقيا الإسلامي إبان الفترة من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر، كانت الأغلبية الساحقة من الأوروبيين والأمريكيين أمية تماماً. يضاف إلى ذلك أن نسبة القراءة والكتابة بين الإناث الأوروبيات والأمريكيات كانت تقريباً غير موجودة في حين كانت أقل بكثير من 20٪ بين النساء المسلمات في غرب إفريقيا. وفي حين استطاع النظام المالي الليبرالي أن يضمن لماندينكا تمبكتو تعليماً مجانياً أو شبه مجاني لكل من لم يستطيعوا تحمل تكاليف تعليمهم، فإن الولايات المتحدة لم تؤكد على التعليم ونشر القراءة والكتابة بين الجماهير حتى بداية القرن التاسع عشر. بل إنه حتى فترة متأخرة هي عام 1828 كان يقدر عدد الأفارقة الذين يقرؤون ويكتبون بالعربية في السنغال، وهي لغة ثانية لهم، أكبر من عدد الفلاحين الفرنسيين الذين يقرؤون ويكتبون بالفرنسية.

باختصار، كان المسلمون المستعبدون الذين أحضروا إلى الأمريكتين أناساً ذوي تعليم عالٍ بمقاييس ذلك الوقت. كان معظمهم يقرؤون ويكتبون على الأقل بالعربية، وقد قدرت نسبة القراءة والكتابة بالعربية بين الأفارقة العبيد في الأمريكتين بأنها أعلى من نسبتها في اللغة الإنجليزية بين ملاكهم. كان معظم المسلمين العبيد ثنائيي اللغة (العربية مع لغتهم الإفريقية المحلية). بل إن بعضهم كان ثلاثي اللغة أو أكثر، على أساس أنهم سبق أن درسوا التركية أو إحدى اللغات الأوروبية.

لقد كان معظم هؤلاء المسلمين المستعبدين قد درسوا القرآن قبل أن يستعبدوا، وكان البعض منهم قد تعرف أثناء وجوده في إفريقيا على أجزاء رئيسية من الكتاب المقدس لدى المسيحيين، ومن ذلك بالتحديد: «الأسفار الخمسة»، «المزامير»، وأناجيل «العهد الجديد». يضاف إلى ذلك أن بعض هؤلاء المسلمين الأفارقة كان قد درس أفلاطون وأرسطو وأبوقراط أثناء مراحل تعليمهم في إفريقيا. أخيراً ينبغي ملاحظة أن العديد من المتاحف في الجنوب الأمريكي ما تزال تضم مخطوطات عربية كتبها أولئك الأفارقة المسلمون. من يطالع في تلك المخطوطات سيجد نصاً كاملاً من القرآن أو أجزاءً منه بل وكتباً فقهية إسلامية بأكملها حفظها أولئك المسلمون المستعبدون حين كانوا يدرسون في إفريقيا. وظل بعض أولئك المستعبدين

المسلمين بعد سنوات يحتفظون بتلك الثقافة ليدونوا هذه المجلدات من الذاكرة!

من هنا يأتي السؤال: من يا ترى كان أولئك المسلمون رفيعو الثقافة المستعبدين في أمريكا؟ للإجابة على هذا السؤال يحتاج المرء لإدراك أي الناس كان أكثر عرضة للإمساك به كي يستعبد في إفريقيا. ويقتضي هذا نظرة قصيرة إلى الوراء إلى إفريقيا وإلى الأفارقة الأكثر تعرضاً لمخاطر الاستعباد.

بشكل عام كانت هناك مجموعتان من الناس الأكثر عرضة لمخاطر الاستعباد. فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن أحد الطرق الرئيسة للاستعباد هي أن يؤسر الإنسان في الحرب، فإنه لا ينبغي أن نفاجأ بأن كثيراً من المسلمين المستعبدين الذين أخذوا إلى أمريكا كانوا ضباطاً عسكريين محترفين، ومسؤولين حكوميين، وأمراء في ديارهم. لقد كانوا فئة من الأشخاص الذين تلقوا تدريباً وتعليماً عاليين. الفئة الأخرى التي كانت معرضة بشكل خاص للخطر تألفت من أولئك المنشغلين بالأسفار الكثيرة والذين كانوا غالباً وحدهم فيها. وبالنظر إلى نظام التعليم في غرب إفريقيا فإن الأشخاص الأقرب إلى الانشغال بأسفار كتلك هم الباحثون والمعلمون المحترفون. أولئك الأكاديميون كانوا كثيراً ما يسافرون لمسافات طويلة للحصول على المزيد من المعرفة وليعلّموا ما تعلموه. بين هذه الفئة من المستعبدين المسلمين يجد المرء أفراداً كثيرين تلقوا تعليماً جامعياً ومن بينهم عدد ليس بالقليل ممن نالوا شهادات جامعية عالية (ماجستير أو دكتوراه). في صفوفهم كان المحامون والمعلمون والأساتذة الجامعيون و«الأئمة» (من يؤمون الناس في الصلاة والمتخصصون في العلوم الدينية).

كما سبقت الإشارة في مكان سابق من هذا الفصل، كان من بين المسلمين الأفارقة المستعبدين في الأمريكتين ما يقارب 15 إلى 20٪ فقط من النساء. في المقابل كان 30 إلى 35٪ من مجموع الأفارقة العبيد في أمريكا من النساء. لقد اقترح أن السبب في تلك النسبة المنخفضة من النساء المسلمات المستعبدات له علاقة بالموقف الإسلامي التقليدي بشأن حماية النساء. إننا بعد استعراض السبيلين الرئيسين للاستعباد في إفريقيا، يمكننا أن نلاحظ أيضاً أن من أضعف الاحتمالات أن تنشغل النساء بالحروب الفعلية أو بالسفر وحدهن لمسافات

طويلة. هذه العوامل كان لها إسهامها أيضاً في انخفاض نسبة النساء المسلمات المستعبدات في الأمريكتين.

د4. حياة المسلمين المستعبدين في أمريكا[1]

عند وصولهم إلى الشواطئ الأمريكية كان المسلمون العبيد القادمون من إفريقيا يخضعون لكل أنواع التحقير والإهانة والمصاعب، مثلهم في ذلك مثل غيرهم من العبيد الأفارقة. فالإفريقي سواء كان مسلماً أم وثنياً كان يعيش حياة خطرة ومتقلبة وغالباً ما كان عمره في أمريكا أقصر من المعتاد. غير أن كون الإفريقي المستعبد مسلماً يضعه في مواجهة صعوبات عديدة لا يشاركه فيها زملاؤه من غير المسلمين. في مواجهة هذا الهجوم المزدوج الحدة على المسلمين العبيد في العالم الجديد، سنبدأ بالتركيز على طبيعة الحياة التي كان معظم، إن لم يكن كل، الأفارقة يحيونها في الأمريكتين بغض النظر عن انتمائهم الديني. بعد الانتهاء من ذلك الاستعراض، سننظر في تلك المصاعب الخاصة التي احتفظ بها للأفارقة المسلمين.

يمكننا أن نبدأ استعراضنا لحياة العبد بالنظر في البناء القانوني الذي يحكم العبودية في أمريكا. كانت القوانين التي تحكم العبودية في معظم المستعمرات في الأمريكتين قائمة على قوانين العبودية الموجودة في البلد الأصلي للمستعمرين في أوروبا. فالمستعمرات الإسبانية في العالم الجديد، مثلاً، أسست قوانين العبودية لديها على «السييت بارتيداس» لعام 1263–1265 وقوانين العبودية الإسباني لعام 1789. ومثل ذلك فعلت المستعمرات الفرنسية بالعودة إلى القوانين السوداء لعام 1685 في عهد لويس الرابع عشر.

بيد أنه لم تكن هناك مؤسسة للعبودية في إنجلترا، الأمر الذي أتاح للمستعمرات الإنجليزية في العالم الجديد حرية وضع قوانينها من المجموع الكلي المتاح. وفي الحقيقة لم تكن هناك قوانين تحكم مؤسسة العبودية في المستعمرات الإنجليزية حتى قامت جزيرة باربيدوس بسن أول مجموعة قوانين عام 1688، بعد مرور 187 عاماً على قيام القوى الأوروبية بإحضار العبيد

(1) Hellie R (2003) and Diouf SA (1998).

إلى الأمريكتين. حتى ذلك الحين كان ملاك العبيد في برابيدوس مطلقي الحرية في التعامل مع عبيدهم بالطريقة التي يشاؤون. بعد مرور اثنين وخمسين عاماً، أي في عام 1740، أسست كارولاينا الجنوبية قوانينها الأولى على تلك التي وضعتها باربيدوس. وبقيت المستعمرات الثلاث عشرة الأخرى التي ستشكل فيما بعد الولايات المتحدة حرة في اتباع ما تراه من أساليب في وضع قوانين العبودية الخاصة بها.

لفهم طبيعة قوانين العبودية تلك ولإدراك أنواع الرعب التي أنزلتها بالمستعبدين، لا يحتاج المرء إلى أكثر من استعراض القليل من القوانين وقرارات المحاكم الصادرة في الجنوب الأمريكي. 1) كانت قوانين العبودية في كارولاينا الجنوبية تنص على أن العبد يقع خارج «سلام الولاية». ويعني هذا أن «سلام الولاية» لا يتأثر أو يُخالف بأي اعتداء أو ضرب يقع على العبد. إن من الصعب على المرء ألا يقشعر في مواجهة هذه الرخصة التي منحها مثل ذلك التفكير لفئة من البشر في الإساءة إلى فئة أخرى من البشر أيضاً. 2) في قضية «منفّذ كريزويل ضد والتر» في ألاباما لعام 1860، حكمت المحكمة أن العبد ليس له عقل أو إرادة قانونية يمكن للقانون الاعتراف بها وأن العبد غير قادر من الناحية الجوهرية على ممارسة أفعال مدنية. 3) تضمنت قوانين لويزيانا لعام 1824 على أن العبد ليس له الحق بأن يتزوج. 4) على امتداد الجنوب الأمريكي لم يكن للعبد حق قانوني في امتلاك أي شيء (بما أن كل ما يملكه العبد كان تلقائياً ملكاً لسيده) وأنه ممنوع من الزواج خارج عرقه أو عرقها. الإعتاق أو تحرير العبد كان غير جائز قانونياً في كارولاينا الجنوبية عام 1820، وفي المسيسبي عام 1822، وفي أركانساس عام 1858، وفي ماريلاند وألاباما عام 1860. 6) أخيراً كانت القوانين المختلفة التي تحكم العبودية في الجنوب الأمريكي قبل 1830 عاجزة كالمعتاد عن التعرض لقضايا حيوية مثل ساعات العمل التي يطلب من العبد العمل خلالها وما إذا كان للعبد أية حقوق في الطعام والملبس.

بعد الوقوف على ما سبق من الضروري الاعتراف بأن قوانين لويزيانا للسود لعام 1806 جرّمت معاقبة العبد بطريقة قاسية وغير معتادة. يضاف إلى ذلك أن عشر قوانين مختلفة على

امتداد الجنوب الأمريكي سنت البيع القسري إلى مشتر آخر أو الإعتاق لعبد أسيئت معاملته. لكن مع الأسف كانت هذه القوانين قليلا ما تفرض ولم تكن أكثر قيمة من الورق الذي دونت عليه. وهكذا اعتبرت قضيتا كارولاينا الجنوبية ضد هوفر لعام 1839 وألاباما ضد جونز لعام 1843 مثيرة للجدل لأن المحاكم كان لديها التهور الكافي لكي تعاقب ملاك العبيد بسبب ضربهم عبيدهم إلى حد الموت. إن ردة الفعل لقرارات المحكمة في تلك الحالتين توضح أن لمالك العبد الحرية في قتل عبده في أي وقت ولأي سبب في العديد من جهات الجنوب الأمريكي.

بما أن العبيد في الجنوب الأمريكي كانوا ممنوعين من الزواج خارج نطاق العرق، فإن الأكثرية بين العبيد الذكور، أي حوالي 65–70٪ من مجموع العبيد، لم تكن لديهم فرصة للزواج. يضاف إلى ذلك أنه حتى في الحالات التي تزوج فيها العبيد وصارت لهم عائلات، فإن ملاك العبد في الجنوب الأمريكي كانوا في الغالب يقومون بتدمير الزيجات والعائلات الأساسية لعبيدهم بأن يبيعوا أحد الزوجين، أو الوالدين، أو الأطفال. أكثر من ذلك لم يكن اغتصاب العبدات من قبل ملاكهن والمشرفين عليهن من البيض أمراً نادراً، وإنما أضاف مصاعب جديدة أمام تأسيس الزواج وبناء العائلة بين العبيد. أخيراً، بانتهاء استيراد العبيد الأفارقة إلى الولايات المتحدة من الناحية القانونية في 1 يناير 1808، كان على ملاك العبيد الجنوبيين أن يجدوا طرقاً جديدة للحفاظ على إمداداتهم من العبيد وزيادتها. فعلوا ذلك بتلقيح عبيدهم كما لو كانوا مجرد قطعان من الماشية. فكما يقوم مالك العبد باختيار الثور الأفضل لتلقيح الأبقار، فإنه يمكنه اختيار العبد الذكر الأكثر قوة لتلقيح «قطيعه» من العبدات. ولتبين نجاعة هذا الأسلوب يمكن الرجوع إلى الإحصائيات الرسمية للولايات المتحدة التي توضح أن عدد العبيد في الجنوب الأمريكي ارتفع من 657,327 إلى 3,838,765 ما بين عام 1790 و1860.

كما سبقت الإشارة لم تكن في الجنوب الأمريكي قوانين بشكل عام توضح حدود الشدة التي يقف عندها مالك العبد في تشغيل عبده. لهذا السبب كان ملاك العبيد، دون مبالغة،

يجبرونهم على العمل حتى الموت، ومنطقهم في ذلك أن من الأرخص لهم أن يشتروا عبداً جديداً من أن يخففوا من أعباء العبد ويدفعوا تكلفة احتياجاته ومعيشته الأساسية. وكان ذلك ما يحصل بشكل خاص في حالة الأيدي العاملة في الميدان والذين تجاوزوا مرحلة الذروة في حياتهم العملية.

تأسيساً على الخطر الحقيقي المتمثل في العمل حتى الموت، نشأت طبقية في عمل العبيد في جنوب الولايات المتحدة. العبيد المكلفون بالأعمال الأسهل والحاصلون بالتالي على أفضل الفرص للاستمرار أحياءً، كانوا خدماً في المنازل. بعدهم جاء أولئك العبيد الذين عملوا نجارين وبنائين وخياطين، الخ. وفي أسفل السلم[1] وبأقل معدلات البقاء كانت الأيدي التي تعمل في الحقل. بين الأيدي العاملة في الحقل كان أولئك الذين عملوا في زراعة التبغ أفضل حالاً من أولئك الذين كدحوا في صناعتي السكر والقطن اللتين تطلبتا جهداً أكبر. لكن بغض النظر عن المهارات والقدرات التي كانت لدى أولئك العبيد المقيدين في الجنوب الأمريكي، فإنهم بوصفهم عبيداً كانوا ممنوعين من ممارسة الأعمال المختلفة التي كانت ستتيح لهم إظهار قدراتهم وذكائهم الحقيقي.

كانت تخصص للعبد بشكل عام مجموعتان من الملابس سنوياً. وكانت تلك الملابس تصنع دائماً تقريباً من أرخص الأقمشة التي كانت باستمرار خشنة وغير مريحة وغير مناسبة لمناخ وبيئة العمل. غير أن بعض ملاك العبيد رفضوا حتى أن يمنحوا مملوكيهم أي لباس، وبهذا خفضوا من تكلفة العناية بأولئك العبيد. ومما يؤكد أن تلك الأوضاع كانت قائمة فعلاً وعلى نحو متكرر هو عدد الإعلانات عن العبيد الهاربين التي تضمنت وصفاً لهم يشير إلى كونهم فارين إما عراة تماماً أو عليهم قطعة خِلقة مربوطة على خصورهم. في وجه تلك الظروف كان العبيد يذهبون إما عراة أو يشترون ملابساً بنقود كسبوها من: تأجير أنفسهم في الليل؛ بيع ما يحصلونه من عملهم الليلي في الحدائق أو صيد الحيوانات أوالأسماك، الخ. في إحدى تلك الحالات على الأقل، برر أحد ملاك العبيد رفضه لإلباس عبيده بالقول أن إلباسهم لم يكن

(1) بدلاً من «السلم» استخدم المؤلف عبارة «العمود الطوطمي» totem pole التي بدا أنه استعملها على سبيل المجاز لتوحي بالهرمية فوجدت أن «سلم» تعبر عن المعنى (المترجم).

أكثر معقولية من إلباس القطيع أو الحمير أو الكلاب.

لقد وصف تشارلز بيل، وهو أحد العبيد المولودين في الأمريكتين، وبأسلوب مفعم بالحيوية، ملابس بعض رفاقه العبيد. وصف رجلاً مسناً لا يلبس أكثر من قميص خلق يتدلى مزقاً من رقبته وذراعيه، كما وصف فتاتين صغيرتين تلبسان تنورتين، في حين أن امرأة لم تكن تلبس سوى قميص بدون صدر وقطعة من حقيبة قطنية عتيقة مربوطة حول وسطها. هذا إلى جانب ولد عارٍ تماماً.

لم تكن الإهانات التي يتلقاها العبيد والمتمثلة بعدم توفر الملابس دائماً انعكاساً لجشع مالك العبد، أو ساديته، أو رذيلته الجنسية. في بعض الأحايين كانت تلك الإهانات مسألة قانونية. فمثلاً كانت عدة أماكن في الأمريكتين تمنع العبيد من لبس ما يتخلص منه ملاكهم من ملابس أو أي ملابس يوحي قماشها أو ألوانها أو شكلها بما يلبسه البيض. في عام 1830 ذهبت سورينام إلى حد إصدار قانون يمنع الإماء من ارتداء أي ملابس فوق الخاصرة.

لقد كانت أوضاع العبيد المعتقلين في الأمريكتين، لاسيما أولئك الذين تعرضوا للمعاملة البربرية في الجنوب الأمريكي بما يرهقون به من عمل وما يضن عليهم من طعام وملبس وما يتعرضون له أحياناً من عقاب قد يصل إلى 1000 جلدة بالسياط أو إلى الحرق على الخازوق، إنما تعني أنهم لم يكونوا يعاملوا بأكثر مما تعامل به الحيوانات التي تحمل الأثقال ويسهل التخلص منها. لتوضيح ذلك تأمل في الوقائع والأرقام التالية. في نهاية القرن الثامن عشر كان العبد في الحالات الاعتيادية يحصل حوالي 257 دولاراً في السنة لسيده. في المقابل كان السيد ينفق حوالي 13 دولاراً في السنة على الطعام والكساء والاحتياجات العامة للعبد. بالنظر إلى مجموع ما سبق ذكره، لا ينبغي أن يدهش أحد لأن يكون العمر المتوقع للعبد خمسة عشر عاماً فقط. أما إن عمل العبد في مناخ قاس وتحت ظروف عمل شديدة بشكل استثنائي فإنه لا يتوقع أن يعيش أكثر من ستة أعوام.

د5. صعوبات استثنائية للمسلمين العبيد

عانى العبيد المسلمون كل ما يعانيه نظراؤهم من غير المسلمين. غير أن المسلمين أنزلت بهم صعوبات استثنائية أعفي منها الآخرون. فيما يلي سنتفحص القليل من تلك الأعباء التي اختص بها المسلمون.

يقرر الإسلام أن الدين يقوم على خمسة أعمدة: الشهادة، وأداء الصلوات الخمس في مواعيدها، والصوم أثناء الشهر القمري رمضان، ودفع الزكاة من فائض أموال الفرد، والحج إلى مكة في وقته المحدد لمرة واحدة في العمر إذا كان الإنسان قادراً مادياً وجسمانياً على أدائه. بطبيعة الحال، لم تحل العبودية دون تلفظ الإنسان بالشهادة عند دخول الإسلام. ومثل ذلك لا تحول العبودية دون دفع الزكاة لاسيما أن العبد ليس لديه فائض يدفعها منه. غير أن العبودية في الأمريكتين تدخلت في ممارسة أعمدة الدين الثلاثة المتبقية.

أوقات الصلاة المفروضة في الإسلام هي قبيل طلوع الفجر، وقبيل الظهر، وبعد منتصف المدة ما بين الظهر والغروب بقليل، وبعد الغروب بقليل، وبعد اكتمال دخول الليل. يضاف إلى ذلك أن على المسلم أن يتوضأ قبل كل صلاة. جدول العمل بالنسبة للعبد في الأمريكتين حد بشكل أساسي من قدرة العبد على أداء الصلاة الثانية والثالثة وفي بعض الأحيان الرابعة من بين الصلوات اليومية. ويمكن للمرء أن يتخيل غضب الشخص الأبيض المسيحي القائم على العبد أو مالكه لو علم أن العبد يحتاج إلى وقفة عشر دقائق في منتصف حصاد القطن لكي يتوضأ ويؤدي صلاة غير مسيحية! حتى اليوم يواجه المسلمون في الغالب صعوبة في مجال العمل الأمريكي لكي يجدوا وقتاً أو لكي يسمح لهم أن يؤدوا الصلوات. لذا عليك أن تتخيل الصعوبات في وجه المسلم المستعبد.

الصيام أثناء الشهر القمري رمضان هو عمود آخر من أعمدة الإسلام التي تقف الصعوبات الجمة في وجه العبيد المسلمين في الأمريكتين لكي ينهضوا بمتطلباته. فعلى المسلمين أن يصوموا طوال الشهر من الفجر حتى الغروب. أثناء هذا الوقت عليهم أن يمتنعوا عن الأكل والشرب. (هناك استثناءات متنوعة لصيام رمضان للأطفال وللمرضى والحوامل والمرضعات

والمسافرين. لكن باستثناء الحالات الشديدة الصعوبة، لابد من قضاء تلك الأيام في وقت آخر من السنة). نتيجة للمجهود البدني الذي تفرضه العبودية في المقام الأول والمقادير الشحيحة التي تعطى للعبيد عادة، فإن العبد يمكن أن يعرّض حياته للخطر إن هو صام رمضان. ومع أن هذا الخطر قد يمنح العبد استثناءً مشروعاً من الصوم، فإن اضطراره لتجاوز رمضان دون صوم كان اعتداءً آخر على ممارسة المسلم العبد لدينه.

الحج إلى مكة وممارسة شعائر الحج تمثل عموداً دينياً آخر مشروطاً بقدرة المسلم المادية والجسدية على أداء الحج. ومن الواضح أن المسلم المستعبد في أمريكا ليست له لا الحرية الجسدية ولا الإمكانيات المادية لأداء الحج. لذا فإنه معفى من الالتزام بأداء الحج، لكن ذلك يأتي على حساب قدرته على تحقيق إحدى أكثر التجارب التي ترفع المسلم روحانياً ويمكن لأي مسلم أن يعيشها.

ومع ذلك فإن الصعوبات التي واجهها المسلم العبد ولم يواجهها نظراؤه لم تقتصر على سعيه للالتزام بالأعمدة الخمسة فحسب. كما أن التعدي على حياة المسلم العبد الدينية لم يكن مقتصراً على عدم قدرته على القيام بما تفرضه الأعمدة الثلاثة للدين الإسلامي. الإسلام ليس مجرد ممارسة لخمسة طقوس: إنه أسلوب حياة شامل كان المسلمون العبيد يمنعون في الغالب من ممارسته.

كل المسلمين مثلاً مطالبون بقراءة القرآن، الكتاب المنزل، ودراسته. بالنسبة لأولئك المسلمين العبيد الذين كانوا قد حفظوا القرآن كاملاً، كان للعبودية في الأمريكتين أثر ضئيل على قدرتهم على التفكير والتأمل في الرسالة المقدسة التي تضمنها القرآن طالما لم يرهقهم العمل فيناموا. غير أن معظم المسلمين العبيد في العالم الجديد لم يكونوا قد حفظوا القرآن بأكمله. بالنسبة لهم كان الحصول على نسخة من القرآن قضية كبرى. استطاع بعضهم أن يجعلوا زميلاً آخر من العبيد أن يدون القرآن من الذاكرة، لكن ذلك تطلب شراء القلم والورق. بعضهم، لاسيما أولئك المقيمون في أمريكا الجنوبية، كان بإمكانهم أن يشتروا نسخاً من القرآن من تجار يتعاملون مع غرب إفريقيا المسلم. لكن ذلك كان يعني توفر الإمكانيات

المادية للشراء. في حالات قليلة جداً، قام بعض المسيحيين المتعاطفين بإعطاء المسلمين العبيد نسخاً من القرآن. أما بقية المسلمين العبيد في الأمريكتين فقد كانوا مجبرين على الاعتماد على تذكر بعض أجزاء القرآن التي كانوا قد حفظوها في إفريقيا. وباختصار، كان معظم المسلمين المستعبدين في الأمريكتين ممنوعين من الوصول إلى دليلهم الديني الأول ومصدر إلهامهم الروحاني. كان ذلك الفقد بالنسبة لهم أكبر من أن يقدر.

تدخل آخر في ممارسة المسلمين العبيد للإسلام يتصل بقيود الطعام. كما سبقت الإشارة، قام ملاك العبيد بإطعام مماليكهم قدراً ضئيلاً من الطعام في محاولة لتقليل التكلفة. نتيجة لذلك، كان العبيد يتلقون قدراً ضئيلاً من اللحم في غذائهم. وحين يعطون اللحم فإنه كان من أرخص الأنواع المتوفرة، والتي كانت دائماً من لحم الخنزير. إن الإسلام، تماماً كاليهودية، يحرم أكل الخنزير.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. (البقرة: 173)

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ... فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. (المائدة: 3)

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(الأنعام: 145)

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. (النحل: 115)

كما هو واضح، كل الآيات القرآنية تمنع أكل الخنزير، ولكن كل منها تسمح باستثناء في حال الضرورة القصوى. المؤكد هو أن الحالات التي وجد فيها معظم المسلمين العبيد أنفسهم

تبدو محققة لشرط الضرورة. ومع ذلك فإن بعض المسلمين العبيد امتنعوا عن الخنزير الذي يعطَون أحياناً واستعاضوا عنه في طعامهم بما يصطادون من الحيوانات أو الأسماك في الليل، الأمر الذي حرمهم من النوم الذي كانوا بأمس الحاجة إليه. حتى بالنسبة لأولئك المسلمين الذين أكلوا الخنزير تحت استثناء الضرورة المقرر، فإن فعل الأكل نفسه كان غالباً ما يمارس بوصفه مخزٍ ومقرف.

صعوبة أخرى واجهها المسلمون العبيد تمثلت في حالات العري أو شبه العري التي فرضت على الكثير من العبيد. الإسلام يفرض الاحتشام في اللباس سواء للرجال أو النساء. من هنا كان الافتقار إلى اللباس الكافي عبئاً ثقيلاً على المسلمين العبيد. ونتيجة لذلك وحيثما أتيحت لهم الفرصة، اضطر المستعبدون المسلمون إلى القيام بعمل إضافي جانبي في الاعتناء بالحدائق أو الصيد من أجل توفير المال الذي يمكنهم من شراء اللباس الذي يحقق الحشمة. وحين يتعذر الحصول على المال، كان على العبيد المسلمين أن يتحملوا الإهانة الشديدة المتمثلة بإظهار أجسادهم بطرق يمنعها دينهم.

كما سبقت الإشارة، كان المسلمون العبيد المستوردون من إفريقيا إلى أمريكا يتمتعون بمستوى عالٍ من معرفة القراءة والكتابة والتعليم. فمن ناحية كانت لديهم فرصة استعمال معرفتهم وذكائهم في محاولة الحصول على وظائف للعبيد أقل تطلباً للجهد البدني. لذا كان التعليم بالنسبة لهم ميزة واضحة. ومن ناحية أخرى، كانت معرفة القراءة والكتابة تعد بالنسبة للعبد وفي أغلب الحالات غير قانونية إلى جانب أنها وباستمرار ينظر إليها كشيء غير مرغوب فيه مطلقاً. من هنا كان على العبيد المسلمين أن يكونوا شديدي الحذر في إظهار ما لديهم من معرفة وثقافة. فبما أن أولئك العبيد المسلمين كانوا في الغالب أفضل تعليماً من ملاكهم، فإن إظهار أكثر مما ينبغي من المعرفة والقدرة على القراءة والكتابة يمكن أن ينظر إليه بوصفه تحدياً أو تهديداً أرعناً. كما أنه يمكن أن يعد رفضاً مباشراً لنظرية التفوق الجوهري للبيض التي «يقرها الكتاب المقدس» التي كان يؤمن بها ملاكهم. في أي مِن الحالتين، كان من الممكن للنتيجة أن تكون عقوبة شديدة القسوة قد تصل حد الموت.

لقد سبق أن وردت الملاحظة أن حوالي 15–20٪ فقط من مجموع المسلمين المستعبدين المرسلين إلى العالم الجديد كن من النساء. كانت تلك مشكلة رئيسية للذكور المستعبدين الذين رغبوا في الزواج، على أساس أن المسلمين الذكور يسمح لهم بالتزوج فقط من مسلمات أو من «أهل الكتاب»، أي اليهود والمسيحيين.

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (الآية). (المائدة: 5)

نتيجة لهذا الوضع الذي لا يزيد فيه عدد النساء المسلمات المستعبدات عن 15–20٪ في الأمريكتين، ومع عدم وجود يهود بين العبيد الأفارقة في العالم الجديد، ونتيجة لاعتناق العبيد الأفارقة للمسيحية بعد فترة طويلة من الإقامة في أمريكا، أدى كل ذلك إلى ترك النسبة الكبرى من المسلمين الذكور بلا زوجات يمكن العثور عليهن حسب تعاليم الإسلام. ومن هنا كان فقدان إمكانية الزواج عبئاً غير عادي حمله العبيد المسلمون.

بالنسبة لأولئك المسلمين الذين استطاعوا الزواج كانت القضية التي واجهتهم هي كيف سيتمكنون من تعليم أطفالهم المبادئ الأساسية للإسلام. في بعض أجزاء أمريكا الجنوبية كان ذلك التعليم ممكناً في بعض الأحيان. في باهيا في المرحلة التي سبقت 1835، وباهيا مجتمع إسلامي شبه مستقل في البرازيل، كان بإمكان من سبق أن كان معلماً أو رجل دين في إفريقيا من قبل أن يعلم الشبان المسلمين القرآن وأساسيات الدين بالعربية. وكان من المعلمين المسلمين المعروفين في باهيا: 1) داندارا، وهو عتيق مسلم ومعلم سابق في قبيلة الهاوسا؛ 2) أبريغيو، وهو مسلم حر؛ 3) سنيم، وهو فرد مستعبد من قبيلة نيوب وكان معلماً من قبل، درّس في منزل بيلتشيور دا سيلفا كونها، وهذا الأخير كان بناء للقرميد ومسلماً محرراً من قبيلة ناغو؛ 4) داسالو (مامادو)، نيكوبي (سليمان)، غستارد (إبراهيم)، وهم ثلاثة من أفراد قبيلة ناغو المستعبدين. مما يتوفر من معلومات حالياً، يبدو أن هذه المدارس المنزلية كانت مجهزة بنصوص مكتوبة، وألواح للكتابة، بالإضافة إلى المتعلقات الأخرى بفصول الدراسة. هذه المدارس الإسلامية كانت قادرة على أداء عملها في باهيا حتى عام 1835، مع أن تطبيق

الإسلام كان ممنوعاً في البرازيل من الناحية القانونية.

في تناقض واضح مع ما أنجز في باهيا، كانت فرص التعليم المتوفرة للمستعبدين من الأطفال المسلمين قليلة جداً في الجنوب الأمريكي. فقد كان البالغون والأطفال على حد سواء مرهقين بالعمل ولم يكن هناك وقت كاف حر يمكن للوالدين المسلمين أن يهتما فيه بتعليم أطفالهما. ومما زاد من تعقيد العملية أن تعليم العبد أن يقرأ ويكتب كان ممنوعاً قانوناً على امتداد الجنوب، وكانت الاحتياجات المدرسية الأساسية غير موجودة تقريباً. لذا كان على الوالدين المسلمين أن يفكرا طويلاً وعميقاً في مسألة الإتيان بأطفال إلى هذا العالم، فهما يعلمان أنهما لن يستطيعا على الأرجح أن يعلماهما الدين الإسلامي. وقد يساعد هذا المأزق في توضيح الحقيقة الماثلة في أن حوالي نصف المستعبدين المسلمين في الأمريكتين لم ينجبوا.

كما يتضح مما سبق، واجهت المسلمين الأفارقة المستعبدين في الأمريكتين عدداً كبيراً من الصعوبات المتصلة بسعيهم للحفاظ على دينهم الإسلامي. كانت المساجد تبنى، ويعتنى بها، ويعمل فيها العاملون، سراً. كان لابد من الاحتفاظ بالتقويم القمري للتعرف على دخول رمضان والأعياد الإسلامية، التي كان كلها قائماً على التقويم القمري غير المستعمل في العالم الجديد. كان لابد للختان والأعراس والمآتم أن تجرى حسب التقاليد الإسلامية ولكن بعيداً عن أعين وإدراك أولئك من غير المسلمين ممن يمكن أن يبلغوا عما يجري. القيود الغذائية والصوم كان لابد من الحفاظ عليها قدر المستطاع. كان لابد من أداء الصلوات المفروضة. كل تلك المتطلبات شكلت أعباء استثنائية على العبيد المسلمين في سعيهم للحفاظ على موروثهم الإسلامي.

صعوبة أخيرة واجهت المستعبدين المسلمين في أمريكا. بينما كان العتق صعباً دائماً بل مستحيل التحقيق في أجزاء كثيرة من الجنوب الأمريكي، كان اعتناق ديانة مالك العبد المسيحية مطلوباً لتوفر أي أمل في الحرية. أوجد ذلك ضغطاً هائلاً على العبد المسلم لكي يعتنق المسيحية، على الأقل في الظاهر. ومن هنا أنتجت الأمريكتان ما يوازي موريسكيي إسبانيا، أي مسلمين استمروا في ممارسة الإسلام في السر وهم يعلنون مسيحيتهم. وقد ألقت

الحاجة إلى الحفاظ على مظهر عام بالمزيد من العبء على الوالدين المسلمين عندما تعلق الأمر بتعليم أطفالهما.

د. نتيجة وملخص

على الرغم من الضغوط الهائلة التي ناء بها كاهل العبيد المسلمين في الأمريكتين، تشير السجلات التاريخية المتوفرة إلى أنه لم يتخل أحد منهم عن دينه الإسلامي. ومع ذلك فإن أولئك المسلمين المخلصين لم يستطيعوا في بعض الحالات أن ينقلوا دينهم لذريتهم. ومن هنا فقد قدر أن الإسلام الحقيقي الذي وصل الأمريكتين من إفريقيا لم يستمر بعد وفاة آخر الأفارقة المعتقين حوالي 1920–1930. لكن كما سيتضح من الفصل السابع، ترك ما تبقى من الإسلام بعد أولئك المسلمين المستعبدين أثراً مهما داخل المجتمع الأفرو–أمريكي بثقافته وحياته الدينية.

هـ. الدور الإسلامي في ثورات العبيد

هـ1. مقدمة

بالنظر إلى الأحوال التي وضع فيها العبيد في الأمريكتين، فإنه ليس من المستغرب أن يثور أولئك العبيد بين الحين والآخر ضد ملاكهم. وعلى الرغم من الاحتمالات الضئيلة جداً أمام نجاح ذلك التمرد، فقد حدث عدة مرات في الأمريكتين الشمالية والجنوبية. المشترك بين تلك المرات هو دور المسلمين العبيد فيها.

لكي يحقق تمرد العبيد فرصة ولو بعيدة للنجاح فلابد له من أن يكون منظماً ومنسقاً بشكل صحيح بين عبيد لملاك عدة. أكثر من ذلك كانت بعض المعرفة العسكرية الأساسية ضرورية. هذه الاعتبارات تطلبت من العبيد قدراً كبيراً من المهارة التنظيمية والمعرفة العسكرية والقدرة على الاتصال سراً بعضهم مع بعض عبر المسافات الطويلة. وكان دور المسلمين بشأن

هذه المتطلبات بالغ الحيوية. أخيراً بما أن المستعبدين المسلمين كانوا على دراية بالعربية سواء الشفاهية أو المكتوبة أثناء وجودهم في إفريقيا، فقد لعبوا دوراً مفصلياً في تحقيق المستوى المطلوب من سرية الاتصالات عبر المسافات.

فيما يتعلق بدور المسلمين العبيد في المحافظة على الاتصالات السرية قبل وأثناء تمرد العبيد، فإن الفوائد المتحققة من مهاراتهم في استعمال العربية مشافهة وكتابة كبيرة وبالغة الأهمية. هنا تتبادر مسألتان عند تأمل هذا الجانب.

1) لقد جاء العبيد الأفارقة إلى الأمريكتين من خلفيات قبلية متنوعة، لكل واحدة منها لهجتها أو لغتها. اللغة الوحيدة التي كان بإمكانها توحيد أولئك العبيد بينما هي غير مفهومة لملاكهم والمشرفين عليهم من البيض هي اللغة العربية.

2) من خلال العربية المكتوبة المدونة على قطع من القماش أو الورق، كان بإمكان العبيد في إحدى المستعمرات أن يتصلوا ويخططوا وينسقوا جهودهم مع العبيد في مستعمرة أخرى. لو تم اعتراض إحدى الرسائل المكتوبة من قبل أحد من غير المسلمين، فإن الرسالة ستبقى غير مفهومة وقد ينظر إليها كما لو كانت خربشات لتعويذة أو رقية أمية إفريقية.

فيما يلي سنتناول دور العبيد المسلمين في عدة تمردات للعبيد. في كل حالة سيرد عرض موجز لثورة العبيد، ومن ذلك سيتضح دور العبيد المسلمين في التمرد.

هـ2. ثورة «الأميستاد»

لقد اكتسبت ثورة «الأميستاد» شعبية واسعة نتيجة للفيلم الذي صنعه ستيفن سبيلبرغ عام 1997 حاملاً الاسم نفسه. حقق الفيلم نجاحاً كبيراً عند شباك التذاكر بينما هو رواية متخيلة لثورة العبيد التي حدثت على «سكونة» إسبانية تدعى «الأميستاد».[1] من أخطاء الفيلم الساطعة كان عدم الاكتراث بدور المسلمين في تلك الثورة الناجحة.

(1) «السكونة» مركب شراعي ذو صاريين أو أكثر (المترجم).

في مارس أو أبريل من عام 1839، انطلقت شحنة من العبيد الأفارقة على سفينة تدعى «تيكورا» لتبدأ رحلة طويلة ومؤلمة من مركز الاحتفاظ بالعبيد في لومبوكو إلى كوبا. كانت الشحنة غير عادية في أن العديد من الأفارقة على ظهرها تألفوا من النساء وأطفال. لكن كان هناك شيء واحد على الأقل اشترك فيه ركاب الـ «تيكورا» من العبيد مع كل شحنات العبيد الأخرى تقريباً. طوال الطريق أنزلت بالعبيد الأفارقة كل أنواع القسوة المستعصية على الوصف مما ينزل عادة في «الممر الأوسط».(1) فعلى طول الرحلة كان أولئك مقيدين بعضهم إلى بعض تحت ظهر المركب في مكان لا يزيد ارتفاعه عن أربعة أقدام. كانوا يضربون ويجلدون، ويوضع على جراح بعضهم الخل والبارود. وفي حين كانوا يعطون مقادير من الأرز أكثر من اللازم فقد كانوا لا يمنحون سوى القليل من الماء فكانوا يعذبون بالعطش المتواصل. بالإضافة إلى ذلك كانوا يرغمون على أكل كل الأرز الذي يعطون إياه وإلا جلدوا بالسياط. أحياناً كانوا يرغمون على الأكل إلى حد التقيؤ. مات العديد من الأفارقة أثناء عبور الـ «تيكورا» لـ «الممر الأوسط».

عندما وصلوا كوبا في يونيو، أنزل الأفارقة من الـ «تيكورا» في قرية بالقرب من هافانا تحت جنح الليل، بما أن إسبانيا كانت قد منعت رسمياً نقل العبيد من إفريقيا عام 1820. بعد إنزالهم في كوبا، تم شراء 49 منهم من قبل هوزيه رويز ليعملوا في مزرعة قصب سكر بسعر 450 دولاراً للشخص، بينما اشتري أربعة أطفال (ثلاث بنات وولد) من قبل بيدرو مونتيز. هؤلاء العبيد الثلاثة وخمسون أخذوا عندئذٍ عبر هافانا في ظلمة الليل إلى الـ «أميستاد».

في ليلة السادس والعشرين من يونيو، 1839، ركب مونتيز ورويز وثلاثة من البحارة الإسبان وعبدان يملكهما كابتن «الأميستاد»، إلى جانب 53 عبداً إفريقياً، ركبوا الأميستاد» التي أبحرت بهم في السابع والعشرين من يونيو في رحلة امتدت لثلاثة وعشرين يوماً نحو بويرتو برنسيب في كوبا. بالإضافة إلى الثلاثة وخمسين إفريقياً مستعبداً، حملت «الأميستاد» شحنة من الصحون والملابس والمجوهرات الخ.، كلها تم التأمين عليها بـ 40 ألف دولاراً. وأمّن رويز على عبيده الأفارقة التسعة وأربعين لقاء 20 ألف دولاراً، بينما أمّن مونتيز على

(1) سبقت الإشارة إلى أن «الممر الأوسط» عبارة تطلق على عملية الشحن عبر الأطلسي (المترجم).

أطفاله المستعبدين الأربعة بـ 1300 دولاراً.

وضع الأفارقة الثلاثة وخمسون في القيود مباشرة ووضع الحديد على أيديهم وأقدامهم وأعناقهم. وبعد الإبحار بقليل، واجهت «الأميستاد» رياحاً غير مواتية هددت بإطالة مدة الرحلة المتوقعة إلى أكثر من الضعف. لذا بدأت عملية تقنين صارمة لكمية الطعام المقدمة للأفارقة والقليلة أصلاً. ومع نقص الماء والطعام والتعرض للجلد المستمر كان لابد للأفارقة أن يتأملوا في مصيرهم.

في الثاني من يوليو، 1839، استطاع «سينك»، وهو أحد العبيد، أن يستخرج مسماراً محلولاً من السفينة. بالمسمار استطاع فتح قفل قيوده وقام بتحرير رفاقه العبيد. ومن خلال التسلل خلسة استطاع العبيد أن يحرروا كمية من سكاكين قصب السكر من مخزن السفينة ومهاجمة البحارة. قتل القبطان والطباخ، وأخذ أحد عبدي القبطان ومالكي العبيد الآخرين سجناء، بينما هرب البحاران الإسبانيان إلى ظهر السفينة ثم على قارب صغير وهربا. قتل اثنان من العبيد الأفارقة أثناء تحرير «الأميستاد».

في مقابل بقائهما على قيد الحياة وعد مونتيز ورويز أن يبحرا بالعبيد إلى إفريقيا. لكنهما خدعا العبيد بالإبحار شرقاً بشكل عام أثناء النهار ثم شمالاً وغرباً أثناء الليل. وقد ساعد مونتيز ورويز في إبحارهما المخادع هبوب رياح دفعت بـ «الأميستاد» إلى الشمال الشرقي على امتداد ساحل الولايات المتحدة. وهكذا استغرقت رحلة كان يفترض أن تستمر لثلاثة أيام تدريجياً لتصل مدتها إلى شهرين تقريباً. ولم تلبث الأوضاع التي كانت سيئة أصلاً بنقص الطعام والماء أن أصبحت لا تطاق فمات ثمانية آخرون من الأفارقة أثناء هذه المرحلة من الرحلة.

في 26 أغسطس 1839، اعترضت الشراعية «واشنطن»، التابعة لخفر السواحل الأمريكية، بقيادة الرائد بحري توماس ر. غيدني، وألقت القبض على «الأميستاد» قبالة كولودين بوينت في لونغ آيلاند، نيويورك. غير أن «واشنطن»، لسبب غير واضح، لم تسلم «الأميستاد» إلى مسؤولي نيويورك وأخذتهم بدلاً من ذلك إلى نيولندن في ولاية كونيتيكت حيث ألقي القبض

على العبيد بتهمة القرصنة وقتل اثنين من البحارة. (مما يذكر أن العبودية كانت غير مشروعة في نيويورك ولكنها مشروعة في كونيتيكَت. كانت القيمة المؤمن عليها للعبيد الأفارقة الثلاثة وخمسين 21,300 دولار، وطالب ضباط سفينة «واشنطن» بتعويض إنقاذ على قيمة العبيد الأفارقة في محاكم كونيتيكَت).

تبعت ذلك محاكمات جنائية. وفي منتصف يناير 1840، حكم القاضي هدسون في صالح المتهمين، أي العبيد الأفارقة، وأمر بإعادتهم إلى إفريقيا أحراراً. لكن ذلك الحكم استؤنف مباشرة، وفي سبتمبر 1840، صادق القاضي تومبسون في المحكمة الطوافة على قرار محكمة المنطقة.[1] ولكن هذا القرار استؤنف هو الآخر. أخيراً في فبراير ومارس 1841 تم الترافع بشأن قضية «الأميستاد» أمام المحكمة العليا، وكان ممثل الأفارقة فيها روجر بولدوين وعضو الكونغرس جون كوينسي أدامز، الرئيس السادس للولايات المتحدة. في 9 مارس 1841، صادقت المحكمة العليا على قرارات المحكمة الصغرى وأمرت بإطلاق سراح الأفارقة حالاً.

طوال مدة سجنهم كان الأفارقة يتلقون دروساً في أساسيات اللغة الإنجليزية وفي الديانة المسيحية على يد طلاب من مدرسة ييل اللاهوتية. فرض على كل الأفارقة أن يقرؤوا الأناجيل الأربعة من العهد الجديد. ولم تنته هذه العملية بإصدار المحكمة العليا حكمها. قبل إعادة الأفارقة إلى غرب إفريقيا، فرض عليهم أن يتحملوا دورة تعليم أخرى في دراسة اللغة الإنجليزية والمسيحية وأن يلقوا خطباً عامة لتحصيل المال اللازم لسفرهم إلى وطنهم. استمرت هذه الفترة الإضافية من التعليم من مارس إلى نوفمبر من عام 1841. في نوفمبر ركب الخمسة وثلاثون إفريقياً (كان عدد من أولئك الذين ألقي القبض عليهم قرب لونغ آيلاند قد ماتوا في أسر السجن) أخيراً سفينة «جنتلمان» المبحرة في رحلة العودة إلى إفريقيا. تكلفة رحلتهم دفعت جزئياً على الأقل من قبل جمعية إرسالية مسيحية قامت بتكليف عدد من الإرساليين ليرافقوهم بغرض تأسيس إرسالية مسيحية في غرب إفريقيا وتوقعوا من الأفارقة أن يساعدوا الإرساليين في دعوة غيرهم من الأفارقة إلى المسيحية. في يناير 1842، وصلت سفينة

(1) المحكمة الطوافة هي محكمة تنعقد في مكانين أو أكثر من منطقة قضائية واحدة (المترجم).

«جنتلمان» إلى فريتاون بسيراليون. وحال وصولهم قام معظم الأفارقة بترك الإرساليات وعادوا إلى سابق حياتهم ودينهم.

إن هناك أدلة قوية أن الكثير إن لم يكن معظم من كان على سفينة «الأميستاد» كانوا مسلمين. أحد أولئك الأفارقة، على سبيل المثال، واسمه با–يو Ba-u، ذكر أن أباه كان «مرابوط» (وهي عبارة غرب إفريقية تعني معلم مسلم، مرشد ديني، ورجل «صالح» في إفريقيا»). وأشار أيضاً إلى أن من التقاليد المرعية في بلاده أن يدفع الرجل مهراً لعروسه وأنه دفع 10 قطع من القماش وماعزاً وبندقية وعدداً من الحصر لزوجته. وقد قال بمثل ذلك إفريقي آخر من أفارقة «الأميستاد»، ندزها–غنواو–ني أو نغا–هو–ني، الذي أشار إلى أنه قدم 20 قطعة قماش وشالاً واحداً مهراً لزوجته. ما ذكره الإثنان يبدو أنموذجاً من الطريقة الإسلامية في تقديم المهر، أو ما يقدمه زوج مسلم إلى العروس عند زواجهما.

تأكيد إضافي للوجود الإسلامي على ظهر «الأميستاد» يأتي من رتشارد روبرت مادن. في كونيتكَت شهد مادن، وهو أيرلندي كان قد خدم الحكومة البريطانية في منطقة ساحل الذهب من غرب إفريقيا، وفي كنغستون، جامايكا، وفي هافانا، كوبا، في صالح أفارقة «الأميستاد» وذلك في 11 نوفمبر 1839 مشيراً بعد ذلك إلى أن عدداً من الأفارقة كانوا يعرفون طرق السلام العربية مثل «سلام عليكم» و«الله أكبر». إن هذا بحد ذاته يحمل دلالة كافية على حقيقة أن المسلمين كانوا جزءاً من تمرد «الأميستاد». لكن مادن استمر في شهادته ليشير إلى أنه حين بدأ يتلو ما وصفه بـ «الصلاة الإسلامية» بالعربية انضم إليه حالاً في التلاوة أحد المتهمين في «الأميستاد».(1)

إلى جانب المعلومات السابقة، التي تؤكد وجوداً إسلامياً على ظهر «الأميستاد»، يمكن أن نضيف التفاصيل التالية التي وفرتها رسالة بتاريخ 9 سبتمبر 1839 من لويس تبان، الإبطالي الرئيس في المساعدة على تحرير عبيد «الأميستاد».(2) ذكر تبان أنه زار السجناء الأفارقة في زنازينهم بعد أن زودوا باللباس الغربي، ولاحظ ما يلي: النساء الثلاث، وكانت اثنتان منهن

(1) Diouf SA (1998).

(2) «إبطالي» ترجمة لكلمة abolitionist الصفة التي شاعت في الولايات المتحدة للداعين إلى إبطال الرق (المترجم).

من الماندينكا تلبسان عباءات من الخام وربطن الشالات الصغيرة التي أعطيت لهن على شكل عمائم؛ أن معظم الرجال كانوا مختنين، حسب تقرير الطبيب الذي فحصهم؛ أن معظم العبيد كانوا من الماندينكا.(1)

إن ملاحظات تبان الثلاث تشير إلى وجود إسلامي قوي على ظهر «الأميستاد». أولاً، الإشارة إلى العمائم ذات دلالة خاصة، فكما لاحظ ديوف كانت النساء الوحيدات اللاتي يلبسن العمائم من المسلمين. ثانياً، يعد الختان للذكور إلزامي بين المسلمين. ثالثاُ، كما سبق أن اتضح في هذا الفصل، كل الماندينكا كانوا مسلمين تقريباً.

هـ3. الثورات الهاييتية والدومينيكانية

كانت جزيرة هسبانيولا، التي تقع إلى الشرق من هاييتي وإلى الغرب من جمهورية الدومينيكان، واحدة من أوائل المستوطنات الأوروبية في الأمريكتين. رأى كرستوفر كولومبس جزيرة كويسكويا لأول مرة في 6 ديسمبر 1492، وأعاد تسميتها لتصير «لا آيلا إيسبانيولا» (الجزيرة الإسبانية) التي جاء منها الاسم هسبانيولا. استعمر الإسبان هسبانيولا عام 1494 وجعلوها أول مستوطنة دائمة في العالم الجديد.

حين وصل الإسبان إلى هسبانيولا لأول مرة كان هناك من السكان 100,000 وعدة ملايين من الهنود من قبيلتي تاينو وسيبوني. قام الإسبان بسرعة باستعباد الهنود وإجبارهم على العمل في مناجم الذهب. ومن غير الممكن وصف أوضاع العمل بالنسبة لأولئك الهنود المستعبدين سوى بأنها كانت وحشية على نحو يصعب تصديقه. في عام 1514، بعد مرور 20 عاماً فقط على استعمار الإسبان لهسبانيولا لأول مرة، كان العمل في ظروف بربرية والتعرض للأمراض الأوروبية قد أنقص السكان الهنود إلى حوالي 30,000. وعلى مدى القرن السادس عشر، كان السكان الهنود قد أبيدوا تماماً.

نتيجة لمعدلات المرض العالية بين الهنود المستعبدين سارع الإسبان إلى استيراد الأفارقة

(1) Tappan L (1839).

العبيد لملء الفراغ الناتج عن ذلك. فمع أن مناجم الذهب استنفدت بسرعة فقد استمرت تجارة العبيد على المعدل نفسه. استعمل العبيد الأفارقة لإزالة الغابات من أجل حقول السكر ولتربية الماشية التي أحضرها المستوطنون الإسبان والفرنسيون من الجزيرة. لقد أصبحت جزيرة هسبانيولا، في حقيقة الأمر، تعتمد على العبيد الأفارقة إلى حد أن إحدى تقديرات السكان لعام 1789 خلصت إلى أن سانت دومينيك (الثلث الغربي من الجزيرة، الذي صار هايتي فيما بعد، والذي نقل من إسبانيا إلى فرنسا حسب معاهدة رجسفيك عام 1697) كان يقيم فيه 32,000 مستعمر أوروبي، و24,000 ملوناً وأسوداً معتقاً، بالإضافة إلى 500,000 عبد إفريقي[1].

الفرق الهائل في الأعداد بين الأوروبيين والأفارقة المستعبدين ساعد على جعل هسبانيولا أرضاً خصبة وعلى نحو استثنائي لثورات العبيد. فمن ناحية، يبدو أن العبيد الأفارقة في هسبانيولا كانت بينهم نسبة عالية من المسلمين، الأمر الذي ساعد العبيد كثيراً في التنظيم والاتصال السري بعضهم مع بعض باستخدام العربية الشفاهية والمكتوبة. ومن ناحية أخرى، ابتداءً من القرن السادس عشر طلب المستعمرون الأوروبيون وبالتحديد أن يكون بين العبيد المستوردين من لديه معرفة بتربية الماشية.

هذه المسألة الأخيرة كانت غير معتادة في مسيرة تجارة العبيد عبر الأطلسي. في حين أن العديد من الأفارقة العبيد اعتادوا على امتداد العالم الجديد على المشاريع الزراعية، فإن تلك المشاريع كانت تتسم بالاهتمام بالمحاصيل. في هسبانيولا كان الملاك البيض للعبيد يختلفون عن نظرائهم في الأمريكتين في أن اهتمامهم لم يكن بالمحاصيل وإنما بالماشية، من أبقار وخيول، بشكل خاص. وقد حقق تجار العبيد تلك الحاجة المحددة بإرسال موجة تلو أخرى من الأفارقة الذين كانوا قد استعبدوا كأسرى حرب والذين كانوا في الأساس فرساناً أخذوا أسرى من الممالك الإسلامية لغرب إفريقيا. هكذا أصبحت هسبانيولا ممتلئة بفرقة من العبيد الأفارقة ذوي التدريب العسكري المكثف والمعرفة اللازمة للتعامل مع هجمات الفرسان.

(1) الملون mulatto هو المولود لأبوين مختلفي العرق، أحدهما أبيض والآخر أسود (المترجم).

لقد كانت إحدى الطرق التي استطاع من خلالها المستوطنون الأوروبيون الأوائل السيطرة على أعداد كبيرة من العبيد وإبقائهم في القيد كان اعتمادهم على الفرسان. كل ما كان الأوروبيون يحتاجون إليه هو غارة من الفرسان لإدخال الرعب الشديد في عبيد متمردين ومتفوقين عدداً. ومن الغني عن القول أن تلك الحالة لن تتكرر حين يكون العبيد الذين يتلقون الغارة هم في المقام الأول من الفرسان المحترفين.

إذا انطلقنا وفي ذهننا هذه الخلفية سنستطيع أن ندرك بشكل أفضل أحداث أول سلسلة من ثورات العبيد في هاييتي. في عام 1522 ثارت قبيلة وولف المستعبدة، وهي قبيلة إفريقية مسلمة في المقام الأول، في مستوطنة دون دييغو كولون، وهو ابن كرستوفر كولومبس. قبيلة وولف المستعبدة استطاعت بسرعة أن تهزم القوة الإسبانية في مستوطنة كولون وانتشرت الثورة من مستوطنة إلى أخرى. حين حاول الإسبان تطبيق التكتيك المعتاد بإرسال قوة من الفرسان إلى وسط العبيد المتمردين لم يصب الوولف بالرعب ويهربوا. بدلاً من ذلك، وبوصفهم فرساناً مدربين ومن العارفين.بمداخل ومخارج الاشتباك العسكري حين يشن، فقد وقفوا صامدين حيث هم، أفسحوا للفرسان طريقاً ثم أغلقوا صفوفهم وتحركوا في الاتجاه المعاكس لملاقاة الهجمة المضادة.

لم يستطع الإسبان أن يسيطروا تماماً على تمرد الوولوف. في النهاية عندما استطاعوا أن يستعيدوا سيطرتهم على المستوطنات، انسحب الوولوف إلى الجبال في الداخل حيث أسسوا جماعات مستقلة تتمتع بحرية نسبية. تلك الجماعات والأفارقة الذين عاشوا في كنفها سموا فيما بعد بالمارون. باستعمال خيول استولوا عليها من الإسبان أسس الوولوف مارون كتيبة فرسانهم لتكون دفاعاً عن واحات حريتهم في العالم الجديد. على مدى العقود التالية، استمر الوولوف مارون في شن الهجمات والغزو على مستوطنات الإسبان. ففي رسالة لأحد المستوطنين إلى الملك الإسباني وصف المستوطن هؤلاء الوولوف مارون بأنهم على ظهور خيلهم طوال الوقت وأنهم مهرة وشجعان سواء في هجمات الفرسان أو في استعمال رمح الفارس.

مع أن ثورة الوولوف في عام 1522 أول ثورة للعبيد تهز السلطة الأوروبية على هسبانيولا، فإنها كانت أبعد من أن تكون الأخيرة. سلسلة ثانية من الثورات بدأت في منتصف القرن الثامن عشر وانتهت بتأسيس هاييتي المستقلة في 1 يناير 1804. لكن هذه المرة لم تكن إسبانيا هي التي تحملت وطأة التمرد. كانت إسبانيا قد تنازلت عن الثلث الغربي من هسبانيولا لفرنسا حسب معاهدة رجسفك عام 1697 ثم بقية هسبانيولا عام 1795 حسب معاهدة بازل. لذا انتزع عبيد هاييتي استقلالهم من جيش نابليون بونابرت الفرنسي.

بعد انتقال الثلث الغربي من هسبانيولا إلى فرنسا عام 1697، تحولت سان دومينيك سريعاً، بوصفها الثلث الفرنسي من هسبانيولا كما سميت عندئذٍ، إلى مستعمرة فرنسا الأكثر ربحية. غير أن الاضطرابات الشديدة وثورات العبيد المتصلة لم تغب. جماعات المارون كانت موجودة منذ ثورة 1522 وكانت تتسع باستمرار نتيجة لهرب العبيد الأفارقة، الذين كان الكثير منهم مسلمين. من الإعلانات والإشعارات حول العبيد الهاربين، يمكن التوصل إلى أن معدل الهروب السنوي كان ألفاً من العبيد الأفارقة. بمتابعة تلك الإعلانات يجد المرء الكثير من الأسماء الإسلامية، مثل: أيوب، علي، سليمان، يحيى، بلال، فاطمة، الخ. أكثر من ذلك، بعض تلك الإشعارات كانت تحدد كون العبد المطلوب يتحدث العربية بطلاقة.

ابتداءً من منتصف القرن الثامن عشر واستمراراً حتى وقت ثورة هاييتي (1791–1804)، قاد العديد من المسلمين ثورات المارون ضد الفرنسيين. قبل إعدامه في سبتمبر 1787، قاد أحد المسلمين المارون واسمه يحيى (وكان يسمى أيضاً غيلوت) ثواراً من المارون على امتداد أبرشيات تراو وتيريير روج. أما هالاو فهو إفريقي مسلم قاد جيشاً من آلاف المارون في مقاطعة كل–دي–ساك. غير أن الأكثر إثارة للرعب من المسلمين المارون فكان فرانسوا ماكاندال الذي عاش في منتصف القرن الثامن عشر.

كان ماكاندال إفريقي مسلم مولود في غينيا ويبدو أنه من قبيلة الماندينكا. كان على حظ عالٍ من الثقافة العربية أثناء وجوده في غرب إفريقيا وكان على الأرجح «مارابوط» (العبارة الشائعة في غرب إفريقيا لمعلم ومرشد ديني مسلم ورجل تقي). في عام 1740 بعد أن فقد

إحدى يديه في حادثة مطحنة للسكر هرب ماكاندال من مالكه واتجه إلى جماعات المارون في الجبال الداخلية. لكن ماكاندال لم يقنع بأن يعيش حياته حراً فحسب، فسعى إلى تحرير كل الأفارقة في هسبانيولا. خطته على المدى الطويل كانت تستهدف إيجاد هاييتي مستقلة يحكمها الأفارقة وذريتهم. لذا نظم مجموعة من المارون وعلمهم صناعة واستعمال السم، ثم قاد المجموعة خارج الجبال للقيام بهجمات متكررة ومدمرة على المستوطنات الأوروبية. لقد كان قائداً ثورياً ناجحاً إلى حد أنه ومجموعته اعتبروا مسؤولين عن مقتل ما يقدر بستة آلاف من أعدائه فقط خلال ثلاثة أعوام من حياته. ففي النهاية ألقي القبض على ماكاندال وأحرق على الخشب في 20 يناير، 1758. حتى اليوم يظل ماكاندال شخصية ذات أبعاد أسطورية في تاريخ هاييتي.

مسلم آخر صار أسطورة أيضاً في مسعى الهايتيين إلى الاستقلال كان عبداً يعرف فقط باسم بوكمان (أي رجل الكتاب، وهو وصف غرب إفريقي للمسلم الذي كتابه القرآن). إن المعلومات المتوفرة عن أصل بوكمان قليلة وقد أخطأ البعض في القول بأنه قس من الفودو. غير أن من المعروف أنه جلب من جامايكا إلى هاييتي. في ليلة الرابع عشر من أغسطس 1791، جمع بوكمان عدداً كبيراً من العبيد في غابة في منطقة بواس–كايمان. وفي حديث مفعم بالعاطفة، استطاع بوكمان أن يستثير همم المارون ورفاقه العبيد للحرب من أجل الحرية والاستقلال بتهزئة إله الأوروبيين، الإله الذي جلب الدموع والمعاناة للأفارقة المستعبدين. في المقابل أشار إلى أن إله العبيد كان طيباً وأنه أمرهم بأن يحاربوا من أجل حريتهم بالسلاح. خلال أسبوع، استطاع بوكمان ورفاقه أن يدمروا 200 من مزارع السكر و1800 من مزارع القهوة. ومع أن ألفاً من العبيد تقريباً قتلوا في هذه الأثناء، فقد استمر بوكمان في قيادة جيشه من المارون حتى أطلق عليه النار وقتل في نوفمبر من عام 1791.

هـ4. ثورات الباهيا

باهيا مقاطعة ضخمة في شرق البرازيل زارها المستكشفون البرتغاليون في العيد المسيحي

المعروف بـ «يوم كل القديسين»، الذي يوافق 1 نوفمبر 1501. أبحر البرتغاليون إلى الخليج الذي تقع عليه مدينة سلفادور وسموه «بايا دي تودوس أوس سانتوس»، أو «أول سينتس بي». حتى عام 1823 ظلت باهيا تحت الحكم البرتغالي. وكانت إمبراطورية البرازيل المستقلة قد أعلنت قبل ذلك بعام إلا أن قوات موالية للبرتغال استمرت في السيطرة على باهيا حتى 2 يوليو 1823.

كانت باهيا ابتداءً من القرن السادس عشر وحتى فترات من القرن التاسع عشر مستورداً رئيساً للعبيد الأفارقة. منذ بدايات القرن التاسع عشر تقريباً أصبح المستعبدون المسلمون عنصراً متزايد العدد من تجارة العبيد مع باهيا عبر الأطلسي. في تلك الفترة دخلت باهيا أعداد ضخمة من أفراد قبائل الهاوسا والفولاني واليوروبا والناغو المستعبدين، والذين كانوا جميعاً من المسلمين. فمثلاً تم جلب 8,307 من أفراد الهاوسا والناغو والإيوي ممن سبق استعبادهم إلى باهيا وذلك في عام واحد هو 1807. ومع التزايد المستمر لعدد المسلمين المستعبدين في باهيا، كانت الظروف مهيأة لسلسلة من ثورات العبيد.

في 26 ديسمبر، 1808، هربت أعداد كبيرة من الهاوسا والناغو من مستعمرات السكر. ولم يلبثوا حتى انضمت إليهم مجموعة من العبيد الهاربين ومعاً قاموا بمهاجمة مدينة نازار داس فارينهاس. ومع أن الثورة أخمدت في نازار داس فارينهاس وأن حوالي 100 عبد أخذوا أسرى، فإن من بقوا على قيد الحياة بين العبيد الهاربين استمروا في شن هجمات على طريقة حرب العصابات ضد المستعمرين الأوروبيين لعدة أشهر.

ثورة عبيد ثانية بدأت في 28 فبراير، 1814. فتحت إمرة أحد «المرابوط» من قبيلة الهاوسا، هاجم حوالي 600 من الأفارقة مدينة إيتابوان. ومع أنهم كانوا مسلحين تسليحاً ضعيفاً، فقد استطاع الأفارقة قتل 14 من البيض في حين فقدوا هم 58 من رجالهم، معظمهم من أفراد قبيلة الهاوسا.

في مارس 1814، بدأ تمرد عبيد ثالث. ما بين 1816 و1830، قامت على الأقل سبع عشرة ثورة في باهيا، كان المسلمون قادة لخمس منها ومشاركين فيها جميعاً. فعلى سبيل المثال،

في 10 أبريل، 1830 هاجم 20 من أعضاء قبيلتي اليوروبا والناغو مخزناً للخردوات وجهزوا أنفسهم بالسيوف والسكاكين. وقام متمردو الناغو، على ضعف تسليحهم، بالهجوم فوراً على سوق للعبيد وحرروا الأفارقة الذين كانوا سيباعون في المزاد. ومع الإضافات الجديدة التي عززت قدرتهم، فقد ازداد عدد المتمردين إلى أكثر من 100 من الأعضاء وهاجموا محطة بوليس. في النهاية، هاجم المتمردين رجالٌ ببنادق فأخمدوا تمردهم.

في 25 يناير 1835، الموافق لشهر رمضان من التقويم القمري الإسلامي، احتل 500 إفريقي يلبسون العمائم البيضاء التي يلبسها مسلمو إفريقيا مداخل مدينة باهيا. كانوا مسلحين في المقام الأول بسكاكين ورماح وسيوف ولكن القليل استطاعوا الحصول على مسدسات. بعد سيطرتهم المؤقتة على الشوارع هاجموا سجن المدينة ومقار الحرس الوطني والبوليس وخاضوا معركة ضد الفرسان. في نهاية اليوم كان 70 إفريقيا وحوالي ستة من البيض قد ماتوا. خلال الأشهر القليلة التالية كان ما يزيد على 500 إفريقي قد حوكموا بسبب تمردهم – 199 من قبيلة الناغو، 31 من الهاوسا، 10 من الإيوي، 13 من البورنو، الخ. من بين هؤلاء حكم على 18 بالإعدام، غير أن أربعة فقط من الناغو هم الذين أعدموا. وكان إعدام أولئك رمياً بالرصاص. الأربعة عشر الآخرون لم يقتلوا لأن حكام باهيا البيض لم يجدوا أحداً من العبيد لديه الاستعداد لتنفيذ حكم الشنق بغض النظر عن المكافأة التي قدمت لهم أو العقوبات التي هددوا بها. خمسة وأربعون آخرون من الأفارقة حكم عليهم بالحكم البالغ القسوة المتمثل بألف جلدة، تنفذ بواقع 50 جلدة يومياً في أيام متفرقة. أحد أولئك الخمسة وأربعون مات بسبب السياط التي تلقاها.

التحقيق الذي أجراه الحكام البيض بعد ثورة 25 يناير، 1835 أشار إلى أن المسلمين المستعبدين في باهيا كانوا منظمين على نحو استثنائي. لقد كانوا قبل ذلك قد بنوا مساجد ومدارس إسلامية لم يكن يعرف البيض عنها شيئاً، وكانوا سراً يعلمون أبناءهم، وأولئك الذين لم يكونوا قد تلقوا تعليماً بالعربية في إفريقيا، الدراسات القرآنية والإسلام لزمن ليس بالقصير.

هـ5. ملخص وملحق[1]

بما أن المسلمين كانوا الفئة المتعلمة وذات الخبرة المهنية والعسكرية بين المستعبدين الأفارقة، فقد شكلوا مكوناً أساسياً لأفضل الثورات وأكثرها تنظيماً ونجاحاً مما قام به العبيد. لقد كانوا أيضاً وفي معظم الحالات قادة لتلك الثورات. والأمثلة المستمدة من ثورة «الأميستاد» وثورات الهايتيين وثورات باهيا تساعد على توضيح تلك الحقائق.

ينبغي، كملاحظة ختامية، الانتباه إلى أن المستعمرين الأوروبيين والقوى الاستعمارية لم تلبث أن أدركت أن الأفارقة المسلمين المتعلمين تعليماً عالياً أوجدوا صعوبات خاصة بهم من حيث هم أرقاء عاملون. كما سبقت الإشارة، أولئك المسلمون المستعبدون كانوا مهيئين للثورات والتمرد، الأمر الذي هدد أمن المستعمرات الأوروبية وسلامة ملاك العبيد الأوروبيين. يضاف إلى ذلك أنه كان ينظر إلى العبيد المسلمين الهاربين من حيث هم يمثلون خطراً حقيقياً في التدخل في المساعي الدعوية المسيحية بين الهنود الأمريكيين. كان ثمة خوف حقيقي من أن العبيد المسلمين الهاربين سينجحون في الدعوة إلى الإسلام بين الهنود وأن الهنود ربما اختاروا أن يصبحوا مسلمين بدلاً من مسيحيين. أخيراً، كان الأوروبيون خائفين أن العبيد المسلمين الهاربين قد يحرضون الهنود على التمرد ضد الأوروبيين.

كان للخوف من أن يحرض المسلمون الهنود على التمرد ما يبرره في واقع الأمر، كما اتضح من ثورات إفريقية هندية مشتركة في هسبانيولا ما بين 1522 و1532، وفي المكسيك في 1523، وفي كوبا في 1529، وفي بنما ما بين 1550 و1582، وفي فنزويلا في 1550، وفي بيرو في 1560، وفي إيكوادور في 1599، وفي غواتيمالا في 1627، وفي تشيلي في 1647، وفي مارتينيك في 1650، وفي فلوريدا في 1830—1840. مع أن كلاً من هذه الثورات تم إخمادها في النهاية، فقد كان الإسبان وباستمرار يوجهون اللوم للمسلمين في إشعالها. لذا تحرك الإسبان سريعاً لاعتبار وجود الإفريقي بين الهنود جريمة كبرى. أما درجة الخطورة التي رآها الإسبان في وجود المسلم بين الهنود فيتضح من حالة بيدرو غيلوفو، وهو من الوولوف المستعبدين الذين انضموا إلى الهنود. عندما وجده الإسبان في قرية هندية في كوستا ريكا حكموا عليه

(1) Diouf SA (1998).

بالإعدام في 1 سبتمبر 1540 وذلك بأن وضع في ماء يغلي وهو حي.

لقد كان المستعمرون الإسبان في العالم الجديد، كما هو واضح، مهددين من عدة طرق من قبل المسلمين الأفارقة الذين استعبدوهم. التمردات التي يقودها المسلمون، تدخلهم في نشاط المسيحيين الدعوي بين الهنود الأمريكيين، إلى جانب ما يفعله المسلمون العبيد الهاربون إذ يحرضون الهنود على التمرد، كل تلك كانت مصادر قلق حقيقي للمستعمرين الأوروبيين. وليس من المدهش أن تقود تلك الاعتبارات بسرعة إلى سلسلة من المحاولات المتوالية وغير المؤثرة للحد من هجرة المزيد من المسلمين إلى الأمريكتين.

جرت المحاولة الأولى للحد من جلب المسلمين المستعبدين إلى العالم الجديد في 16 سبتمبر 1501. في ذلك التاريخ أصدر الملك الإسباني فيرناندو مرسوماً ملكياً إلى السير نيكولاس أوفاندو يأمر فيه الملك أوفانو بألا يسمح لأي مسلم بدخول المستعمرات الإسبانية. وبتحديد أكثر، أكد المرسوم الملكي على أنه من بين العبيد الأفارقة يسمح فقط لغير المسلمين بدخول المستعمرات. لكن ذلك المرسوم تم تجاهله لأسباب عملية.

في 11 مايو 1526، وبعد تجربة التمرد الذي قام به الوولوف المسلمون في هسبانيولا عام 1522، جاء مرسوم ملكي إسباني يشير إلى المسلمين الوولوف تحديداً بأنهم من الصعب الاحتفاظ بهم في العبودية، ملاحظاً مدى استعدادهم للتمرد، ومانعاً استيراد العبيد الأفارقة من الشرق الأوسط، أو من غينيا، أو العبيد الذين تربوا عند المغاربة Moors (أي مسلمي شمال إفريقيا). وباختصار، سعى المرسوم إلى إيقاف تدفق المسلمين على الأمريكتين.

لسوء حظ الجماعة المشار إليها من المسلمين تم من الناحية العملية تجاهل هذا المرسوم أيضاً، واستمرت المتاجرة بالأفارقة المسلمين عبر الأطلسي. لذا صدر مرسوم إسباني آخر عام 1531. في هذا المرسوم أشير إلى المسلمين الوولوف بأنهم عصاة ومتمردون، ومرة أخرى منع استيراد الوولوف والموريسكيين وغيرهم من المسلمين إلى الأمريكتين. أشار المرسوم بشكل خاص إلى الموريسكيين بوصفهم أكثر خطورة من غيرهم.

لقد تم تجاهل هذا المرسوم الملكي باستمرار، فقد كانت تجارة العبيد أكثر إغراءً للمتاجرين

بهم، فاستمر تدفق الأفارقة المسلمين المجلوبين إلى العالم الجديد عبيداً بلا هوادة. رداً على ذلك أصدرت إسبانيا قانوناً في 14 أغسطس 1543 ثم قانوناً آخر في 16 يوليو 1550، أكد كلاهما على منع استيراد المسلمين والموريسكيين إلى المستوطنات الإسبانية. غير أن هذه القوانين ظلت مرة أخرى وبشكل عام دون تأثير في الحد من تدفق المسلمين العبيد إلى الأمريكتين.

و. بعض السير الموجزة

و1. مقدمة

كما يمكن أن نتخيل، لم تكن مؤسسة العبودية في الأمريكتين مشجعة على الاحتفاظ بسير مفصلة للأفارقة المسلمين المستعبدين. ومع ذلك فإن كون الكثير من أولئك المسلمين ذوي حظ عالٍ من التعليم والثقافة، فإن بعضهم ترك صوراً موجزة من سيرهم الذاتية، في حين لفت البعض الآخر انتباه البيض فكتبوا تعريفات مختصرة بهم. حين تجتمع هذه فسيجد المرء أمامه قدراً مدهشاً من المعلومات التي بقيت حتى الوقت الحاضر، مع أن علينا أن نتذكر أن هؤلاء الأفارقة المسلمين المستعبدين كانوا يقرؤون ويتحدثون في بيئة معادية لهم ولدينهم الإسلامي. من هذه الناحية من المتوقع أنهم كانوا شديدي الحذر فيما يتعلق ببعض الموضوعات وأنهم كانوا تحت ضغط شديد ليصوروا أنفسهم كما لو كانوا أكثر مسيحية وأقل إسلامية مما كانوا عليه في واقع الأمر.

فيما يلي سلسلة من السير الموجزة. في كل واحدة سيرة لإفريقي مسلم كان ذات يوم عبداً في الأمريكتين. في بعض الحالات، لا يتوفر سوى النزر اليسير من المعلومات. في حالات أخرى، تتوفر المعلومات بكثافة أكبر. المعلومات في هذه السير، ما لم يشر إلى عكس ذلك، مستلة من كتاب أوستن «الأفارقة المسلمون في أمريكا ما قبل الحرب: قصص عبر أطلسية وصراعات روحية» ومن كتاب ديوف «عباد الله: الأفارقة المسلمون المستعبدون في الأمريكتين».

و2. مسلم بول

المعلومات القليل المتوفرة عنه تقول إنه عرف باسم «مسلم بول»، وهي معلومات متوفرة في سيرة قصيرة من القرن التاسع عشر تقع في تسع عشرة صفحة كتبها تشارلز بول عام 1854 وعنوانها «الرجل الذي كان يصلى خمس مرات في اليوم». من هذه السيرة الموجزة نعرف أن مسلم بول كان إفريقي مستعبد وأنه جاء من بلد صحراوي ليست به أشجار أو عشب – ربما يكون مالي. ويبدو أنه كان فرداً من قبيلة الطوارق.

يقول مسلم بول إنه أسر في الحرب وسار إلى نهر غامبيا في أوائل القرن التاسع عشر. عند وصوله إلى غامبيا رأى رجالاً بيضاً لأول مرة ووضع في قارب شاهد فيه ثلاثة رضع يلقى بهم من ظهر المركب، وكانت أمهاتهم تقفزن إثرهم. كما ذكر أن الكثيرين من رفاقه الأفارقة المستعبدين ماتوا بسبب الحر وعدم كفاية الطعام على المركب الذي انحدر بهم مع النهر وأثناء «الممر الأوسط». حسب تقريره، فإن حوالي 33٪ من الأفارقة المستعبدين ماتوا في نفس السفينة قبل وصولهم تشارلستون في كارولاينا الجنوبية. محنته هو على السفينة نتجت عن التزاحم والتقييد حتى إنه عند الوصول إلى تشارلستون في كارولاينا الجنوبية حوالي 1807 لم يكن قادراً على الوقوف أو مد ذراعيه وساقيه لمدة أسبوع. وعلى الرغم من استعباده في كارولاينا الجنوبية، استمر في أداء صلواته الخمس كل يوم.

و3. كنتا كنتي[1]

كان كيرابا كُنتا كُنتي فرداً من قبيلة الماندينكا و«مرابوط» (وهي، كما سبقت الإشارة، صفة غرب إفريقية تطلق على المعلم المسلم والمرشد الديني والرجل التقي). وكان قد هاجر داخل غرب إفريقيا من موريتانيا إلى غامبيا. يمتد نسبه العائلي إلى مملكة الماندينكا القديمة في مالي. وكان في أواخر القرن السادس عشر قد وصل إلى قرية جُفُّر على امتداد الكامبي بولونغو (نهر غامبيا) ليكتشف أن القرية تعاني من جفاف شديد أدى إلى وفاة العديد من أهل

(1) Haley A (1976).

القرية. بدأ «المرابوط» حالاً بأداء صلاة الاستسقاء واستمر في الصلاة لخمسة أيام متتالية. عند نهاية تلك الفترة انفتحت السماء وانهمر المطر.

بقي كيرابا في جُفُّر وتزوج مرتين. ولد له ابنان من زوجته الأولى وابن واحد، اسمه أومورو، من زوجته الثانية، واسمها يائسة. تزوج أمورو كُنتي من بنتا وولد لهما أربعة أبناء متتالين: كُنتا، وهو الأكبر وقد ولد عام 1750؛ لامن، الثاني؛ سوادو، الثالث؛ ومادي، الرابع. كل الأبناء الأربعة ولدوا ونشئوا في جُفُّر وتلقى كل منهم تعليمه بالعربية وبالقرآن في مدرسة القرية.

في أحد أيام عام 1767، غادر كُنتا كُنتي، وهو لم يتجاوز عامه السادس عشر، القرية ودخل في الغابة لقطع الخشب لكي يصنع طبلة. وبينما هو منشغل بذلك قفز عليه أربعة رجال قاموا بتقييده وأخذه إلى سفينة بريطانية اسمها «لورد ليغونيير» يقودها الكابتن ديفز. أبحرت «لورد ليغونيير» من نهر غامبيا في الخامس من يوليو 1767 ورست في أنابوليس بولاية ميريلاند في 29 سبتمبر 1767. هذه الرحلة عبر «الممر الأوسط» كانت طويلة وشنيعة. من 140 إفريقياً مستعبداً بدؤوا الرحلة في معتقل السفينة لم يعش سوى 98 حين وصلت أنابوليس، بنسبة وفاة بلغت 30٪.

بيع كُنتا كُنتي سريعاً في مزاد العبيد إلى جون وَلر من مقاطعة سبوتسلفانيا في فرجينيا وسمي توبي بوصفه عبداً. لكن كُنتا، بكبرياء المسلم من الماندينكا، لم يتقبل العبودية بسهولة فهرب أربع مرات أثناء السنة الأولى من الأسر. ولأنه وحيد ولا يتحدث الإنجليزية فإنه كان سريعاً ما يقبض عليه بعد كل هروب. بعد الهروب الرابع خير بين عقوبتين: الخصاء وقطع إحدى القدمين، فاختار الأخيرة.

بعد أن قطعت إحدى قدميه بكل قسوة، أبقي كُنتا حياً بفعل الرعاية التي قدمها الدكتور وليم ولر، أخو مالك كُنتا. قام الدكتور ولر، بعد أن أغضبه ما حدث لكُنتا من تشويه، بشرائه من جون ولر في 5 سبتمبر 1768. عندئذٍ نقل كُنتا إلى مستوطنة الدكتور ولر على نهر ماتابوني. ولأن له قدماً واحدة فقد كلف بالعمل السهل نسبياً وهو العناية بحديقة الخضار

في المستوطنة.

لقد فعل كُنتا كل ما في وسعه، من حيث هو مسلم مستعبد في الجنوب الأمريكي، ليحافظ على صلواته الخمس المفروضة يومياً، واستمر في الكتابة بالعربية بخط جمل عربية على التراب. أخيراً، تزوج امرأة تعرف بـ «بل طباخة البيت الكبير» ونتج عن الزواج بنت اسمها «كزي» تلقت بعض التعليم من والدها في لغة الماندينكا في أساسيات الإسلام.

في عامها السادس عشر بيعت كزي إلى توم ليا في كارولاينا الشمالية إلى مالك قام باغتصابها فأنجبت ليا ابناً هو جورج. فيما بعد حقق جورج بعض الشهرة مدرباً للعبة صراع الديكة ولقب «جورج الدجاج». في إحدى الصور التي تبقت لجورج الدجاج في سجلات «مجموعات وقصص المسلمين الأمريكيين» نرى ذكراً إفريقيا - أمريكياً فيما يمكن أن يوصف بأنه لباس إسلامي تقليدي. فقد استمر الإسلام فيما يبدو حتى الجيل الثاني من أحفاده على الأقل.

و4. ماهوميت (محمد)

كل ما يتوفر من معلومات عن هذا المسلم المستعبد هي تلك المتوفرة من إعلان في «سافانا جورجيا جازيت» في 7 سبتمبر 1774. إعلان الهرب الموجز أشار إلى أن ماهوميت هرب من مستوطنة في «كريك أغسطين» عام 1771. وتضمن وصفه بأنه قصير ومتناسق القامة تعلوه بثور من آثار الجدري. إلى جانب ذلك تضمن الإعلان أن عبداً هارباً بأوصاف مطابقة شوهد بالقرب من «الخط الهندي على أوغيتشي». وأعلن عن 10 جنيهات مكافأة لأية معلومات تقود للقبض عليه وإدانة من يمكن أن يكونوا قد قدموا له المأوى.

و5. المغاربي

لا يعرف من اسم هذا الإفريقي المسلم المستعبد سوى أنه «المغاربي». كان ابن أمير مسلم

من نهر النيجر وربما كان فرداً من قبيلة الفولبي (الجمع فولبي أو فولاني والمفرد فولا). كان قد قبض عليه في الحرب، ثم أسر وأخذ إلى ساحل غرب إفريقيا لينقل من هناك على سفينة إسبانية إلى نيوأورليانز عام 1812، بعد أربعة أعوام من دخول آخر العبيد المسموح بدخولهم الولايات المتحدة قانونيًا. عاش المغاربي وعمل على امتداد نهر الميسسبي. ذكر في مقابلة أجريت معه عام 1822 أنه كتب السورة الأولى من القرآن بالعربية وأضاف أن الناس في بلده الأصلي في إفريقيا كانوا أكثر ثقافة وتعليماً من الأمريكيين. ذكر أنه كان متزوجاً واحتج بشدة على اضطراره لأكل لحم الخنزير لكي يبقى على قيد الحياة، وأنكر شرب الكحول مطلقاً. وكما يتضح مما ذكر، فإن المغاربي فعل كل ما بوسعه للحفاظ على دينه الإسلامي حتى وهو تحت العبودية في أمريكا الجنوبية.

و6. س'كواش[1]

كان س'كواش إفريقياً مسلماً مستعبداً وصل على سفينة للعبيد إلى تشارلستون بكارولاينا الجنوبية في ديسمبر 1807، الشهر الأخير من فترة السماح بإحضار العبيد إلى الولايات المتحدة. ذكر أنه كان رجلاً ضخماً ومفتول العضلات وأنه نقل من السفينة مربوطاً كالخنزير ومحاطاً بحراسة ثقيلة. اشتري س'كواش من قبل جوزيف غراهام واستطاع فيما بعد أن يرتقي طبقات العبيد عند غراهام ليصير مشرفاً على مستوطنته في كارولاينا الجنوبية. بهذه الصفة ارتقى إلى أعلى المراتب التي يمكن للعبد أن يتطلع إليها في الجنوب الأمريكي. وقام فيما بعد بالمساعدة في نقل عائلة غراهام وعبيدهم إلى الميسسبي.

ثمة ما يشير إلى أن العبيد الآخرين في المستوطنة كانوا يحترمون س'كواش احتراماً خاصاً، ولكنه رأى نفسه أعلى منهم ورفض العيش معهم، ربما لأنهم لم يكونوا مسلمين مثله. وعلى نفس المنوال، رفض الزواج حتى وجد امرأة شعر بأنها ستكون عروساً مناسبة قيل أنها من الدنكا (ربما تكون ماندينكا ومسلمة). يقال أن س'كواش كان فارساً ممتازاً وقادراً على

(1) هكذا أورد المؤلف اسمه بالإنجليزية ولم أستطع سوى رسمه بالعربية بالطريقة نفسها دون تصرف لأنه غير واضح: S'Quash (المترجم).

القراءة والكتابة بالعربية واليونانية! وفي وصفه ذكر أنه شديد السواد وإن لم يكن زنجياً.

الصفة الأخيرة لـ س'كواش تعكس التحيزات الأمريكية في فترة ما بعد الحرب. كان الأمريكيون الجنوبيون يشعرون أن الأفارقة أدنى في جوهرهم من البيض. لذا فإنهم حين يلتقون عبداً إفريقيا يعرف القراءة والكتابة ومثقفاً إلى حد يتجاوز قدراتهم ويظهر سمات فكرية وأخلاقية متفوقة، فإنهم يدعون بسرعة أن العبد لا يمكن أن يكون إفريقياً وإنما هو عربي أو مغربي.

و7. فيليب الفولا

لا يعرف الكثير عن هذا الإفريقي المسلم المستعبد، وما نعرفه عنه هو مما تذكره جوزيف لوكونت بإيجاز قائلاً إنه كان إفريقياً عجوزاً ومسلماً ملتزماً. وصف لوكونت فيليب من حيث هو يؤدي الصلوات الخمس يومياً بأوضاعها المختلفة ومن حيث هو رجل شديد الذكاء. وسجل لوكونت بالإضافة إلى ذلك طريقة فيليب في الحساب من واحد إلى عشرين. الكلمات التي استعملها لتلك الأعداد توضح أنه كان فرداً من الفولبي.

ف8. سامبو

في عام 1805 ذكر أن عبداً كان يمكن أن يكون غير معروف اسمه سامبو (ربما يكون سامبا، أي الابن الثاني في العائلة) كان يستطيع الكتابة بالعربية وأنه هرب مع ثلاثة من العبيد الآخرين. وتؤكد قدرة سامبو على القراءة والكتابة بالعربية أنه كان مسلماً، وهذه معلومة لم نكن لنتذكره لولاها.

ف9. ماهومّاه غاردو باكواكوا

ينتسب والد ماهومّاه غاردو باكواكوا إلى قبيلة سونغاي (سميت دندي فيما بعد)، وتنتسب أمه إلى قبيلة الهاوسا. ولد هو حوالي عام 1830 في جوغو، وهي مدينة كبيرة في داهومي الشمالية (بنين حالياً). دلل طفلاً، وكان تلميذاً غير معني بالدراسة في أفضل الأحوال، وفشل في تعلم دينه الإسلامي أو ممارسته على نحو صحيح. ومع ذلك فقد تمكن من تعلم شيء من اللغة العربية قراءة وكتابة.

حين كان ماهومّاه صبياً تعلم مهنة الحدادة عند خاله. غير أن الخال لم يلبث أن توفي، ولم يستفد ماهومّاه الكثير على ما يبدو من تعليمه في مهنة الحدادة. بعد ذلك وقع في الأسر أثناء حرب في دابويا، ثم أطلق سراحه نتيجة لتدخل أخيه، ثم عمل خادماً عند زعيم غير مسلم من صغار الزعماء بعد تدخل أمه. ابتدأ ماهومّاه في مخالفة تعاليم دينه فيما يتعلق بالكحول أثناء عمله عند الزعيم غير المسلم، وصار يهوى شرب خمر النخيل، وهي نقطة ضعف أدت إلى وقوعه في العبودية.

حوالي عام 1846، أثناء رحلة قام بها لزيارة أمه في جوغو، صادفه سوء الحظ حين سكر وأصبح بعد أن «شنغي» عبداً.[1] بيع بعد ذلك ثلاث مرات قبل أن يكمل رحلة 350 ميلاً إلى الساحل الإفريقي ويجبر على المشي في قوافل عبيد طويلة كان العبيد أثناءها تربط عنق الواحد منهم بأغصان أشجار وأقفال حديدية لترتبط بعنق العبد الذي أمامه. حين وصلوا إلى الساحل الإفريقي، رأى ماهومّاه سفينة لأول مرة وتوهم أنها صنم يعبده الرجل الأبيض. قبل أن يحمل على السفينة سيق ماهومّاه ورفاقه العبيد كالقطيع إلى حضيرة وأجبروا على الجلوس وخلفهم نار تستعر ليوسموا بعد ذلك بحديد حار يجعل من الممكن التعرف عليهم بوصفهم ملكاً لتاجر عبيد معين. تمت بعد ذلك حلاقة شعره وجرد من ملابسه عارياً وأجبر

(1) يستعمل المؤلف فعل to shanghai «يشنغي» الذي يعني إسكار شخص أو تخديره ثم أخذه على سفينة وإجباره على الخدمة فيها. وقد يكون الفعل اشتق من اسم «شنغهاي» لأنه شاع في بعض الموانئ الأمريكية أن يسرق بعض الأشخاص من الحانات ويجبرون على العمل في السفن التي تبحر من الشرق وإليه وفي أوضاع سيئة. ومن الواضح أنه لا يوجد فعل في العربية يحمل كل هذه الدلالات فكان لابد من تعريبه (المترجم).

على الدخول في معتقل السفينة.

طوال الرحلة كان على ماهومّاه ورفاقه العبيد أن يتقبلوا العيش في المعتقل الذي كان منخفضاً إلى حد الحيلولة بينهم وبين الوقوف، والذي كانت تتراكم فيه فضلات العبيد وقيء المصابين منهم بدوار البحر. كان يسمح لهم بالصعود إلى ظهر المركب مرتين للاغتسال، وكانت المرة الثانية قبيل الرسو في الميناء. كان الطعام والماء شحيحين، يتألفان فقط من كمية قليلة من الحبوب المغلية وثُمْن الغالون من الماء يومياً، في حين كان الجلد والموت أحداثاً يومية. ولعل من الغني عن القول أن الذكرى التي احتفظ بها ماهومّاه لرحلته في «الممر الأوسط» كانت كريهة جداً ولم تفارقه بقية حياته. رست السفينة أخيراً في بيرنامبوكو في شمال البرازيل. وفيما بعد تذكر ماهومّاه أنه لم يكترث أنه صار عبداً لأنه كان فرحاً بنجاته حياً من القذارة والوحشية على السفينة.

كان المالك الأول لماهومّاه في البرازيل خبازاً. في البداية حاول ماهومّاه أن يكون عاملاً جاداً وأميناً، يساعد في بناء منزل حجري، وينادي الزبائن ليشتروا خبز سيده، ويتفادى الكحول. لكن اكتشف سريعاً أن ذلك لم يفده كثيراً فحاول الهرب. بعد أن ألقي القبض عليه، بدأ يرتد عن الطريق القويم، يعمل أقل، ويستعيد شهيته للكحول. وهكذا، بعد أن أصبح عبداً أقل نشاطاً، بدأ يتلقى الضرب. حاول الانتحار بالقفز في النهر ولكنه سحب منه وضرب مرة أخرى ثم بيع لأحد ملاك المستوطنات.

بمجرد وصوله إلى المستوطنة البرازيلية لمالكه الجديد، تم إيقاف ماهومّاه والعبيد الآخرين خلف عائلة المالك بحيث تواجه العائلة والعبيد تماثيل من الصلصال. أجبروا عندئذٍ على الركوع وإنشاد طقوس مسيحية بلغة لم يفهموها، وأن يرسموا إشارة الصليب عدة مرات في أوقات محددة. أي نوع من عدم الانتباه أو الانصياع لذلك الطقس الكاثوليكي كان يؤدي حالاً إلى الجلد بسوط المالك. باختصار أجبر ماهومّاه وزملاؤه العبيد على «اعتناق» المسيحية دون أن يعلموا ما الذي كان يجري.

لم يطل بقاء ماهومّاه في المستوطنة، فقد أرسل إلى ريو دي جانيرو حيث اشتراه قبطان إحدى

السفن. بدأ خدمته للقبطان ملمعاً للنحاس لكنه صعد الدرجات ليصير مساعداً للمشرف ثم مشرفاً. لكن ماهومّاه على الرغم من ترقياته كان غالباً ما يتلقى العقوبات الصارمة من قبل القبطان ومعاونه، وقد تؤدي عقوبة ضرب واحدة إلى وضعه على شفا الموت.

رحلة ماهومّاه الأخيرة مع سيده الكابتن كانت في عام 1848. رست السفينة في مدينة نيويورك بشحنة من القهوة فهرب ماهومّاه إلى المدينة. لكنه لم يلبث أن ألقي القبض عليه وأعيد إلى السفينة، لكن هروبه نمى إلى علم بعض المحامين في نيويورك الذين أودعوه السجن. وما إن أودع السجن حتى أخرجه منه بعض من يبدو أنهم من الإبطاليين[1] الذين هربوه إلى بوسطن حيث منح الاختيار بين الأمان في إنجلترا أو هاييتي. اختار ماهومّاه الأخيرة.

في هاييتي واجه ماهومّاه صعوبة كبيرة لأنه لم يكن يتحدث اللغة المحلية. في النهاية انتبه له بعض الدعاة المسيحيين، هما السيد والسيدة وليم ل. جُد اللذان ساعداه. في عام 1849، تم تعميده حسب المذهب المعمداني، لكن قبول ماهوماه لذلك كان فيما يبدو نوعاً من الانتهازية، فقد ادعى أنه أراد أن يكون داعية مسيحياً في إفريقيا. ولربما كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي رآها للعودة إلى بلاده.

على أية حال قبل الزوجان جدّ ما ادعاه ماهومّاه وأرسلاه إلى سنترال كوليج في ماكغرافيل في نيويورك حيث كان برعاية الجمعية الإرسالية الأمريكية المعمدانية الحرة وحيث كان في الظاهر يدرس ليصير داعية مسيحياً. واصل ماهومّاه دراسته في سنترال كوليج ابتداءً بـ 1850 وحتى 1853، ثم سافر إلى كندا وانتقل منها إلى ديترويت بولاية ميتشغان حيث كتب سيرته الذاتية عام 1854. في فبراير 1857 كان في إنجلترا، مستمراً في بحثه على ما يبدو عن طريق العودة إلى موطنه إفريقيا. لكنه يختفي بعد ذلك من صفحات التاريخ.

يبدو أن ارتداد ماهومّاه عن دينه وموروثه الإسلامي لم يكن عادياً بين الأفارقة المسلمين المستعبدين في الأمريكتين. ولعل السبب في ذلك الارتداد ليس أكثر من كونه مجرد انعكاس لفهمه الساذج للإسلام وتمكنه الضعيف منه عندما كان تلميذاً في إفريقيا. على أن من

(1) أي الداعين إلى إبطال الرق، الواحد «إبطالي» (المترجم).

الضروري قبل إصدار حكم متعجل وقاس ملاحظة أن ماهومّاه في رسالته في 26 أكتوبر 1853 إلى جورج ويبل، سكرتير الجمعية الأمريكية الدعوية للكنيسة المستقلة، كتب، وعلى نحو يصعب فهمه، ثلاث كلمات بالعربية تبدو وكأنها صياغة شبه منسية وبخط ضعيف للبسملة، أي بسم الله الرحمن الرحيم. الكلمات العربية الفعلية التي كتبها ماهومّاه تقترب من «الله، الله، إلى الأبد».[1]

ربما يكون ماهومّاه، مثل مسلمين أفارقة أخرين، قد ربما لا يعدو أن يكون اعتناقاً زائفاً للمسيحية من أجل أن يجد رعاة يمولون عودته إلى إفريقيا.

ف10. لامين كيبي

كان والد لامين كيبي ينتسب إلى قبية السيراهيول أو السونينكي، في حين تنتسب أمه إلى الماندينكا. تبعاً لنسب والده فقد ولد منتمياً إلى عشيرة الجاهانكي من قبيلة السيراهيول في فوتا جلون مابين 1765 و1775. كانت عشيرة جاهانكي من السيراهيول معروفة بعلمائها ومعلميها وفهمها للإسلام بوصفه دين السلام. كانت عائلته في مرحلة الطفولة في وضع مادي جيد وتتألف من العديد من المعلمين، سواء من الرجال أو النساء.

مابين السابعة والرابعة عشرة كان لامين تلميذاً في مدرسة بلدته مع مابين 55 و57 من التلامذة الآخرين. خلال تلك الفترة من تعليمه تلقى بعض الدروس القرآنية (سواء في حفظ النص العربي أو في الترجمة والتعليق بلغة السيراهيول المحلية)، إلى جانب دروس في اللغة العربية وثلاثين مقرراً دراسياً مخطوطاً تضمنت كتباً في النحو، والفقه والسنة واللاهوت والشعر إلى غير ذلك. لقد ذكر أن تعليمه كان ثنائي اللغة وأن المدارس السيراهيولية كانت تتلقى الدعم من الحكومة وأن فصول الدراسة كان تفصل الأولاد عن البنات. ويبدو أنه كان تلميذا مثالياً استطاع حفظ القرآن كاملاً في عامه الرابع عشر.

أرسل كيبي عندئذٍ إلى بندو، التي تبعد حوالي 900 ميل عن بلدته. هناك قضى سبع سنوات

(1) الكلمات لا تشكل جملة مفيدة بالإنجليزية وهي: «Allah. Allah. most ever» (المترجم).

يتابع تعليمه العالي. كما أنه تلقى دروساً في «الكتاب المقدس» سواء في تعليمه الابتدائي في بلدته أو في بندو، مشيراً في مقابلة مع أحد الأمريكيين أنه درس نسخة مخطوطة من التوراة. يضاف إلى ذلك أنه دعم تعليمه الرسمي بالسفر الكثير أثناء شبابه، منطلقاً في رحلتين على الأقل إلى جليبه أو نهر النيجر.

بعد إكماله تعليمه عمل مدرساً لخمس سنوات في مدينة كيبي أو كابا، ليتزوج بعد ذلك ويرزق بثلاثة أطفال.

عندما بلغ حوالي الثلاثين وبينما كان عائداً من رحلة لشراء الورق إما إلى تمبكتو في مالي أو تيمبو في غينيا، أحاطت به مجموعة أثناء نومه في إحدى الليالي، ووضعوه في القيود واستعبدوه. ومع أنه لا تتوفر تفاصيل تذكر عن رحلته إلى أمريكا، فالمرجح هو أنه نقل بالباخرة من نهر كابا في غينيا. وقد أشار هو، في مرحلة تالية، إلى «الممر الأوسط» بوصفه رحلته على «الماء المؤلم».

عند وصوله إلى نيويورك تعرض كيبي للبيع والشراء مرات عديدة من قبل ملاك مختلفين، وفي نهاية الأمر وجد نفسه يقضي ما بين 30 إلى 40 عاماً في العبودية الأمريكية وعلى امتداد الولايات الجنوبية، ومنها جورجيا. على مدى تلك العبودية عرف باسم «بول العجوز». ثم في عام 1834 أعتقه آخر ملاكه المسيحيين فانتقل إلى نيويورك يبحث عن المساعدة في الحصول على ما يكفي لدفع أجرة عودته إلى إفريقيا.

في نيويورك ارتبط كيبي على ما يبدو بجمعية الاستيطان الأمريكية (أي سي إس)، وهي منظمة تكرس جهودها لإرسال الأفارقة والأفارقة الأمريكيين العتقاء إلى ليبيريا في إفريقيا. في نهاية تلك السنة أحيل إلى «المستودع الإفريقي» بصفة باحث يجيد العربية وذي معرفة بالكتاب المقدس بلغته الأم (العربية؟). (معرفته بالكتاب المقدس حصل عليها على الأرجح أثناء تعليمه الإسلامي في إفريقيا، ذلك أن المقالة تشير في بقيتها إلى أنه لم يكن يعلم أن المطبعة قد اخترعت، الأمر الذي يوحي بأن معرفته بالكتاب المقدس كانت مستمدة من مخطوطة عربية كان يدرسها في صباه). على مدى السنة التالية كان يتحدث أحياناً في مناسبات متنوعة

لجمع التبرعات نظمتها (أي سي إس) ومنظمات مشابهة. أثناء ذلك الوقت، كان مشغولاً بمراسلات باللغة العربية مع عمر بن سعيد الذي سترد سيرته فيما بعد.

على الرغم من مساعيه لدى جمعية الاستيطان الأمريكية فإن تلك الجمعية لم ترسله إلى إفريقيا حتى بدأ يصرح عام 1835 عن رغبته في نشر المسيحية هناك. أخيراً، قامت (أي سي إس) بإرساله إلى ليبيريا التي كانت تبعد عن وطنه الأصلي 500 ميل. قائمة المسافرين المهاجرين إلى ليبيريا على السفينة «إنديانا» عام 1835، تضمنت، فيما يبدو أنه إشارة إليه، اسم «بول أ. ماندينغو» ذي الستين عاماً (بول العجوز كان اسم العبودية للامين، وكانت أمه من الماندينكا). وأضافت القائمة أنه ولد حراً، وأنه كان يعرف القراءة والكتابة، وينتمي إلى جورجيا، إحدى الولايات الجنوبية التي استعبد فيها لامين. بمجرد وصوله إلى ليبيريا غادر إلى سيراليون ولم يعرف عن حياته شيء بعد ذلك.

قبل الانتهاء من هذه الجزء عن حياة لامين كيبي، من المهم إضافة معلومتين هامشيتين:

1) أحد الأوصاف التي تميز لامين هي ما ذكره ثيودور دوايت عام 1835 أنه كان بطول ستة أقدام وحسن المعشر، محترماً، بسيط المظهر، ومسلماً تقياً. هذا الوصف يكذب ما أشار إليه لامين أنه يتمنى لو كان داعية مسيحياً في إفريقيا. لسوء الحظ، كان تظاهر الإفريقي المستعبد بأنه مسيحي يتمنى لو يهدي الناس في إفريقيا كان السبيل الوحيد المتاح له لكي يعتق ويعاد إلى إفريقيا.

2) ملاحظات لامين المفيدة التي تقارن بين أساليب التعليم المستخدمة في أمريكا وغرب إفريقيا هي ما سجله ثيودور دوايت ونشرت فيما بعد عام 1836 في «الحوليات الأمريكية للتربية والتعليم». في تلك الملاحظات رؤية مضيئة لنظام السيراهيول التربوي في أواخر القرن الثامن عشر.

و11. محمد كابا

ولد محمد كابا حوالي عام 1758 في منطقة تقع إلى الشرق من تمبو في فوتا جلّون (غينيا) وقريبة منها. كان ينتسب إلى قبيلة الماندينكا ومن الواضح أنه كان قد تلقى تعليماً جيداً في شبابه هناك. كان معلماه والده عبد القادر وخاله محمد بتول. كان والده ذا غنى واسع يملك الأبقار والخيول وأراض كثيرة، بالإضافة إلى 140 عبداً. وكان خاله محامياً مشهوراً محلياً أو فقيهاً. تحت إشرافهما اكتسب طلاقة في العربية وفي اللغة المحلية، وأكمل تعليمه الابتدائي ثم دخل تعليمه العالي حيث كان يدرس الفقه مثل خاله. ومثل كثيرين آخرين من الأفارقة المسلمين الذين وقعوا في العبودية كان ذا تعليم عالٍ.

اختطف محمد عام 1778 وكان في العشرين على يد لصوص أخذوه إلى الساحل وباعوه إلى الأوروبيين. ثم أرسل بعد ذلك إلى جامايكا وسمي بأسماء العبودية، روبرت تِفت وروبرت بيت. في النهاية تزوج وأمضى الستة وخمسين عاماً عبداً. حوالي 1814، أي بعد حوالي 36 عاماً في العبودية وكان عمره عندئذٍ حوالي 56 عاماً، أعلن اعتناقه المسيحية. كان مظهره طوال بقية حياته مظهر المسيحي، وهو مظهر خارجي خفف دون شك من الأعباء التي وضعها ملاكه عليه حين كبر في السن. غير أن حقيقة انتمائه الديني يمكن أن تقرأ في رسائله من أبرشية مانشستر في جامايكا لعام 1834 إلى أبو بكر الصديق، الذي ترد سيرته فيما بعد، وذلك حين أعتق الأخير.

بعد سماعه أن أبا بكر حصل على حريته، تناول محمد القلم وكتب له رسالة بالعربية. أعطى الرسالة شخصاً يدعى ب. أنغِل، وهو أوروبي مسيحي، مؤكداً أن الرسالة قصد منها إقناع أبي بكر بالتخلي عن الإسلام والقبول بالمسيحية. غير أن ترجمة النص الفعلي للرسالة تقول إنه يبدأ بقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، بركات الله، وسلام نبيه محمد». وفي ثنايا النص لا توجد أية إشارة إلى المسيحية أو الطلب من أبي بكر أن يتخلى عن الإسلام.

في إشارة إلى الرسالة لاحظ رتشارد روبرت مادن، وهو قاض بريطاني من جامايكا وشاهد دفاع في قضية «أميستاد»، أن اعتناق محمد للمسيحية كان زائفاً، أنه قصد منه تخفيف

الأعباء التي وضعها مالكه عليه. فبينما هو يتظاهر بأنه مسيحي، كان في الواقع يستغل قدرته على الكتابة بالعربية ليبقى على اتصال من خلال رسائل يتبادلها مع مسلم آخر، رسائل كان سيستعصي فهمها على أي مسيحي يطلع عليها في الجزيرة.

و12. عبد أندرسون

لا يعرف الكثير عن هذا الإفريقي المسلم. فاسمه الإفريقي واسمه في العبودية فقدت من التاريخ المدون. ما يعرف هو أنه كان مسلماً من الماندينكا، وأنه تعلم العربية والدراسات القرآنية حين كان في إفريقيا، وأنه كان مملوكاً للكابتن ديفيد أندرسون في كارولاينا الجنوبية. في عام 1768 كتب عبد أندرسون صفحتين بالعربية اطلع عليها الأمريكيون البيض. كان في الصفحتين السور القرآنية: 1، 112، 113، و114.

و13. لامين ندياي

كان لامين ندياي مسلماً من قبيلة الوولوف وكان أصلاً من فوتا تورو في السنغال. عمل في إفريقيا تاجراً ولغوياً أو مترجماً. وبالنظر إلى هاتين الوظيفتين يبدو أن لامين كان على قدر لا بأس به من التعليم.

في عام 1730، كان يقوم بالمتاجرة على نهر غامبيا السفلي أثناء عمله مترجماً لحساب أيوبا بن سليمان بن إبراهيم ديالو الذي سترد سيرته فيما بعد. اختطف لامين وأيوبا على الضفة الجنوبية من نهر غامبيا السفلي، ثم بيعا إلى الكابتن بايك الذي كان موظفاً عند وليم هنت، وهو تاجر في لندن بإنجلترا. عملية البيع تمت في 27 فبراير 1730، نقل بعدها لامين وأيوبا إلى أمريكا خلال أسبوع من شرائهم على سفينة «أرابيلاّ».

عند الوصول إلى أنابوليس في ولاية ماريلاند عام 1730 وقع لامين أولاً تحت سيطرة فاشيل دنتون، وكيل العبيد في ماريلاند لحساب وليم هنت. ثم اشتراه صاحب مستوطنة جنوبي.

أعطي فيما يبدو اسم العبودية لامين جي وأرسل ليعمل كأحد الأيدي العاملة في الحقل وهي إحدى أدنى الوظائف مكانة وأكثرها إرهاقاً في سلم العمل العبودي. على مدى السبعة أعوام التالية ظل تلك هي وظيفته.

غير أن لامين لم يفقد كل شيء. استطاع أيوبا، مشغل لامين السابق، أن يحصل على حريته عام 1734 وسافر إلى إنجلترا استعداداً للعودة إلى إفريقيا. أثناء وجوده في إنجلترا مارس أيوبا كل ما يملك من تأثير ليجعل دوق مونتيغ يوفر المال الكافي لشراء لامين. وباستعمال المال الذي وفره دوق مونتيغ، نجح توماس بلويت في تحديد مكان لامين على مستوطنة في ماريلاند واشتراه، ثم أعتقه عام 1737. وهكذا بعد رحلة من أمريكا إلى إنجلترا عاد لامين إلى غامبيا في فبراير من عام 1738. أما في إفريقيا فقد سافر لامين لوقت قصير مع ميلتشيور دي ياسباس من الشركة الملكية الإفريقية حين سافر الأخير إلى بندو. بعد ذلك لم يسمع عنه شيء.

إن مساعي أيوبا من أجل لامين توضح موضوعاً سيتم تناوله بشكل أكثر توسعاً فيما بعد. إنه موضوع المسلمين الذين سبق وقوعهم في العبودية وهم يمدون يد العون لمسلمين آخرين لكي يحصلوا على حريتهم من العبودية هم أيضاً.

ف14. يارو (يورو) ماموت

ولد يارو ماموت في إفريقيا، إما حوالي 1686 (حسب روايته) أو حوالي 1707 (حسب رواية أحد ملاكه الأمريكيين). على أية حال، كان وصوله إلى ماريلاند حوالي 1731 واشترته عائلة بيل التي عمل لها في صناعة الآجر. بعد أن ساعد في بناء منزل مالكه في جورج تاون، أعتقته عائلة بيل.

كان يارو مهماً للعديد من جيرانه وزملائه البيض، من حيث هو إفريقي مسلم يعيش في ماريلاند الكاثوليكية. فلولا ملاحظات أولئك لما عرفنا عنه شيئاً. حسب رواياتهم، كان يارو عاملاً لطيفاً وتاجراً ناجحاً على الرغم من محدودية معرفته باللغة الإنجليزية. لقد وصل به

النجاح أن امتلك منزلاً. ومع أن بعض المؤرخين يقولون إنه لم يتزوج أو ينجب أطفالاً مطلقاً، فإننا نجد في إحصاء عام 1820 ما يشير إلى أن يارو مارمود «كانت له عائلة».

أهم من نجاحه الاقتصادي كانت شخصيته، سلوكه الشخصي والتزامه المستمر بدينه الإسلامي. لقد عرف بنزاهته وابتعاده عن المسكرات، ومزاجه الهادئ، وحبه للمزاح ومسلكه الناضح البهجة. كان كما يقال محبوباً لدى كل من عرفه. مع أنه كان يعيش وسط بحر من الكاثوليكية الرومانية فقد كان يشاهد في الأماكن العامة يتغنى بالثناء على الله. بغض النظر عن المكان الذي يكون فيه، حتى في الشارع، وبغض النظر عما كان يفعل، فإنه كان يتوقف لأداء الصلوات الخمس المفروضة في الإسلام يومياً. حتى نهاية حياته كان يتبع القيود الإسلامية على الطعام ويتفادى الخنزير والكحول. فضلاً عن ذلك فقد كان ينصح الآخرين بفعل الشيء نفسه.

في عام 1819 لفت يارو انتباه تشارلز ويلسون بيل، رسام البورتريه الشهير. وافق يارو على الجلوس أمام بيل وكانت النتيجة لوحة بورتريه تمتلكها حالياً الجمعية التاريخية في بنسلفانيا. ومن تفحص تلك اللوحة يتبين رجل مسن ومتواضع اللباس يعتمر غطاء للرأس عرف في غرب إفريقيا الإسلامي. في الفترة التي رسمت فيها اللوحة، كان يارو يدعي أن عمره 133 عاماً، مع أن مالكه السابق كان يظن أنه لم يتجاوز 112.

و15. وليم رينسفورد

كان وليم رينسفورد مسلماً من الماندينكا. استعبد وأخذ إلى جامايكا حيث عمِّد قسراً حسب الدين المسيحي. لكنه دون فيما بعد، بالعربية ومن الذاكرة، أجزاءً من القرآن.

في 2 أكتوبر 1834 كان واحداً من أربعة من الماندينكا في جامايكا الذين أرسلوا رسالة إلى الإبطالي الأيرلندي رتشارد روبرت مادن، أحد القضاة البريطانيين في كنغستون بجامايكا. تضمنت الرسالة مقارنة بين المسيحية والدين الإسلامي الذي يتبعه الماندينكا. وغني عن

القول أن المسلمين الماندينكيين الأربعة كانوا قاسين جداً في مقارنتهم. لقد لاحظوا، ضمن أشياء أخرى، أن الإسلام يحترم حرية الاختيار الديني وكل الكتب السماوية المنزلة، ومنها التوراة والإنجيل والقرآن. في المقابل، رأوا أن المسيحيين غير متسامحين فيما يتعلق بالكتب المنزلة والأديان المغايرة لدينهم، وأن تعميدهم القسري مثال على ذلك. بالإضافة إلى ذلك، لاحظوا أن الإسلام يدعو إلى الإحسان إلى الفقراء والتعاطف معهم، في حين أن المسيحية التي رأوا كانت أقرب إلى اضطهاد الفقير.

و16. تشارلز لارتن

كان تشارلز لارتن، وهو اسمه في العبودية، من الماندينكا الذين تلقوا تعليماً عالياً بالعربية والدراسات القرآنية حين كان في إفريقيا. واستطاع عند نهاية تعليمه أن يحفظ القرآن كاملاً بالعربية. ثم حدث أن استعبد وعمِّد بالقوة في جامايكا. لكنه مع ذلك بقي مسلماً ودون القرآن كاملاً بالعربية فيما بعد من الذاكرة. كان واحداً من الأربعة الذين وقعوا الرسالة التي أرسلت إلى رتشارد روبرت مادن في 2 أكتوبر 1834 (أنظر أعلاه تحت وليم رينسفورد).

و17. آنا موسا (بنجامين كوكران)

ولد آنا موسى لعائلة بارزة من قبيلة الكاسونكي في مالي. كان أبوه وجيهاً وقائداً يشار إليه بـ «سيد في شعب (الكاسونكي)». كان آنا متعلماً تعليماً عالياً وتلقى تدريباً في مجال الطب في إفريقيا. بالإضافة إلى ذلك كانت لديه تجربة طويلة كجندي في إفريقيا من حيث مشاركته في العديد من الحملات العسكرية.

وقع آنا في الأسر والعبودية وأرسل إلى الكاريبي حيث سمي في العبودية بنجامين كوكران وعمِّد قسراً في جامايكا. اكتشف آنا موسى بسرعة أن العبد المسلم يتمتع بالعديد من المزايا إن هو تظاهر بالدخول في المسيحية، فحافظ منذ تلك اللحظة على مظهر مسيحي أمام الناس.

طوال مدة عبوديته خدم عدداً من الملاك في تورتولا وباربيدوس وجامايكا. فضلاً عن ذلك، حارب مع أفواج الهند الغربية البريطانية وعلى السفن الحربية البريطانية. بحلول 1834 كان طبيباً ممارساً في كنغستون بجامايكا ولكنه منع من دخول كلية الطب.

كان أحد الأربعة الذين وقعوا رسالة 2 أكتوبر 1834 إلى رتشارد روبرت مادن، القاضي البريطاني في كنغستون بجامايكا (أنظر أعلاه تحت وليم رينسفورد). من الجدير ذكره أن مادن روى مواجهة ذات دلالة عميقة واستثنائية مع آنا موسى، الذي يظهر مسيحيته أمام الناس. في أحد الأيام عندما كان مادن يزور آنا موسى وعبدين إفريقيين آخرين يعلنان المسيحية، صادف أنه، أي مادن، كرر ذكر «الشهادة» مرتين، أي الإعلان الإسلامي عن الايمان التي تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. كتب مادن فيما بعد أنه ما إن تلفظ بتلك الكلمات العربية من فمه حتى أحاط به ثلاثة مسلمين يرددون صلواتهم الإسلامية بتحمس وباللغة العربية. لاحظ بشكل خاص أن آنا موسى بدأ وهو متأثر بالموقف يتلو القرآن كاملاً باللغة العربية. لقد توقفت التمثيلية واتضحت حقيقة المسلم المخلص لدينه.

و18. «تشارنو» الفولا

لا يعرف سوى القليل عن هذا الإفريقي المسلم المستعبد. حتى اسمه الحقيقي ضاع من التاريخ، مع أنه كان يسمى «تشارنو». بما أن «تشارنو» يعني «مرابوط» في لغة البيولار التي يتحدثها الفولاني فإن من الممكن أن نستخلص واثقين أنه كان «فولا» (الجمع = فولبي أو فولاني؛ والمفرد = فولا) وأنه كان «مرابوط» (أي المرشد، أو الرجل الصالح). لكن باستثناء هذه المعلومات فإن كل ما هو معروف عنه هو أنه دون السورة الأولى من القرآن بالعربية بطلب من رجل أبيض.

و19. لندن

كان لندن من الماندينكا وكان قد تعلم العربية في إفريقيا. تلك المعرفة بالعربية تؤكد أنه كان مسلماً. بينما كان في العبودية في سافانا بولاية جورجيا عام 1857، حاول كتابة «إصحاح جون» وبعض الترانيم المسيحية باللغة الإنجليزية باستعمال الحروف العربية.

من المشكوك فيه أن محتوى ما كتبه لندن يمثل انتماءً حقيقياً للمسيحية. وكما سبقت الإشارة في هذه السير الوجيزة كان الكثير من المستعبدين المسلمين في الأمريكتين يتظاهرون باعتناق المسيحية لكي يحصلوا على معاملة أفضل من ملاكهم، وليس هناك ما يبرر الاعتقاد بأن وضع لندن كان مختلفاً.

و20. أيوبا بن سليمان بن إبراهيم ديالو

كما يعلن اسمه، كان أيوبا بن سليمان بن إبراهيم من عشيرة الديالو (جالو) من قبيلة فولبي (الفولاني). ولد حوالي عام 1702 في منطقة بندو شرق السنغال، وكان أبوه «ألفا» (وهي مفردة غرب إفريقية تقابل المفردة العربية «الفقية»)، أي العالم بالتشريع الإسلامي، ولكن في غرب إفريقيا يمكن أن تعني أيضاً المرشد الديني بشكل عام) وإماماً (أي يؤم المصلين المسلمين). كانت أمه تانوماتا، الزوجة الأولى لسليمان.

في شبابه عندما كان في إفريقيا، كان أيوبا قد تعلم تعليماً جيداً من والده شمل العربية والدراسات القرآنية إلى جانب دراسته ثلاثين مخطوطة. حفظ أيوبا القرآن كاملاً بالعربية عندما كان في الخامسة عشرة وكان يتدرب لكي يصبح إماماً مثل والده. أثناء تعليمه استطاع على ما يبدو أن يجيد ثلاث لغات على الأقل: لغة البولار والفولبي، ولغة الوولوف، والعربية.

في الخامسة عشرة كان أيوبا يساعد والده في إمامة المسجد المحلي. وفي تلك الفترة نفسها تقريباً تزوج من ابنة «ألفا» تومبوت (بامبوك) ورزق منها ثلاثة أبناء (عبد الله وسامبا وإبراهيم). بعد زواجه الأول باثني عشر عاماً تزوج من ابنة «ألفا» تومغا لتكون زوجة ثانية،

ورزق من هذه ابنة واحدة (فاطمة).

في أوائل عام 1730، أرسل أيوبا من قبل والده في مشروع تجاري إلى الضفة الشمالية من نهر غامبيا على الساحل الإفريقي، الذي كان يبعد حوالي 200 ميلاً عن بلده. كان معه خادمان، ومعهم عبدان ليبيعونهما، وكان من مهام رحلته شراء ورق وبعض الأشياء الأخرى من سفينة إنجليزية. لكن والده أكد عليه ألا يعبر إلى الجنوب من نهر غامبيا لأن ذلك يعني دخول منطقة شعب الماندينكا، أعداء الفولبي عندئذٍ.

عند وصوله إلى الضفة الشمالية من نهر غامبيا، حاول أن يبيع عبديه إلى الكابتن بايك، الذي كان موظفاً لدى السيد وليم هنت، وهو تاجر من لندن بإنجلترا. بعد مساومة على السعر فشلت البيعة، وعند هذه النقطة أرسل أيوبا خادميه إلى البلاد واستعان بخدمات لامين ندياي ليكون مترجماً. عبر عندئذٍ إلى المنطقة الواقعة جنوب نهر غامبيا، واستطاع أن يبيع عبديه لقاء حوالي 20 إلى 30 بقرة. بانتهاء عملية البيع أمضى أيوبا ولامين بعض الوقت للراحة في بيت أحد معارف أيوبا القدامى قبل أن يبدآ رحلة العودة إلى الجهة الشمالية من نهر غامبيا.

بينما كان الاثنان مستريحين وبالتالي عزلاً من السلاح قفز عليهما سبعة أو ثمانية من الرجال وأسروهما. قام الرجال بحلق شعر رأسيهما ولحيتيهما لكي يبدوان وكأنهما أسيري حرب، فاحتج أيوبا على تلك المعاملة بشدة، ربما لأن اللحية جزء من المظهر الرجالي الإسلامي المتعارف عليه. اقتيدا عندئذٍ عائدين إلى نهر غامبيا. ومن المفارقة أنهما بعد الوصول إلى غامبيا تم بيعهما، في 27 فبراير 1730، إلى كابتن بايك نفسه الذي حاول أيوبا أن يعقد معه صفقة قبل بضعة أيام.

بعد أن تعرف على أيوبا وافق الكابتن بايك أن يسمح لعائلته أن تفتديه. لكن بعد انتظار أسبوع من عدم وصول الفدية، تم إرسال أيوبا ولامين إلى أنابوليس في ماريلاند عبدين. وكان من تراكم المفارقات أن تصل عائلة أيوبا إلى الساحل ومعها عدد من العبيد لتفتديه بهم لتكتشف أنه مضت عدة أيام على إبحار السفينة «أرابيلا» التي أقلته وعبرت به «الممر الأوسط».

بعد وصوله إلى أنابوليس مع لامين وضع الاثنان تحت سيطرة فاشيل دنتون، وكيل العبيد في ولاية ماريلاند من قبل السيد هنت. غير أن الاثنين لم يلبثا أن فصلا وبيعا إلى ملاك مختلفين ففقد كل منهما أثر الآخر. قام فاشيل دنتون بعد ذلك ببيع أيوبا إلى السيد تولسي من جزيرة كنت، في تشيزبيك بي من ولاية ماريلاند، الذي سمى أيوبا باسم العبودية «سيمون». في جزيرة كنت أوكلت إلى أيوبا في البداية مهام تتعلق بتحضير التبغ للتسويق. ويبدو أنه كره عمله وبدأ يتظاهر بالمرض ويؤدي واجباته ببطء. لذا أوكلت إليه مهام تتعلق بالماشية. ومع أن ذلك كان أفضل قليلاً حسب سلم الوظائف التي توكل للعبيد، فقد ظل أيوبا منزعجاً. ولم يجد أيوبا سوى الصلاة يصب يأسه في ما لا ينتهي منها، مع أن الأداء العلني للصلوات الإسلامية كان يمكن أن يعرضه لعقوبة صارمة. في إحدى المناسبات وبينما كان أيوبا يصلي في الغابة، رمى طفل أبيض طيناً على وجهه أثناء السجود.

لقد تحمل أيوبا كل ما كان مهيئاً لتحمله بعد استعباده في أمريكا لعدة أشهر. حنينه الشديد إلى الحرية دفعه للهرب من مالكه في جزيرة كنت في ماريلاند، وبلغ من الابتعاد أن وصل جنوب شرق بنسلفانيا (التي صارت الآن مقاطعة كنت في ديلاوير) قبل أن يلقي القبض عليه الشريف المحلي ويسجنه.[1]

في يونيو من عام 1731 زار أيوبا في السجن توماس بلويت، ومع أن أيوبا لم يكن قادراً على التحدث بالإنجليزية ولا بلويت يعرف أياً من اللغات التي يعرفها أيوبا، فقد استطاع بلويت أن يكتشف أن أيوبا يستطيع الكتابة بالعربية. فضلاً عن ذلك تبين بلويت أن أيوبا يتلفظ بكلمات «الله» و«محمد» أثناء محاولات أيوبا أن يتفاهم معه. بناء على هذه المعلومات وإلى جانب ما لوحظ من أن أيوبا رفض شرب النبيذ عندما قدم له، فقد استنتج بلويت أن أيوبا مسلم.

على الرغم من النجاح المحدود الذي حققه بلويت في تحديد هوية أيوبا الإسلامية، لم تستطع السلطات معرفة من كان أيوبا أو من يملكه. وهكذا بقي أيوبا في السجن حتى أحضر

(1) ليس لمفردة «شريف» Sheriff مقابل دقيق في العربية فرأيت إبقاءها كما هي، علماً بأن «الشريف» مسؤول أمريكي مهمته الأساسية تتمثل في تنفيذ أوامر المحكمة في مقاطعات الولايات المختلفة بما يتضمنه ذلك من إحضار المطلوبين. (المترجم)

له عبد عجوز يستطيع التحدث بلغة قبيلة الوولوف، وهي لغة كان أيوبا قد تعلمها في طفولته. وبمجرد أن أمكن التفاهم مع ذلك العبد، أوضح أيوبا من هو وأن مالكه هو السيد تولسي. إلى تلك المعلومات أضاف أيوبا بعض الشكاوى تجاه مالكه. تركزت تلك الشكاوى حول لامبالاة السيد تولسي فيما يتعلق بحاجة أيوبا لأداء الصلوات الخمس المفروضة عليه يومياً.

على أساس تلك المعلومات قام المسؤولون بإعادة أيوبا إلى السيد تولسي وشرحوا له طبيعة شكاوى أيوبا ضده. ومما يثير الإعجاب أن السيد تولسي، بدلاً من أن يرد بالعقاب، وفر لأيوبا مكاناً للصلاة، الأمر الذي أدى إلى تحسن حالة أيوبا مع أنه ظل عبداً.

في أوائل عام 1733 كتب أيوبا رسالة بالعربية إلى والده في إفريقيا. أرسل الرسالة إلى فاشيل دنتون طالباً منه أن ترسل الرسالة إلى وليم هنت لكي يوصلها لأبيه. عندما وصلت الرسالة إلى هنت في إنجلترا علم بها جيمس أوغليثورب، مؤسس مستوطنة جورجيا. اهتم السيد أوغليثورب بأيوبا ورتب عملية شرائه من السيد تولسي من خلال الشركة الإفريقية الملكية. مع أن يوبا ظل عبداً من الناحية الفنية، فإن أيام شغله في العبودية انتهت في أقل من ثلاث سنوات. كان على شفا الحرية مرة أخرى.

استغرق الترتيب لعبور أيوبا إلى إنجلترا بعض الوقت، وفي الفترة الانتقالية بقي في منزل فاشيل دنتون وكان محل عناية بعض رجال الدين المحليين وبعض المحامين في أنابوليس. لقاء كرم ضيافتهم علمهم أيوبا أساسيات اللغة العربية. أخيراً في مارس من عام 1733، أبحر أيوبا إلى إنجلترا على سفينة «وليم» برفقة توماس بلويت الذي كان قد زاره في السجن في يونيو 1731 والذي كان قد أعجب بإخلاص أيوبا لدينه الإسلامي، وأدائه العلني للصلوات الإسلامية الخمس، والتزامه بالقيود الإسلامية على الغذاء. فيما يتعلق بهذه المسألة الأخيرة، لاحظ بلويت أن أيوبا كان يتعد على كل المشروبات الكحولية، والخنزير، وكل أنواع اللحوم التي لم يقم هو أو أي من المسلمين بذبحها بأنفسهم، فيما عدا السمك.

استغرقت الرحلة إلى إنجلترا حوالي شهرين وأثناء تلك الفترة نجح أيوبا في تعلم ما يكفي من الإنجليزية من بلويت وقائد السفينة لكي يستطيع التخاطب بها. بعد وصوله إلى إنجلترا

في أواخر أبريل 1733 واصل أيوبا مسعاه للتمكن من الإنجليزية، ودون ثلاث نسخ من القرآن بالعربية من الذاكرة، ثم ترجم بعض الوثائق العربية للسير هانز سلون وآخرين. أثناء فترة بقائه في إنجلترا التي استمرت أكثر من سنة، قدمت له ترجمة عربية لـ «العهد الجديد». وبعد دراسة مكثفة للكتاب خرج بنتيجة صحيحة مؤداها أنه لم يكن هناك أساس للاعتقاد بالثالوث في «العهد الجديد» نفسه. كما أنه اختلف، ولكن باحترام، مع أعضاء الإكليروس المسيحي، وقابل العائلة المالكة، وانتخب عضواً في «جمعية سبولدنغ جنتلمين»، وكسب العديد من الأصدقاء والمعارف المهمين على مدى السنة التالية. قام أولئك عندئذٍ بجمع المال لشراء حرية أيوبا بشكل نهائي من الشركة الإفريقية الملكية التي طلبت ثمناً غالياً هو 59 جنيهاً وست شلنات و11 بنساً ثمناً له. بالإضافة إلى حريته تلقى أيوبا هدايا (قدرها بلويت بنحو 500 جنيه) من الملكة كارولين، ملكة إنجلترا، ودوق كمبرلاند (الابن الثالث لملك وملكة إنجلترا)، ومن دوق مونتيغ، أيرل بيمبروك، وآخرين.

على سبيل الاستطراد، من المفيد ذكر بعض الاحتمالات الثانوية بشأن الأنشطة الأخرى التي قد يكون أيوبا قام بها أثناء وجوده في إنجلترا. أولاً، نشرت ترجمة جورج سيل للقرآن لأول مرة عام 1734، ومن المغري افتراض أنه كان لأيوبا دور في تلك الترجمة.[1] وتكتسب هذه الفرضية صدقية أكثر من الحقيقة المتمثلة في أن أيوبا أرسل فيما بعد تحياته إلى «مستا سيل» ضمن رسالة بعث بها إلى سكرتيره الإنجليزي من غامبيا عام 1736.[2] ثانياً، ربما أدت عضوية أيوبا في «جمعية جنتلمين سبولدنغ» إلى اتصاله بالسير إسحاق نيوتن، الفيزيائي الإنجليزي، وبأليكساندر بوب، الشاعر الشهير.

في عام 1734، بعد أن قضى ما يزيد على العام في إنجلترا، عاد أيوبا إلى بلاده في إفريقيا على سفينة «دولفين»، في رحلة استمرت سبعة أسابيع. بعد وصوله إلى إفريقيا في 8 أغسطس 1734 عمل ممثلاً تجارياً للشركة الإفريقية الملكية ومنح الصلاحية لافتداء بعض رفاقه المسلمين الذين

(1) تعد ترجمة سيل أول ترجمة رئيسة كاملة للقرآن الكريم بالإنجليزية، ومع أنها مليئة بالأغلاط والتحيز فإنها تعد من أفضل ما صدر في تلك الفترة (المترجم).

(2) «مستا سيل»: الأقرب هو أن «مستا» تعني «مستر» كما يلفظها الأفارقة عادة. أما السكرتير الإنجليزي فليس من الواضح إن كان سكرتيراً لجورج سيل، مع أن الأقرب أنه كذلك (المترجم).

قدر عليهم أن يكونوا عبيداً في أمريكا. لسوء الحظ لا يعرف حتى الآن كم عدد المسلمين الأفارقة الذين استطاع أيوب أن ينقذهم من أن يجتازوا «المعبر الأوسط» إلى العبودية في الأمريكتين. لكن من المعروف أنه استطاع أثناء إقامته في إنجلترا أن يستفيد من علاقته بدوق مونتيغ بجعل هذا الأخير يفتدي مترجمه السابق لامين ندياي من عبوديته في ماريلاند. هذا إلى جانب أنه طوال مدة عمله في الشركة الإفريقية الملكية، استمر في مراسلة أصدقائه في إنجلترا عبر رسائل بالعربية.

لم يأت كل شيء على هوى أيوبا عندما عاد إلى إفريقيا. فقد اشتعلت حرب في منطقته بوندو ولم يستطع العودة إلى موطنه حتى يونيو 1735. كان والده قد توفي قبل عودته، وزوجته الأولى تزوجت ظناً أن أيوبا قد مات. بعد عودته بفترة قصيرة سجنه الفرنسيون لمدة سنة قبل أن يطلقوا سراحه. استمر في العمل لصالح الجمعية الإفريقية الملكية حتى انتهت في أوائل الخمسينات من القرن الثامن عشر. بعد ذلك تتضاءل المعلومات عن أيوبا، فيما عدا ملاحظة ظهرت في سجلات «جمعية سبولدنغ للجنتلمين» تشير إلى أنه قد توفي عام 1773.

لقد خلدت قصة أيوبا في سيرة تألفت من 54 صفحة كتبها توماس بلويت عام 1734. في تلك السيرة نجد انطباعات بلويت الشخصية حول أيوبا. هذه الانطباعات بنيت على اللقاء الأول بينه وبين أيوبا في يونيو 1731 امتداداً حتى مغادرة أيوبا إلى إفريقيا عام 1734. حسب وصف بلويت، كان أيوبا يبلغ خمسة أقدام وعشر إنشات طولاً وذا شعر طويل أسود ومجعد. كما لاحظ أن أيوبا كان بالغ اللطف والإنسانية، مهذباً، هادئاً، ومتمسكاً تمسكاً مطلقاً بمعتقداته الإسلامية، وشديد الذكاء. فيما يتعلق بالملاحظة الأخيرة، أشار بلويت أن أيوبا كان ذا رأي صائب، وذاكرة سريعة، مع قدرة على فك وإعادة تركيب المحراث ومطحنة الحنطة والساعة، إلى جانب المقدرة على الجدال دفاعاً عن معتقداته الدينية بطريقة مفحمة وموضوعية على الرغم من أن اللغة الإنجليزية كانت جديدة عليه. لابد أن حجج أيوبا كانت قوية فعلاً، ذلك أنه على الرغم من أن بلويت كان داعية مسيحياً، فقد خلص إلى أن لدى أيوبا المسلم معتقدات معقولة فيما يتصل بالله والحياة الآخرة.

و21. محمد عبد الله

كان محمد عبد الله من البولو من مدينة كانو شمالي نيجيريا على نهر جاكارا. على مدى ألف عام ظلت كانو عاصمة لمملكة الهاوسا القديمة في كانو ومنذ القرن الخامس عشر وهي محاطة بسور له 14 بوابة وطوله ومحيطه 12 ميلاً، وارتفاعه مابين 30 و50 قدماً، وعرضه 40 قدماً عند القاعدة. عند نهاية القرن الخامس عشر، كان في كانو 3000 معلم. لذا فإنه ليس من المدهش أن يكون محمد، الذي عاش في هذه البيئة، قد تلقى تعليماً عالياً في اللغة العربية والدراسات القرآنية وأنه أثناء عيشه في إفريقيا قد عمل «مرابوطاً» (أي معلماً ومرشداً دينيا) وأن يكون قد أدى فريضة الحج إلى مكة.

وقع محمد في العبودية وأخذ إلى باهيا في البرازيل في مطلع القرن التاسع عشر تقريباً. هناك نجح بطريقة أو بأخرى في إجادة البرتغالية تحدثاً وكتابة وأن يستعيد حريته من العبودية. أمضى عندئذٍ حياته يعمل نجاراً في باهيا. وفي سن متقدم في أواسط القرن التاسع عشر عمل لفترة وجيزة عند الكونت فرانسيس دي كاستيلناو، وهو مسؤول فرنسي مقره باهيا. ومما يدل دلالة كافية على استمرار محمد في الالتزام المخلص بدينه الإسلامي طوال حياته في البرازيل أن الكونت كاستيلناو ذكر فيما بعد أن محمد كان لا يتوقف عن محاولة جعله يعتنق الإسلام.

و22. أبو بكر الصديق[1]

ولد أبو بكر الصديق لعائلة من الماندينكا في تمبكتو ما بين 1790–1794. بعد ذلك بعامين انتقلت عائلته إلى جيني الواقعة أعلى نهر النيجر على بعد 250 ميلاً إلى الجنوب الغربي من تمبكتو. كان أبوه كارا موسى، وهو خبير في تفسير القرآن و«حاجي»، أي مسلم أدى فريضة الحج إلى مكة. جد أبي بكر لأبيه كان عمر بن سهيد المالك، الذي وصف مرة بأنه «مار» ومرة بأنه «القائد» (كلا الصفتين يمكن ترجمتهما إلى «أمير»). وكما يتضح فإن عائلة أبي

(1) Curtin PD (1968).

بكر من جهة أبيه كانت جزءا من الأرستقراطية الماندينكاوية، ويعود ذلك جزئياً إلى كونهم «أشرافاً»، أي من نسل الرسول محمد. أما نسب أبي بكر من ناحية الأم، فإن والدة أبي بكر كانت حفصة (ناغودي بلغة الهاوسا)، وهي ابنة محمد تفسير، وهو «حاجي» من بورنو وكاتسينا في الجزء الشمالي من نيجيريا.

كان أبو بكر جزءاً من عائلة محدودة العدد.[1] ومع أنه ذكر أن له شقيقاً (صالح) وشقيقة (أمينة)، فقد كان له تسعة أخوة غير أشقاء وأربع أخوات غير شقيقات. أخوته غير الأشقاء من جهة الأب تضمنوا: عمر، سعيد، موسى بابا، مؤمن، عبد الله، سليمان، مصطفى، يوسف، عبد الرحمن. أخواته غير الشقيقات من جهة الأب تألفن من: عائشة، سليمة، هوى، كيلتوم.

توفي والد أبي بكر أثناء متاجرته في بونا حين كان أبو بكر لم يتجاوز الرابعة من عمره بعد. نتيجة لذلك قام بتعليمه معلم درّسه العربية والدراسات القرآنية. عند وصوله إلى سن التاسعة بدأ أبو بكر ومعلمه وعدد من التلاميذ الآخرين في السفر ليكون ذلك داعماً لتعليمهم وليتمكنوا في النهاية من زيارة قبر والد أبي بكر في بونا. أمضوا السنة الأولى من تلك السفرات في مركز ديولا للتجارة في كونغ (ساحل العاج حالياً)، التي كانت تقع على مسافة 330 ميلاً إلى الجنوب من جني والتي كان يقطنها عم أبي بكر، عبد الرحمن. بعد فترة في كونغ قطع أبو بكر ومعلمه ما يقارب الستين ميلاً إلى الشرق من بونا التي كانت مركزاً كبيراً للعلم، وموطناً للعديد من الدارسين من مختلف الشعوب، إلى جانب كونها مقر إقامة لعم آخر هو محمد الذي كان متزوجاً من ابنة ملك بونا. في بونا، بدأ أبو بكر تلقي دروس متقدمة في حول القرآن تضمنت دراسة التفسير. وكان قد حفظ القرآن كاملاً تقريباً عندما انقطع تعليمه فجأة.

عند حوالي الرابعة عشرة أو الخامسة عشر وقع أبو بكر في أسر جيش السلطان أدينكارا، حاكم بندوكو، حين غزا هذا الأخير مدينة بونا. استعبد أبو بكر وعري من ملابسه وربط بحبل، ثم أعطي حملاً ثقيلاً وأمر بالسير إلى بندوكو التي كانت تبعد حوالي 50 ميلاً تقريباً

(1) العائلة المحدودة nuclear family تتألف من أب وأم وأطفالهما.

إلى الجنوب من بونا. من بندوكو أخذ في رحلة دائرية امتدت إلى 11 أو 12 يوماً على مسافة 200 ميل باتجاه كوماسي التي كانت لا تبعد في الواقع أكثر من 50 ميلاً إلى الجنوب الشرقي من بندوكو. من كوماسي أمر بالسير 120 ميلاً أخرى في رحلة متعرجة لعدة أيام باتجاه مينا لاغو الذي لا يزيد بعده في الحقيقة عن 50 أو 60 ميلاً إلى الجنوب الشرقي من كوماسي. في لاغو تم بيعه إلى سفينة إنجليزية إما عام 1805 أو 1807 ومن هناك بدأت رحلته عبر «الممر الأوسط» على مدى ثلاثة أشهر إلى جامايكا.

بوصوله إلى جامايكا بيع مبدئياً إلى بنّاء حجارة اسمه دونيلاّن. ثم بيع فيما بعد إل السيد هاينِز، وهو مالك متغيب أمر بتعميده قسراً بالاسم المسيحي إدوارد دونلان (دونيلاّن أو دولان).[1] مثل العديد من الأفارقة المسلمين الذين عمدوا قسراً، اكتشف أبو بكر أن حياته في العبودية تصير أسهل حين يساير التمثيلية العلنية بصفته مسيحياً. في عام 1823 بيع مرة أخرى إلى أليكساندر أندرسون الذي كلفه بأن يكون كاتب حساباته. في عمله هذا احتفظ أبو بكر بالحسابات بكلمات إنجليزية مستعملاً الخط والحروف العربية، وكان من الأهمية لأندرسون في أداء وظيفته هذه حتى أن أندرسون رفض بيعه إلى دوق مونتيبيلّو الذي كان عازماً على تحرير أبي بكر. أخيرا، في عام 1834، ومن خلال المساعي التي بذلها رتشارد روبرت مادين، القاضي البريطاني في جامايكا، قام أندرسون بإعتاق أبي بكر مقابل 20 جنيهاً. (لم يكن إعتاق أندرسون لأبي بكر ناتجاً كله عن الأثرة، فقد كان جميع العبيد في المستعمرات البريطاني سيعتقون حسب قانون بريطاني سبق أن صدر وذلك خلال أربعة أعوام فقط).

كان أبو بكر أحد الموقعين الأربعة على الرسالة التي بعثت إلى رتشارد روبرت مادن في 2 أكتوبر، 1834 (أنظر سيرة وليم رينسفورد). في تلك الفترة نفسها تقريباً، وحين سمع بتحرير أبي بكر، بدأ محمد كابا (انظر سيرته) في مراسلته بالعربية حول الدين الإسلامي مخاطباً إياه مباشرة بلقب «شريف»، الأمر الذي يوحي بأن مكانة أبي بكر بوصفه من نسل الرسول محمد كانت معروفة وسبباً للشهرة بين المسلمين المستعبدين في جامايكا.

في عام 1835 نقل أبو بكر إلى إنجلترا عن طريق كابتن أولدري، وهو قاضٍ بريطاني يعمل

(1) المالك المتغيب مالك يقيم في منطقة بعيدة عن ممتلكاته.

في جامايكا. في سبتمبر 1835 غادر إنجلترا إلى المغرب مرافقاً حملة جون ديفيدسون الخاصة، وعند وصوله إلى هناك استقبل بوصفه «مولاي» (أي أمير من نسل النبي محمد) من قبل السلطان، ومنح المكانة التي تتطلبها ألقابه ونسبه، واكتشف أن أحد أقاربه صار حاكم تمبكتو.

بعد انقضاء عام في المغرب، غادر أبو بكر وحملة ديفيدسون وادي نون نهاية نوفمبر من عام 1836 ليبدؤوا رحلة برية إلى الصحراء جنوباً ثم إلى تمبكتو. في 18 ديسمبر، 1836 هوجمت الحملة وقتل ديفيدسون. أما أبو بكر فقد نجا بطريقة ما وعاد أدراجه إلى بلدته جيني التي شوهد يعيش فيها في يونيو 1841.

أثناء حياته في الغرب، كتب أبو بكر سيرتين ذاتيتين قصيرتين. كتبت الأولى في جامايكا عام 1834، وكانت مخطوطة بالعربية وجهها أبو بكر لمن أحسن إليه، وهو رتشارد روبرت مادن. أما السيرة الذاتية الثانية، وهي أيضاً مكتوبة بالعربية، فقد دونها أبو بكر أثناء إقامته القصيرة في إنجلترا وتحمل التاريخ 29 أغسطس، 1835. كلا السيرتين ترجمتا ونشرتا. لكن لسوء الطالع، فقدت المخطوطة العربية في كلتا الحالتين.

في سيرتيه الذاتيتين، أكد أبو بكر تمسكه طوال حياته بالإسلام وإخلاصه له، ما يعني أنه رفض تعميده القسري السابق إلى المسيحية. لقد أكد الحاجة لأداء أعمدة الإسلام الخمسة، أي الشهادة وأداء الصلاة والصيام أثناء الشهر القمري رمضان، وأداء الحج إلى مكة. بالإضافة إلى ذلك، كرر المبادئ والفروض القرآنية مثل: الحفاظ على الضوابط الغذائية الإسلامية، ومن ذلك تجنب الكحول واللحم الذي لم يذبح بالطريقة الإسلامية، وطاعة الوالدين، وتجنب الأوثان، وعدم اشتهاء ما للغير، وتجنب النفاق. وأنهى سيرته الذاتية بالتأسي على أنه لم يستطع أن يعبد الله جهراً وبحرية كما كان يتمنى في مواجهة عبوديته، وطلب من الله المغفرة لذنوبه.

حسب ما هو معروف، لم يتزوج أبو بكر ولم يكن له أطفال في الأمريكتين.

و23. إبراهيم عبد الرحمن ديالّو

ينتمي إبراهيم عبد الرحمن ديالّو إلى عشيرة ديالّو الرفيعة الشأن من قبيلة الفولبي، وكانت ولادته حوالي عام 1762 في تمبكتو (وسنسميه هنا عبد الرحمن لتمييزه عن أبيه). عندما بلغ الخامسة من العمر انتقلت عائلته إلى تيمبو، فوتا جلّون، في غينيا.

أبوه هو إبراهيم يورو باتي سوري، وهو «الألمامي» الثاني (وهذه مفردة غرب إفريقية محرفة عن «الإمام» أو من يؤم الناس في الصلاة، وفي غرب إفريقيا تتضمن الكلمة سلطة عسكرية). بوصفه واحداً من قائدين عسكريين رئيسيين لقبيلة الفولبي في فوتا جلّون، كان إبراهيم السبب الرئيس في نجاح حرب التحرر من سكان فوتا جلّون غير المسلمين وغزوهم، الأمر الذي أدى إلى انتهاء سلسلة من حروب التحرير التي ابتدأت في أواخر العشرينات من القرن الثامن عشر. لقد اعتبر إبراهيم جلّون أميراً للفولبي وملكاً لفوتا جلّون لأنه كان الباني الأول لحكم الفولبي في تلك المنطقة. لقد منح اللقب التكريمي «مودو»، أي «العظيم». استطاع إبراهيم يورو، أثناء الأعوام الواقعة مابين 1776 وحتى 1778، أن يعزز مكتسباته العسكرية السابقة ويجعل فوتا جلّون أقوى الشعوب في تلك المنطقة من غرب إفريقيا.

تلقى عبد الرحمن تعليمه الابتدائي في الدراسات القرآنية واللغة العربية في بلدته تيمبو، وبعد إتمامه تلك الدراسات بنجاح، صعد السلم الأكاديمي بتلقيه التعليم الثانوي في جني ماسينا. ثم تواصل نجاحه فحصل على تعليم عالٍ في تمبكتو، وأصبح بإكتمال تعليمه النظامي مكتمل المعرفة بالعربية، يتحدثها بطلاقة إلى جانب «البيولار» لغة الفولبي، واللغات المجاورة للبامبارا والماندينكا والجلّونكي.

بعد انتهاء تعليمه النظامي في تمبكتو تلقى تدريباً عسكرياً ليصير ضابطاً في الفرسان. وببلوغه الثانية والعشرين كان قد صار كابتناً في الفرسان وقاد مجموعة من الجنود إلى المعركة منتصراً. بعد عامين رقي إلى رتبة كولونيل، وببلوغه السادسة والعشرين تزوج وصار أباً. كان عندئذٍ، إلى جانب ذلك، قائداً لجيش مكون من 2000 رجل كان يقودهم غرباً في حرب دفاعية. في بداية تلك الحملة لعام 1788 حقق عبد الرحمن سلسلة من الانتصارات. غير أنه

أثناء عودة الجيش إلى فوتا جلّون، وقع هو وفرسانه في كمين في مضيق جبلي قرب هوبوس (هيبوس) في مارس 1788. أصيب عبد الرحمن بطلقة في الكتف وأخذ هو وخمسين من جنوده أسرى. تم وضعه عندئذٍ في القيود وأمر بالسير عاري القدمين لمدة 100 ميل نحو نهر غامبيا البعيد حيث بيع إلى قبطان سفينة بريطانية. عندئذٍ بدأت حياته الطويلة في العبودية.

بدخوله في الأسر البريطاني وضع في معتقل صغير مظلم وقذر على سفينة «إفريقيا». وعلى مدى الأسبوع التالي كانت «إفريقيا» تبحر على نهر غامبيا باتجاه الساحل وتبدأ رحلتها التي استمرت ستة أسابيع وقطعت ثلاثة آلاف ميل من «الممر الأوسط» عبر الأطلسي حتى جزيرة الدومينيكا في الكاريبي. من جزيرة دومينيكا نقل إلى مصب نهر الميسسبي في رحلة لمدة ستة أسابيع أخرى قطعت 2200 ميل. عند الوصول إلى الميسسبي أبقي على ظهر السفينة لمدة أسبوع قبل أن ينزل منها في نيو أورليانز، المدينة التي لم تكن في حجمها عندئذٍ تزيد عن 67٪ تقريباً من مدينة تمبو موطن عبد الرحمن. بعد شهر قضاه في نيو أورليانز، أخذ على قارب نهري في أغسطس 1788 وبدأ رحلة استمرت ثلاثين يوماً قطع فيها 300 ميل إلى أعلى نهر الميسسبي باتجاه ناتشيز في ولاية ميسسبي.

عند وصوله إلى ناتشيز كان عبد الرحمن موهنا ومريضاً نتيجة معاناته الطويلة. ومع ذلك فقد كان مقيداً بحبل مربوط حوله، وشعره الطويل مقصوصاً، ثم بيع إلى توماس فوستر. محاولاته للتواصل من خلال مترجم للغة الماندينكا نتجت عن منحه اسم «برنس» من قبل فوستر. وعلى الرغم من ذلك الاسم، الذي أعطي على الأرجح للإهانة أكثر منه للاحترام، فقد كلف عبد الرحمن بأوطأ الأعمال وأكثرها إرهاقاً من الناحية الجسدية، فقد أرسل ليعمل في الحقل وحين اعترض على ذلك جُلد.

بعد ذلك تعلم عبد الرحمن حيل العبيد فصبر حتى استعاد صحته وقوته، وبمجرد أن شعر بما يكفي هرب إلى الأحراش. لكن أحراش الميسسبي ليس فيها ما يؤوي عبداً هارباً ماعدا القليل من الحرية. بعد عدة أسابيع قضاها يناضل من أجل نفسه وحيداً سلم نفسه في النهاية لمالكه.

تحول عبد الرحمن بعد ذلك إلى عبد نموذجي قال عنه مالكه بأنه يبتعد عن الكحول وسوء السلوك وعدم الأمانة والكسل. بل إنه أظهر تحوله إلى مسيحية مالكه فبدأ يشق طريقه إلى أعلى سلم العبودية. خبرته حين كان ضابطاً في الفرسان منحته ميلاً طبيعياً للعمل مع الماشية والخيول، وميز نفسه في تلك المجالات. في النهاية، وعلى مدى عدة سنوات، ارتقى السلم وصار من الناحية العملية المشرف العام على المستوطنة، وذلك شرف نادر بالنسبة لإفريقي مستعبد. كما أنه منح بالإضافة إلى ذلك حديقة خاصة ووقتاً حراً.

حوالي 1794—1795 تزوج عبد الرحمن زميلة له في العبودية، إفريقية أمريكية من المذهب المعمداني تدعى إيزابيلا وتعمل «طبيبة» وقابلة لعبيد المستوطنة.[1] نتج عن الزواج خمسة أبناء وأربع بنات وعلى الأقل ثمانية أحفاد ولدوا جميعاً في العبودية. بحلول 1828، ودليلاً على قسوة العبودية في الجنوب الأمريكي، لم يكن قد بقي على قيد الحياة من أطفاله سوى خمسة.

كان يمكن لكل شيء أن يبقى دون تغيير لولا لقاء رائع حدث عام 1807. كان عبد الرحمن قد سافر في ذلك اليوم إلى ناتشيز لبيع بعض الخضار التي كان قد استنبتها في حديقته الخاصة. كان منشغلاً بذلك حين قابل جون كوتس كوكس. كان اجتماع شمل يتنامى على مدى 30 عاماً!

كان كوكس طبيباً أبيضاً سبق له أن ابتعد عن سفينة على الساحل الإفريقي ثم ضاع وجرح ومرض ثم انتهى به المطاف وبأعجوبة في تيمبو، بلدة عبد الرحمن. كان كوكس أول أبيض يصل إلى تيمبو وبلغ أمره إبراهيم يارو فهيأ له تمريضاً حنوناً أعاد إليه عافيته على يد السكان المسلمين في تمبو. بقي كوكس في تمبو لمدة ستة أشهر بإلحاح من إبراهيم يارو وتعرف على عبد الرحمن جيداً. وحين قرر كوكس السفر أرسل إبراهيم يارو معه خمسة عشر جندياً يرافقونه ويؤمنون طريقه إلى الساحل الإفريقي، وأعطاه ذهبا يشتري به رحلة العودة إلى بلاده بريطانيا العظمى. فيما بعد هاجر كوكس إلى أمريكا ثم استوطن في الميسسبي. ومما ضاعف الأعاجيب أنها لم تقف عند حد التقاء اثنين تعارفا ثم انفصلا لمدة ثلاثين عاماً وعلى بعد

(1) المذهب المعمداني Baptist مذهب بروتستانتي مسيحي.

6000 ميل من المكان الذي عرف فيه بعضهما بعضاً، وإنما تجاوزت ذلك إلى أن عبد الرحمن تعرف على كوكس بسرعة من طريقة ركوبه على حصانه في الشارع، الأمر الذي يشهد لعبد الرحمن بالخبرة بوصفه ضابط فرسان. حين بدأ عبد الرحمن في الحديث مع كوكس أثناء تفحص الأخير لبعض البطاطس التي كان عبد الرحمن يبيعها، عرف كوكس الرجل الذي سبق أن أحسن إليه فأمسك به حالاً في عناق علني في الشارع، وهو عمل لا يخطر على البال أن يقوم به رجل أبيض في الميسسبي عام 1807.

لأن كوكس لم ينس عناية عبد الرحمن وإبراهيم يورو به، فقد سارع إلى التعريف بهذا الأمير الإفريقي لدى حاكم الولاية «وير»، مشيراً إلى أنه يعيش في العبودية بينهم، وسعى إلى شراء عبد الرحمن بغية إعتاقه. لكن فوستر للأسف رفض طلب كوكس مفضلاً الاحتفاظ بالعبد الذي وثق به أكثر من غيره والأكثر قيمة عنده مع أن كوكس عرض دفع أي مبلغ يطلبه فوستر. لم يثن ذلك كوكس عن الاستمرار في المحاولة لعدة سنوات، وحين توفي كوكس استمر ابنه في محاولة تحرير الرجل الذي أحسن إلى والده في الماضي. ومع أن عبد الرحمن لم يحصل على حريته من خلال محاولات كوكس الدؤوبة، فقد أعجب فوستر في النهاية بما سمعه من كوكس بما يكفي لإلغاء كل الواجبات التي كان عبد الرحمن يكلف بها وإعطائه المزيد من الوقت الحر لنفسه.

وصلت أخبار عبد الرحمن التي كانت تدور في الميسسبي إلى أندرو مارتشوك، وهو رئيس تحرير صحيفة محلية في أوائل 1820، فأجرى معه بعض اللقاءات وكتب العديد من المقالات عنه. في النهاية اقترح مارتشوك على عبد الرحمن أن يكتب رسالة بالعربية إلى عائلته في إفريقيا ترسل من خلال وزارة الخارجية الأمريكية. في البداية رفض العبد الذي دخل مرحلة الشيخوخة الاقتراح، لكنه في عام 1826 كتب الرسالة.

بعد تلقي وزارة الخارجية الأمريكية رسالة عبد الرحمن بدأت مراسلات طويلة مع المغرب، الدولة الإفريقية الوحيدة التي كانت تقيم علاقات دبلوماسية مع الولايات المتحدة. على مدى سنتين تقريباً، استمرت حكومة المغرب تطالب وزارة الخارجية الأمريكية أن

تمنح الحرية لأمير الفولبي المستعبد والمسن وتعيده إلى إفريقيا. أخيراً تدخل وزير الخارجية الأمريكي هنري كلي، وكان نفسه من الجنوب وداعية للعبودية، لدى توماس فوستر. اقترح كلي أن تدفع وزارة الخارجية الأمريكية تكاليف نقل عبد الرحمن إلى واشنطن دي سي، إذا كان لدى فوستر الاستعداد لإعتاقه.

وافق فوستر بتذمر على طلب كلي في 22 فبراير 1828 ولكن عبد الرحمن لم يرد أن يذهب بدون زوجته. رفض فوستر الطلب الأخير في البدء لكنه بعد ذلك طلب 200 دولار، وهو ثمن قليل في ذلك الزمان والمكان، لقاء إيزابيلا. بعد أن سمعوا بما يجري قام المواطنون المحليون في ناتشيز بجمع 293 دولاراً في يوم واحد. بهذا تحرر عبد الرحمن وزوجته في منتصف مارس 1822 وبدؤوا رحلة على قارب نهري من ناتشيز في الميسسبي إلى سنسيناتي في أوهايو.

اكتسبت رحلة عبد الرحمن وعائلته من ناتشيز إلى السفينة التي ستحملهم إلى إفريقيا طابع رحلة نصر استمرت 11 شهراً تقريباً. وصل سنسيناتي في سفينة بخارية في 19 أبريل، 1828. من سنسيناتي سافر براً على عربة إلى واشنطن دي سي، ومن واشنطن واصل السفر عبر ثلاث من ولايات نيو إنغلند، إلى نيويورك، فيلادلفيا، وبلتيمور، قبل أن يصل إلى نورفوك في فرجينيا.

عبر تلك الجولة، التقى عبد الرحمن بالعديد من الشخصيات البارزة وكانوا جميعاً ينظرون إليه باحترام. من أولئك: فرانسيس سكوت كي، مؤلف «العلم المرصع بالنجوم»، وجوزيف واتسون، رئيس بلدية فيلادلفيا؛ والنائب إدوارد فيريت، الأصغر؛ ووزير الخارجية الأمريكي هنري كلي؛ والرئيس جون كوينسي أدامز. غير أن السبب الحقيقي وراء جولته الطويلة كانت مساعيه التي لا تتوقف لجمع المال لشراء حرية أطفاله وأحفاده. في تلك المناسبات كان غالباً ما يلبس عمامة يعتليها هلال، مع معطف أزرق بأزرار صفراء، وبنطلون مزموم عند العقبين، وحذائيين عاليي الساقين وسيف معقوف. ولكي تنفتح محافظ محدثيه أكثر كان يشير إلى اعتناقه الزائف للمسيحية، فنجح بذلك في إعطائهم انطباعاً بأنه سيكون داعية يأتي

بالمسيحية إلى موطنه إفريقيا. نجحت تلك المحاولات فاستطاع أن يجمع 3,500 دولار تكفي لشراء حرية ثمانية من أحفاده بمجرد وصوله إلى إفريقيا.

في 7 فبراير، 1829 غادر عبد الرحمن وإيزابيلا نورفوك على سفينة «هارييت» باتجاه ليبيريا في إفريقيا. كان في السابعة والستين من عمره أمضى منها في العبودية 40 عاماً. عند وصوله إلى ليبيريا تخلى عبد الرحمن عن كل مظهر يوحي بأنه مسيحي وأعلن التزامه بدينه الإسلامي. لكنه لم يستطيع العودة إلى تيمبو. الاضطرابات السياسية في فوتا جلّون وتقدمه في العمر حالت بينه وبين القيام برحلة الخمسة عشر يوماً عبر الجبال باتجاه وطنه. في يونيو 1829 أصيب بالمرض، وتوفي في 6 يوليو 1829 في مونروفيا بليبيريا. في ديسمبر 1830 وصل الثمانية من سلالته الذين أفرج عنهم إلى ليبيريا. كان من بينهم اثنان من أبنائه (لي وسايمون)، وزوجة سايمون وأطفال سايمون الخمسة. ومن المحتمل أن الكثير من سلالته قد تحرروا ووصلوا ليبيريا عام 1835 عندما قامت سلالة توماس فوستر بتحرير بعض العبيد الذين ورثوا.

كما فعل القليل من رفاقه المسلمين الذين استعبدوا في الأمريكتين، كتب عبد الرحمن سيرة ذاتية موجزة باللغة العربية. كتبت المخطوطة عام 1828 عندما كان في واشنطن دي سي. في مايو 1828، نشرت صحيفة «المستودع الإفريقي» ترجمة إنجليزية لسيرة عبد الرحمن العربية. لكن لسوء الحظ فقدت المخطوطة العربية الأصلية.

قبل اختتام سيرة عبد الرحمن من المفيد أن نتوقف عند اعتناقه الزائف للمسيحية ومظهره المسيحي فيما بعد. لقد ترك عبد الرحمن عدة نماذج من كتاباته العربية، التي انحصرت كلها تقريباً في ما يحفظه من القرآن. عندما طلب منه قس مسيحي في فيلادلفيا في 29 ديسمبر 1828 أن يكتب الصلاة المسيحية للرب بلغته الأصلية، استجاب عبد الرحمن بكتابة الفاتحة (السورة الأولى من القرآن) بالعربية. بالنسبة لعبد الرحمن تلك كانت صلاة الرب، لأنها تكرر مرتين أو أربع في كل صلاة من الصلوات الخمس في الإسلام يومياً. وغني عن القول أن القس المسيحي لم يستطع القراءة بالعربية ولا يدري من ثم الخدعة التي انطلت عليه.

أما فيما يتعلق بتعليقات عبد الرحمن على المسيحيين الذين التقاهم في الميسسبي، فينسب

إليه قوله إن «الكتاب المقدس»، الذي قرأه في عبوديته، تضمن تشريعات جيدة جداً لكن المسيحيين لم يتبعوا تلك التشريعات. ثم مضى قائلاً إن المسيحيين الذين رأى لم يكونوا يصلون بما يكفي، وكانوا جشعين، ومتعلقين بالمال والثروة. ولتأكيد حكمه أشار إلى الوضع الذي أوجده المسيحيون في الميسسبي لعبيدهم بإرهاقهم بالعمل فقط من أجل زراعة القطن. سأل بحرقة أين وجد المسيحيون ما يجيز ذلك النوع من السلوك في تشريعات «الكتاب المقدس».

و24. عمر بن سعيد

ينتمي عمر بن سعيد إلى توكولار فولا وكانت ولادته حوالي 1765 في فوتا تورو في بندو على نهر السنغال فيما يعرف اليوم بالسنغال. كان ابناً لسعيد وأومهان ياسنك وكان لديه اثنان من الأخوة الأشقاء، وأخت شقيقة واحدة، إلى جانب اثنان من الأخوة غير الأشقاء وأربع من الأخوات غير الشقيقات. ويبدو أنه كان من عائلة غنية فقد ذكر أن والده كان يملك سبعين عبداً.

توفي والده عندما كان عمر في الخامسة من عمره فتولى أحد أعمامه [أو أخواله] تربيته.[1] وعلى الرغم من كونه يتيماً، فقد تلقى عمر تعليماً أعلى من المعتاد. تعلم العربية والدراسات القرآنية بتعمق على يد أخ أكبر سناً هو الشيخ محمد بن سعيد، وعلى يد الشيخ سليمان كيمبه، والشيخ جبريل عبدل في فوتا تورو وربما في فوتا جلّون. حسب ما ذكره هو، كان عمر تلميذاً لمدة 25 عاماً، ما يوحي بأنه كان مثقفاً وعالماً.

وصف حياته في إفريقيا من حيث هي مكرسة لتطبيق الإسلام بأعمدته الخمسة التي تتضمن: الصلاة والصيام والزكاة والحج. فيما يتعلق بالعمود الأخير، ذكر عمر أنه ذهب عدة مرات في حج ديني، ولربما تضمنت إحدى تلك المرات حجاً لمكة. كان عالماً ومعلماً لعدة سنوات ثم صار يتاجر بالملح والثياب وغيرها. لم تكن له زوجه ولا أطفال في إفريقيا.

(1) لا تميز كلمة uncle الإنجليزية بين العم والخال، فقد يكون أي منهما هو الذي تولى تربيته. (المترجم)

كان يعيش على ما يبدو في كيبي في منطقة الماندينكا في بيور في عام 1807، وفي تلك الفترة اشترك في معركة بين جيشين متنافسين في السنغال. في تلك المعركة أسر واستعبد. رحلته عبر «الممر الأوسط» إلى تشارلستون بجنوب كارولاينا استغرقت ستة أسابيع. لم يترك سجلاً بما حل به من أهوال أثناء تلك الرحلة.

عند وصوله إلى أمريكا اشتراه في البدء مالك قيل أنه كان طيباً معه. لكن ذلك المالك توفي وحل محله مالك أرهقه بالعمل وطالبه بجهد بدني كبير، فما كان من عمر نتيجة لذلك إلا أن هرب، ثم ألقي القبض عليه في كنيسة في فاييتفيل في كارولاينا الشمالية التي ذهب إليها بحثاً عن ملجأ ليصلي. تم بعد ذلك سجنه بوصفه عبداً هارباً. وفي السجن لفتت اهتمام السجانين والسكان المحليين قدرته على الكتابة بالعربية على حائط السجن وكذلك هيئته اللطيفة والباعثة على الاحترام.

في عام 1811 اشتراه مالكه الثالث، الجنرال جيمس أوين. ويبدو أن أوين عامل عمر من حيث هو رجل ضعيف ومريض لا يستطيع القيام بالكثير من العمل الجسماني، فلم يطلب منه الكثير ولبى بعض رغبات عمر الدينية. فقد حصل له، مثلاً، على نسخة من الترجمة الإنجليزية للقرآن وأتى بمن يقرؤها عليه. لكن عمر لم يتمكن في الحقيقة من إتقان اللغة الإنجليزية.

لقد حافظ عمر طوال عدة سنوات على صلواته وصيامه وضوابط الطعام كما أمر الإسلام. لكنه عُمِّد في نهاية المطاف في الكنيسة المشيخية عام 1821، وكان أحد المواظبين على الحضور في تلك الكنيسة.[1] هناك أعطي نسخة من «الكتاب المقدس» بالعربية التي يبدو أنه قرأها بتكرار جعل من الضروري استعادتها منه. فضلاً عن ذلك، في مراسلاته بالعربية لعام 1835 مع لامين كيبي، الذي سبق أن وردت سيرته الموجزة، يقال أن عمر حث الأخير على اعتناق المسيحية. لسوء الحظ لم تعد الأصول العربية للرسائل متوفرة للتحليل وإعادة الترجمة. أخيراً، في سيرته الذاتية لعام 1831، يقال أن عمر كتب: «قبل أن آتي إلى البلد المسيحي، كان ديني

(1) الكنيسة المشيخية هي المعروفة بالإنجليزية بريسبيتيريان Presbyterian وهي التي يديرها شيوخ منتخبون يتمتعون بحقوق متساوية. (المترجم)

هو دين محمد، رسول الله، عليه رحمة الله وسلامه».[1] ما تضمنه كلام عمر أنه لم يعد مسلماً، لكنه ينهي ما قال بإشارة إسلامية خالصة للنبي محمد.

على الرغم من اعتناقه العلني للمسيحية، وقراءته المتواصلة لـ «لكتاب المقدس»، وحضوره المتكرر في الكنيسة، وحثه المزعوم لامين كيبي، هناك أدلة قوية تشير إلى أن عمر ظل مسلماً بالسر يتظاهر باعتناق المسيحية. من تلك الأدلة:

1) كما سبقت الملاحظة، قرأ عمر ترجمة لـ «الكتاب المقدس» بالعربية بقدر من التكرار أدى إلى سحب الكتاب منه. كما أنه دوّن تعليقات على هوامش «الكتاب المقدس» بالعربية. المهم أن تلك التعليقات كانت دائماً تتضمن ذكراً لله وتتبعها غالباً إشارة إلى النبي محمد.

2) حتى المبجل ماثيو ب. غرير، القس في آخر كنيسة حضرها عمر، اعترف بأنه كانت لديه شكوك في حقيقة تبني عمر المعلن للمسيحية.

3) يذكر أن زملاء عمر من العبيد كانوا يعدونه «مرابوطاً» (أي معلماً ومرشداً دينياً ورجلاً تقياً).

4) بدأ مخطوطته العربية ذات الستة عشر صفحة لعام 1831 والتي كانت حول حياته بالبسملة وبعدها قال: «أدعو الله أن يبارك في نبينا محمد». وتمضي السيرة الذاتية لتقتبس حوالي 60 سطراً من القرآن.[2]

5) على امتداد حياته كتب عمر 27 مخطوطة، 14 منها ما تزال موجودة ومعظمها تبدأ بذكر الله ورسوله محمد.

6) يقال أن عمر كتب في مناسبات مختلفة صلاة الإله في «الكتاب المقدس» والمزمور الثالث والعشرين بالعربية للبيض ممن لديهم حب استطلاع، ولكن لم يكن أي من

(1) ورد في الأصل «رحمة الله» وليس «صلاة الله» المعتادة (المترجم).

(2) يستخدم المؤلف كلمة line التي تستخدم عادة كمقابل للبيت الشعري، ولعله قصد بها «آية» فيكون قصده «ستون آية»، لكن ذلك ليس واضحاً فأبقيت الكلمة كما هي (المترجم).

نصوص «الكتاب المقدس» يناقض التعاليم الإسلامية. من تفحص النسخ الموجودة من تلك الكتابات العربية يتبين أن عمر كان عادة يكتب بالفعل ما كان يقول إنه يكتبه. لكن في بعض المناسبات على الأقل التي كان يقول فيها إنه يكتب صلاة الإله، كان ما يكتبه لا يعدو أن يكون قائمة بأفراد عائلة أوين. فضلاً عن ذلك، فإنه كان يصدر ترجماته لنصوص من «الكتاب المقدس»، وباستمرار تقريباً، بالبسملة وغالباً بذكر النبي محمد. ولعل الأكثر أهمية أن آخر نص عربي حفظ له ويتظاهر أنه صلاة الإله، والذي كتب عام 1857، هو في واقع الأمر سورة «النصر»، السورة رقم 110 من القرآن. كما يتضح من الترجمة التالية لسورة النصر، هذه السورة القصيرة من القرآن هي احتفاء بظهور الإسلام، أي «دين الله»، ونصره.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾ ﴾.

توفي عمر حوالي عام 1864 ويبدو أنه لم يكن له زوجة أو أولاد في أمريكا.

و25. بلالي محمد

كان بلالي محمد من أفراد قبيلة الفولبي وكان في الأصل من تيمبو في غينيا. تعلم العربية وانخرط في الدراسات القرآنية في إفريقيا وربما كان يتهيأ ليصير إماماً.

الظروف المتعلقة بأخذه إلى العبودية ليست معروفة. لكننا نعرف أنه أرسل بالسفينة إلى جزر البهاما حيث استعبد لفترة غير معروفة لكنها طويلة. من البهاما نقل إلى الولايات المتحدة حوالي 1802 حيث اشتراه توماس سبولدنغ من جزيرة سابيلو في ولاية جورجيا.

لو أن أحداً اضطر أن يكون مسلماً مستعبداً في الجنوب الأمريكي فسيكون من الصعب عليه أن يجد مالكاً أفضل من سبولدنغ. فعلى عكس ملاك العبيد الآخرين، أعطى سبولدنغ

كل عبد قطعة أرضه الخاصة به للعمل عليها، وأجبر عبيده على العمل ست ساعات فقط في اليوم، ولم يوظف مشرفين من البيض أو من يسوق العبيد، وأتاح لعبيده الحرية ليمارسوا دينهم الإسلامي علناً. بل إنه سمح بإقامة مبنى ليكون مسجداً في مستوطنته.

كان لبلالي حين اشتراه سبولدنغ زوجة واحدة على الأقل وربما اثنتان. هناك سببان للظن بأن بلالي كانت لديه زوجتان. أولاً لدينا اسمان مختلفان (فيب، التي قيل إنها كانت تجيد الفرنسية بطلاقة، وفاطمة) وكلا الاسمين قيل إنهما اسم زوجته، مع أن من الممكن أن يكون فاطمة هو الاسم الحقيقي بينما فيب اسم العبودية. ثانياً، كان لديه اثنا عشر ابناً وسبع بنات (مارغريت، هيستر، تشارلوت، فاطمة، يوروبا أو نيروبه، مدينا، وبنتو). مع أنه ليس من المستحيل أن يكون الأطفال التسعة عشر من زوجة واحدة، فإن ذلك ضعيف الاحتمال.(1)

يقال أن زوجة أو زوجات بلالي وبناته السبع رافقوه في رحلته من البهاما إلى الولايات المتحدة. يوحي ذلك بأن بلالي كان مستعبداً لعدة أعوام في البهاما أو أن زوجته وأطفاله رافقوه إلى العبودية من إفريقيا. مما يلاحظ أن كل بناته كن يتحدثن الإنجليزية والفرنسية والبولار (لغة الفولبي) إلى جانب العربية.

مستوطنة سبولدنغ على جزيرة سابيلو تضمنت 4000 هكتار (6,25 ميلاً مربعاً) من الأرض عام 1802، لكنها اتسعت بسرعة لتشمل الجزيرة بأكملها ووظفت ما بين 400 و1000 من العبيد. وعلى الرغم من حجم المستوطنة وعبيدها الكثيرين، فقد استغل بلالي تعليمه وتهذيبه وشخصيته المتميزة في الصعود إلى قمة الهرم العبودي بحلول عام 1812، ليصبح مديراً للمستوطنة بأكملها ومئات العبيد الذين يعملون فيها. يقال إنه احتفظ بكامل سجلات المستوطنة بالعربية.

لقد وصلتنا قصتان حول بلالي بوصفه مديراً للمستوطنة تستحقان الاستعادة. القصة الأولى حدثت أثناء حرب 1812 التي كانت بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى. خوفاً من هجوم بريطاني على جزيرة سابيلو هرب سبولدنغ وعائلته إلى مناطق أكثر أماناً وكلف

(1) يلاحظ أيضاً تكرار اسم فاطمة، فكيف تحمل الأم والابنة نفس الاسم؟ (المترجم).

بلالي مسؤولية الدفاع عن المستوطنة من النهب البريطاني. بدوره أعطى بلالي كلمة شرف لسبولدنغ لفعل كل ما يستطيع لحماية ممتلكات مالكه. حين فعل ذلك أوضح بلالي أنه لا يستطيع أن يضمن سلوك أو ولاء عبيد سبولدنغ من المسيحيين لكنه ضمن له أن كل مسلم عبد سيحارب حتى الموت للدفاع عن جزيرة سبولدنغ. رداً على ذلك ذهب سبولدنغ إلى حد إعطاء بلالي 80 بندقية «مسكيت» ليستعين بها في الدفاع عن الجزيرة.[1] (هذه هي الحالة الوحيدة المعروفة في تاريخ العبودية الأمريكية التي قام فيها مالك للعبيد بإعطاء أسلحة لعبيده). التزاماً بكلمته، تأكد بلالي من أن تلك البنادق لن تطلق على عائلة سبولدنغ لتحقيق حرية العبيد واحتفظ بعبيد المستوطنة بعيداً بحيث لا يمكنهم الهرب إلى البريطانيين الذين وعدوا بإعطائهم حريتهم. إن مما يشهد بشكل رائع على صدق بلالي وصلابته أنه ضحى بملء إرادته بحريته الشخصية وحرية عائلته لكي يحافظ على وعده لسبولدنغ.

القصة الثانية حدثت في سبتمبر 1824. هب إعصار هائج على جزيرة سابيلو. أثناء ذلك الإعصار قام بلالي بإنقاذ حياة المئات من رفاقه العبيد بإيوائهم في أكواخ مصنوعة من «تابي» (وهو نوع من الخرسانة الإفريقية مصنوعة من الرمل والحجر الجيري والقواقع).

مما يتوفر من معلومات يبدو أن عائلة بلالي بأكملها استمرت في الالتزام بالإسلام على الرغم من وقوعها في العبودية. من الملاحظات الأخرى التي تدعم هذا الاستنتاج ما يلي:

1) ذكر أحد أحفاد بلالي أن جده وزوجته كانا دقيقين فيما يتعلق بأداء صلواتهم وفيما يتعلق بزمن أدائها.

2) ذلك الحفيد نفسه ذكر أن بلالي وزوجته كانا يستعملان «سُبَح صلاة» إسلامية.

3) قيل أن فيب صنعت «ساراكا» (أي كعك من العسل والأرز) لـ «العيد» (أي عيدي الإسلام) ولمناسبة الحصاد، وهو تقليد متبع بين المسلمين في غرب إفريقيا.

4) كان بلالي يلبس عادة «كوفي» (وهو غطاء إسلامي للرأس) ومعطفاً طويلاً، يصلي باتجاه مكة، ويراعي القيود الإسلامية على الغذاء، وكان دائماً يهتم بصيام رمضان مع

(1) المسكيت Musket طراز قديم من البنادق كانت تستعمل للمشاة (المترجم).

الاحتفال بالعيدين.

5) عمل بلالي إماماً أو «ألمامي» (وهي الصيغة الغرب إفريقية للإمام) للجماعة الإسلامية على جزيرة سابيلو، وهي الجماعة الإسلامية الإفريقية الوحيدة المعروفة في مرحلة ما قبل الحرب الأهلية في الولايات المتحدة.

6) وضع بلالي كتيباً من 13 صفحة بالعربية للجماعة الإسلامية على جزيرة سابيلو. العنوان العربي للمخطوطة يمكن أن يترجم إلى «أول فواكه السعادة» ويبدو أن المخطوطة التي يصعب قراءتها كانت تعلم كيفية الصلاة والوضوء والإيمان.

7) عندما توفي بلالي عام 1859 دفن ومعه سجادته ومصحفه.

لقد استمر دين بلالي الإسلامي في أحفاده حتى ما لا يقل عن الجيل الثالث منهم. إحدى حفيدات حفيداته، وهي هارييت هول استمرت في التمسك بالإسلام حتى عام 1866، العام الذي انضمت فيه، علناً، إلى الكنيسة المعمدانية الإفريقية الأولى لجزيرة سابيلو. لكن أحفادها ذكروا ما يوحي بأنها استمرت سراً في التمسك بالإسلام حتى مماتها عام 1922.

و26. صالح بلالي[1]

ينحدر صالح بلالي من الفولبي وكانت ولادته ما بين 1765–1770 في كيانه، وهي مركز إسلامي ثقافي مشهور على نهر النيجر، في مقاطعة تيموره، في مملكة ماسينا (مالي). لقد ولد لعائلة ثرية لديها الكثير من الممتلكات. درس العربية والقرآن أثناء تعليمه في إفريقيا. ويقال أنه كان يقرأ العربية بشكل ممتاز ولكنه كان يعاني صعوبة في كتابتها.

عندما كان إما في الثانية عشرة أو الرابعة عشرة كان يركب حصاناً وحده عائداً من رحلة من جني إلى كيانه. على الطريق أمسك به تجار العبيد وبدأ ينتقل من مشتر إلى آخر أثناء إلزامه بالسير لمسافة 500 ميل نحو الساحل الإفريقي. على الطريق مر بعاصمة بامبارا، عاصمة

---

(1) Austin AD (1997) and Diouf SA (1998) بالإضافة إلى Curtin PD (1968).

سيغو. بعد الوصول إلى الساحل نقل من أنومابو (في غانا حالياً) على ساحل الذهب الإفريقي إلى جزر البهاما. على تلك الجزر بقي عبداً ما بين خمسة عشر وعشرين عاماً تلت.

في عام 1800، اشترى صالح من البهاما جون كوبر من مستوطنة هوبيتون على جزيرة سان سيمون في ولاية جورجيا. سمي عندئذٍ باسم العبودية توم وقدر له أن يقضي بقية حياته عبداً لجون كوبر ثم لابنه جيمس هاملتون كوبر.

في عام 1815 منع صالح ما يزيد عن نصف العبيد على المستوطنة من الهرب إلى السفن البريطانية التي وعدتهم بالحرية أثناء الأيام الأخيرة من حرب عام 1812، مشيراً إلى المعاملة السيئة التي وجدها لدى البريطانيين عندما كان مستعبداً في البهاما. فيما بعد أثنى على صالح مالكه جيمس هاملتون كوبر بالإشارة إلى نزاهته وذكائه ونشاطه في العمل، وانضباطه، إلى جانب رجاحة عقله وقدرته على التخطيط. استفاد صالح من تلك القدرات الشخصية ليرتفع في طبقات العبيد حتى وصل إلى رئاسة مستوطنة هوبتون عام 1816، وهي وظيفة احتفظ بها حتى 1846. في تلك الوظيفة كان مسؤولاً عن حوالي 450 عبداً كانوا يعملون لزراعة القطن، والأرز، والبطاطس الحلو، ولوبيا العلف، والذرة، وقصب السكر.

أثناء حياته في العبودية، نجح صالح في الحصول على نسخة من القرآن واستمر في الالتزام بالدين الإسلامي. بل إن جيمس كوبر ذكر أن صالح كان مسلماً شديد الالتزام امتنع عن الكحول وصام رمضان. ومما يلفت الانتباه بشكل خاص أن أحد أبناء جيمس كوبر، وهو ابن مسيحي كان أبوه مالكاً للعبيد، ذكر أن لم يقابل رجلاً أكثر تديناً من صالح. كانت كلمات صالح عند وفاته في نهاية الخمسينات من القرن التاسع عشر «الله هو الإله، ومحمد رسوله».

أثناء حياته في العبودية، تزوج صالح ورزق بأطفال. أحد أولئك الأطفال، واسمه بلال، تزوج ابنة «مرابوط» واستمر في الالتزام بالإسلام طوال حياته.

و27. محمد علي بن سعد

سيرة محمد علي بن سعيد الموجزة تختلف عن السير التي سبق عرضها. فلأنه كان مستعبداً في وطنه إفريقيا، لم يكن مجيئه إلى أمريكا جزءاً من تجارة العبيد عبر الأطلسي. لقد جاء إلى أمريكا رجلاً حراً عام 1860 بعد أن خدم لمدة عشرة أعوام في العبودية في إفريقيا وآسيا وأوروبا.

ولد محمد حوالي عام 1833 في عائلة كانوري الغنية في كوكو، في بورنو (نيجيريا حالياً) في منطقة تقع إلى الغرب من بحيرة تشاد. سيرة محمد الذاتية تشير إلى أن اسم والده باركا غانا، مع أن اسم الأسرة يوحي بأن أباه كان سعيد. لقد انحدر محمد من عائلة كبيرة وغنية. كان له 18 أخاً وأختاً بالإضافة إلى إخوة وأخوات من الأب كان 11 منهم إخوة. كان الطفل التاسع من أمه. وللتدليل على التزام العائلة بالإسلام يمكن الإشارة إلى أن اثنين من إخوة محمد أكملوا حجهم إلى مكة.

«مات أبوه عندما كان محمد في السابعة من عمره. بعد ذلك بفترة قصيرة، بدأ محمد تعليمه النظامي الذي شمل اللغة العربية والدراسات القرآنية...».

عندما كان محمد في السادسة عشرة من عمره يتصيد في مقاطعات يو ولاري في دينهام، اختطف من قبل غزاة من «تاوريغ».[1] في البداية بيع إلى تاجر عربي إفريقي ثم جعل يمشي باتجاه الشمال في قافلة استمرت ثلاثة أشهر ونصف عبر الصحراء الكبرى إلى طرابلس. حين وصلت القافلة مورزوك بيع مرة أخرى إلى شخص استعمله خادماً شخصياً.

عندما وصلت القافلة أخيراً إلى طرابلس بيع مرة أخرى ونقل إلى الإسكندرية في مصر. من الإسكندرية نقل على النيل إلى الخرطوم (السودان حالياً). من الخرطوم أخذ براً إلى ساحل البحر الأحمر حيث نقل إلى الجزيرة العربية. حين وصل زولا أخذ إلى مكة في الشمال ثم مرة أخرى إلى الإسكندرية في مصر حيث نقل إلى تركيا. في تركيا بيع مرة أخرى، في البداية

(1) الأقرب هو أن المؤلف يقصد «الطوارق» لكن الكلمة كتبت «Taureg» في حين أن اسم الطوارق بالحروف الأجنبية يرد أحياناً بصيغة «Tuareg» (المترجم).

لتركي غني لم يطلب من محمد أكثر من الاعتناء بغليونه وتبغه، ثم باعه فيما بعد إلى تركي آخر قام بدوره ببيعه إلى الأمير الاسكندر س. مينشيكوف، وهو جنرال روسي. في 21 مايو، 1853 غادر محمد ومالكه إلى سانت بطرسبرغ في روسيا.

عند وصولهما إلى سانت بطرسبرغ، بيع محمد مرة أخرى، هذه المرة لنيكولاس تروبيرتزكوي، وهو ثري روسي شديد الثراء له أملاك واسعة في الريف، منها أربع قرى. كان محمد يعمل خادماً شخصياً لتروبيرتزكوي، وقد سافر الاثنان إلى بلاد فارس قبل أن يعودا إلى سانت بطرسبرغ. في 12 نوفمبر، 1854 أمر تروبيرتزكوي بتعميد محمد ليصير اسمه نيكولاس سعيد. بعد سنوات لاحظ محمد وهو يتأمل في تلك التجربة أنه نفسه لم يكن يعرف ما الذي يجري ورأى أنه كان يفترض أن يكون لديه قدر من المعرفة بالتعميد وأن يكون له الخيار في التعميد من عدمه.

بعد فبراير 1855 بوقت قصير بدأ تروبيرتزكوي ومحمد سلسلة مكثفة أخرى من الرحلات، هذه المرة بالتحرك عبر أوروبا. على مدى الأربعة أعوام أخرى كانا لا يكادان يتوقفان، يغطيان برنامج رحلات شمل سانت بطرسبرغ، وارسو، فيينا، براغ، دريسدن، ميونيخ، بادن، فرانكفورت، كولون، بروكسل، بيرن، زيورخ، ميلانو، فلورنسا، روما، نابولي، جنوا، باريس، أثينا، تريست، ولندن. انتهت رحلاتهما عام 1859 عندما عبر محمد عن رغبته في العودة إلى وطنه إفريقيا. ويبدو أن تروبيرتزكوي أعتق محمداً عندئذٍ.

كان محمد على وشك العودة إلى إفريقيا حين جاءه رجل من هولندا لديه شهوة للتجوال. اقترح الهولندي أن يرافقه محمد خادماً شخصياً في رحلة إلى الأمريكتين. أبحر الاثنان في مطلع 1860. من مدينة نيويورك أبحرا مرة أخرى، هذه المرة باتجاه الكاريبي. في الكاريبي زارا إيناغوا، كوبا، كامايكا، هاييتي، ديماريرا (على ساحل غيانا من أمريكا الجنوبية)، المارتينيك وغوادالوب، قبل أن يعودا إلى مدينة نيويورك. من مدينة نيويورك سافرا براً إلى شلالات نياغرا ومنها عبرا إلى كندا حيث زارا تورونتو ومونتريال وكيبيك وأوتاوا. أخيراً، في إلمير بمقاطعة أونتاريو بكندا، بدأ الرصيد المالي للهولندي ينفد، ثم أفلس. قام محمد بتسليف

الهولندي المفلس 500 دولار من ماله الخاص، وهو مبلغ لم يستعده أبداً، ثم انطلق الاثنان كل في طريقه.

عبر محمد الحدود نحو الولايات المتحدة حوالي 1862 وعمل معلماً لفترة وجيزة في ديترويت بولاية ميتشغان. في مايو 1863، انضم إلى السرية الأولى من الفوج 55 من متطوعي ماساشوستس الملونين وحارب من أجل الاتحاد في الحرب الأهلية الأمريكية في معارك مثل معركة فورت ميمز وهني هل عام 1864 وفي جزيرة جيمس وبغن كريك في كارولاينا الجنوبية عام 1865. ولابد أن محمداً كان جندياً مثالياً، ففي يوليو 1863، بعد شهرين فقط من انضمامه، رقي إلى رتبة رقيب. وفي سبتمبر من عام 1864 طلب أن ينزّل إلى رتبة عريف أملا في الانتقال إلى مستشفى يمكنه فيه أن يقوي معرفته بالطب. ترك العسكرية في النصف الثاني من عام 1865، بعد أن أخلي سبيله في كارولاينا الجنوبية. عندئذٍ تزوج واختفى عن الأنظار. في 6 أغسطس 1882 توفي في براونسفيل بولاية تينيسي.

نشرت سيرته الذاتية في مجلة «أتلانتك مونثلي» في أكتوبر 1867 بعد أن صار بإمكانه أن يتحدث سبع لغات (تشمل العربية والتركية والروسية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية) بالإضافة إلى لغته الإفريقية الأم.

و28. لزي غري العجوز[1]

هي أمَة مسلمة عرفت فقط باسم لزي غري العجوز. ولدت في إفريقيا حوالي عام 1733. كانت متعلمة ومتزوجة وأماً لأربعة من الأطفال في إفريقيا قبل أن تستعبد. رحلتها عبر «الممر الأوسط» إلى العالم الجديد كانت على ما يبدو على سفينة إنجليزية أثناء حرب الاستقلال. في شيخوختها في أمريكا انضمت إلى الكنيسة الميثودية (أو المنهجية) مع أن «اعتناقها» للمسيحية كان في أفضل الأحوال نوعاً من تطعيم المسيحية بالإسلام. فمثلاً كانت تقول «المسيح بنى أول كنيسة في مكة، وقبره هناك». توفيت في مقاطعة إيجفيلد في كارولاينا

(1) Hagy JW (1993) and Muhammad ANA (2005).

الجنوبية في سبتمبر 1860 بعد أن بلغت، كما قيل، 127 عاماً. كان طبيبها ومالكها كما يبدو هو الدكتور إي. ج. ميمس الذي نشر تأبيناً لها (وهو تقدير نادر لعبد) في «إيجفيلد أدفيرتايزر» في 12 سبتمبر 1860.

و29. «المغاربة المختلفون» في كارولاينا الجنوبية

في يناير من عام 1790 تقدم أربعة من العبيد السابقين بالتماس إلى مجلس النواب في كارولاينا الجنوبية. كان المتقدمون الأربعة في الأصل من المغرب، مثلما كانت زوجاتهم، مشيرين إلى أنهم كانوا مسلمين. كان التماسهم كما يلي:

> في هذا الالتماس المتواضع المقدم من فرانسيس ودانييل وهاموند وساميول (مغاربة أحرار) بالنيابة عن زوجاتهم فاطمة، فلورا، ساره، وكلارندا، يقولون بتواضع إن ملتمسيكم كانوا قبل عدة سنوات من سوء الحظ قد وقعوا، بينما هم يدافعون عن بلادهم، في الأسر مع زوجاتهم وجعلوا أسرى حرب على يد ملوك إفريقيا. وإن رجلاً يدعى كابتن كلارك طلب أن يسلموا إليه على وعد أنهم سيستعيدون حريتهم عن طريق سفير إمبراطور المغرب المقيم عندئذٍ في إنجلترا، وذلك لكي يعادوا إلى بلادهم. بدلاً من ذلك أحضرهم إلى هذه الولاية وباعهم عبيداً. ومنذ تلك الفترة استطاعوا بأعظم الجهود أن يشتروا حريتهم من سادتهم: والآن يتوسلون إلى مجلسكم الموقر، ألا ينظر إليهم، بما أنهم ولدوا أحراراً يتبعون أميراً متحالفاً الآن مع هذه الولايات المتحدة، بوصفهم خاضعين لقانون هذه الولاية (الساري المفعول حالياً) المعروف بقانون الزنوج: لكن إن كانوا مذنبين بجريمة أو جنحة ضد قوانين هذه الأرض، أن تتاح لهم محاكمة عادلة بمحلفين قانونيين. والملتمسون إليكم سيتوسلون دوماً مثلما أنهم ملتزمون بالواجب.

أرسل مجلس النواب في كارولاينا الجنوبية هذا الالتماس إلى لجنة تتألف من السيد القاضي غريمكي والجنرال بنكني والسيد إدوارد رتلدج. كتب السيد رتلدج لمجلس النواب أن اللجنة:

ترى أنهم بحثوا في الطلب وأنهم يرون أنه لا يوجد قانون في هذه الولاية يمكنه سواء في بنائه أو عمله أن ينطبق عليهم (أي الملتمسين)، وأن الأشخاص الذين كانوا أتباعاً لإمبراطور المغرب وبما أنهم أحرار في هذه الولاية لا يمكن أن يحاكموا بقانون يستهدف تنظيم الزنوج والعبيد الآخرين والحكم الأفضل لهم.

وافق مجلس النواب على تقرير اللجنة لكن لا يتوفر ما يشير إلى أن مجلس الشيوخ في كارولاينا الجنوبية قد اتخذ شيئاً بشأن الالتماس. غير ذلك لا يعرف شيء في الوقت الحاضر عن هؤلاء المسلمين المستعبدين في كارولاينا الجنوبية.

و30. ملخص ونتائج

تضمن ما سبق 35 سيرة موجزة لمسلمين مستعبدين، 34 منهم كانوا مستعبدين فعلياً في الأمريكتين وواحد منهم جاء إلى أمريكا بعد أن حصل على حريته من العبودية. من الممكن التعريف بالكثير غير هؤلاء من المسلمين. فمثلاً كان تاميرلين «مرابوطاً»، ومعلماً، ومؤلفاً استعبد في دومينيغ في الكاريبي نهاية القرن الثامن عشر. محمد سيساي من غامبيا كان معلماً استعبد في ترينيداد وخدم لعدة أعوام في الفوج الإمبراطوري في جزر الهند الغربية.

الكثير من بلاغات هروب العبيد التي تنشرها الصحف تشير بوضوح إلى مسلمين. حسب بلاغ نشر في «تشارلستون كوريير» في 9 فبراير، 1805، كان سامبو عبداً هارباً في الثلاثين من عمره، طوله خمسة أقدام وخمس إنشات، نحيل، بـ «ملامح متجهمة». هرب من مستوطنة على نهر آشلي ويستطيع الكتابة بالعربية وهناك مكافأة خمسة دولارات لمن يبلغ عنه. في طبعة 24 مايو، 1775 من «جورجيا غازيت» في سافانا هناك بلاغ عن عبد اسمه سامبو يبلغ 22 من العمر «من البلاد المغاربية». العدد العشرين من أغسطس، 1789 من جريدة سافانا نفسها تضمن بلاغاً عن أمة اسمها هاجر (وهو اسم إسلامي تقليدي) تلبس منديلاً على رأسها. عدد 19 أكتوبر، 1738 من «ذا ساوث كارولاينا غازيت» تضمن بلاغاً عن عبدين هاربين من غامبيا اسماهما والي (ولي) وبوكاري (أبو بكر). طبعة 1 مارس، 1773، من «ذا

ساوث كارولاينا غازيت» أبلغت عن تغيب حومادي (وهي صيغة غرب إفريقية لأحمد). غير ذلك من بلاغات الهروب في القرن الثامن عشر في «ذا ساوث كارولاينا غازيت» تشير إلى ماهوميت (محمد) وموسى واثنين آخرين من «العرق المغاربي». في 1808 نشرت «إدينتون غازيت ونورث كارولاينا أدفيرتايزر» بلاغاً عن هارب اسمه مصطفى في 23 يونيو وعن هاربة اسمها فاطمة في 19 يونيو. طبعة 7 يونيو، 1792 من «غازيت أوف ذا ستيت أوف جورجيا» في سافانا أعلن عن عبد هارب اسمه ماهوميت (محمد) عرف أيضاً باسم حومادي وقيل إنه مغاربي يبلغ الخامسة والعشرين من العمر. صحيفة «كولومبيان ميوزيوم وسافانا أدفيرتايزر» نشرت بلاغ هروب عن عبد اسمه أبدالي (عبد الله) في 11 مايو، 1802.

حوالي 500 عبد سابق من الذين حاربوا مع البريطانيين أثناء حرب 1812 نقلوا إلى ترينيداد حيث كانوا يعيشون في الغابات وقيل أنهم «ارتدوا» إلى الإسلام. أحد العبيد الذي عرف فقط باسم «إسرائيل العجوز» احتفظ بنسخة مخبئة من القرآن واستمر في أداء الصلوات الإسلامية الخمس بينما كان مستعبداً في جورجيا. كان سنيم مرابوط من نوبي مستعبداً في باهيا. جيبيريلو من باهيا كان ابن مرابوط من يوروبا واحتفظ بنسخة من القرآن كان قد استوردها من نيجيريا. سنيم، بيلتشيور سيلفا كونها، داسالو، ماما، سليمان، وإبراهيم كانوا مسلمين يديرون مدارس وفصول سرية للقرآن في باهيا أوائل الثلاثينات من القرن التاسع عشر. ويمكن أن يضاف إلى هؤلاء المسلمين أسماء جون محمد باث (باه) ومحمد ماغوينا من ترينيداد، ودندره من باهيا، والعديد غيرهم.

باستعراض السير الموجزة الخمس وثلاثين يمكن ملاحظة أن موضوعة مشتركة بينها هي الاعتناق الزائف للمسيحية. في بعض الحالات، ربما ساعد هذا الاعتناق الزائف في تخفيف عبء العمل عن كاهل المسلم المستعبد. وفي حالات أقل ربما أدى إلى حريته في وقت لاحق. لكن هناك حالات نادرة ربما ساعد الشخص على العودة إلى إفريقيا بأن أتاح له التظاهر أنه ذاهب لخدمة الإرساليات المسيحية. انطلاقاً من أوضاع هؤلاء المسلمين الخمسة والثلاثين يمكن القول إن آلاف الحالات، إن لم يكن مئات الآلاف من حالات الاستعباد للمسلمين

في الأمريكتين، كانت جزءاً من تمثيلية الدخول في المسيحية. بالنسبة لأولئك العبيد الذين يعملون في أوضاع شديدة القسوة ولا يمكن تحملها، كان الاعتناق الزائف لمسيحية ملاكهم الطريق الوحيد المفتوح نحو حياة أفضل. لذا كانت هذه الاعتناقات الوهمية بشكل عام فعلاً بسيطاً من أفعال البقاء في عالم شديد العداء والخطورة. في الغالبية العظمى من الحالات، لم تعن هذه الاعتناقات الزائفة أن المسلم المستعبد قد تخلى عن دينه الإسلامي.

بيد أن المسألة تتجاوز كون المسلمين المستعبدين في الأمريكتين لم يعتنقوا المسيحية حقيقة. في بعض الحالات على الأقل، يبدو أن أولئك نشطوا في دعوة رفاقهم من العبيد غير المسلمين إلى الإسلام. فمثلاً، ذكر محمد سيسي في ترينيداد، المعلم السابق من غامبيا، أن فوجاً كاملاً من الهند الغربية البريطانية اعتنقوا الإسلام. فضلاً عن ذلك نجحت جماعة من مسلمي الماندينكا الأحرار في ترينيداد أن يحولوا 240 إلى الإسلام من بين 1000 من الأفارقة غير المسلمين ممن أعيد توطينهم من الولايات المتحدة إلى ترينيداد في أعقاب حرب 1812.

ز. المسلمون يساعد بعضهم بعضاً

لقد سبقت الإشارة إلى أن عبد الرحمن بذل جهداً في تحرير زوجته مع ثمانية من أبنائه وأحفاده بعد أن أعتق هو. وقد فعل أيوبا بن سليمان الشيء نفسه بالركون إلى صلته بالأرستقراطيين الإنجليز لتحرير الرجل الذي كان مترجمه ذات يوم، لامين ندياي. مع أن من الممكن الاحتجاج بأن هذه ليست سوى أمثلة من مسلمين يساعدون أفراداً مسلمين من عائلاتهم القريبين وأصدقائهم، فإن ذلك الاحتجاج يسقط حين نتأمل وضع سامبا ماكومبا، وجون محمد باث، وجمعية الماندينكا الأحرار في ترينيداد.

كان سامبا ماكومبا مسلماً مستعبداً في ترينيداد نجح في تحقيق حريته من خلال مهاراته وحرصه. معه كان يعمل جون محمد باث إماماً وقاضياً للجماعة الإسلامية في ترينيداد. مع جون ومحمد ماغوينا ومحمد سيسي وآخرين مثلهم، شكل سامبا جمعية الماندينكا الأحرار في بورت أوف سبين، وهي مدينة في الركن الشمال الغربي من ترينيداد. مع أنهم كانوا يوماً من

العبيد، فإن أولئك الماندينكا المسلمين المحررين استطاعوا أن يحققوا تحررهم، وأن يؤكدوا حضورهم رجالاً أحراراً في ترينيداد، أن يحصلوا على مساكن ويبدؤوا أعمالاً تجارية أو يحصلوا على وظائف. بمجرد الوصول إلى تلك الأهداف بدؤوا بتجميع إمكاناتهم لشراء حرية الماندينكا المسلمين المستعبدين.

مع كل عملية شراء يتم فيها استعادة مسلم من الماندينكا من العبودية، فإن ذلك المحرر يتوقع منه أن يعمل ليحقق ربحاً يضاف إلى الصندوق المخصص لشراء مسلمين من الماندينكا مازالوا مستعبدين. كان المشروع ناجحاً إلى حد أنه في مطلع القرن التاسع عشر كان كل المستعبدين من الماندينكا المسلمين في ترينيداد قد حرروا. استطاعت جمعية الماندينكا الأحرار عندئذٍ أن تبدأ في في ملاقاة سفن العبيد التي تصل إلى موانئ ترينيداد وشراء كل الماندينكا المسلمين وتحريرهم حتى قبل أن تطأ أرجلهم الأرض. بعد تحرير ما يقارب 500 من المسلمين المستعبدين في ترينيداد، استطاعت جمعية الماندينكا الأحرار أن توسع مساعيها لتحرير المسلمين المستعبدين على الجزر الأخرى من الكاريبي.

أمثلة أخرى تستحق الثناء في مساعدة المسلمين بعضهم بعضاً يمكن العثور عليها بين المسلمين المحررين في البرازيل في أعقاب ثورات باهيا. أنتونيو دا كوستا وجواو مونتييرو، وكلاهما من أثرياء المستعبَدين السابقين، استأجرا سفينة لتحملهما مع عائلتيهما و150 من العبيد السابقين إلى إفريقيا. وصلوا إفريقيا في أبريل، 1836. في الوقت نفسه كان 200 إلى 300 من الأفارقة المستعبدين سابقاً في طريقهم إلى لاغوس في نيجيريا، على سفينة بريطانية دفع تكلفتها أحد ركابها الذين حصلوا على حريتهم وصار ثرياً وباع عندئذٍ كل ما يملك لتمويل الحملة. مما يستحق التنويه أن الرجل الذي وقف خلف هذا المسعى الخيري كان قد رحل عبر الممر الأوسط نحو العبودية البرازيلية عام 1821. ومن بين الذين أبحروا معه عائدين إلى إفريقيا كان ستون من رفاقه العبيد الذين كانوا قد نقلوا معه على نفس السفينة نحو البرازيل.

هذه القصص التي تظهر المسلمين وهم يساعدون مسلمين آخرين للهرب من قيد العبودية أو ليرحلوا عائدين إلى وطنهم في إفريقيا شهادات ملهمة بالأخوة الموجودة داخل

الدين الإسلامي. إنها أمثلة تبرز المسلمين راغبين في تقديم كل ما يمكنهم لمساعدة إخوانهم وأخواتهم في الإسلام على الهروب من العبودية أو العودة إلى الوطن إفريقيا. لقد ضحوا بنجاحهم المالي من أجل رفاقهم المسلمين.

ح. مفهوم العبودية في الإسلام

ح1. مقدمة

كما ذكر في القسم المتعلق بالسير الذاتية للمسلمين المستعبدين في الأمريكتين من هذا الفصل، بعض أولئك المسلمين المستعبدين أو عائلاتهم كانوا أنفسهم ملاكاً للعبيد في إفريقيا. غير أن مفهوم العبودية في الإسلام يختلف كثيراً عن مفهوم العبودية المطبق في العالم الجديد من قبل المنتمين إلى التراث اليهودي المسيحي.

كما سبق أن ذكر في هذا الفصل، فإن سفر التكوين 9: 18—27 لا يجيز العبودية فحسب، وإنما يجعلها ملزمة بحق أولئك الذين ينحدرون من عرق معين، أي ذرية كنعان، ابن حام. فبما أن حام، كما يقال، هو الذي أنجب الشعب الإفريقي، فإن الأجيال التالية من المسيحيين غالباً ما فسروا ذلك النص من سفر التكوين على أنه أمر إلهي باستعباد الشعوب ذات البشرة الداكنة في إفريقيا. باختصار، كانت تلك عبودية مؤسسة على عنصرية خبيثة.

بعض المسيحيين قد يفضلون أن يرفضوا العبودية بوصفها انحرافاً يعود إلى أزمنة «العهد القديم». غير أن هذا الاحتجاج لابد من رفضه لأن رسالة «فليمون» في «العهد الجديد» توثق أن بول أعاد العبد أونيسيموس إلى مالكه فليمون. وفي نصوص أخرى من «العهد الجديد» قبول واضح وتشريع للعبودية.

> أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح لا بخدمة العين كمن يرضي الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب

عبدا كان أم حرا. (رسالة أفسس 6: 5– 8)

أيها العبيد أطيعوا في كل شيء سادتكم حسب الجسد لا بخدمة العين كمن يرضي الناس بل ببساطة القلب خائفين الرب وكل ما فعلتم فاعملوا من القلب كما للرب ليس للناس عالمين أنكم من الرب ستأخذون جزاء الميراث لأنكم تخدمون الرب المسيح وأما الظالم فسينال ما ظلم به و ليس محاباة. (رسالة كولوسي 3: 22 – 24)

لكي نكون منصفين من الضروري أن نشير إلى أن النصوص المشار إليها من فليمون ورسالتي أفسس والكولوسي تمضي لتملي رسالة أكثر إنسانية بكثير حول العبيد مما هو ممارس لدى الملتزمين بالموروث اليهودي–المسيحي في الأمريكتين. ومع ذلك فإنه تبقى اختلافات مهمة بين مفهومي العبودية كما هو في الكتاب المقدس وفي الإسلام.

أحد تلك الاختلافات يمكن توضيحه بالعودة مرة أخرى إلى سفر التكوين 9: 18–27، الذي أباح العبودية وفرضها على أساس الانتماء الإثني والعرقي. في مقابل ذلك، يرفض الإسلام أي ربط بين العبودية وانتماء الإنسان الإثني أو العرقي. حسب تعاليم الإسلام، العرق والإثنية لا تضفي على الإنسان تفوقاً أو دونية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾. (الحجرات: 13)

كما تشير الآية القرآنية المقتبسة هنا، العنصرية والتعصب الإثني كلاهما محظوران في الإسلام. الانتماء الإثني للإنسان أو عرقه لا يمكن أن يكون أساساً يستعبد بمقتضاه ولا يجب أن يكون أساساً لأي تعصب أعمى أو تحيز. هذا الحظر الإسلامي على التحيز الإثني والعرقي يكتسب صرامة أكثر في خطبة النبي محمد في حجة الوداع إلى مكة، الخطبة التي أمر فيها المسلمين أن يطيعوا عبداً حبشياً إذا اتبع العبد تعاليم القرآن والتي أشار فيها إلى الآية السابقة

من القرآن.[1]

وكمثال أخير على منع الإسلام للأيديولوجيا العرقية والتحيز الإثني، من المفيد أن نلاحظ تحذير النبي محمد من الاعتزاز بالآباء:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقي وفاجر شقي أنتم بنو آدم وآدم من تراب ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن.

ح2. منزلة العبيد

كما يتضح من الحديث السابق للنبي محمد، على المسلم أن يسمع ويطيع عبداً حبشياً إذا قضى وأمر ذلك العبد بما يقضي ويأمر به القرآن. المهم في الأمر ليس ما إذا كان الإنسان أبيضاً أم أسوداً أو حتى ما إذا كان عبداً. ما هو مهم هو إيمان الإنسان بالله. هذه المسألة أكدتها الآيات التالية من القرآن حيث يُوجّه المسلمون إلى أن العبيد الذين يؤمنون بالله أفضل من الأحرار غير المؤمنين. الفئة الأولى هي الصالحة للزواج في حين لا تصلح الثانية:

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾. (البقرة: 221)

---

(1) أورد المؤلف بعد هذا نصاً ذكر أنه من خطبة الوداع للنبي ﷺ، لكن النص ليس بأكمله من الخطبة وإنما هو مزيج من بعض ما ورد فيها حسب ما أوردته بعض المصادر – فهناك اختلاف في نص الخطبة بين المصادر– وبعض الأحاديث حول العصبية والإمامة أكدت المساواة بين الناس إلا في طاعة الله، وقد وردت تلك الأحاديث في عدد من مصادر الحديث المعروفة كصحيح البخاري ومسلم وسنن الترمذي. من ذلك ما ورد في سنن الترمذي عن أم الحصين الأحمسية، قالت سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع ... يقول «أيها الناس اتقوا الله وإن أمر عليك عبد حبشي مجدع فاسمعو له وأطيعوا ما أقام فيكم كتاب الله». وروى البعض الحديث عن أبي هريرة وعرباض بن سارية. كما أن من ذلك الحديث الذي أورده البخاري ورواه أنس بن مالك: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليك عبد حبشي كأن رأسه زبيبة» (المترجم).

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

(النساء: 25)

النصوص القرآنية السابقة تتناول تناولاً بليغاً منزلة العبيد في الإسلام. إن قيمتهم تقوم على مدى إيمانهم الديني وليس على كونهم عبيداً. إلى جانب ذلك، أوامر النبي محمد واضحة في أن العبيد ينبغي أن ينظر إليهم كالإخوان (انظر: البخاري، ج1، الحديث1 الذي يرد فيما يلي) وكالأبناء (انظر: الترمذي، الحديث رقم 984 الذي يرد أيضا فيما يلي). إنه مفهوم مختلف جداً، كما يتضح، عن المفهوم الذي طبقه ملاك العبيد الأمريكيون من داخل الموروث اليهودي – المسيحي.

ح3. عتق العبيد

مثلما يفعل الكتاب المقدس، تقدم المصادر الأساسية للإسلام، وهي القرآن وأحاديث النبي، أحياناً بعض التسهيلات الخفيفة للعبودية. لكن واقع الأمر أيضاً هو أن كلا المصدرين، القرآن والأحاديث، تشجع على عدم الاستعباد بطرق عديدة. ويمكن التعرف على الكيفية التي لا يشجع فيه القرآن والأحاديث على العبودية بالنظر في الاقتباسات التالية التي يؤمر فيها بإعتاق العبد كتكفير عن الذنوب والأخطاء.

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾. (النساء: 92)

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾. (المائدة: 89)

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾. (المجادلة: 3)

عن واثلة بن الأسقع قال أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا أوجب يعني النار بالقتل فقال أعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار. (سنن أبي داوود وأورده البخاري).[1]

كما تشير الاقتباسات السابقة من القرآن كفارة قتل المسلم بغير عمد هي عتق رقبة. وعتق الرقبة هو أيضاً كفارة الحلف بأن يظاهر الرجل زوجته. (كان الظهار عملية طلاق بين العرب في فترة ما قبل الإسلام. في تلك العملية يقسم الزوج أن زوجته مثل أمه. ومثل هذا القسم يجرد الزوجة من حقوقها الزوجية ولكنه يبقيها في قيد الزوجية غير قادرة على الزواج مرة أخرى. الإسلام منع تلك الممارسة – انظر القرآن، الأحزاب: 4). أكثر من ذلك، أخبر النبي بالتحديد أن تحرير العبيد كان إحدى الطرق لتفادي عذاب النار في الآخرة.

لم يكن إعتاق العبيد بوصفه كفارة لعدد من الأخطاء سوى واحد من طرق عدة شجع الإسلام من خلالها على التخلص من العبودية الإنسانية. فقد أمر النبي محمد أيضاً بتحرير العبيد أثناء فترات كسوف الشمس وحث ملاك العبيد على تعليم إمائهم وتحريرهن.

(1) أورد المؤلف ما نقله واثلة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقط وترك تفاصيل في البدء هي مناسبة الحديث (المترجم).

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: أمر النبي ﷺ بالعتاقة في كسوف الشمس. (البخاري)[1]

عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ من كانت له جارية فعالها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران. (البخاري)[2]

طريقة أخرى شجع الإسلام من خلالها على عدم الاستعباد كان بأن جعل من الممكن دفع الزكاة من خلال افتداء العبيد من ملاكهم. أكثر من ذلك، يقول القرآن صراحة إن الطريق الصعب يكمن في تحرير الرقبة:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾. (البقرة: 177)

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾. (التوبة: 60)

هكذا يصبح تحرير العبيد تكفيراً عن سوء السلوك الشخصي، ويطلب عند كسوف الشمس، ويصير جزءاً من الزكاة المفروضة، كما أنه وسيلة للالتزام بالطريق الصعب. لكن ذلك كله ليس نهاية المطاف بالنسبة لطرق الحث الإسلامي على عدم الاستعباد. إن القرآن يذهب إلى أبعد من ذلك حين يأمر بألا يرفض مالك العبد طلب عبده الذي يريد أن يكتب عقداً قانونياً يمكنه من كسب حريته :

(1) أشار المؤلف إلى وجود أحاديث أخرى من صحيح البخاري عددها ثلاثة أحاديث حول نفس الموضوع (المترجم).
(2) أشار المؤلف هنا أيضاً إلى وجود أحاديث أخرى من صحيح البخاري تحث على تعليم الأمة (المترجم).

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ ﴾. (النور: 33)

هذا الأمر القرآني فسر عند التطبيق على النحو التالي: 1) حالما يطلب العبد عقداً يمكنه من كسب حريته فعلى المالك القبول؛ 2) بعد ذلك يكون العبد حراً من مطالب مالكه وهو حر في أن يعمل لنفسه لكي يكسب المال الذي يستطيع به شراء حريته؛ 3) بمجرد حصول العبد على المال اللازم ودفعه لمالكه، فإنه حر من الناحيتين العملية والفنية. بالإضافة إلى ذلك، وكما تتضمن الآية 33 من سورة النور، فإن المتوقع من المالك هو أن يسهم في المال الذي يتمكن من خلاله العبد من شراء حريته، بمعنى «آتوهم من مال الله الذي آتاكم».

إلى جانب ذلك فإن التكفير عن الذنوب، والكسوف الشمسي، والزكاة، وطلب العبد كتابة عقد لكسب حريته، ليست الأساليب الوحيدة التي استنها عليها الإسلام في مواجهة العبودية. لقد أمر النبي محمد بشكل مباشر بعتق العبيد، أي «أعتقوا الأسرى»، وأشار إلى أن الله لا يحب شيئاً مما خلق على الأرض قدر حبه للعتق.[1]

> عن أبي موسى الأشعري أن النبي قال: «أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا العاني» (البخاري)[2]

> روى معاذ بن جبل أن رسول الله قال له: «يا معاذ ! ما خلق الله على ظهر الأرض أحب إلي من عتاق، وما خلق الله على وجه الأرض أبغض إليه من الطلاق» (الترمذي، الحديث رقم 969)[3]

(1) أورد المؤلف هذه الجملة الأخيرة على أنها من كلام النبي ﷺ دون أن يوثقها، ولم أقف لها على مصدر (المترجم).
(2) أشار المؤلف بين قوسين إلى وجود أحاديث أخرى كلها في صحيح البخاري حول نفس المعنى (المترجم).
(3) لم أجد هذا الحديث لدى الترمذي ووجدت بعض المصادر تراه حديثاً ضعيفاً (المترجم).

ح4. معاملة العبيد

على الرغم من عدم التشجيع المستمر للعبودية في تعاليم الإسلام، فإن الفكر الإسلامي التقليدي لم يغير اعتقاده بأن العبودية ظلت من نواحٍ معينة وفي بعض الحالات مسموحاً بها في الإسلام. لكن في تلك الحالات التي سمح فيها بالاستعباد، كان العبد يعامل بطريقة مختلفة عن الطريقة التي كان يعامل بها في الأمريكتين من قبل أتباع الموروث اليهودي- المسيحي. الاقتباسات التالية تمثل عينات من أوامر النبي محمد حول كيفية معاملة العبيد:[1]

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾. (النساء: 36)[2]

حسب تعاليم النبي محمد، على ملاك العبيد أن «يفعلوا المعروف» للعبيد وأن يعاملوهم بـ«لطف». فضلاً عن ذلك، وفي تناقض واضح مع مؤسسة العبودية في الأمريكتين، أكد النبي محمد أن العائلات المستعبدة لا يجوز أن يفرق ما بين أفرادها في أماكن وملاك مختلفين، ولعن من فعل ذلك.

فوق ذلك أمر النبي محمد أن يطعم مالك العبيد عبيده مثلما يطعم هو ويلبسهم مثلما يلبس. وعلى مالك العبد أيضاً ان يعين عبيده شخصياً في القيام بأي عمل شاق يمكن أن يرهقهم دون معونته لهم.[3]

---

(1) مع أن المؤلف يورد بعد الآية القرآنية نصاً من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام فإن صيغة التقديم «أوامر النبي محمد» توحي بأنه يرى أن النصين، القرآني والحديث، صادران عن النبي، وهو ما ينبغي التنبيه إلى عدم صحته (المترجم).

(2) أورد المؤلف في سياق إيضاحه لموقف الإسلام من العبودية عدداً من الأحاديث التي اقتبسها من «سنن الترمذي» وهي في مجملها تؤكد موقف الإسلام الإنساني المتسامح والحاث على العتق أكثر من تشريعه للرق. وفي حين أمكن توثيق بعض الأحاديث على الرغم من صيغتها المترجمة إلى الإنجليزية فإن بعضها الآخر ظل مستعصياً على التوثيق لاسيما أن المؤلف اعتمد على مصدر إلكتروني غير متيسر للمترجم (المترجم).

(3) أورد المؤلف هنا حديثاً من صحيح مسلم منسوباً إلى خيثمة عن رسول ﷺ يؤكد حرص الإسلام على العناية بشؤون الرقيق (المترجم).

حَدَّثَنَا ادَمُ بْنُ اَبِي اِيَاسٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، حَدَّثَنَا وَاصِلٌ الاَحْدَبُ، قَالَ سَمِعْتُ المعرور بْنَ سُوَيْدٍ، قَالَ رَاَيْتُ اَبَا ذَرٍّ الْغِفَارِيَّ ﷺ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلاَمِهِ حُلَّةٌ فَسَاَلْنَاهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ اِنِّي سَابَبْتُ رَجُلاً فَشَكَانِي اِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ «اَعَيَّرْتَهُ بِاُمِّهِ». ثُمَّ قَالَ «اِنَّ اِخْوَانَكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ اَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ اَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَاْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَاِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَاَعِينُوهُمْ». (البخاري)

لقد كرر النبي محمد في خطبة الوداع، حين حج حجته الأخيرة، الموضوعات السابقة حول الطريقة الصحيحة لمعاملة العبيد، مشيراً مرة أخرى إلى أن على مالك العبد أن يطعم عبده ويكسوه من نفس الطعام والملبس الذي يمنحه لنفسه. بل إن النبي ذهب إلى أبعد من ذلك حين منع تأنيب العبيد.(1)

أخيراً ينبغي الإشارة إلى أن النبي محمد حدد الأسلوب الذي ينبغي للمالك أن ينادي به عبده، وحذر الملاك من تسمية عبيدهم عبيداً، وإنما أن ينادوهم بالفتيان، أو الفتيات. بهذا أكد النبي أنه ينبغي لكل مالك للعبيد أن يعامل عبيده بذات الطريقة من الرعاية التي يعامل بها أبناءه.

حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، اَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ، اَنَّهُ سَمِعَ اَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ اَنَّهُ قَالَ «لاَ يَقُلْ اَحَدُكُمْ اَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، اسْقِ رَبَّكَ. وَلْيَقُلْ سَيِّدِي مَوْلاَىَ. وَلاَ يَقُلْ اَحَدُكُمْ عَبْدِي اَمَتِي. وَلْيَقُلْ فَتَاىَ وَفَتَاتِي وَغُلاَمِي» (البخاري)(2)

(1) يورد المؤلف نصاً لخطبة الوداع يشير فيه الرسول ﷺ إلى معاملة العبيد، وهذا الجزء من الخطبة – الذي لم يوثقه المؤلف– غير مثبت في معظم النسخ أو الروايات المتوفرة وهي روايات مختلفة أصلاً. يضاف إلى ذلك أن الترجمات المتوفرة للخطبة إلى الإنجليزية غير متوافقة في بعض أجزائها مع الروايات العربية المتباينة هي الأخرى فيما بينها ليس على المستوى المذهبي فحسب وإنما في روايات أخرى. من أوجه ذلك الاختلاف تأكيد الترجمات الإنجليزية على أن الرسول ﷺ أكد على أخوة المسلمين دون فروق عرقية، مع عدم الإشارة إلى ضرب الزوجات ضرباً غير مبرح حين يوطئن فراش أزواجهن من لا يرضاه الزوج (المترجم).

(2) أورد المؤلف هنا حديثاً منقولاً عن أبي بكر الصديق ﷺ حول إساءة معاملة الخادم. الحديث منقول عن «سنن الترمذي» ولم يتيسر توثيقه (المترجم).

ح5. نتائج

إن ممارسة العبودية في الإسلام، كما يتضح، كانت مختلفة جذرياً عن مؤسسة العبودية في الأمريكتين. مع أن الإسلام لم يلغ العبودية كلية، فإنه لم يشجعها وأمر بإطلاق العبيد كفارة، وأثناء كسوف الشمس، وبوصف العتق نوعاً من الصدقة، ومن حيث هو «إتباع للطريق الصعب»، وعندما يطلب العبد عقداً ينتهي بحريته. في المجموع، أوجد القرآن وتعاليم النبي وضعاً يؤدي إلى إلغاء العبودية تماماً.

ما لا يقل أهمية عن ذلك، أمر الإسلام بمعاملة للعبيد تتباين كلية مع الوحشية والعنف الذي اتسم به النظام الأمريكي للعبودية. فليس للمالك أن يفصل أفراد العائلة المستعبدة بعضها عن بعض، وعليه أن يطعم العبيد ويلبسهم على نحو لا يختلف عن طعامه ولباسه، وأمر بأن يشاركهم العناء حين يكون العبء ثقيلاً. فضلاً عن ذلك، على المالك ألا يشير إلى عبيده على أنهم عبيد، ولكن بوصفهم «فتياني وفتياتي وولدي». كما أن عليه أن يعامل عبيده بالحسنى وبلطف وأن يمتنع عن تأنيبهم. باختصار، عليه أن يتذكر دائماً أن عليه أن يعامل عبيده مثل إخوانه وأبنائه.

ط. ملخص ونتائج

مؤسسة العبودية الإنسانية كانت إحدى أكثر الفصول سوءاً في تاريخ الأمريكتين. كانت مؤسسة وحشية، وشريرة ومهينة تأسست على عنصرية خبيثة. خضع لهذا الانحراف ما بين 15 إلى 20 مليون إفريقي أسود البشرة. من أولئك الأفارقة المستعبدين في الأمريكتين كان 20 إلى 30٪ مسلمين، أكثرهم كانوا من ذوي المهن المتعلمين تعليماً عالياً والأفراد العسكريين. تلك الفئة من المسلمين المستعبدين لم تخضع لما أخضع له بقية العبيد من إهانات ووحشية فحسب، وإنما كان عليهم أن يتحملوا عبء السعي إلى المحافظة على دينهم وواجباتهم الدينية ضمن قيود العبودية الأمريكية. قصصهم ينبغي أن تكون درساً ملهماً للمسلمين المعاصرين حول العالم.

5: المسلمون والأمريكيون الأصليون

1. مقدمة

هناك الكثير من المعلومات التفصيلية التي تدل على أن المسلمين في الأمريكتين كثيراً ما ارتبطوا بعلاقات زواج مع الهنود الأمريكيين وتم امتصاصهم تدريجياً في قبائل أولئك الهنود. على وجه التحديد، يمكن أن يفترض وجود ذلك الامتصاص للمسلمين في القبائل الهندية الأمريكية في حالة «الألغونكين (من تلك على سبيل المثال: قبائل تشيكاهوميني، تشيبوا، كريك، ماتابوني، باموكي، بوهاتان، سيمينول)، والإيروكواس (كما في قبائل الشيروكي والتوسكارورا)، السيوان (مثل: قبائل كاتاوبا، شيراو، كيوي، يوتشي)، وكاريب.[1]

كما يتوقع من سيناريو كهذا، تخلى المنحدرون من أولئك المسلمين في النهاية عن إسلام أسلافهم. أما ما إذا كان التمسك بالإسلام قد مات مع المسلمين الأوائل، أو ما إذا كان قد عاش لجيلين، أو أنه بقي لعدة أجيال، فليس مما يمكن معرفته. في الوقت الحالي كل ما يمكن التأكد منه هو أن المسلمين الأوائل في الأمريكتين اندمجوا في مجموعة منوعة من القبائل الهندية.

2. عرض موجز

في الفصلين الثاني والثالث ورد الكثير من المعلومات والتفاصيل التي تشير إلى وجود صلة نسب بين المسلمين الأوائل والهنود الأمريكيين. غير أنه من المفيد مراجعة تلك المعلومات هنا وإن باختصار.

1) في أوائل القرن الثاني عشر ذكر الإدريسي في كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»

(1) الألغونكين والأيروكواس والسياون والكاريب من «الأمم» الهندية التي سكنت الأمريكتين، وتشكل كل واحدة مجموعة من القبائل المتحدة فيدرالياً (المترجم).

أن ثمانية من البحارة المسلمين من شمال إفريقيا أبحروا غرباً من لشبونة في البرتغال. بعد إبحارهم غرباً لما يزيد على 31 يوماً نزلوا على الأرجح في إحدى جزر الكاريبي. أولئك المغامرون البواسل سجنوا في البداية على يد الهنود لكنهم أطلق سراحهم عندما ظهر مترجم يعرف العربية. إن وجود ذلك الهندي الذي يتحدث العربية يوحي بأن ثمة اتصالاً طويلاً بين المسلمين والهنود الأمريكيين في الكاريبي منذ فترة ليست أقرب من القرن الثاني عشر. ذلك الاتصال مهد على الأرجح لمصاهرة بين المسلمين والهنود يتبعها اندماج الفئتين معاً.

2) حوالي 1310 أرسل أبو بكاري، سلطان الماندينكا في مالي، أسطولين يصل عدد سفنهما إلى 2400 سفينة أبحرت غرباً من إفريقيا. ومن الواضح أن تشغيل سفن تبلغ 2400 سفينة تطلب آلاف البحارة الماندينكا. تلك الأساطيل لم تعد إلى إفريقيا وواحدة منها على الأقل يبدو أنها وصلت البرازيل. من البرازيل يبدو أن الماندينكا استكشفوا أجزاءً من أمريكا الجنوبية والوسطى وما سيصير لاحقاً المكسيك والولايات المتحدة.

لاشك في أن بعض أولئك الماندينكا قد تصاهروا مع قبائل الهنود الأمريكيين الجنوبيين والأمريكيين الشماليين وأن ذلك أنتج ذرية جاء المستكشفون الأوروبيون للعالم الجديد فيما بعد ليصفوهم. فقد صادف كولومبس هنوداً سود البشرة في ما يعرف الآن بهندوراس، وبالبوا رأى قبيلة من الهنود سود البشرة يعيشون في ما يعرف الآن ببنما. يقول غايلز كوفيت في كتابه «بربر أمريكا» إن إحدى القبائل في هندوراس في مفترة ما قبل كولومبس كانت تعرف بـ «الماميز»، وهو اسم محرف عن كلمة «إمام» العربية التي يستخدمها الماندينكا. بالإضافة إلى ذلك كانت إحدى القبائل السوداء البشرة التي تعيش في تيغيولسيغالبا قرب حدود نيكاراغوا تعرف بـ «جرّا»، وهو اسم عشيرة من الماندينكا تعيش في غامبيا. وحتى فترة قريبة لا تتجاوز القرن التاسع عشر، ذكر أن عشيرة «غارفونا» من قبيلة كاريب من الهنود كانت سوداء البشرة وأن لغتها كانت تختلف عن بقية العشائر من الكاريب وأنها بدت كما لو كانت ذات أصل إفريقي. إضافة إلى

ذلك، كان الغارفونا يتعدون عن لحم الخنزير ويقدرون الميداليات والمجوهرات ذات الشكل الهلالي. في عام 1861، كتب الأب براسير دي بوربوغ في كتابه «بوبول - فوه: كتاب أمريكا القديمة المقدس وأساطيرها»[1] أن شعب دارين (بنما) يمكن توزيعه تحت اسمين جامعين حسب أصوله المختلفة: ماندينغاز (ماندينكا)، وتيول. وفي أمريكا الشمالية، ثبت فيما بعد أن معجم ج. س. بيرلايوس عام 1750 للغة هنود النانتيكوك في شرق ماريلاند هو معجم للغة الماندينكا، الأمر الذي يوحي باندماج للماندينكا في هذه القبيلة الهندية من أمريكا الشمالية. كما أن من المحتمل أن الماندينكا صاهروا هنود الإيروكواس والألغونكين.

3) كما تبين في الفصل الثاني وببينات لا تدع مجالاً للشك، فإن كثيراً من الكلمات والمعاني المتصلة بها اندمجت بلغات الشيروكي والكريك والسيمينول والألغونكين والبوهانتا والتشيبيوا على الأقل في مرحلة ليست أبعد من بداية القرن السابع عشر. تلك الكلمات تمتد من شيكاغو إلى كنتاكي، إلى تيبي، وموكازين، وتوماهوك. فضلاً عن ذلك كان الهنود الديلاوير يشيرون إلى أنفسهم على أنهم «ليني- لاناب» وإلى سجلاتهم القبلية على أنها «والام أولوم». الكلمة الأولى تتوافق مع العبارة التركية «لا-آني لا-نابي» (أي «أهل النبي»)، والعبارة الأخيرة تكاد تكون هي نفسها العبارة التركية «فالاه أولوم» («سجلات الله»). بنظرة شاملة يتضمن الدليل اللغوي إثباتاً قوياً للحضور العثماني في الأمريكتين في فترة ما قبل كولومبس وعلى الأرجح فقد جاء ما يدعمه طوال القرن السادس عشر. فضلاً عن ذلك، يشير الدليل اللغوي إلى أناس من أصل تركي ويتحدثون التركية تم امتصاصهم في قبائل أكبر أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

في الوقت الحاضر ليس ثمة ما يوثق على وجه الدقة متى وأين بدأ الوجود العثماني في القرن الخامس عشر يندمج في القبائل الهندية في الشرق والجنوب الشرقي الأمريكي. لكن يبدو أن هناك على الأقل مصدراً معروفاً واحداً حول ما حدث من اندماج في القرن السادس

(1) سبق التعريف بهذا الكتاب الفرنسي في الفصل الثاني (المترجم).

عشر لأولئك الذين ينحدرون من أصل تركي في القبائل الهندية المقيمة في الجنوب الشرقي الأمريكي.

كما سبقت الملاحظة في الفصل الثالث، قام السير فرانسيس دريك عام 1586 بإنزال حوالي مائتين من العبيد المحررين ذوي الأصل المغاربي والتركي في جزيرة راونوك، وهي مستعمرة كان البريطانيون يتخلون عنها مؤقتاً. بعد ذلك بأسبوعين، عندما وصل السير والتر رالي إلى جزيرة راونوك، لم يكن من الممكن العثور على أولئك المسلمين الأتراك، ويبدو أنهم عبروا نحو البر الرئيسي باتجاه كارولاينا الشمالية حيث تم امتصاصهم كما يرجح في قبائل البوهاتان والبامونكي والنانسيموند والكرواتان والهاترز.

إلى جانب ذلك، رأى البعض وجود موريسكيين وأتراك سواء من الرجال أو النساء صاروا جزءاً من مستعمرة سانتا إلينا التي تأسست في إسبانيا عام 1566. لقد انتهت تلك المستعمرة والحصون المحيطة بها عام 1587. أبحر بعض المستعمرين نحو المستعمرة الإسبانية في سانت أوغسطين في فلوريدا. لكن الكثيرين يبدو أنهم بقوا فيما صار اليوم كارولاينا الجنوبية، جورجيا، كارولاينا الشمالية، وتينيسي. مرة أخرى، يرجح أن أولئك المستعمرين انضموا إلى القبائل الهندية الصديقة (مثلاً الشيروكي والكريك والكاتاوبا)، تزاوجوا معهم، ومع مرور الزمن تم امتصاصهم بالكامل في تلك القبائل دون أن يتركوا أي أثر لوجودهم سوى المفردات التركية التي اندمجت في لغات القبائل الهندية المختلفة من التي تلقتهم بترحاب.

إلى أي القبائل يا ترى هرب مستعمرو سانتا إلينا؟ لقد اقتُرح أن قبيلة تشيراو (أحياناً تلفظ ساورا أو سارا) تقبلتهم. في مرحلة تالية اندمجت قبيلة تشيراو مع الكياوي حوالي 1700، الفترة التي ذكر فيها المساح جون لاوسون أن رجال قبيلة الكياوي كانت لهم لحى وشوارب، وهو ما يعد شديد الغرابة بالنسبة للهنود الأمريكيين ولكنه سمة من سمات الرجال المسلمين. في الوقت نفسه تقريباً، كتب موريس ماثيوز، وهو مستوطن من كارولاينا الجنوبية، أن الكياوي كانوا «إسباناً»، مضيفاً بذلك دليلاً جديداً على الاندماج الإسلامي/الموريسكي في قبائل الهنود الأمريكيين.

ج. بعض الاقتراحات الأخرى

مما سبق يمكن افتراض أن المسلمين الأوائل في الأمريكتين اندمجوا في الهنود الأمريكيين الأصليين وأنهم فقدوا بذلك تواريخهم المستقلة وموروثاتهم. غير أن ثمة معلومات إضافية توحي بارتباط بين المسلمين والهنود المقيمين في الشرق وجنوب الشرق الأمريكي. الأمثلة تشمل ملابس وحصون الهنود من أهل الجنوب الشرقي، وأسماء بعض الهنود، إلى جانب الفن عند قبيلة الشيروكي، وإيواء بعض المسلمين العبيد لدى القبائل الهندية.

فيما يتعلق بملابس بعض الهنود من الجنوب شرقيين، يحسن بنا أن نتأمل اللباس التقليدي للهنود من قبائل الشيروكي والسيمينول والكريك. قبل عام 1832، كان الرجال من الشيروكي يلبسون عادة عمامة ولباساً يشبه القميص ينزل إلى أسفل الركبتين أو دونهما، في حين كانت النساء من الشيروكي بشكل عام يلبسن غطاء طويلاً للرأس. وعلى نفس المنوال، تظهر صور من القرن التاسع عشر أن رجال قبيلة السيمينول كانوا غالباً ما يلبسون الأعمة أو ما يمكن أن يوصف بدقة أكبر بالطربوش التركي، بينما يلبس رجال الكريك العمامة أو الطربوش مع ريشة واحدة، وهو ما كان زياً عثمانياً تقليدياً في القرن السادس عشر. ومع أن الملابس المشار إليها للهنود الشيروكي والسيمينول والكريك في القرن التاسع عشر لا تشكل دليلاً قطعياً بدخول الملابس الإسلامية على تلك القبائل، فإنها تحمل إيحاءً قوياً بذلك.

مصادفة أخرى مثيرة للدهشة، إذ تتضمن اندماجاً للمسلمين في القبائل الهندية الأمريكية الأصلية، هي تلك التي تتعلق بالهنود التوسكارورا. قامت تلك القبيلة المقيمة في جنوب غرب فرجينيا عام 1751 ببناء حصون استعملوها خلال حروبهم. تلك الحصون كانت شبيهة بالحصون في غرب إفريقيا ويبدو أنها مما نقله إلى التوسكارورا عبد إفريقي هارب يعرف بـ هاري. لكن من الممكن افتراض تاريخ سابق لانتشار الإسلام بين قبيلة التوسكارورا. في 1653، ذكر أحد الإنجليز أنه وجد حوالي 30 «إسبانياً» ثرياً (قد يكونون مسلمين وموريسكيين) مع سبعة عبيد أفارقة يعيشون مع التوسكارورا.

يضاف إلى ذلك أن شحنتين مختلفتين من الرجال والنساء الأتراك من الإمبراطورية العثمانية،

كلهم تقريباً مسلمون، أرسلوا إلى المستعمرة البريطانية في جيمس تاون ليخدموا بعقود، حيث شكلوا نسبة عالية من طبقة الخدم المتعاقدين. كما ورد في «فرجينيا كارولاروم»، كان من بين أولئك الخدم المتعاقدين أشخاص مثل: «مهيميت التركي، أحمد التركي، جوزيف الأرمني، سيان التركي»، وغيرهم. كانت تلك الشحنات في منتصف القرن السادس عشر، وأول توثيق مكتوب للحضور التركي في جيمس تاون يبدأ من 1631. لقد صار أولئك الأتراك من الكثرة بحيث أن فرجينيا في القرن السابع عشر أصدرت قانوناً يمنع استيراد المزيد من «الأتراك» ومن سموا بـ «الكفار» (أي المسلمين) إلى المستعمرة. بعض أولئك الأتراك هربوا على الأرجح من الخدمة وانضموا إلى القبائل الهندية.

من الاعتبارات الهامة الأخرى التشابهات الواضحة بين التصاميم والموتيفات في الفن العثماني وتلك الموجودة في الفن لدى الشيروكي. هذا إلى جانب أن ابن زعيم الشيروكي في القرن التاسع عشر، ستانداواتي، أطلق عليه اسم «سلادين» (وهو محرف عن صلاح الدين) ستاند واتي. ليس ذلك فقط وإنما هناك أيضاً حقيقة أن العديد من القبائل الهندية المقيمة في الجنوب الشرقي الأمريكي، ومنها الشيروكي، تقول في الأساطير المتعلقة بأصولها أنها قدمت من الشرق (أي عبر المحيط)، وليس من الغرب. أخيراً، من الملاحظ أن ثمة تشابهاً بين النظرة إلى الآخرة لدى البوهاتان والوصف القرآني للسماء. كلا المفهومين يتضمن رؤية لسماء من المتع الجسدية الأرضية، في مقابل المتع الروحية الصرفة الموجودة في التراث المسيحي. لتوضيح ذلك، فيما يلي، أولاً، وصف للسماء من البوهاتان يتبعه وصفان من القرآن:

> مليئة بالمتع الأرضية في أتم اكتمالها؛ مثل: كل أنواع الألعاب، للصيد، وصيد السمك، وصيد الطيور؛ وأنها أنعم عليها بأجمل النساء، اللاتي يتمتعن بنضرة دائمة، ولديهن رغبة كاملة للإمتاع.(1)

(1) Robert Beverley's The History and Present State of Virginia (1705) كما اقتبس في Kennedy NB. Kennedy RV 1997.

﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾

(محمد: 15)

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40) أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (41) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (42) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (44) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (45) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (46) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (47) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) ﴾. (الصافات: 40–48)

د. الهنود السود

د1. مقدمة

لم يكن الماندينكا في فترة ما قبل كولومبس والأتراك والموريسكيون بعد كولومبس المسلمين الوحيدين الذين اندمجوا في القبائل الهندية الأمريكية. كان هناك أيضاً العبيد الأفارقة الفارين الذين ربما كان العديد منهم مسلمين، والذين وجدوا ملاذاً وقبولاً بين عدد من القبائل الهندية. مع مرور الزمن تزوج أولئك من الهنود وكانت لهم ذرية. يضاف إلى ذلك أن قبائل مثل الشيروكي كان لديهم أحياناً عبيد أفارقة اندمجوا فيما بعد بتلك القبائل. أدلة أخرى على اندماج المسلمين الأفارقة والأفارقة الأمريكيين من ذوي الأصل الإسلامي في القبائل الهندية الأمريكية يمكن العثور عليها.بملاحظة أنه في الفترة ما بين حرب الاستقلال الأمريكية والحرب الأهلية ذكر أن قبائل هندية «سوداء» كانت تعيش في ولايات كونيتيكت وديلاوير وماريلاند وماساشوستس ونيو جيرسي ونيويورك وكارولاينا الشمالية وكارولاينا الجنوبية وتينيسي وفرجينيا.(1)

(1) Douglas K (2002a); Katz WL (1997).

ومع أن من غير الممكن تقديم أدلة قطعية على أن أفارقة وأفارقة أمريكيين بعينهم ممن هربوا وانضموا إلى الهنود الأمريكيين كانوا مسلمين أو من أصل إسلامي، فإن من الضروري تذكر أن المسلمين كانوا يمثلون 20—30٪ من مجموع الأفارقة الذين أحضروا إلى الأمريكتين عبيداً (انظر الفصل الرابع). لذا يبدو أن من المعقول استنتاج أن المسلمين ومنهم الذين يعودون إلى أصول إسلامية كانوا جزءاً أساسياً مما يعرف بظاهرة الهنود السود في مرحلة ما بعد كولومبس.

د2. الهنود السود في أمريكا اللاتينية[1]

بعد وصول أوائل الأفارقة العبيد بوقت قصير إلى هيسبانيولا، بدؤوا في الهروب من ملاكهم الإسبان. لأنهم كانوا أول العبيد الهاربين في الأمريكتين، فقد بحثوا عن ملجأ وملاذ لدى سكان الهيسبانيولا من الهنود الأصليين الذين رحبوا بهم ليصيروا جزءاً من قبائلهم. دفع هذا بالحاكم الإسباني لهيسبانيولا، نيكولاس دي أوفاندو، إلى الكتابة لملك إسبانيا فرديناند عام 1502 يطلب منه عدم إرسال المزيد من العبيد الأفارقة، ذلك «أنهم يهربون بين الهنود ويعلمونهم عادات سيئة ويتعذر القبض عليهم بعد ذلك».

حوالي عام 1685، هرب عدد من العبيد الأفارقة والهنود من مالكيهم الهولنديين في سورينام في أمريكا الجنوبية. أسس أولئك العبيد بعد ذلك مجتمعاً خاصاً بهم وتزاوجوا ليشكلوا شعباً جديداً، هو شعب الساراماكا. بدأ أولئك حرب تحرير استمرت حتى عام 1761 حين تخلى الأوروبيون أخيراً عن محاولاتهم استعادة الساراماكا واستعبادهم. على مدى الثلاثة قرون الماضية عاش الساراماكا وما يزالون موجودين حتى اليوم. ويبلغ عدد أحفاد أولئك العبيد الهاربين الآن حوالي 20,000 من الأحفاد ذوي الأصول الهندية والإفريقية.

منذ فترة مبكرة تعود إلى 1650، كان في المكسيك حوالي 100,000 من السكان ذوي الأصول المختلطة بين إفريقية وهندية. بالإضافة إلى ذلك هناك مجموعتان من الهنود السود

---

(1) Katz WL (1997).

في البرازيل في عهد الاستيطان تقودهما امرأتان.

د3. الهنود السود في الولايات المتحدة وسابقاتها[1]

لم تكن ظاهرة الهنود السود محصورة في المناطق الواقعة إلى الجنوب من حدود الولايات المتحدة الحالية. لقد ازدهر الهنود السود أيضاً في ما سيصبح الولايات المتحدة، لاسيما في المناطق الواقعة إلى شرق نهر الميسسبي.

أحد الأمثلة على العبيد الأفارقة الذين هربوا من المستعمرين الأوروبيين واندمجوا في الهنود الأمريكيين نجده في العام 1526. في يونيو من ذلك العام، أسس لوكاس فاسكيز دي أيون مستعمرة إسبانية بالقرب من مصب نهر «بي دي» في ما صار الآن الجهة الشرقية من كارولاينا الجنوبية. المستعمرة الإسبانية سميت سان ميغيل دي غوالديب وفيها أسكن دي أيون من المستوطنين 500 إسباني حر و100 إفريقي مستعبد جاؤوا من سانتو دومينغو. غير أن المستعمرة ضعفت كثيراً بسبب المرض ونقص الطعام والصراعات الداخلية بالإضافة إلى نقص الحماية من الشتاء المقبل، ما أدى إلى موت حوالي 350 من المستوطنين الإسبان. أخيراً، في نوفمبر 1526، هرب العبيد الأفارقة من المستعمرة وانضموا إلى الهنود المحليين. بعد ذلك مباشرة تقريباً عاد الإسبان الباقون إلى سانتو دومينغو.

العام 1622 شهد أول معركة كبرى بين الهنود الأمريكيين والمستعمرين الأوروبيين في أمريكا الشمالية. في تلك المعركة حقق الهنود انتصاراً حاسماً قتلوا نتيجته جميع المستوطنين الأوروبيين في جيمس تاون. أما الأفارقة المستعبدون، ففي مقابل المصير الذي انتهى إليه ملاكهم الأوروبيون نجد أنهم اندمجوا مع الهنود.

الإعلانات الاستيطانية عن الأفارقة العبيد الهاربين كثيراً ما أشارت إلى هاربين لديهم زوجات هنديات يتحدثن اللغات الهندية. أحياناً كان يلاحظ أن أولئك الهاربين كانوا ذوي أصل مختلط إفريقي وهندي. من الأمثلة على العبارات التي

(1) Katz WL (1997) and --- (2003e).

تضمنتها تلك الإعلانات ما يلي:

> ... هرب مع زوجته الهندية ... كان لديه أقارب هنود ... نصف هندي يجيد التحدث بلغاتهم.[1]

في كارولاينا الجنوبية، أصبح المستعمرون قلقين حيال التهديد الذي مثله خليط الأفارقة والهنود المتزايد نتيجة هروب العبيد الأفارقة نحو الهنود إلى حد أنهم أصدروا قانوناً جديداً عام 1725. نص ذلك القانون على غرامة 200 جنيه على أي شخص يحضر عبداً إلى تخوم المستعمرة، وهي المنطقة التي تتزايد فيها احتمالات اندماج العبيد بالهنود. في عام 1751، وجدت مستعمرة كارولاينا الجنوبية أن من الضروري إصدار قانون آخر ينذر بأن الاحتفاظ بالأفارقة بالقرب من الهنود يعد تهديداً لأمن المستعمرة.

في عام 1726 انتزع الحاكم البريطاني وعداً من الهنود الإيروكواز بإعادة كل العبيد الهاربين الذين انضموا إليهم. ذلك الوعد انتزع أيضاً من الهنود الهورون عام 1764 ومن الهنود الديلاوير عام 1765. غير أنه على الرغم من تلك الوعود لم يعد الإيروكواز أو الهورون أو الديلاوير أي عبد، بل ظلوا يوفرون المسكن الآمن للهاربين من العبيد. ومثل ذلك فعل الزعيم جوزيف برانت، زعيم الهنود الموهوك بالقرب من أونتاريو حيث رحب بالعبيد الهاربين إلى قبيلته وسمح لهم، بل ربما شجعهم، على التزاوج مع شعبه.

الهنود السود كانوا موجودين أيضاً بين هنود الناتك، والحق أن أحد شهداء أمريكا الكبار، كريسبوس أتوكس، كان من هنود الناتك السود. ولد كريسبوس أتوكس حوالي 1723، ومع أنه لا يعرف سوى القليل عن حياته، فالمرجح أنه هو نفس الشخص الذي كان عبداً هارباً وذكر في إعلان وضعه عام 1750 أحد سكان فرامنغهام في ماساشوستس. في 5 مارس، 1770، حدث اشتباك بين جنود بريطانيين وحشد من المحتجين في بوسطن تطور إلى إطلاق نار. كان كريسبوس أتيكوس أول الأمريكيين الذين قتلوا في ما عرف لاحقاً بمذبحة بوسطن. قتل مع كريسبوس أربعة آخرون. وكما حفظت ذكرى تلك المذبحة في كتابات ساميول أدامز

---

(1) Katz WL (1997). p. 103.

وفي نقوش بول ريفير، فإن تلك الحادثة سرعان ما تحولت إلى صرخة حشد للقوى من أجل الاستقلال الأمريكي. بهذا صار كريسبوس أتيكوس أحد أول الذين فقدوا حياتهم من أجل استقلال أمريكا. لقد حمل جسده إلى فانويل هول في بوسطن حيث سجي بشكل رسمي لمدة ثلاثة أيام، قبل أن يدفن إلى جانب الشهداء الأربعة الآخرين في مذبحة بوسطن. في عام 1888 أقيم نصب تذكاري لكريسبوس أتيكوس في حديقة «بوسطن كومون».(1)

في أواخر القرن الثامن عشر كان ضم الأفارقة ومن هم ذوو أصل إفريقي من قبل الهنود الأمريكيين يحدث في كاليفورنيا أيضاً. كمثال على ذلك يمكن للمرء أن يتأمل في تأسيس مدينة لوس أنجلس عام 1781. لقد تأسست المدينة على يد 44 شخصاً. من أولئك الأربعة وأربعين كان هناك اثنان فقط من الأوروبيين، في حين كان الباقون أفارقة وهنوداً أو من أصل مزيج.

لقد بدأ سكان فرجينيا، في فترة مبكرة تعود إلى عام 1783، في مطالبة مشرّعي الولاية بفعل شيء بشأن هنود الغينغاسكين. كانوا يشتكون أن أناساً من أصل إفريقي كانوا يقيمون مع الغينغاسكين. ولما لم يؤخذ بمطالبهم، تقدم السكان بمطالبة أخرى عام 1786. أخيراً، في عام 1812، نجحت المطالبة الثالثة، حين ادعوا أن الغينغاسكين لم يعودوا هنوداً أصلاً، لأن الكثير منهم صاروا، وإن جزئياً، من أصل إفريقي.

بعد حرب الاستقلال بقليل، صار من المعروف أن عبيداً من أصل إفريقي قد اندمجوا في هنود التشيبيوا. كان والدا بيير بونغا عبيداً جلبهم مما يسمى الآن مينيسوتا ضابط بريطاني. ابنهم بيير صار شرطياً ومترجماً للغات الهندية لدى شركة نورث ويست وتزوج فيما بعد من قبيلة التشيبيوا. نتج عن ذلك الزواج ابنان، جورج وستيفن. جورج، الذي ولد حين كان توماس جيفرسون رئيساً والذي تلقى تعليمه في مونتريال، تزوج أيضاً من التشيبيوا. وفيما بعد عمل الاثنان، جورج وستيفن بونغا، شرطيين ومترجمين. في عام 1837، كان جورج ممن ناقشوا معاهدة بين الهنود التشيبيوا والولايات المتحدة في فورت سنيلينغ.

---

(1) تعد هذه الحديقة، أو الـ «بارك»، من أقدم الحدائق في الولايات المتحدة فقد أسست في النصف الأول من القرن السابع عشر وتقع وسط مدينة بوسطن (المترجم).

لقد كتب توماس جيفرسون، الرئيس الثالث للولايات المتحدة، ذات مرة عن هنود الماتابونيز في فرجينيا قائلاً إن فيهم من الدم الإفريقي أكثر مما فيهم من الدم الهندي.

في مطالبة تعود إلى العام 1843 قدمت لمشرعي ولاية فرجينيا، طلب السكان البيض في مقاطعة كنغ وليم المساعدة في حماية أنفسهم من التهديد الذي يفترض أنه قادم من الهنود البامونكي. في طلبهم أشار السكان إلى أن كل شخص حي من البامونكي لديه على الأقل جد أو جدة «يحمل دماً زنجياً». ثم أشار المطالبون إلى أن البامونكي جعلوا أرضهم ملاذاً للأفارقة الأمريكيين الأحرار والعبيد الفارين.

يمكن العثور على معلومات أكثر تفصيلاً عن الهنود السود بين بعض القبائل الهندية، أما ما يلي فمعلومات تتعلق بقبائل الشيروكي والتشيكاساوا والتشوكتاو والكريك والسيمينول.

د4. الشيروكيون السود[1]

كان الهنود الشيركيون إحدى أكبر القبائل في الجنوب الشرقي الأمريكي التي دمجت الأفارقة والمنحدرين من أصل إفريقي. أما ذلك الاندماج فكان يمكن أن يتأتى عن أحد طريقين أساسيين: الأول أن تمنح القبيلة العبيد الهاربين الحرية أو الملاذ؛ والثاني أن يكون العبد ذو الأصل الإفريقي ملكاً لدى الهنود الشيروكيين.

يمكن معرفة المدى الذي وصل إليه انضمام المنحدرين من أصل إفريقي إلى الشيروكي من النظر أولاً إلى نتائج الإحصاء الذي أجري عام 1835. في ذلك الوقت كان العبيد ذوو الأصل الإفريقي يمثلون 10٪ من أفراد الشيروكي. بعد سنوات قليلة، أثناء «قافلة الدموع» السيئة السمعة ما بين عامي 1839 و1839، قام 7,000 جندي أمريكي بإرغام 14,000 من الهنود الشيروكي على السير غرباً في فصلي الخريف والشتاء.[2] من أولئك الأربعة عشر ألفاً لم يبق

(1) Katz WL (1997) and Douglas K 92002a).

(2) أرغم الهنود على السير غرباً إنفاذاً لقرار اتخذته الولايات المتحدة بإخلاء أراضٍ كان يقطنها الهنود في بعض الولايات الجنوبية وذلك لكي يستفاد منها في إسكان المستوطنين الأوروبيين. وسميت الرحلة قافلة الدموع «Trail of Tears» لما اكتنفها من مشقة تضمنت وفاة حوالي أربعة آلاف شخص (المترجم).

على قيد الحياة أثناء الرحلة سوى 10,000، منهم 1,600 كانوا من الشيروكي السود، أي أن ما يزيد بقليل على 11٪ من شعب الشيروكي كانوا من أصل إفريقي. بحلول عام 1860، كان 18٪ من الهنود الشيروكي عبيداً، أي 2,511 شخصاً.

تضمنت المعاهدة المبرمة بين حكومة الولايات المتحدة وشعب الشيروكي إشارات محددة إلى الأفارقة والأمريكيين ذوي الأصل الإفريقي المقيمين مع الشيروكي إما عبيداً لتلك القبيلة أو أفراداً فيها. تشير المعاهدة إلى من سبق أن كانوا عبيداً من الأفارقة أو الأمريكيين ذوي الأصل الإفريقي من الشيروكي بوصف أولئك العبيد «أشخاصاً محررين» أو «محررين». يتضح ذلك من الاقتباس التالي من معاهدة التاسع عشر من يوليو 1866 (المصادق عليها في 27 يوليو، 1866، والمعلنة في 11 أغسطس، 1866):

> جميع الشيروكيين والأشخاص المحررين الذين كانوا عبيداً من قبل لدى أي من الشيروكيين وجميع الزنوج الذين لم يكونوا عبيداً، الذين أقاموا مع شعب الشيروكي قبل الأول من يونيو من عام ألف وثمانمائة وواحد وستين ....بما أن شعب الشيروكي، بقرار من مجلسه الوطني، في فبراير من عام ألف وثمانمائة وثلاثة وستين، ألغى العبودية بشكل مطلق، فإنه يتعهد ويوافق ألا توجد العبودية أو الخدمة القسرية في شعبهم فيما عدا العقوبة على الجريمة التي يكون الشخص فيها قد أدين كما ينبغي، بمقتضى القوانين التي يخضع لها كل أفراد القبيلة بشكل متساوٍ. كما أنهم يوافقون على أن كل الرجال الأحرار الذين تحرروا بفعل إرادي من قبل ملاكهم السابقين أو بالقانون، بالإضافة إلى كل الملونين الأحرار الذين كانوا في البلاد في بداية الثورة، وهم الآن مقيمون فيها، أو الذين يمكن أن يعودوا خلال ستة أشهر، وذريتهم، يتمتعون بكل الحقوق التي يتمتع بها الشيروكيون الأصليون: هذا مع اشتراط أن ملاك العبيد الذين تحرروا على هذا النحو في شعب الشيروكي لن يتلقوا أي تعويض أو مبلغ مقابل العبيد الذين تحرروا على هذا النحو... كل شيروكي وكل شخص تحرر له الحق في أن يبيع أية منتجات من مزرعته، ومن ذلك ماشيته أو ماشيتها، أو أي بضاعة أو منتجات مصنعة، وأن يشحنها ويسوقها إلى السوق دون قيود،

ويدفع الضريبة المفروضة الآن أو التي قد تفرض من قبل الولايات المتحدة على الكمية المباعة خارج المنطقة الهندية.[1]

ما بين عامي 1898 و1916، أدرجت مفوضية داوس العبيد السابقين والمحررين من ذوي الأصل الإفريقي ضمن قبيلة الشيروكي. ويتضح من مراجعة سجلات المفوضية أن ما مجموعه 430 اسم عائلة قد أدرج ضمن القبيلة، الأمر الذي يشير إلى ما لا يقل عن 430 من العائلات المختلفة من ذات الأصل الإفريقي الذين عرفوا بوصفهم من الهنود الشيروكي.

د5. التشيكاسو والتشوكتاو السود

كان لدى كلا القبيلتين، التشيكاساو والتشوكتاو، عبيد من أصل إفريقي أدرجوا ضمنهما. بحلول عام 1860 كان 18٪ من التشيكاساو و14٪ من التشوكتاو عبيداً، أي 975 من التشيكاساو و2344 من التشوكتاو. الاقتباس التالي من معاهدة 1866 بين الولايات المتحدة والتشوكتاو والتشيكاساو يشير إلى أولئك الأفراد ذوي الأصل الإفريقي:

> ... إن شعبي التشوكتاو والتشيكاساو على التوالي سيسنان القوانين والقواعد والأنظمة التي قد تكون ضرورية لمنح كل الأشخاص ذوي الأصل الأفريقي، المقيمين مع الشعبين المشار إليهما في تاريخ المعاهدة في فورت سميث، وذريتهم، المحتفظ بهم حتى الآن عبيداً بين الشعبين المشار إليهما، كل الحقوق، والمميزات، والحصانات، ومنها حق التصويت، الممنوحة لمواطني الشعبين المشار إليهما، ماعدا العوائد السنوية، والأموال، والممتلكات العامة التي يدعيها، أو تنتمي إلى، الشعبين المشار إليهما على التوالي؛ وأن يمنحوا أولئك الأشخاص أيضاً الذين كانوا مقيمين كما ذكر سابقاً، وذريتهم، أربعين هكتاراً من أرض الشعبين المشار إليهما بنفس الشروط التي تمنح بها التشوكتاو والتشيكاساو... عند تطبيق تلك القوانين والقواعد والأنظمة المشار إليها

(1) Kappler CJ (1904).

سيدفع مبلغ الثلاثمائة ألف دولار المشار إليه إلى شعبي التشوكتاو والتشيكاساو بنسبة ثلاثة أرباع للأول وربع للثاني، من ذلك المبلغ، على أساس مائة دولار للشخص، بحيث يكفي ليدفع لأولئك الأشخاص ذوي الأصل الإفريقي المشار إليهم من قبل...ويحتفظ به لاستعمال وفائدة أولئك الأشخاص ذوي الأصل الإفريقي الذين ستنقلهم الولايات المتحدة من المنطقة المشار إليها...لكي تنقل من الشعوب المشار إليها كل الأشخاص ذوي الأصل الإفريقي الذين قد يرغبون في الانتقال؛ أولئك الباقون أو العائدون بعد أن نقلوا من الشعوب المشار إليها لن يستفيدوا من مبلغ الثلاثمائة ألف دولار المشار إليه، أو أي جزء منه، وإنما سيكونون على قدم المساواة مع مواطني الولايات المتحدة الآخرين من الشعوب المشار إليها... ويوافقون، فيما يتعلق بشعبيهما، أن كل القوانين ستكون متساوية في انطباقها على التشوكتاو، والتشيكاساو، والزنوج، وألا يكون هناك أي تفريق يؤثر في الأخيرين وأن يعاملوا بلطف ويحموا ضد الضرر؛ ويوافقون أيضاً أنه طالما بقي أولئك الأشخاص المحررون، الموجودون الآن بين شعبي التشوكتاو والتشيكاساو، بين الشعبين المشار إليهما، على التوالي، فإنهم سيحتفظون بحقهم فيما يفلحونه من الأرض لمعيشتهم ومعيشة عائلاتهم...

في عام 1885، أدخل التشوكتاو ما يزيد على 350 من «المحررين» الأفارقة الأصل من التشوكتاو والتشيكاساو إلى قبيلتهم.

د6. الكريك السود

الهنود الكريك، وهم القبيلة الأم للهنود السيمينو، قاموا أيضاً بدمج العديد من الأشخاص الأفارقة الأصل في قبيلتهم، إما عبيداً أو أحراراً.

إحدى الإشارات المبكرة إلى الكريك السود يمكن العثور عليها في سلسلة من الأحداث التي شهدها العام 1750. أثناء ذلك العام انطلقت مجموعة من خمسة أشخاص لإلقاء القبض على عبد هارب يعيش مع الهنود الكريك. وحين همت المجموعة بالعودة ومعها العبد

الهارب تدخل زعيم من الكريك ووضع نفسه بين المجموعة والعبد قاطعاً حبل المجموعة إرباً وملقياً إياه في النار. ثم أعلن أن الكريك سيحمون العبد وأن لديهم من البنادق أكثر مما لدى المجموعة. وهكذا عادت المجموعة بدون العبد الفارّ الذي تم دمجه في قبيلة الكريك.

لقد ذكر جون بارترام، وهو عالم نبات لدى ملك إنجلترا، بعد زيارته للهنود الكريك عام 1770، أن العبيد الأفارقة الأصل بين الهنود الكريك يعاملون باختلاف ضئيل عن معاملة مالكيهم. وأشار إلى أن العبيد كانوا على نفس المستوى المعيشي الذي كان يتمتع به مالكوهم، أنهم كانوا يحصلون على حريتهم تلقائياً بمجرد زواجهم، وأنهم مع ذريتهم يمنحون المساواة الكاملة مع الهنود الكريك الأصليين. باختصار، كانوا قد تم اندماجهم في قبيلة الكريك.

بحلول عام 1860، كان 10٪ من الهنود الكريك عبيداً، أي 1532 من الكريك. الاقتباس التالي من معاهدة عام 1866 بين حكومة الولايات المتحدة والهنود الكريك تشير بالتحديد إلى الهنود السود من الكريك.

... بقدر ما هنالك بين الكريك العديد من الأشخاص ذوي الأصل الإفريقي...وذريتهم وآخرون من العرق نفسه ممن يمكن أن تسمح لهم قوانين الشعب المشار إليه بأن يقيموا ضمن حدود السلطة القانونية لشعب الكريك بوصفهم مواطنين [لأولئك]. فإنهم سيستمتعون بكل الحقوق والمميزات التي يتمتع بها المواطنون، ومنها حق مساوٍ في الأرض والثروات الوطنية، وستكون قوانين الشعب المشار إليه ملزمة للجميع بالتساوي وتمنح حماية مساوية لكل الأشخاص، وكل الآخرين، مهما كان عرقهم أو لونهم، ممن يمكن تبنيهم مواطنين من أعضاء القبيلة المشار إليها...سيدفع مبلغ مائة ألف دولار من المال وتوزع على الجنود الذين انضموا إلى الجيش الفيدرالي واللاجئين الموالين من الهنود والمحررين الذين طردوا من منازلهم على يد القوى المتمردة...بعد التصديق على هذه المعاهدة مباشرة توافق الولايات المتحدة على تحديد المبلغ المستحق للجنود الذين انضموا إلى الجيش الفيدرالي، واللاجئين الموالين من الهنود والمحررين...قائمة بأسماء جميع الجنود الذين انضموا إلى الجيش الفيدرالي، واللاجئين الموالين

من الهنود، والمحررين، سيقوم [الجيش] بإعداده.(1)

د7. السيمينول السود(2)

كان العبيد ذوو الأصل الإفريقي هم الأقرب إلى الاندماج مع الهنود السيمينول، كما أنهم حاربوا إلى جانب السيمينول ضد الأمريكيين في أول وثاني حروب السيمينول. إن تاريخ هؤلاء السيمينول السود وتطورهم هو مما يستحق التوقف عنده بالتفصيل.

يعود تاريخ العبيد الأفارقة الهاربين من فلوريدا الإسبانية إلى ما لا يقل عن العام 1687. في ذلك العام وصل أول العبيد الفارين من تشارلستون إلى سانت أوغسطين. وحين انتزع البريطانيون فلوريدا من إسبانيا عام 1763، كان العديد من العبيد الأفارقة قد وجدوا طريقهم إلى الحرية، أو على الأقل إلى شكل ألطف من العبودية، في فلوريدا. هؤلاء العبيد الفارون كانوا يجدون باستمرار الترحيب والحماية والقبول من قبل الهنود السيمينول الذين أقاموا معهم.

كان العبيد الهاربون وذريتهم جزءاً أساسياً من حياة السيمينول منذ انفصل السيمينول عن الكريك وتحركوا باتجاه فلوريدا في القرن الثامن عشر. علم الأفارقةُ السيمينول فن زراعة الأرز كما يمارس في سينيغامبيا وسيراليون، وغرب إفريقيا، الأمر الذي وفر مصدراً للغذاء لم يكن السيمينول يعرفونه. بالإضافة إلى ذلك، أصبح الأفارقة من أكثر المحاربين شراسة ضمن شعب السيمينول على النحو الذي أضاف الكثير لقدرة السيمينول على الدفاع عن أنفسهم.

مع الزمن تزاوج الأفارقة والأمريكيون ذوو الأصل الإفريقي مع الهنود السيمينول وقبلهم الهنودُ أقارب وحلفاء وصاروا يعرفون بالسيمينول السود. بحلول القرن الثامن عشر، كان

(1) Kappler CJ (1904).

هناك غموض في تركيب بعض عبارات هذا النص كما أورده المؤلف، فليس من الواضح إلى من تشير العبارة الأخيرة «سيقوم بإعداده»، لكنني افترضت أن المقصود هو الجيش (المترجم).

(2) Jenkins BL (1998). Etienne-Gray T (---). Peck D (2000). Douglas K (2002a). and Katz WL 91997)

السيمينول السود يعيشون في ما لا يقل عن 15 قرية من قرى السيمينول.

أخيراً صار عدد العبيد الهاربين الذين يعيشون مع السيمينول مصدر خلاف مع حكومة الولايات المتحدة، ونتيجة لذلك أذنت الحكومة للواء أندرو جاكسون (الرئيس السابع فيما بعد للولايات المتحدة) بغزو الأجزاء الإسبانية من فلوريدا وإعادة القبض على العبيد الأفارقة الأمريكيين الذين يعيشون مع السيمينول. تمخض ذلك عن حرب السيمينول الأولى (1817–1818)، الحرب التي حارب فيها السيمينول السود مع السيمينول جنباً إلى جنب ضد الجيش الأمريكي الغازي.

يمكن التعرف على مدى مساهمة السيمينول السود في حرب السيمينول الأولى بتفحص حملة الجيش الأمريكي ضد ما كان يعرف بـ فورت نيغرو. عندما سقط ذلك الحصن المتقدم للجيش، كان هناك حوالي 300 من الهنود السيمينول يديرون الحصن. من أولئك الثلاثمائة كان الجميع ماعدا 34 من ذوي الأصل الإفريقي جزئياً على الأقل.

على الرغم من قيام اللواء جاكسون بإحراق المدن والقرى في حرب السيمينول الأولى وعلى الرغم من تنازل إسبانيا عن ممتلكاتها في فلوريدا للولايات المتحدة، فقد كانت محاولة إعادة القبض على العبيد الهاربين فاشلة إلى حد بعيد واستمر السيمينول السود إلى جانب إخوانهم السيمينول. ذلك الوضع استمر حتى منتصف الثلاثينات من القرن التاسع عشر.

حرب السيمينول الثانية (1835–1842) أشعلتها محاولة الحكومة الأمريكية إعادة توطين السيمينول من فلوريدا إلى مقاطعة أوكلاهوما. السيمينول السود حاربوا هذه المحاولة في البدء، ولكنهم في النهاية استسلموا. غير أن أحد المؤشرات على مساهمتهم في قبيلة السيمينول أثناء الحرب الثانية يمكن أن ترى في تقرير يعود إلى 1838 قدمه الجنرال جيسوب توما جيسوب حين ألقى القبض على مجموعة من الهنود السيمينول. لاحظ الجنرال جيسوب أن لديه 678 سجيناً منهم 165 (أي 24٪) كانوا «زنوجاً». قبل ذلك كان الجنرال جيسوب قد ذكر أنه ألقى القبض على 103 من السيمينول السود ما بين 1836 و1837.

فضلاً عن ذلك، يمكن العثور على شاهد آخر على مساهمة السيمينول السود في الحرب

الثانية بتفحص حاشية أحد أكبر زعماء السيمينول في ذلك الوقت. عندما أسر زعيم السيمينول أوسكيولا في فورت مولتري عام 1837، كان اثنان وخمسون من حراسه الخمس وخمسين من السيمينول السود. إن من الصعب تخيل حادثة أوضح دلالة من تلك على المكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها السيمينول السود بين الهنود السيمينول.

يتحول تاريخ السيمينول السود إلى تاريخ متنوع بعد حرب السيمينول الثانية. بعض السيمينول السود هربوا إلى جزر البهاما، والبعض توغلوا في مستنقعات فلوريدا، واستسلم حوالي 500 منهم للجيش الأمريكي وأعيد توطينهم في مقاطعة أوكلاهوما مع معظم أفراد قبيلة السيمينول. في عام 1850، هاجر 300 من السيمينول والسيمينول السود من أوكلاهوما إلى المكسيك حيث منحتهم الحكومة المكسيكية أرضاً في إل مورال عند تقاطع سان رودريغو وريو سان أنطونيو. بعد ذلك، قامت الحكومة المكسيكية بنقل السيمينول السود، الذين صاروا يعرفون بإنديوس ماسكوغوس إلى هاسييندا دي ناسينينتو على الريو سان هوان سابيناس.

بعد إلغاء العبودية في الولايات المتحدة عند نهاية الحرب الأهلية، اعتقد بعض هؤلاء الإنديوس ماسكوغوس[1] أنه لم تعد هناك خطورة في العودة إلى الولايات المتحدة. في الرابع من يوليو عبرت مجموعة منهم الريو غراندي[2] ودخلوا تكساس حيث ضموا فيما بعد إلى طلائع الجيش الأمريكي في أواخر 1875، وانضم الكثير منهم إلى طلائع جيش السيمينول السود حيث عرفوا باسم «كتيبة مستطلعي الهنود الزنوج من السيمينول». مجموعة ثانية من الإنديوس ماسكوغوس دخلت تكساس في أواخر 1875 وانضم الكثير منهم أيضاً إلى طلائع جيش السيمينول السود. مضت تلك المجموعة بقيادة الملازم جون بوليس في ستة وعشرين حملة وخاضت اثنتي عشرة معركة ضد هنود من الجنوب الغربي الأمريكي دون أي خسارة. فروسيتهم وبطولتهم تمثلت في أربعة من الطلائعيين السيمينول السود (جون وارد، إسحاق

(1) هذا هو الاسم الذي أطلق في المكسيك على من يسمون في الولايات المتحدة «السيمينول السود» (المترجم).
(2) الريو غراندي نهر شمال المكسيك يشكل حدوداً طبيعية مع الولايات المتحدة، يسمى أحياناً «ريو برافو ديل نورتي» (المترجم).

بين، بومبي فاكتور، وآدم بين) الذين منحوا ميدالية الشرف من الكونغرس، أعلى الأوسمة العسكرية الأمريكي.

تضمنت معاهدة 1866 بين الهنود السيمينول وحكومة الولايات المتحدة إشارة خاصة إلى السيمينول السود وكان اثنان من «المحرَّرين» من موقعي المعاهدة.

> وبما أنه يوجد بين السيمينول أشخاص كثيرون من أصل ودم إفريقي، ممن ليس لهم مصلحة أو ممتلكات في الأرض، وليس لهم حقوق مدنية معترف بها، فإنه يشترط من الآن فصاعداً أن يكون لهؤلاء الأشخاص وذرياتهم وكل من هو من عرقهم ممن سمح لهم الشعب المشار إليه بالإقامة هناك كل حقوق المواطن الأصلي، وتكون قوانين الشعب المشار إليه ملزمة لكل الأشخاص بغض النظر عن العرق أو اللون ممن يمكن أن يتم تبنيهم كمواطنين أو أفراداً في القبيلة المشار إليها.[1]

د8. حالة أبراهام[2]

ولد أبراهام حوالي 1787 إما في فلوريدا أو في جورجيا. في أوائل القرن التاسع عشر كان عبداً للدكتور يوجينيو أنتونيو سيرا، وهو طبيب إسباني يعيش في بينساكولا في فلوريدا.

أثناء حرب 1812 عرض الرائد إدوارد نيكولز من الجيش البريطاني الحرية على أي عبد يخدم تحت العلم البريطاني. سارع أبراهام للانضمام والحرب بوصفه عضواً في البحرية الاستعمارية البريطانية، وساعد في بناء الحصن البريطاني في بروسبيكت بلف. بانتهاء حرب 1812 انضم أبراهام إلى الهنود السيمينول وحارب معهم أثناء حرب السيمينول الأولى. نجا من الموت بأعجوبة حين دمر جيش اللواء أندرو جاكسون بروسبيكت بلف أثناء الحرب الأولى حيث كان أبراهام أحد المدافعين القلائل لإنقاذ الحصن. انتقل بعد ذلك إلى البلدة الواقعة

(1) Kappler CJ (1904).

(2) Muhammad ANA (2001) and other sources.

على نهر سواني وواصل محاربة الأمريكيين إلى جانب زملائه الهنود السيمينول ليحصل على التكريم المتمثل في الإشارة إليه بوصفه «محارب سواني».

بوصفه يجيد عدة لغات، عمل أبراهام لبعض الوقت مترجماً بعد حرب السيمينول الأولى. كما أنه عمل تاجراً مستقلاً وأسس نشاطاً تجارياً ناجحاً مع الهنود السيمينول والمارون. أخيراً تزوج امرأة اسمها إما هاجر (هو اسم إسلامي تقليدي) أو هاغان وكان له منها ابنان، رينتي وواشنطن.

قبلت أبراهام القبيلتان، المارون والسيمينول، فصار قائداً عسكرياً للمارون وعين «محامياً» لدى زعيم السيمينول ميكانوبي، ثم صار أحد الموقعين على معاهدة 9 مايو 1832 بين حكومة الولايات المتحدة والسيمينول إلى جانب كونه عضواً في الوفد الهندي الذي أرسل لتفحص الأرض التي منحتها الولايات المتحدة في مقاطعة أوكلاهوما لتكون مقراً للهنود بعد إعادة توطينهم. حين وصل الوفد إلى أوكلاهوما لم يسمح له بالعودة إلا بعد توقيع المعاهدة في 28 مارس 1833 التي تم بموجبها قبول إعادة توطين الهنود السيمينول في أوكلاهوما. ومع ذلك فقد رفض أبراهام ما تضمنته المعاهدة، ما أدى إلى سجنه في فورت غيبسون لثمانية أشهر.

أخيراً عاد أبراهام إلى فلوريدا فحارب بوصفه من السيمينول في المراحل الأولى من حرب السيمينول الثانية (1835– 1842)، التي شُنت معارضة لإعادة توطين السيمينول المقترحة في أوكلاهوما. في فبراير 1838 انتقل أبراهام وعائلته إلى مقاطعة أوكلاهوما وصاروا مربين للماشية. ومع ذلك فإن فترة زعامة أبراهام للسيمينول لم تكن قد انتهت بعد. في عام 1852 كلفته حكومة الولايات المتحدة بالسفر إلى فلوريدا ورأس عندئذٍ وفداً من زعماء الهنود السيمينول إلى واشنطن دي سي. لكن على الرغم من وجود أبراهام لنكولن فإن محادثات واشنطن لم تنجح في إقناع من تبقى من السيمينول في فلوريدا بالانتقال إلى مقاطعة أوكلاهوما. بعد اختتام المحادثات عاد زعماء السيمينول إلى إيفيرغليدز في فلوريدا وعاد أبراهام إلى أوكلاهوما حيث توفي عام 1870.

هـ. ملخص ونتائج

كما ورد في بداية هذا الفصل، يظل الكثير من الأدلة على وجود علاقة بين المسلمين والهنود الأمريكيين عرضياً. لكن مقدار تلك الأدلة العرضية هو من الضخامة بحيث يقتضي الإدراك بأن المسلمين الأوائل في أمريكا تم امتصاصهم في الشعوب الهندية، ومنها طوائف من الألغونكين والسيوان والإيروكواز. أما مدى تمسك سلالات الهنود بالإسلام ومدة ممارستهم له فغير معروفتين.

6: الميلونجون

1. مقدمة

لعدة قرون والغموض والجدل يحيطان بمجموعة شبه منعزلة تعيش في أجزاء من الجنوب الشرقي للولايات المتحدة. أصولهم المفترضة، وخلفيتهم الإثنية، وأوصافهم الجسمانية كانت وما تزال محل جدال وتخرص. حتى الجذر اللغوي لاسمهم، الميلونجون Melungeons كان مثار جدل واختلاف.

كان الميلونجون قد أسسوا مجتمعات معزولة في منطقة الحدود بين تينيسي وفرجينيا شرق «كمبرلاند غاب» عندما كان المستوطنون الإنجليز يشقون طريقهم نحو هذه المداخل الجبلية. مع الزمن انتشر الميلونجون في وسط تينيسي وشرق كنتاكي، وفي النهاية صار من الممكن العثور على تجمعاتهم في: مقاطعة هانكوك، في تينيسي، وفي مقاطعات لي، سكوت، ووايز، في فرجينيا، حيث عرفوا في بعض الفترات بأنهم «الرامب»؛ وكذلك في مقاطعات ماغوفين وليتشر في كنتاكي؛ إلى جانب مقاطعة هايلاند في أوهايو.

لقد كان الميلونجون في الغالب وطوال تاريخ المستعمرات البريطانية في أمريكا وفيما بعد الولايات المتحدة عرضة للمعاملة السيئة والاضطهاد. وكان هناك سببان أساسيان لهذه الكراهية.

1) كان الميلونجون يميلون إلى البقاء في مجتمعات معزولة أو شبه معزولة. لذا كان ينظر إليهم بوصفهم غرباء ومختلفين عن نظرائهم الأوروبيين إلى الشمال. لقد كان الآباء والأمهات المقيمون في مناطق الميلونجون دون أن يكونوا منهم يؤنبون أطفالهم بتخويفهم قائلين: «إن لم تكونوا مؤدبين فسيأخذكم الميلونجون».

2) كان الميلونجون في الغالب ذوي بشرة أكثر سمرة من المستوطنين الإنجليز وسلالاتهم، والمعروف أنه قبل إلغاء العبودية في أمريكا كان ينظر إلى البشرة السمراء على أنها مبرر

شرعي لاستعباد أولئك الذين يتسمون بها. بعد نهاية الحرب الأهلية استمرت البشرة السمراء أساساً لمنع الحقوق الإنسانية والمدنية عن أولئك الذين كانت بشرتهم أكثر سمرة من الشخص العادي ذي الأصل الأنغلو سكسوني. كان ذلك ما يحدث في جنوب شرق الولايات المتحدة حيث يقطن الميلونجون.

الوثائق الأولى التي تضمنت اتصالاً بالميلونجون أشارت إلى أنهم كانوا متفقين تقريباً على أنهم يعودون إما إلى أصل هندي أو برتغالي (وهذه الأخيرة تستعمل غالباً للإشارة إلى الموريسكيين سواء جاؤوا من البرتغال أو إسبانيا) أو إلى أصل تركي. فيما يتعلق بدعوى الأصل البرتغالي كانت القصة تشير أحياناً إلى تحطم سفينة لبحارة أُلقوا على ساحل كارولاينا، وساروا إلى الداخل، ثم تزوجوا بنساء هنديات.

كانت السجلات الحكومية والنماذج الإحصائية تضع الميلونجون في تصنيفات مختلفة بسبب لون بشرتهم الأكثر سمرة وذلك بسبب التحيزات العرقية التي كانت طاغية في جنوب شرق أمريكا إبان القرنين التاسع عشر والعشرين. فقد كانوا يصنفون على أساس المكان والزمان بوصفهم إما «أشخاصاً ملونين وأحراراً»، أو أفارقة أمريكيين، أو مولاتو (أي أفارقة أمريكيين ذوي أصل هندي وقوقازي مشترك)، أو هنوداً، أو قوقازيين. في الجنوب الأمريكي الشديد التحيز عرقياً منذ القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين كانت التصنيفات الثلاثة الأولى تعني إنكاراً تلقائياً لحقوقهم القانونية في المنطقة.

مما ضاعف الفوضى والجدل وزاد من الغموض، أن الصفات الجسمانية للميلونجون بدت وكأنها تتباين أحياناً. ففي حين كانت سمرة البشرة والعينين والشعر تتكرر كسمة ثابتة، فإنه كانت هناك استثناءات للقاعدة. الصفات التالية للميلونجون توضح هذا الاختلاف، وللصفة الأخيرة أهمية خاصة من حيث هي تشير إلى الميلونجون كما لو كانوا من الهند أو مصر.

...بلون نحاسي مع ملامح قوقازية، ولكن بشعر صوفي وسمات أخرى مشابهة لزنوجنا...

ملامحهم بنية محمرة، تختلف كلية عن المولاتو...عظام خدود عالية، وشعر أسود مستوي...

بلون داكن، مع عظام خد ناتئة، وشعر أسود فاحم، مستوٍ غالباً ولكنه يميل أحياناً للتجعيد الخفيف، وللرجال لحى سوداء كثيفة... لون داكن، شعر أسود مستوي، عيون سود أو رمادية... بشرة زيتية وشعر مفلفل... بعضهم داكن اللون وعظام وجناتهم هندية مرتفعة... الكثير من الميلونجون لهم شعر خفيف، وعيون زرق وبشرة فاتحة... لون بشرة الفرد الأصيل من الميلونجون أكثر بنية من بشرة الهندي. إنه ليس لون شخص منقسم بين الهنود والبيض، لأن بشرتهم أفتح. كان لون بشرة الميلونوجون الأصيل أقرب إلى شخص من الهند أو مصر.(1)

ومع ذلك فإن الغموض لم يقتصر على أصول الميلونوجون وخلفيتهم الإثنية وأوصافهم. حتى اسمهم، الميلونجون، كان لغزاً لغوياً حاولت نظريات لغوية عديدة أن تحدد أصله. إحدى تلك النظريات اقترحت أن الاسم جاء من الكلمة الفرنسية «ميلانج»، أي «خليط»، ويتضمن هذا أنهم جاؤوا من أصول إثنية وعرقية مختلفة. نظرية أخرى تشير إلى اشتقاق من كلمة غرب إفريقية هي «مولانغو» mulango، أي «شخص أبيض» أو «بحار». نظرية ثالثة تذهب إلى أن كلمة ميلونجون مشتقة من الكلمة اليونانية «ميلان» melan التي تعني «أسود». نظرية رابعة تقول إن الأصل هو كلمة إنجليزية قديمة هي «مالينغن» malengin، أي «خداع أو مكر». إلى ذلك تضاف نظرية خامسة لتقترح اشتقاقاً من الكلمة التركية «ميلون كان» (المشتقة من الكلمات العربية «ملعون جن» melon jinn)، أي «روح ملعونة» وتلفظ بطريقة تشبه طريقة لفظ ميلونجون.(2) أخيراً، يقال أن الكلمة مشتقة من الكلمة العربية «مدجَّن» mudajjan، التي تعني «شخصاً غامضاً، عابساً، مروَّضاً، ذليلاً، أو مدجناً». وكلمة «مدجن» ذات أهمية خاصة، فقد كانت مستعملة في إسبانيا في القرن الرابع عشر للتعريف بالمسلمين الذين كانوا يعيشون في إسبانيا لكن خارج مملكة غرناطة الإسلامية.(3)

ثلاث من هذه النظريات الست التي تتناول أصل اسم هذه المجموعة من الناس تركز على

(1) Winkler W (2004b).

(2) من الواضح أن «ملعون جن»، إن كانت هي المقصودة، لا تعني «روح ملعونة» كما يقول المؤلف، وإنما هي أقرب إلى «جني ملعون»، لكن لعله يقصد أن هذا هو معنى الكلمات التركية وليس العربية (المترجم).

(3) Kennedy NB (1994b); Zahoor A (1998); Winkler W (2004b).

لغات تتضمن أصلاً إسلامياً للميلونجون. سواء كان أصل كلمة «ميلونجون» من لغة غرب إفريقية أو عربية أو تركية، فإن اللغات الثلاث يستعملها المسلمون في المقام الأول.

المقدمة السابقة حول فئة الميلونجون تقدم بعض الأدلة غير القطعية على أن الميلونجون كانوا من أصل إسلامي. غير أن تفحص السجلات التاريخية والعلمية يوفر معلومات أكثر دقة ويساعد على توثيق الاعتقاد بأن الميلونجون، على الأقل جزئياً، ينحدرون من المسلمين الأوائل في الأمريكتين. فيما يلي وصف موجز للسجل التاريخي للميلونجون في أمريكا مقدم على شكل سلسلة زمنية. يتلو ذلك تقديم للأدلة العلمية المتعلقة بالجذور الإسلامية لمجموعة الميلونجون. أخيراً هناك تلخيص واستنتاجات حول الأصل الإسلامي للميلونجون.

ب. السجل التاريخي

العرض التالي للسجل التاريخي للميلونجون أبعد ما يكون عن التقصي. غير أنه يقدم تسلسلاً تاريخياً تدريجياً يساعد على تأطير الوجود الميلونجوني في جنوب شرق الولايات المتحدة وفي المستعمرات البريطانية التي سبقتها في تلك المنطقة.

ما بين 1566 و1575 أرسلت إسبانيا عشرات الحملات إلى فلوريدا وأجزاء أخرى من جنوب شرق أمريكا. ما كان مشتركاً بين تلك الحملات هو البحارة و/أو المستوطنون البرتغاليون الذين أرسلوا إلى تلك المنطقة إلى جانب كونها انطلقت من جزر الكناري والآزور. في بعض الحالات كان عدد البرتغاليين قليلاً جداً، ولكن حملات أخرى تضمنت ما لا يقل عن 50 إلى 100 برتغالي. هل من المحتمل أن يكون بعض أولئك البرتغاليين هم الأجداد الأمريكيين لأولئك الميلونجون الذين يدعون أن لهم جذوراً برتغالية؟

مصدر آخر من القرن السادس عشر لأصول الميلونجون يمكن العثور عليه في أمريكا الجنوبية. لقد استعبد البرتغاليون الكثير من المسلمين وأرسلوهم إلى البرازيل أثناء القرن السادس عشر. أولئك المسلمون كانوا عادة من البحارة الذين ألقى القبض عليهم أثناء معارك دارت على

البحر المتوسط. معظم أولئك دخل في البرازيل حياة العبودية تحت سلطة ملاك برتغاليين. غير أن بعضهم حرروا على شواطئ غير مستكشفة وغير مطمئنة، ربما في نقطة تبعد شمالاً حتى تصل إلى جنوب شرق الولايات المتحدة حيث يتوقع منهم أن يبدؤوا مستعمرات برتغالية. كان أولئك المسلمون المحررون يطلق عليهم «إيمانسيبادوز» من قبل البرتغاليين، ولكنهم كانوا يشيرون إلى أنفسهم باسم «مولانجون» بالبرتغالية، وهي لغة كان يتحدثها معظم أولئك المسلمين.

تشير السجلات المحفوظة أن الفرنسيين في أمريكا أثناء القرن السابع عشر كانوا يشيرون إلى الميلونجون على أنهم «مغاربة»، الأمر الذي يتضمن أن ميلونوجون القرن السابع عشر ينحدرون من مسلمي شمال إفريقيا.

في وقت مبكر يعود إلى العام 1654، كان الهنود يخبرون المستكشفين الإنجليز عن مستعمرة تتألف من رجال ملتحين تكسوهم الملابس، وهي ملابس أوروبية، ويعيشون في أكواخ، يصهرون الفضة ويجثون على ركبهم في صلاتهم عدة مرات كل يوم، ويقولون إنهم «بورتيغي» (برتغاليين). وفي الوقت نفسه كانت هناك مجموعة من الناس السمر البشرة يعيشون مع الهنود البوهاتان في فرجينيا الشرقية وكارولاينا الشمالية الذين يدعون بأنهم «برتغال».

هذه القصص المبكرة عن أناس عرفوا بأنهم ميلونجون تشترك في عدد من السمات التي تذكّر بالمسلمين. أولاً هناك الإشارة إلى أن الناس مغطون بالملابس، الأمر الذي يوحي بالاحتشام عند المسلمين. ثانياً، هناك الإشارة إلى لحى الرجال، وهو ما يتفق مع تعاليم النبي محمد بشأن مظهر الذكور. ثالثاً، أن الرجال يجثون على ركبهم عدة مرات في اليوم، الأمر الذي ينسجم مع الصلوات الخمس التي يؤديها المسلمون يومياً. رابعاً، ذكر أن بشرة أولئك الناس سمراء، ما يوحي بأصول شرق أوسطية أو شمال إفريقية أو غرب إفريقية، وهي جميعاً مناطق جغرافية يكثر فيها المسلمون. خامساً، وصف أولئك الناس أنفسهم بصفات مختلفة، فهم «بورتيغيز» أو «برتغالز»، وهما مفردتان صارتا مرادفتين تقريباً للموريسكيين في أعقاب

استعادة المسيحيين للأندلس على شبه الجزيرة الآيبيرية.

في عام 1671، غادرت مجموعة من المستكشفين الإنجليز (منهم توماس باتز وتوماس وود، وروبرت فولن) بطرسبرغ في فرجينيا بنية العثور على طريق أقصر إلى ما يسمى بحر الجنوب. رافقهم في رحلتهم آخرون منهم بيراشوت، وهو من زعماء الهنود الأبوماتوكس. بعد أربعة أيام من بدء رحلتهم، أعاد توماس وودز حصاناً متعباً أو مجروحاً إلى بطرسبرغ مع رجل اكتفي بالإشارة إلى أنه «برتغال». مع أن هوية هذا الـ «برتغال» بعيدة عن الاكتمال، فإن الأرجح هو أنه كان من أوائل الميلونجون وأن صفة البرتغالي التي استعملت للتعريف به كانت مؤشراً عل أنه مسلم أو موريسكي.

في أبريل من عام 1673 ذكر أن جيمس نيدهام وغابرييل آرثر استكشفا وادي تينيسي والمنطقة التي تؤدي إليها. علم نيدهام، الذي كان يسافر برفقة ثمانية من الهنود، أنه يحتاج إلى ثمانية أيام أخرى على امتداد النهر ستوصلهم إلى جماعة من الناس يعتمرون ملابس تغطي كامل أجسادهم، لهم سحنات قوقازية ولحى طويلة مسبلة على الوجنتين. في وسط الجماعة ينتصب جرس ذو ستة أقدام يقرع في الصباح وفي المساء. تلتقي الجماعة حين يقرع الجرس وتنحني باتجاه الجرس متحدثين بلغة لا يفهمها الهنود. وذكر الهنود، فضلاً عن ذلك، أنه كانت هناك جماعات من «ذوي الشعر الغزير» على امتداد أنهار أخرى في المنطقة.

إن لدينا مرة أخرى، وكما في حادثة 1654، أخباراً ينقلها الهنود عن جماعة من غير الهنود يسكنون في أعماق لم تستكشف حتى ذلك الحين من جنوب الشرق الأمريكي. أولئك الناس كانوا يوصفون على نحو يوحي بأنهم مسلمون. مثلاً، يقال إن من بين الجماعات أناساً «ذوي شعر غزير» بلحى طويلة مسبلة على الوجنتين. وكما ينسجم مع طريقة المسلمين فإن أولئك الجماعات كانوا، كما يقال، شديدي الاحتشام في لباسهم فهي تغطي كامل أجسادهم تقريباً. أخيراً، قيل إن الجماعة تجتمع مرتين يومياً على الأقل وأنهم كانوا ينحنون معاً، وهذه الملاحظة الأخيرة توحي بأحد الأوضاع التي تتخذ أثناء الصلوات الخمس المفروضة على المسلمين كل يوم.

لكن استعمال الجرس لدعوة الجماعة للصلاة يومياً ليس من التقاليد الإسلامية. استعمال الجرس لجمع الناس يوحي بتأثير مسيحي على من يفترض أنهم مسلمون أو ذوو أصول إسلامية. هذه الفرضية تنسجم مع معلومات وصلت فيما بعد، من نهاية القرن السابع عشر، حول اكتشاف بعض الفرنسيين «مغاربة متنصرين» في جبال الولايتين الكارولينيتين. ويستشف من الإشارة الأخيرة أن تقاليد مسيحية بدأت تجد طريقها بين مجموعات من الميلونجون مع فجر القرن الثامن عشر.

معلومة أخرى تتعلق بتوثيق الوجود التاريخي للميلونجون في التاريخ الأمريكي تتبين من إعلان ظهر عام 1745 في أحد صحف كارولاينا الشمالية. كان الإعلان عن عبد هارب اسمه إيمانويل وصف على أن طوله يبلغ 6,5 أقدام تقريباً، و«أصفر» بدلاً من أسود، عمره عشرون عاماً، وقادر على التحدث بإنجليزية جيدة. ومما يهم بحثنا الحالي الإشارة إلى أن إيمانويل كان يسمي نفسه «بورتوغيز».

حالة إيمانويل مهمة لسببين: الأول وصفه بالأصفر يوحي بأن آبائه لم يكونوا من شمال أوروبا؛ والثاني أن وصفه لنفسه بالبورتوغيز ينسجم مع كونه ميلونجون ويوحي مرة أخرى بأنه موريسكي قدم أجداده أصلاً، كما هو الأرجح، من شبه الجزيرة الآيبيرية؛ ثالثاً، لدينا هنا ما يبدو أنه حالة موثقة لشخص لم يكن من إفريقيا الواقعة تحت الصحراء الكبرى، والذي كان مستعبداً في المستعمرات البريطانية، الأمر الذي يوحي بأن بعض الميلونجون على الأقل كانوا معرضين للاستعباد.

في المرحلة التي سبقت 1756، قيل أن شقيقين اسم عائلتهما إيكيرلن كانا يتمشيان في غابات فرجينيا الغربية وجبالها. قيل أنهما طردا من أديرة إيفراتا بسبب عقيدتهم «الإسماعيلية». فبما أن النبي محمد والعرب الشماليين أو العدنانيين ادعوا الانتساب لإسماعيل، أول أبناء إبراهيم، فقد عرف الدين الإسلامي في الغالب بوصفه ديناً إسماعيلياً.[1] هنا، مرة أخرى، يبدو أننا إزاء الوجود الإسلامي في جنوب الشرق الأمريكي قبل ائتلاف الولايات المتحدة

(1) سيطرت هذه الرؤية إلى الإسلام طوال العصور الوسطى بالتزامن مع الحروب الصليبية واستمرت حتى القرن الثامن عشر تقريباً، لكنها لم تعد ذات حضور يذكر الآن (المترجم).

الأمريكية بفترة لا بأس بها.

الإشارات الواردة من أواسط القرن الثامن عشر تتضمن أن الميلونجون كانوا يتحدثون إنجليزية عصر الملكة إليزابيث الأولى بطريقة مكسرة وغير سلسة، وأنهم تسموا بأسماء عائلية ذات سمة إنجليزية وظلوا مع ذلك يدعون بأنهم من أصل برتغالي أو تركي. عدم تحدثهم الإنجليزية بسلاسة يوحي بأنها لم تكن لغتهم الأم حتى منتصف القرن الثامن عشر. فضلاً عن ذلك، كونها إنجليزية إليزابيثية، أي الإنجليزية المتحدثة في القرن السادس عشر، يوحي بأن اتصالهم الأول والرئيس باللغة الإنجليزية حدث أثناء ذلك القرن. تلك الاعتبارات مجتمعة توحي بأن الميلونجون دخلوا أمريكا أصلاً أثناء القرن السادس عشر، الوقت الذي كانوا فيه على اتصال مبدئي ومحدود بمستوطنين يتحدثون الإنجليزية.

ما بين 1772 و1773، انتقلت مجموعة ممن يبدو أنهم من أوائل الميلونجون إلى المنطقة المحيطة بفجوة الموكازين الكبيرة في فرجينيا. كان من بين المجموعة الكابتن جون بلاكمور، وجوزيف بلاكمور، وجون بلاكمور الأصغر، وساميول آلي وابنته. بعد ذلك بوقت قصير بنى أولئك المستوطنون الأوائل في المنطقة فورت بلاكمور على نهر كلنتش. مما يبدو غامضاً حول المستوطنين المشار إليهم أعلاه هو الصيغة الأصلية لأسمائهم العائلية. كان بلاكمور مثلاً يتهجى في الأصل (Black-a-moor بلاك–أ–مور)، وآلي كان يتهجى (Alee أو Ally). فإلى جانب كون «بلاك–أ–مور» كانت العبارة المستخدمة لوصف المسلمين المغاربة، يبدو أن من المحتمل جداً أن عائلة بلاكمور كانت من أصل مغاربي مسلم. وليس ثمة حاجة لمخيلة قوية لتبين أن الاسم الآخر، آلي، هو اسم إسلامي شائع (علي).[1]

في عام 1784 ذكر حاكم ولاية تينيسي جون سيفيير أنه التقى أناساً داكني البشرة من أصل مغاربي كانوا يعيشون في غرب كارولاينا الشمالية يسمون أنفسهم ميلونجون، ويدعون أنهم من أصل برتغالي. وينبغي ملاحظة أن ما ذكره سيفيير لم يكتف بالإشارة إلى أن الميلونجون يصفون أنفسهم بالبرتغاليين، وهي كلمة كانت غالباً ما تستعمل للموريسكيين، وإنما أيضاً أشار إلى أنهم من أصل مغاربي، أي منحدرون من مسلمي شمال إفريقيا. لذا فإن هذه

(1) Hirschman EC (2005).

الإشارة تقدم ما يمكن أن يعد ربما الربط الأقوى بين صفة البرتغالية والأصل الإسلامي. (ما يجعل إشارة سيفيير أكثر إثارة للتساؤل هو أن الحاكم نفسه من أصل مغاربي. اسم عائلته الأصلي هو زافيير Xavier، وكان آباؤه المغاربة المسلمون قد فروا إلى جنوب فرنسا أثناء محاكم التفتيش الإسباني).[1]

كان جوناثان سويفت أحد الإنجليز الذين تزوجوا من الميلونجون، وكان مقيماً في شرق تينيسي. وظف سويفت الميلونجون في منجم كان يديره في أواخر القرن الثامن عشر. كان أولئك الرجال داكني البشرة وكانوا يعرفون بأنهم «هنود مكة». لكن أولئك لم يعرفوا بأن بشرتهم أكثر دكنة من الأوروبيين الشماليين، وإنما عرفوا أيضاً باسم مدينة هي مكة، المدينة الأكثر قداسة في الإسلام.[2] (كانت مكة، التي تقع حالياً غرب المملكة العربية السعودية، هي مسقط رأس النبي محمد، والمكان الذي نزل فيه الوحي على النبي، وهي المكان الذي تقع فيه الكعبة أو بيت العبادة الذي بناه النبيان إبراهيم وإسماعيل).

في نهاية القرن الثامن عشر، كان هناك ما بين 1,000 و2,000 من الميلونجون يعيشون في جنوب شرق الولايات المتحدة. إذا أخذنا في الاعتبار الفرضية المسبقة بأن وجود الميلونجون الأصليين في جنوب شرق أمريكا بدأ في القرن السابع عشر، فإن ذلك يوحي بأن عددهم عندئذٍ كان حوالي مائتين من الرجال والنساء.

حوالي 1790، بدأت بعض عائلات الميلونجون في الهجرة من مقاطعة ولكس في كارولاينا الشمالية إلى فورت بلاكمور في فرجينيا. ما بين 1801 و1804 بدؤوا، فيما يظهر، بالانضمام إلى الكنيسة المعمدانية في ستوني كريك بالقرب من فورت بلاكمور، الأمر الذي يوحي بأنهم في تلك الفترة بدؤوا بفقدان، أو فقدوا بالفعل، ميراثهم الديني الإسلامي. الواقع هو أن إحدى الاستعمالات المكتوبة الأولى لكلمة «ميلونجون» تظهر في سجلات الكنيسة المعمدانية في ستوني بروك لعام 1813.

(1) Hirschman EC (2005); Winkler W (2004b).

(2) يشير المؤلف إلى اسم مكة بالإنجليزية بشكليه، الشائع وهو Mecca، والاسم الأقرب إلى اللفظ العربي وهو Makkah (المترجم).

تأسيس الإحصاء في الولايات المتحدة في العقد الأخير من القرن الثامن عشر خلق أكثر من لغز للميلونجون ولجامعي الإحصاءات. في البداية كانت هناك أربع فئات عرقية على النماذج الإحصائية وكان يفترض أن يصنف الأفراد إما على أنهم بيض، أو «زنوج» (التعبير الرسمي المستعمل آنذاك)، أو هنود، أو «ملونون». (بحلول عام 1795، أدرج إحصاء تينيسي 973 من الأشخاص الملونين الأحرار). وضع المسؤولين الحكوميين للميلونجون على الجهة الأخرى من هذا التقسيم العرقي أدى إلى البدء بتجريدهم من حقوقهم المدنية والقانونية. أراضيهم أخذت منهم وبدؤوا يفقدون حقهم في الانتخاب، أو أن يكون لهم وضع قانوني في المحكمة، أو أن يتلقوا تعليماً حكومياً. بمجيء عام 1834 كانت ولايتا تينيسي وكارولاينا الشمالية قد انتزعت جميع حقوق المواطنة من الميلونجون.

بدأ الميلونجون، مع تسلط حكومات الولايات على حقوقهم المدنية والقانونية، في التراجع إلى جبال الأبالاش، وبهروبهم من المجتمع المحيط أصبحوا متحصنين على امتداد المناطق التالية: رج نيومان في مقاطعة هانكوك في ولاية تينيسي؛ منطقة بلاك ووتر من مقاطعة لي في فرجينيا؛ جبال ستون في وايز كنتري في فرجينيا؛ وكاني رج في مقاطعة ديكينسون في فرجينيا. بالإضافة إلى ذلك، كان بعض الميلونجون على الأقل قد هاجروا غرباً إلى أركنساس بحلول عام 1810. ثم أدت هجرات أخرى إلى جلب المزيد من الميلونجون إلى أوكلاهوما وتكساس، بل كاليفورنيا أيضاً.

غير أنه ظل من غير الممكن للميلونجون أن ينسحبوا تماماً من المجتمع والأحداث التي تدور حولهم. لهذا السبب انتهى بالكثير منهم المطاف محاربين في صف الولايات المتحدة أثناء حرب 1812. من بين أولئك المحاربين، على سبيل المثال، كان جيمس كولنز وجون بولن ومايك بولن. لكن الميلونجون ظلوا في النهاية موجودين على طرفي القتال أثناء الحرب الأهلية. العدد الأكبر منهم كانوا يحاربون من أجل الاتحاد، في حين انضمت فئة قليلة إلى الجيش الكونفدرالي. أحد الميلونجون، كوربورال هاريسون كولنز من فرقة الفرسان الأولى في تينيسي، منح شخصياً أعلى الميداليات العسكرية التي تمنحها بلادنا، وهي ميدالية الكونغرس

الشرفية، التي تسلمها من الرئيس أبراهام لنكولن عام 1864.

إحصاء مقاطعة هوكنز في تينيسي لعام 1830 أدرج 331 من «الأشخاص الملونين الأحرار» لمعظمهم أسماء عائلات ميلونجونية. ولم تكد تمضي عشرة أعوام حتى أدرج إحصاء 1840 هذه الأسماء الميلونجونية نفسها بوصفها لأناس من البيض. هذا الاختلاف بين 1830 و1840 يوضح صعوبة تحديد المعايير الإثنية والعرقية للميلونجون، وهي صعوبة تفجرت في شكل مرافعات قانونية حين نظر حق الانتخاب للعديد من الميلونجون في إحدى محاكم تينيسي.

حسب دستور تينيسي لعام 1834، لم يكن بإمكان غير البيض التصويت في الانتخابات. لكن ذلك لم يمنع ثمانية من الميلونجون (هم: فارديمون كولنز، سولومون كولنز، إيزكيال كولنز، ليفي كولنز، أندرو كولنز، وايات كولنز، زكريا ماينر، ولويس ماينور) من أن يصوتوا في انتخاب جرى في أغسطس 1844. بعد ذلك جاء من اعترض على تصويت أولئك الثمانية في المحكمة، لكن المحلفين قرروا في النهاية أن المتهمين الثمانية كانوا بيضاً، حتى وإن كانوا ميلونجون.

إحدى المقالات التي نشرت في عدد السادس من سبتمبر لعام 1848 من «نوكسفيل رجستر» كانت مكرسة للميلونجون. تضمنت المقالة فحوى الأسطورة القائلة إن الميلونجون ينحدرون من رجال ونساء برتغاليين هاجروا من فرجينيا الساحلية إلى جبال تينيسي. ومضت المقالة لتشير إلى أنه بمجرد وصول الميلونجون إلى تينيسي دخلوا في علاقات مصاهرة مع الهنود. بعد ذلك تزاوج نسلهم من البيض والأفارقة الأمريكيين. ويبدو أن مقالة «نوكسفيل رجستر» أعيد نشرها عام 1849 في «لتلز لفنغ أيج».(1)

في عام 1855 منع التشريع في كارولاينا الشمالية الميلونجون من التزوج من الأفارقة الأمريكيين وحدد أن الميلونجون من الكروات، أي أنهم ينحدرون من المستعمرة التي أنشأها السير والتر رالي في راونوك. فكما سبقت الملاحظة في الفصل الثالث، كان الناجون من

(1) «Littell's Living Age» مجلة نشرت ما بين عامي 1844 و1941 وكانت تتضمن مختارات من الصحف والمجلات الأمريكية والبريطانية. أورد المؤلف اسم المجلة بتهجئة خاطئة، فهي «Littell» وليست «Little» كما أوردها (المترجم).

مستعمرة راونوك في الحقيقة مسلمين من أصل تركي ومغاربي أنزلهم السير فرانسيس دريك في روانوك عام 1586.

مع تواصل العقوبات المنزلة عليهم أثناء القرن التاسع عشر، بدأ الميلونجون بناء تواريخ وهمية وأصل عرقي زائف. وكانت تلك الفترة هي التي بدأ فيها الميلونجون في التخلي عن دعاواهم الأولى بأنهم ينحدرون من أصول برتغالية وتركية وهندية، وبدأ الكثير منهم، في محاولة لإخفاء جذورهم وهويتهم، يدعون الانتماء إلى «الهولنديين السود»، و«الألمان السود»، والفرنسيين.

على الرغم من محاولة الكثير من الميلونجون أن يخبئوا هويتهم الإثنية، فإن البعض منهم على الأقل كانوا مازالوا يتحدثون عن جذورهم الشمال إفريقية حتى العقد الثامن من القرن التاسع عشر. في إحدى القضايا المشهورة في إحدى محاكم تينيسي عام 1872، كان لويس شيبرد محامياً يمثل ابنة رجل أوروبي أمريكي وامرأة من الميلونوجون. كانت الفتاة قد حرمت من حقها في الميراث بناءً على كون أمها من الميلونجون. ففي قانون تينيسي كان زواج الأبيض من إفريقية أمريكية أو ملونة غير شرعي، ولذا فإن البنت لم تكن وريثة صحيحة أو قانونية. لكن شيبارد قدم دعوى ناجحة في حق الفتاة بالقول إن الميلونجون كانوا من أصل قرطاجي (أي شمال إفريقي أو مغاربي)، وأن هؤلاء القرطاجيين تحديداً كانوا قد هاجروا إلى البرتغال في زمن غير معروف بعد تدمير روما لقرطاجة، وأن القرطاجيين أو المغاربيين جاؤوا من البرتغال إلى أمريكا أثناء حرب الاستقلال. وذهب شيبارد إلى حد القول إن عطيل في مسرحية شكسبير، ذلك المغاربي من البندقية، كان من الشعب الذي انحدر منه الميلونجون.

يتضح من تفحص إحصاء 1880 لمقاطعة هانكوك في تينيسي أن عدداً من عائلات الميلونجون كانت تصنف أصلاً في النماذج الإحصائية على أنها من البرتغال. ذلك التصنيف ألغي في مرحلة تالية غير معروفة.

في مقالة نشرت عام 1891 في «الأرينا»، كتبت ول ألن دروموغود ما يلي حول أصول الميلونجون. كتبت (وهي امرأة رغم أن اسمها لا يدل على ذلك) أن أصول الميلونجون المقيمين

في تينيسي تعود إلى رجلين هما: فاردي كولنز وبك غبسون اللذين جاءا إلى المنطقة قبل عام 1797. كلا الرجلين، حسب دروموغود، يعودان، جزئياً، إلى قبيلة الشيروكي الهندية.

كما يتضح من هذا العرض الموجز للسجل التاريخي، فإن الميلونجون الأوائل كانوا متفقين إلى حد بعيد على القول بأن أصولهم برتغالية، بل حتى تركية، مشيرين أحياناً إلى أن أجدادهم كانوا بحارة جاؤوا إلى الساحل الأمريكي بعد أن تحطمت سفينتهم. هذه المعلومات التي ذكرها الميلونجون عن أصولهم إلى جانب حكاياتهم المبكرة توحي باستمرار أن أصولهم إسلامية. ويصير الإيحاء أكثر توكيداً بكثير حين يتفحص المرء السجل العلمي.

ج. السجل العلمي

هناك عدة أنواع من الأدلة التي يمكن طرحها بشأن السجل العلمي المتعلق بأصول الميلونجون. النوع الأول يأتي من حقل اللغويات، والثاني من علم الأوبئة الطبي، والثالث من الدراسات الجينية القليلة التي أجريت على الأمريكيين الذين عاشوا في القرن العشرين وينسبون أنفسهم إلى أصول ميلونجونية.

ج1. الأدلة اللغوية

فيما يتعلق بالأدلة اللغوية، يمكننا البدء بالتذكير بما قيل مسبقاً من أن الميلونجون الأوائل ادعوا أنهم من أصل برتغالي وأن الاستعمال الذي شاع في القرن السادس عشر لكلمة «برتغالي» صار مرادفاً تقريباً لكلمة موريسكي وللمسلمين الذين تعرضوا للنفي أثناء التفتيش الإسباني. من هنا فإن أي شخص عاش في أمريكا في وقت مبكر وقال بأنه برتغالي الأصل كان على الأرجح مسلماً أو مسلماً منحدراً من أصل عربي أو بربري.

كما سبقت الملاحظة في هذا الفصل، فإن من الممكن تقديم ستة جذور لغوية على الأقل لكلمة «ميلونجون». من بين تلك الشروح الجذرية هناك ثلاثة ترتبط بشكل محدد بلغات لها

علاقة أساسية بالمسلمين. فلنعد ما سبق أن ذكرنا: كلمة «ميلونجون» ربما تكون مشتقة من الكلمة الغرب إفريقية «مولانغو»، أو الكلمة التركية «ميلون كان»، أو الكلمة العربية «ميلون جن»، وكانت تلك الكلمة تستعمل بشكل محدد للإشارة إلى الذات من قبل المسلمين في البرازيل أثناء القرن السادس عشر. إن كلمة «مولانغو» كما تلفظ في البرتغالية تكاد تكون مطابقة لطريقة لفظ «ميلونجون». الكلمة التركية «ميلون كان» والكلمة العربية «ملعون جن» يمكن أن تترجم إلى «روح ملعونة» أو «شخص ترك وحيداً» وتلفظ بطريقة مطابقة للاسم «ميلونجون». أخيراً، الكلمة العربية «مدجَّن» تعني «»الشخص الغامض، العابس، المروَّض، الذليل، أو المدجَّن» وكانت تستعمل بشكل واسع في إسبانيا القرن الرابع عشر للتعريف بأولئك المسلمين الذين عاشوا في إسبانيا ولكن خارج مملكة غرناطة الإسلامية.

هناك ثلاثة أمثلة إضافية يمكن تقديمها للبينة اللغوية الدالة على الأصول الإسلامية للميلونجون. أولاً، على الرغم من الحقيقة المتمثلة في أن الميلونجون بدؤوا في إضفاء الصبغة الإنجليزية على أسمائهم الأولى والعائلية في وقت مبكر، فإن بعض الأسماء الإسلامية لم تندثر. مثلاً، يمكن الإشارة إلى الأسماء العائلية: تونس وكالندر. الاسم الأول يطابق اسم العاصمة التونسية في شمال إفريقيا، والثاني ربما يكون صيغة إنجليزية للاسم التركي «كاليندار»، وهي كلمة تستعمل لتدل على الدراوشة الصوفيين. أمثلة أخرى قد تشمل «بلاك-أ- مور» و«علي». ثانياً، أسماء إسلامية أولى مثل «مكة» و«علية» و«عمر إشميل» يتواتر حضورها في أنساب الميلونجون.[1] ثالثاً، يلاحظ التشابه بين بعض التعابير والمفردات الميلونجونية والتركية. فالميلونجون وبعض الأتراك يستعملون صوتاً فيه قفلة مع هزة رأس خفيفة للتعبير عن «لا». بعض الميلونجون يستعملون كلمة «غومي» و«غومد أب» لوصف مشكلة أو فوضى.[2] ومثل ذلك يحدث في التركية حيث تشير كلمة «غام» إلى شعور بالحزن أو السوء تجاه شيء ما. حتى القرن العشرين، كان بعض الميلونجون يستخدمون كلمة «ساتز» satz للإشارة إلى الساعة. الكلمة التركية للساعة هي «سات» saat.[3]

---

(1) Hirschman EC (2005).

(2) Gaumy. gaumed up (المترجم)

(3) لم يلتفت المؤلف إلى أن الكلمة ذات أصل عربي «ساعة»، ربما لعدم معرفته الكافية باللغة العربية (المترجم).

البينة اللغوية توحي بأصل إسلامي للميلونجون على نحو ينسجم مع الوثائق التاريخية. غير أن بينات أكثر وضوحاً ما تزال أمامنا.

ج2. بينة علم الأوبئة

إن أحفاد الميلونجون في القرن العشرين معرضون للعديد من الأمراض التي تعد إلى حد كبير غير شائعة بين غير الميلونجون من المجموعات البشرية في أمريكا. تلك الأمراض تشمل الحمى العائلية المتوسطية (إف إم إف FMF – وهو مرض يتوارث من خلال مورثتين متنحيتين[1])، وإيريثما نودوسم ساركويدوسس،[2] وسيندروم بهجت[3] (مرض بهجت – وهي حالة تتسم بالاستعداد الوراثي)، والثالاسيميا (مجموعة من الاضطرابات الموروثة في أيض الهيموغلوبين)، ومرض جوزيف ماكادو (المرض الآزوري – وهو مرض يصيب الجهاز العصبي المركزي يورث من خلال مورثة مهيمنة). كل هذه الحالات تبدو حاملة لمكون وراثي.

لأن هذه الأمراض أظهرت تكراراً عالياً نسبياً بين الميلونجون وذريتهم وأنها تحمل مكوناً وراثياً، فإن العثور على مجموعات سكانية معرضة بشكل استثنائي لهذه الحالات قد يسلط الضوء على أصل جماعة الميلونجون. لذا من المفيد أن نلاحظ أن هذه الأمراض تتكرر بنسب وبائية عالية بين مجموعات سكانية مختلفة في البحر المتوسط، والشرق الأوسط، وشمال إفريقيا، والعالم الإفريقي بشكل عام، الأمر الذي ينسجم مع فرضية أن الميلونجون يعودون إلى أصل إسلامي. باختصار، تحمل الشعوب الإسلامية نفس النسبة العالية من تكرار هذه الحالات الوراثية التي يحملها الميلونجون، ما يوحي بوجود صلة وراثية بين العالم الإسلامي القديم وميلونجون أمريكا.

(1) المورثة المتنحية هي صفة وراثية مكبوتة (المترجم).

(2) مرض جلدي (المترجم).

(3) مرض جلدي آخر اكتشفه الطبيب التركي «هولوسي بهجت» في النصف الأول من القرن العشرين (المترجم).

ج3. البينة الوراثية

أجريت دراستان وراثيتان على ميلونجون القرن العشرين وذرياتهم. قامت الأولى على مقارنة نماذج من الدم تم فحصها مع مجموعات سكانية متنوعة من مختلف أنحاء العالم، وتضمنت الثانية تحليلاً أكثر دقة وتحديداً من اختبار الحمض النووي (دي إن أي) بتسلسليه الميتوكوندريالي (Mitochondrial) والأبوي/الذكوري (Y-line).

في عام 1990 حلل الدكتور جيمس ل. غثري عينات من دم 177 من الميلونجون. تلك العينات كانت قد أخذت عام 1969 من مقاطعة هانكوك في تينيسي، ومن مقاطعة لي في فرجينيا. قارن الدكتور غثري سلاسل توريثية محددة في مجموعة الميلونجون مع ما يقارب 200 شخص من مجموعات سكانية أخرى. أشارت أبحاثة إلى أنه لم تكن هناك اختلافات بين عينات الميلونجون والعينات المأخوذة من ليبيا، جزر الكناري، مالطا، قبرص، وجبال غاليسيا في إسبانيا والبرتغال. كما لوحظت صلات أخرى مع شمال العراق وإيران، مع أقصى الجنوب الإيطالي، وبعض الهنود في أمريكا الجنوبية، وكذلك الأتراك.[1]

في عام 2000 بدأت أول دراسة لحمض الميلونجون النووي (دي إن أي) بقيادة الدكتور كيفن جونز. جمعت عينات من الحمض الميتوكوندريالي من 120 أنثى وقورنت بالحمض الميتوكوندريالي المحفوظ في بنك معلومات لعشرين ألف من تسلسلات الأخرى. النتائج جاءت لتشير إلى أن 83٪ من جماعة الميلونجون ينحدرون من العينات التي تعود إلى تسلسلات أوروبية، و5٪ إلى تسلسلات هندية أمريكية، و5٪ إلى تسلسلات إفريقية أمريكية، و7٪ إلى هندية شمالية، وسورية، وتركية. (تمثل التسلسلات الهندية الشمالية أو السدية[2] ربما أفراداً هاجروا من شمال الهند إلى تركيا في بداية القرن الحادي عشر تقريباً. المرجح هو أن بعض سلالات هؤلاء السديين [السنديين] هاجروا مباشرة من الإمبراطورية العثمانية إلى أمريكا وكانوا مسلمين حين دخلوا أمريكا. آخرون من السنديين هاجروا شمالاً من تركيا إلى البلقان

---

(1) Kennedy NB (1994); Kennedy NB (1997); Hirschman EC (2005).

(2) الأرجح أن المؤلف يقصد «السنديين» أي أهل السند نسبة إلى نهر السند والمجموعة العرقية المعروفة بهذا الاسم لكونها تقيم في منطقة النهر الذي ينحدر من جبال الهملايا غرباً باتجاه باكستان ليصب في البحر العربي (المترجم).

وصاروا يعرفون بأنهم شعب روماني أو غجر، ثم هاجروا من وسط أوروبا إلى بريطانيا العظمى في مطلع القرن السادس عشر. يقال أن كولومبس كان معه ثلاثة من الغجر على ظهر السفينة في الرحلة الثالثة عام 1498، وأن إنجلترا واسكتلندا أرسلت غجراً إلى فرجينيا والكاريبي على أنهم عبيد أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر).[1]

لقد أخذت عينات أيضاً من التسلسل الذكوري من الحمض النووي (Y-line) من مجموعة صغيرة تكونت من حوالي 30 شخصاً من ذرية الميلونجون وقورنت بالمعلومات المتوفرة عن 4,500 تسلسل. النتائج جاءت لتشير إلى توافق مع التسلسلات من تركيا الأناضولية، ومع تسلسل عربي، وآخر إفريقي أمريكي. والطريف هو أن بعضاً من التسلسل الذكوري من الحمض النووي «دي إن أي» المأخوذ من العينة تعذرت مقارنتها مع أية تسلسلات بين 4,500 تسلسل في المعلومات المحفوظة. فيما عدا ذلك كانت تسلسلات أمكنت مقارنتها ولكنها تسلسلات ظهرت في 22٪ من الأشخاص في سوريا، وفي 12٪ من الأشخاص في تركيا، وفي 1٪ فقط في شمال أوروبا.[2]

تقدم الدراسات الوراثية دلائل ثابتة وحاسمة على أن ثمة أصولاً تركية وعربية وإفريقية أمريكية بين سلالات الميلونجون. ويمكن أن نفترض واثقين أن الجذور التركية والعربية تمثل أصولاً إسلامية، ومن المرجح أن الجذور الإفريقية الأمريكية تمثل ذلك أيضاً. ومما تجدر ملاحظته أن التسلسلات الوراثية التركية والعربية والأفرو أمريكية تم العثور عليها في تحليل التسلسلين من الحمض النووي (دي إن أي) الأنثوي الميتوكوندريالي والذكوري (Y-line). وهكذا يبدو أن الميلونجون الأصليين تألفوا من رجال ونساء مسلمين، ألف بعضهم على الأرجح وحدات عائلية نقية.

فيما يتعلق بنسبة التكرار العالية للتسلسلات الوراثية الأوروبية في المعلومات، يمكن لنا أن نفترض أن هذه التسلسلات انعكاس في المقام الأول لتزاوج الميلونجون مع الأوروبيين ما بين القرنين السابع عشر والعشرين. مع حدوث ذلك التزاوج كانت النسبة الأعلى أصلاً من

(1) Baird R (2002); Scolnick JM. Kennedy NB (2003); Winkler W (2004b).

(2) Baird R (2002); Scolnick JM. Kennedy NB (2003); Winkler W (2004b).

التسلسلات المتصلة بالمسلمين تتناقص بشكل منتظم.

ج4. ملخص

توفر البينات اللغوية والوبائية والوراثية في مجموعها دليلاً مقنعاً بأن الميلونجون من أصل إسلامي، وإن جزئياً. بتحديد أكثر، تؤكد السجلات العلمية مزيجاً من الأصول التركية والعربية والأفرو أمريكية. بناء على نتائج فحوصات الدم التي أجراها الدكتور غثري، يمكن القول إنه كان للبربر من شمال إفريقيا إسهامات عالية الاحتمال على أقل تقدير. فضلاً عن ذلك، يبدو للمرء أنه بناء على تكرار التزاوج بين الميلونجون والأوربيين طوال الفترة من القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين كان أثر المسلمين في الميلونجون أكبر بكثير مما يمكن العثور عليه في الدراسات الوراثية لأحفاد تلك المجموعة في أواخر القرن العشرين وأوائل الحادي والعشرين.

تضاف إلى ذلك دلائل ثانوية تتألف من الأنشطة المعمارية المبكرة للميلونجون. فمثلاً كانت منازل الميلونجون الأوائل منسجمة مع العمارة الإسلامية وخارجة عن النمط الأوروبي في استعمال المداخل والنوافذ المقوسة.

د. نتائج

بجمع الوثائق التاريخية والعلمية بعضها ببعض يمكن للمرء أن يبدأ في إعادة تركيب تاريخ الميلونجون في أمريكا. إعادة البناء هذه هي تخمينية بالضرورة، مع أنها مبنية على الشواهد التاريخية والعلمية المتوفرة حالياً وتشتمل عليها.

مع أن من الصعب استبعاد مساهمة السلالات الإسلامية في مرحلة ما قبل كولومبس تماماً، فإنها تظل ضعيفة الاحتمال. السجلات التاريخية نوحي بأن الميلونجون كانوا يتكلمون إنجليزية إليزابيثية مكسرة حتى منتصف القرن الثامن عشر. ويوحي هذا الاعتبار بأن الإنجليزية

لم تكن لغتهم الأصلية وأنه كانت لهم اتصالات بالإنجليز في القرن السادس عشر، الفترة التي كانت فيها الإنجليزية الإليزابيثية اللغة الشائعة. لذا يفترض المرء أن أصول الميلونجون يمكن الرجوع بها إلى أوائل السادس عشر.

إذاً من كان أولئك الذين اجتمعوا ليؤلفوا الميلونجون؟ بما أن الميلونجون الأوائل عرفوا أنفسهم باستمرار بوصفهم برتغاليين (وهذه مرادفة غالباً للموريسكيين من أهل شبه الجزيرة الآيبيرية الذين كانوا من أصول عربية وبربرية) أو أتراكاً، أو هنوداً، فإنه يمكننا افتراض أن هذه الامتدادات الثلاثة كانت فاعلة في تشكيل أصول الميلونجون وفي الإضافة إلى امتداداتهم. ومن الملاحظ أن هذه الفرضية تتسق مع المعلومات اللغوية والوبائية والوراثية المتوفرة حالياً حول الميلونجون. كما أنها متسقة مع أساطير البحارة البرتغاليين (الموريسكيين) الذين تحطمت سفنهم ومع الشاهد التاريخي المتمثل في المسلمين والموريسكيين ذوي الأصول العربية والبربرية الذين تخلت عنهم مستعمرة سانتا إلينا عام 1587، والمسلمين ذوي الأصول التركية والمغاربية الذين تخلى عنهم السير فرانسيس دريك في روانوك إبان الثمانينات من القرن السادس عشر، ومع الأتراك القادمين من كراتشي والقفقاز في ترانسقوقازيا الذين جلبهم الإسبان إلى فلوريدا أثناء القرن السادس عشر (انظر الفصل الثالث لمزيد من التفاصيل). مسلمو وموريسكيو سانتا إلينا الذين تُركوا، والمسلمون المنقطعون في روانوك، وربما أتراك كراتشي والقفقاز، كل أولئك تزاوجوا فيما بينهم. كما أنهم بدؤوا في التزاوج مع قبائل هندية مختلفة منذ أواخر القرن السادس عشر، الأمر الذي استهل مساهمة الهنود في المخزون الوراثي للميلونجون.

من المحتمل أن يكون القرن السابع عشر قد شهد تدفقاً ثانياً من السلالات الإسلامية على الميلونجون. كما سبقت الملاحظة في الفصلين الثالث والخامس، كانت شحنتان من الرجال والنساء الأتراك، ولابد أن يكون معظمهم تقريباً من المسلمين، أرسلتا ليكون الذين جاؤوا عليهما من الخدم التعاقديين في المستعمرة البريطانية جيمس تاون. تلك الشحنات جرت أثناء أوائل وأواسط القرن السادس عشر، وأول الوثائق المكتوبة حول الوجود التركي في جيمس

تاون يعود إلى 1631. في جيمس تاون، شكل أولئك المسلمون الأتراك نسبة كبيرة من طبقة الخدم التعاقديين. ومن الأرجح أن يكون معظم أولئك الأتراك قد هربوا من الخدمة المفروضة عليهم وأنهم ضمتهم القبائل الهندية ومجموعة الميلونجون الصغيرة.

غير أن للمسلمين إسهاماً ثالثاً في تكوين الميلونجون يمكن الحديث عنه. فمنذ القرن السابع عشر واستمراراً حتى الثامن عشر والتاسع عشر كان العبيد الهاربون من الأفارقة والأفارقة الأمريكيين، الذين يحتمل أن يكون الكثير منهم مسلمين، يبحثون عن الأمان والحرية بين الهنود في جنوب شرق أمريكا. ومن المحتمل أن يكون بعض أولئك العبيد الهاربين قد وجدوا الأمان والزواج بين الميلونجون. هذا الاحتمال يتسق مع الدراسات الوراثية المنجزة حتى الآن.

إن من غير الواضح كم هي المدة التي استمر فيها الميلونجون في تطبيق إسلام أسلافهم. لدينا معلومات من عامي 1654 و1673 توحي بأن بعض بقايا الإسلام على الأقل، إن لم يكن الإسلام نفسه، كانت ما تزال شائعة بين الميلونجون حتى تلك الفترة. فضلاً عن ذلك، كان الأخوة إيكيرلين الذين عاشوا في منتصف القرن الثامن عشر يصنفون على نحو مباشر بأنهم ينتمون إلى الدين «الإسماعيلي». ومع ذلك فإن من المحتمل أنه حدث تآكل مستمر لإسلام الميلونجون عبر القرون، وأن من أسباب ذلك تزاوجهم بغير المسلمين من الهنود وكذلك بالمسيحيين المنحدرين من أصل أوروبي. بحلول القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر، كان الميلونجون على الأرجح قد «تنصروا» وفقدوا إسلام أسلافهم أو نسوه تقريباً، وكان معظمهم يدعون بأنهم مسيحيون من مذهب «المعمدانيين البدائيين» أو «المعمدانيين المنتظمين القدامى».

مما يلفت الانتباه أن العديد من ممارسات أولئك «المعمدانيين البدائيين» يبدو من أثر الإسلام. فالرجال والنساء، مثلاً، يجلسون في الكنيسة منفصلين، علماً بأن النساء يجلسن خلف الرجال وأحياناً يدخلن من باب مخصص لهن. وانسجاماً مع التقويم الإسلامي واليهودي، كان المتعارف عليه لدى الميلونجون أن اليوم يبدأ بغروب الشمس. كانت الكنائس تخلو من أي فنون دينية، أو صلبان، أو أيقونات، أو آلات موسيقية، تماماً كما هي الحال في المساجد.

وكما هي العادة الإسلامية، كان الميلونجون يدفنون موتاهم خلال يوم واحد. يضاف إلى ذلك، هناك صورة تعود للقرن العشرين يرى فيها «المعمدانيين البدائيين» في مشهد تعميد بجانب النهر، ويظهر الذكور يصلون في وضع السجود كما في الصلاة الإسلامية، أي بوضع الأصابع والركب والأيدي والجباه على الأرض.[1]

طوال القرنين التاسع عشر والعشرين، كان المخزون الوراثي الإسلامي بين الميلونجون يتبدد عبر التزاوج بالأمريكيين من ذوي الأصل الأوروبي. وبحلول منتصف القرن العشرين كانت الأصول الإسلامية للميلونجون قد اختفت تماماً بفعل الوقت. وكان يمكن للأمر أن يتوقف عند ذلك الحد لولا البحث في تاريخ الميلونجون الذي قام به أحفادهم في أواخر القرن العشرين. وما إن بدأ أولئك المغامرون من الرجال والنساء في الغوص عبر طبقات التاريخ لاكتشاف أصول عائلاتهم، حتى أخذ بحثهم في الأنساب والتاريخ واللغة والأوبئة والوراثة يكشف عن إسهام إسلامي كبير في تكوين جماعة الميلونجون.

إن من الملاحظ أن الميلونجون ليسوا على الأرجح وحدهم الذين يمكن أن يوصفوا بأنهم الجماعة الصغيرة والمعزولة من الأمريكيين الذين لهم أصول إسلامية. جماعات أخرى ربما تنطبق عليها نفس الصفات تشمل الريد بونز (الهوماس والسابين) في لويزيانا، والهنود الكارميل في أوهايو، والغينيز في غرب فرجينيا وماريلاند، والبراس أنكلز في كارولاينا الجنوبية، والرامبز في ستون ماونتن والكوبرن ماونتن، وشعب براون في كنتكي. ويمكن أن يضاف إلى هؤلاء المغاربة الأحرار في الكارولينتين ومغاربة ديلاوير (الذين ينسبون أنفسهم لمغاربة إسبانيا الذين استوطنوا شبه جزيرة ديلمارفا في مرحلة سابقة للثورة الأمريكية ثم تزاوجوا بالهنود المحليين)، ومارونز فرجينيا.[2]

كل ما سبق لا يستبعد احتمال أن يكون الكثير من السلالات غير الإسلامية أسهمت في تكون جماعة الميلونجون. فمثلاً هناك أدلة مقنعة على إسهام يهودي سيفاردي في الميلونجون. غير أن العرض الحالي خاص بالإسهام الإسلامي في جماعة الميلونجون.

---

(1) Hirschman EC (2005).

(2) Austin AD (1997). Winkler W (2004b). and Kennedy NB (1997).

7. بقايا إسلامية لدى الأفارقة الأمريكيين

1. مقدمة

كما سبقت الإشارة في الفصل الرابع، تم إحضار ما بين 15 إلى 20 مليوناً من الأفارقة إلى الأمريكتين ضمن تجارة العبيد عبر الأطلسي. وقد قدم الباحثون عبر السنين تقديرات متباينة حول نسبة المسلمين بين أولئك الأفارقة المستعبدين. التقديرات تراوحت بين حد أدنى بلغ 10٪ وأعلى بلغ 30٪، علماً بأن أحدث التقديرات تتراوح بين 20٪ و30٪. وبجمع أعداد الأفارقة الذين أحضروا إلى الأمريكتين عبيداً مع نسبة المسلمين بين أولئك العبيد ينتج تقدير لعدد المسلمين يتراوح ما بين 1,500,000 و6,000,000 مسلماً أحضروا إلى العالم الجديد عبيداً، علماً بأن أحدث التقديرات تتراوح ما بين 3,000,000 و6,000,000.

سواء كان الرقم 1,500,000 أو 6,000,000 فإن من الصعب تصور أن سكاناً مسلمين بذلك الحجم لم يتركوا نوعاً من الموروث الذي تناقلته الأجيال حتى الوقت الحاضر. المفترض هو أن يجد الباحث بعض بقايا من المعتقدات الإسلامية بين أحفاد الأفارقة الأمريكيين. وبالفعل فإن ذلك ما يجده الباحث إن كان يعرف أين يبحث. غير أن ذلك لا يعني أن البقايا الإسلامية ينظر إليها دائماً بوصفه إسلامية، حتى من قبل الأفارقة الأمريكيين الذين يحتفظون بتلك البقايا حية.

فيما يلي يستكشف هذا الفصل البقايا الإسلامية في القرن العشرين وفي حياة الأفارقة الأمريكيين المعاصرين. نبدأ ببعض المسائل العامة المتعلقة بتواتر الانتساب إلى الإسلام ثم نمضي لاستعراض بعض البقايا الإسلامية التي وثقها «مشروع كتّاب السافانا»، ومن تلك بعض الممارسات الدينية ذات الجذور الإسلامية والتي تنفرد بها مسيحية الأفارقة الأمريكيين. بعد ذلك، نستكشف بعض البقايا الإسلامية التي لم يوثقها «مشروع كتّاب السافانا». أخيراً ننتهي بالنظر في عدد من الحركات الدينية ذات الصلة المتفاوتة بالإسلام والتي تنامت في المجتمع الأفرو أمريكي في القرن العشرين.

2. الأسلاف المسلمون

ما هي الاحتمالات بالنسبة لأي أفرو أمريكي في الولايات المتحدة المعاصرة أن يكون أحد أجداده أو أجدادها مسلمين أحضروا إلى أمريكا عبيداً؟ بالنسبة لجميع الأفارقة الأمريكيين تقريباً، الإجابة البسيطة هي أن من المستحيل تقريباً ألا يكون هناك مسلمون بين أجداد هذا أو ذاك. أما الدليل على ذلك فيمكن استنباطه من نظرية احتمالية بسيطة.

لو رمينا زوجاً من النرد ما هو احتمال أن يكون على كليهما الرقم ستة؟ لكل من الزوجين ستة أوجه وعلى كل وجه أعداد من واحد حتى ستة. لذا لو رمينا أحد الزوجين من النرد فإن احتمال ألا يكون ستة هو 5 إلى 6. ما يحدث للثاني من زوج النرد لا علاقة له بما يحدث للقطعة الأولى، وهكذا فإن لكل من الاحتمالات الست لقطعة النرد الأولى (أي واحد واثنان وثلاثة وأربعة وخمسة وستة) هناك ستة احتمالات للقطعة الثانية (أي واحد واثنان وثلاثة وأربعة وخمسة وستة). وهكذا هناك 36 نتيجة محتملة، لخمسة وعشرين منها ليس هناك احتمال وجود الرقم ستة. ويمكن توضيح ذلك صورياً من خلال الجدول التالي.

جدول1: نتائج محتملة لرمي زوجي النرد

-1	-1	-1	-1	-1	-1
-2	-2	-2	-2	-2	-2
-3-1	-3-2	-3 -3	-3-4	-3-5	-3 -6
-4	-4	-4	-4	-4	-4
-5	-5	-5	-5	-5	-5
-6	-6	-6	-6	-6	-6

بتفحص الجدول رقم 1، يمكننا أن نلاحظ مباشرة أن هناك 36 (6×6) احتمالاً، وأن في 25 من تلك الاحتمالات لن يظهر الرقم 6، وأن في واحد (1×1) من تلك النتائج هناك اثنتان

من الستات، وأن في 10 من تلك النتائج هناك ستة واحدة [(6 × 6) – (5 × 5) (1 × 1)]. باختصار، احتمال عدم ظهور ستة حين يرمى بزوج من النرد هي (6/5 × 6/5) أو $(6/5)^2$.

باستعمال نفس الإجراء، يمكننا الآن أن نسأل عن احتمال ألا يكون لإفريقي أمريكي أسلاف مسلمون. للإجابة على هذا السؤال نحتاج إلى التوصل إلى معلومتين. 1) بالنسبة لإفريقي مستعبد جيء به إلى الأمريكتين، ما هو احتمال أن يكون هو أو هي مسلماً؟ 2) ضمن أسلاف الأفارقة الأمريكيين المعاصرين، كم عدد الأفارقة المختلفين الذين جيء بهم إلى العالم الجديد عبيداً؟

جواب السؤال الأول صدر عن باحثين مختلفين وكان مختلفاً باختلافهم. التقديرات الأقدم كانت تميل إلى أن 10٪ من كل الأفارقة المستعبدين المحضرين إلى الأمريكتين كانوا مسلمين. إذا اعتمدنا على ذلك الأساس دون معرفة أي شيء عن إفريقي محدد من المستعبدين، فإن احتمال ألا يكون هو أو هي مسلماً يرتفع إلى 90٪. التقديرات الأحدث التي بنيت على معلومات أكثر حداثة واكتمالاً رأت أن نسبة تتراوح ما بين 20٪ و30٪ من الأفارقة المستعبدين كانوا مسلمين. بالاعتماد على هذه التقديرات، تتراوح احتمالات كون الإفريقي المستعبد غير مسلم ما بين 70٪ و80٪. لو اخترنا أن نجيب على سؤالنا الأول بالقول إن 90٪ أو 80٪ أو 70٪ من الأفارقة المستعبدين لم يكونوا مسلمين، فإن الإجابة على سؤالنا فيما يتصل باحتمال ألا يكون بين أسلاف الإفريقي الأمريكي أي مسلمين ستكون أن ذلك الاحتمال هو (0,9)× أو (0,8)× أو (0,7)×، حيث (×) هي رقم مختلف الأفارقة المستعبدين بين أسلافه.

اعتماداً على أكثر التقديرات تحفظاً حول الوجود الإسلامي بين الأفارقة المستعبدين في العالم الجديد، أي رقم 10٪، يمكننا أن نرى بسرعة أنه يكفي أن يكون لدى المرء سبعة أفارقة مستعبدين ضمن أسلافه لكي يتضاءل احتمال أن يكون السبعة من غير المسلمين إلى ما دون 50٪، أي أن (.9)7 = .48. على أساس التقدير بأن 30٪ من الأفارقة المستعبدين كانوا مسلمين، يكفي أن يكون هناك اثنان من الأفارقة المستعبدين ضمن أسلاف شخص ما لكي ينقص احتمال أن يكون الاثنان من غير المسلمين إلى أقل من 50٪، أي(.7)2 = .49.

باستعمال نظريات الاحتمال المشروحة أعلاه، يوفر الجدول رقم 2 احتمالات ألا يكون هناك مسلمون بين أسلاف إفريقي أمريكي. لكي نستعمل هذا الجدول كل ما علينا هو أن نقرر أي تقدير (10٪، 20٪، 30٪) نحتاج إليه لمعرفة وجود المسلمين بين الأفارقة المستعبدين المجلوبين إلى الأمريكيتين لنقرر أو نقدر عندئذٍ عدد الأفارقة المستعبدين الذين كانوا بين أسلاف الأفارقة الأمريكيين.

جدول 2: احتمال ألا يكون هناك مسلمون بين أسلاف الأفارقة الأمريكيين(1)

#	*10	**20	***30
2	.81	.64	.49
3	.729	.512	.343
4	.6561	.4096	.2401
5	.59049	.32768	.16807
6	.531441	.262144	.117649
7	.478297	.209715	.082354
8	.430467	.167772	.057648
9	.387420	.134218	.040354
10	.348678	.107374	.028248
11	.313811	.085899	.019773
12	.282430	.068719	.013841
13	.254187	.054976	.009689
14	.228768	.043980	.006782

* = عدد الأفارقة المستعبدين على اختلافهم ضمن أسلاف شخص ما.
** = النسبة المتوقعة للأفارقة المستعبدين الذين كانوا مسلمين.
*** = احتمال ألا يوجد سلف مسلم هو أقل من واحد في المليون.

(1) تضمن الكتاب جدولاً مطولاً حول هذا الاحتمال اكتفينا هنا بجزء منه (المترجم).

حسب المنهج الآثاري المتعارف عليه، المفترض هو أن جيلاً جديداً يبدأ كل 21 عاماً. لو تبنينا إطاراً زمنياً أكثر تحفظاً هو 25 عاماً وافترضنا أن 250 عاماً قد مرت منذ أحضر أول الأسلاف الأفارقة لشخص ما إلى هذه البلاد بوصفهم عبيداً، فإن الأسلاف الأفارقة لذلك الشخص سيكونون، كما هو متوقع، في الجيل العاشر. وبما أن هناك اثنان من الأسلاف (أحدهما ذكر والأخرى أنثى) في كل سلسلة من الأسلاف في كل جيل، فإنه يوجد 1,024 (أي 210) من الأسلاف في الجيل العاشر. غير أن واقع الحياة في العبودية يعني أن من غير المحتمل أن يكون كل أولئك الأسلاف من الجيل العاشر أفارقة أو أناساً من أصول إفريقية صافية. قد يكون بعضهم هنوداً أمريكيين، والبعض الآخر من أصول قوقازية. فضلاً عن ذلك، بعض أولئك الأسلاف من الجيل العاشر ربما يظهرون أكثر من مرة بين سلالة الشخص الواحد. لذا قد لا يكون هناك أكثر من 800 أو حتى 600 من الأسلاف ذوي الأصل الإفريقي في السلالة. ومع ذلك، كما يتضح من الجدول رقم 2 وعلى افتراض أن 30٪ من الأفارقة المجلوبين كانوا مسلمين، فإنه لا حاجة إلى أكثر من 41 من الأسلاف الأفارقة المختلفين قبل أن يصبح احتمال ألا يكون هناك سلف مسلم أقل من واحد من المليون. وعلى افتراض أن 20٪ من الأفارقة المجلوبين كانوا مسلمين، فإنه يكفي ألا يكون هناك أكثر من 66 من الأسلاف الأفارقة المختلفين للوصول إلى نفس الاحتمال. وحتى لو افترضنا أن 10٪ من الأفارقة المجلوبين كانوا مسلمين، فإن وجود 75 من الأفارقة بين الأسلاف ينتج عنه احتمال يصل إلى 37 من 100,000 ألا يكون هناك مسلمون بين أسلاف شخص ما. وكما نستطيع أن نرى من هذه الأرقام، من الممكن أن نستنتج أن من بين أسلاف كل إفريقي أمريكي مسلم واحد على الأقل.(1)

(1) النتائج التي تم التوصل لها في هذه الفقرة وفي الجدول رقم 2 بنيت على فرضيتين غير معلنتين. 1) يفترض أن المسلمين المستعبدين كان احتمال أن يكون لديهم أطفال مثلما لدى المستعبدين غير المسلمين، وأن يكون عدد أولئك الأطفال بنفس العدد الذي لدى غيرهم. 2) يفترض أن تكون أنماط الاختيار في الزواج مستقلة عن الانتماء الديني لكل شخص متزوج. إن أياً من هاتين الفرضيتين يمكن الاعتراض عليها.

ج. مشروع كتّاب السافانا

ج1. مقدمة

بناءً على ما تبين مسبقاً بشأن احتمال وجود على الأقل سلف مسلم للأفارقة الأمريكيين، ينبغي ألا نندهش إذا علمنا بأن ما تبقى من إسلام أسلافهم يظهر على نحو متكرر في حياة أولئك الأمريكيين الأفارقة. «مشروع كتّاب السافانا» الذي يعود إلى الثلاثينيات من القرن العشرين تضمن عدداً من الأمثلة لهذه الظاهرة في ما أصدره أولئك الكتّاب بعنوان: «طبول وظلال: دراسات حول البقاء بين زنوج ساحل جورجيا».

«مشروع كتّاب السافانا» كان جزءاً من «مشروع الكتّاب الفيدراليين لإدارة مشاريع العمل» (WPA)، وهو مشروع ممول فيدرالياً لإعادة 6000 شخص للعمل أثناء فترة الكساد.[1] كان معظم الذين وظفهم «برنامج الكتاب الفيدراليين» كتاباً محترفين - روائيين، شعراء، صحفيين، كتاباً غير مرتبطين بمطبوعات محددة، وأكاديميين في مستوى الدكتوراه. فرع السفانا من «مشروع الكتاب الفيدراليين» ركز على جمع وتسجيل التواريخ الشفاهية للأفارقة الأمريكيين من المسنين الذين يعيشون في سواحل جورجيا. في ذلك المشروع تمت مقابلة حوالي 140 من الأفارقة الأمريكيين المسنين، كان معظمهم عبيداً في السابق.

على الرغم من أن مجري المقابلات كانوا يركزون على جمع القصص ذات الصلة باستحضار الأرواح، والسحر، و«أطباء الأعشاب»، والرقى، وجرعات الأدوية، والتعاويذ، إلخ.، فإن كماً مدهشاً من المعلومات التي توثق ما تبقى من الإسلام كان مما تم الحصول عليه. وتزداد الدهشة حين نأخذ في الاعتبار أن الذين أجروا المقابلات كانوا من أهل جورجيا البيض الذين عاشوا في ثلاثينات القرن العشرين وأن من أجريت معهم المقابلات كانوا أفارقة أمريكيين مازالوا عندئذٍ غير بعيدين عن أيام العبودية بل كانوا حتى ذلك الحين خاضعين لما تحمله قوانين جم كرو من إهانات.[2] إن المرء لا يستطيع إلا أن يتساءل عن عدد الأمثلة الإضافية مما تبقى

(1) فترة الكساد الاقتصادي التي مرت بها الولايات المتحدة في ثلاثينات القرن العشرين (المترجم).

(2) قوانين جم كرو هي مجموعة قوانين سنت في الولايات المتحدة ما بين 1876 و1965 للتمييز بين البيض والسود في الحياة العامة والتعليم وغيرها (المترجم).

من الإسلام التي كان يمكن اكتشافها لو أن: الذين أجروا المقابلات كانت لديهم المعلومات الكافية ليسألوا عن تلك البقايا الإسلامية، أو أنه كان لديهم الحافز لطرح أسئلة كتلك؛ أو أن الذين أجروا المقابلات كانوا أفارقة أمريكيين؛ أو أن من أجريت معهم المقابلات لم يكن لديهم الشك في من أجرى المقابلات معهم ولم يكونوا يخشونهم على نحو ما.[1]

ج2. صلاة

لقد تذكر الكثير من الأفارقة الأمريكيين الأكثر تقدماً في السن ممن أجريت معهم المقابلات بقاياً من الصلاة الإسلامية ما تزال قائمة عندما كانوا صغاراً. ذكر تد ثورب من بلدة هاريس نك في جورجيا كيف أن جدته الإفريقية، واسمها بيشنس سبولدنغ، كانت تصلي. كانت تسجد على الأرض، وتحنى رأسها ثلاث مرات وتقول «آمين، آمين، آمين».

صوفي ديفيز من بلدة وايت بلف في جورجيا تذكرت أن الكثير من المسنين في شبابها على جزيرة سانت كاثرين كانوا يصلون عند الفجر وعند غروب الشمس. عند نهاية الصلوات، كانوا يقولون «مينا، مينا، مو».

راشيل أندرسن من بلدة بوسم بوينت تذكرت أن جدة جدتها بيغي كانت تصلي كل يوم عند الفجر، والظهر، والغروب. وكانت الجدة، كما تقتضي الصلاة الإسلامية تنحني وتسجد أثناء الصلاة.

روزا غرانت من بلدة بوسم بوينت ذكرت أن جدتها كانت إفريقية اسمها راينا. وقد لاحظت روزا في شبابها أن راينا تصلي كل صباح عند شروق الشمس. حسب ما تذكرت روزا، كانت راينا تنحني وتركع على الأرض، وعندئذٍ تنحني وتلمس الأرض بجبهتها ثلاث مرات. عند نهاية كل صلاة، كانت راينا تقول، «آمين، آمين، آمين». كما تذكرت روزا أن راينا

---

(1) وردت في النص الأصلي كلمة «intimated» ويبدو أنها خطأ مطبعي لأن السياق يقتضي أن تكون الكلمة «intimidated» أي يخضع للتخويف أو الإرهاب. يقول المؤلف: «and the interviewers had not been... suspicious of and somewhat intimated by their interviewers.» (المترجم).

كانت تقول أن الجمعة كان «يوم صلاتها».

عاش لورنس باير في شارع رج بالقرب من بلدة دارين. تذكر أن جدته، راشيل غرانت، كانت تصلي ووجهها تجاه الشمس عند كل شروق، وعند منتصف النهار، وعند الغروب. عند نهاية كل صلاة، كانت راشيل، حسب ما قال، تنحني.

كاتي براون من جزيرة سابيلو تذكرت جدتها مارغريت وهي تتحدث عن والديها بلالي محمد وفيبي (انظر الفصل الرابع حيث ترد سيرة موجزة لبلالي). قالت مارغريت، كما يروى، أن بلالي وفيبي كانا يصليان على سرير (سجادة صلاة؟) كانا: «...حريصين جداً على وقت الصلاة، وكانا منتظمين جداً بشأن الوقت. حين تشرق الشمس، حين تكون متعامدة على الرأس، وحين تغرب كان ذلك وقت صلاتهم. كانوا ينحنون للشمس وكانت لديهم سجادة صغيرة ليركعوا عليها. كانت السبحات (سبحات الصلاة) في خيط طويل. كان بلالي يسحب سبحة ويقول: «**بيلامبي، هاكابارا، ماهامادو**». وكانت فيبي تقول: «**آمين، آمين**».

فيبي غيلبرت، وهي أيضاً من جزيرة سابيلو، ذكرت أن جدها كان بلالي سمث (ابن هستر، ابنة بلالي محمد) وأن عمها [أو خالها] كالينا وخالتها [أو عمتها] حنا كانت: «..شديدة الحرص على الصلاة. كانا يصليان على السرير. الرجل العجوز كان يقول «آميلا»، والعمة حنا كانت تقول «**هاكابارا**».

شاد هول من جزيرة سابلو كان ابن سالي، ابنة هستر، ابنة بلالي محمد. تذكر شاد أن جدته هستر وعائلتها: «...صلوا بالتأكيد على السرير. كانوا يلبسون سلسلة من السبح على خصورهم – أحياناً تكون السلسلة على أعناقهم. كانوا يصلون عند شروق الشمس وكانوا يواجهون الشمس على ركبهم وينحنون ثلاث مرات، يركعون على سجادتهم الصغيرة».

بن سوليفان، الذي كان أبوه يحمل الاسم الإسلامي التقليدي بلالي، تذكر أنه في شبابه رأى رجلاً مسناً أشار إليه بإسرائيل العجوز، كان يصلي على سجادة كل فجر وغروب. أثناء أدائه للصلاة كان إسرائيل يستعمل كتاباً (القرآن) خبأه بعيداً عن أعين الآخرين. وذكر بن أيضاً أن إسرائيل العجوز كان يحترم تقليدين إسلاميين كان يطيل لحيته ويغطي رأسه بلباس

أبيض (أي كوفية، أو غطاء للرأس عادة ما يلبسها الرجال المسلمون). وتذكر بن إلى جانب ذلك عدداً من الناس الذين عرفهم في شبابه ولم يسمهم والذين كانوا يتوارون عن الأنظار ليختبئوا «ويؤدوا الصلاة الكبرى». حسب رواية بن، لو أن أولئك العبيد لم يختبئوا ليؤدوا صلواتهم، فإنهم كانوا سيعاقبون من قبل ملاكهم. بما أن من الصعب تخيل مالكاً مسيحياً للعبيد في منتصف القرن التاسع عشر يعاقب عبيده بسبب أدائهم للصلوات المسيحية، فإن من المنطقي أن أولئك كانوا عبيداً مسلمين رأوا أن من الضروري أن يؤدوا يومياً صلواتهم المفروضة سراً.

التأمل في الأمثلة الواردة أعلاه من الصلوات الإسلامية يجعل من الضروري الإشارة إلى بعض النقاط.

1) الذين أجريت معهم المقابلة كانوا من المسنين وكانوا يتذكرون أحداثاً من أيام شبابهم. لذا من المحتمل جداً أن تكون ذاكراتهم قد ضعفت، الأمر الذي يؤدي إلى صور مشوهة للصلوات الإسلامية كما ترد في القصص. المثال على ذلك مواجهة الشمس دائماً أثناء الصلاة.

2) ذكر عدد ممن أجريت معهم المقابلات أن الصلوات كانت تؤدى ثلاث مرات في اليوم، أي عند الفجر والظهر والغروب. معظم المسلمين يعتقدون أن الصلوات المفروضة يومياً خمس صلوات، مع أن هناك على الأقل جماعة إسلامية واحدة تعتقد أن الصلوات ثلاث مرات في اليوم. مع أنه ليس من المستحيل أن يكون أولئك المسلمون المستعبدون يتبعون مذهب تلك الجماعة، فإن الأقرب هو أنهم يجمعون صلاتي الظهر والعصر عند الظهر ويجمعون صلاتي المغرب والعشاء عند الغروب. في الإسلام يُسمح بجمع الصلوات بهذه الطريقة أثناء السفر وفي أيام المشقة الاستثنائية. ومن المؤكد أن كون الإنسان مستعبداً يعني مشقة استثنائية، ويبدو أن التسهيل الإسلامي في جمع الصلوات كان يستفاد منه باستمرار من قبل المسلمين المستعبدين في أمريكا.

3) هناك مؤشرات عديدة على أن الصلوات الواردة في القصص هي أمثلة من «الصلاة»،

أي الصلوات الإسلامية. مثلاً، كان المصلون يستعملون سجاجيد للصلاة في الأوقات المحددة، كما هو العرف الإسلامي. كانوا يؤدون الصلاة بأوضاعها الإسلامية، بالانحناء (الركوع) والجثو مع وضع الجباه على الأرض (سجود). كانوا، كما ورد، يقولون «آمين». وذلك اللفظ مهم لأن المسلمين، على عكس استعمال المسيحيين لتلك الكلمة، يقولون «آمين» عند نهاية تلاوتهم للسورة الأولى (الفاتحة) من القرآن في كل ركعة من كل صلاة. أخيراً، وردت إشارات بخصوص استعمال سُبح الصلاة الإسلامية وكذلك ما أشار إليه أحد العبيد من أن الجمعة كان يوم الصلاة الخاص بالنسبة له، تماماً كما هو الأمر بالنسبة للمسلمين.

ج3. رقصة الصيحة

رقصة الصيحة من الظواهر الإفريقية الأمريكية الفريدة المحصورة في جنوب الشرق الأمريكي وجزر الكاريبي. كلمة «صيحة» في «رقصة الصيحة» مشتقة من الاستعمال الإسلامي للكلمة الغرب إفريقية «صوت» المشتقة بدورها من الكلمة العربية «شوط». أثناء أداء الحج في مكة، يدور المسلمون حول الكعبة سبع مرات باتجاه معاكس لعقارب الساعة. هذه الحركة السباعية حول الكعبة تسمى «طواف». الدورة الواحدة المعاكسة لعقارب الساعة تسمى «شوط».[1]

المسلمون المستعبدون في الأمريكتين كانوا يعرفون أن وضعهم في العبودية كان حائلاً أبدياً بينهم وبين فرصة أداء الحج في مكة. لذا طوروا أسلوباً يجعلهم يؤدون بشكل رمزي أحد أركان الحج، أي أنهم كانوا يدورون حول شيء على عكس عقارب الساعة. مع الزمن تطور هذا الأسلوب إلى رقصة الصيحة، والتي يشار إليها أحياناً بأنها رقصة الدائرة، وصارت جزءاً من الطقوس المسيحية لدى بعض الكنائس الأفرو أمريكية في جنوب الشرق الأمريكي. في تلك الكنائس يقوم المجتمعون بتشكيل دائرة حول عمود مركزي أو منبر في الكنيسة أو

---

(1) Diouf S (1998). Raboteau AJ (1980). Turner LD (1969). and Parrish L (1992).

حول الكنيسة نفسها. يقومون عندئذٍ بالرقص حفاة الأرجل باتجاه مخالف لعقارب الساعة. إن من المفارقة أن يصير أحد الطقوس الإسلامية الرئيسة التي ترمز للحج بشكل لا لبس فيه طقساً أساسياً في بعض أفرع المسيحية الأفرو أمريكية.

العديد من المجتمعات الأفرو أمريكية في القرن التاسع عشر على ساحل جورجيا كانوا يمارسون رقصة الصيحة بوصفها جزءاً من أعياد الحصاد السنوية (انظر ما سيلي). بالإضافة إلى رقصات الصيحة التي ورد ذكرها من حيث هي جزء من أعياد الحصاد، تذكر ف. ج. جاكسون من غيرمبولز بوينت من أيام طفولته أن المجتمع الأفرو أمريكي كان يمارس «صيحات» منتظمة مساء السبت. وتذكرت كاثرين ونغ من جزيرة سانت سيمون أنها حين كانت صبية «كنا نصيح في دائرة». وعلى نفس المنوال تذكرت هيتي كامبل من سانت ميريز أنه أثناء شبابها كانت تمارس باستمرار رقصات الصيحة.

ج4. احتفالات الحصاد

كانت احتفالات الحصاد جزءاً مهماً من حياة المسلمين في غرب إفريقيا. تضمنت تلك الاحتفالات صلوات لله وثناء عليه للحصاد الذي كان المشاركون فرحين به. هذا الجانب المتصل بغرب إفريقيا من حياة المسلمين انتقل إلى العالم الجديد على يد المسلمين المستعبدين وترك أثراً قوياً بين أحفادهم الأفرو أمريكيين.

لقد احتفظ كثير من المسنين الأفرو أمريكيين الذين عاشوا في جورجيا في ثلاثينات القرن العشرين بذكرى إقامة تلك الاحتفالات أثناء شبابهم. ذكرت ماري ستيفنز من سنبيري في جورجيا أن الناس كانوا يجتمعون من جهات مختلفة ويرقصون ويقيمون وليمة مشتركة. وتضيف جوزفين ستيفنز من هاريس نيك في جورجيا تفاصيل أخرى حول احتفالات الحصاد، مشيرة إلى أنه كانت هناك ولائم ورقص وغناء مع التعبير عن الشكر لما تحقق من حصاد. وأكدت روزا سالين من هاريس نك ما ذكرته ستيفنز حول احتفالات الحصاد وذكرت أن تلك الاحتفالات كانت تقام في الكنيسة الأفرو أمريكية المحلية وأنها تضمنت

الكثير من الصلاة لنجاح حصاد العام التالي. وتذكرت راشيل أندرسن من بوسم بوينت ما سمته عشاءات الحصاد. امتدت عشاءات الحصاد تلك طوال الليل وتضمنت أداء لرقصة الصيحة، وانتهت بأداء صلاة الفجر. كاثرين ونغ من جزيرة سانت سيمونز تذكرت أيضاً احتفالات الحصاد التي شاهدتها في صباها. ذكرت أن كل شخص كان يحضر شيئاً من بواكير الحصاد إلى الكنيسة المحلية، وأن احتفالا يعد، وأن الناس يصلون ويؤدون رقصة الصيحة. هتي كامبل من سانت ماريز تذكرت أن الحصاد يؤدي إلى احتفال خاص. كان الناس يجتمعون، يعدون وليمة مشتركة، يصلون ويعبرون عن شكرهم للحصاد طوال الليل، وعندئذٍ يؤدون رقصة الصيحة حتى الفجر. وأكد هنري وليامز من سانت ماريز ما ذكرته هتي.

كانت احتفالات الحصاد جزءا رئيساً ايضاً من الحياة في القرن التاسع عشر على جزيرة سابيلو. كما سبقت الإشارة، كانت كاتي براون من جزيرة سابيلو من الجيل الثالث من أحفاد بلالي محمد (انظر الفصل الرابع). تذكرت أن احتفالات الحصاد في شبابها تضمنت أداء رقصة الصيحة حيث يتحرك المشاركون في دائرة كبيرة. فيبي غيلبرت من جزيرة سابيلو تذكرت أيضاً احتفالات الحصاد في شبابها، مشيرة إلى أنها احتفالات استمرت طوال الليل وأنها انتهت برقصة (رقصة الصيحة؟) عند الفجر. وأضاف شاد هول إلى ما ذكرته فيبي حول احتفالات الحصاد على جزيرة سابيلو. حسب شاد: «(عند) وقت الحصاد كان لديهم وقت رائع. كان يأتي مرة في السنة وكانوا يصلون ويغنون طوال الليل، حتى يؤذن أول الديكة. عندئذٍ كانوا يبدؤون الرقص وينحنون للشمس حين تشرق في السماء. كانوا يرقصون في دائرة ويغنون ويصرخون».

ج5. اللباس الإسلامي

كما سبقت الإشارة، ذكر بن سوليفان من جزيرة سانت سيمونز كيف أن إسرائيل العجوز اعتاد أن يغطي رأسه بغطاء أبيض (كوفي)، وهو غطاء إسلامي تقليدي للرجال. وقد أشار بن

أيضاً أن رجلاً آخر، اسمه دافنين كان أيضاً يضع غطاء على رأسه.

ذكرت كاتي براون من جزيرة سابيلو أن جدة جدتها فيبي كانت تضع «حجاباً» (الوشاح الذي تلبسه العديد من النساء المسلمات). فمع إعلانها الجهل بالمغزى من وشاح فيبي، ذكرت كاتي أن فيبي كانت تضع الوشاح على رأسها وتتركه يتدلى مثل حجاب على كتفيها.

ج6. كعكات 'سَرَكَة'

مثال آخر من البقايا الإسلامية بين الأفارقة الأمريكيين على ساحل جورجيا في القرن التاسع عشر يتعلق بطريقة صنع كعك الأرز المعروف بـ «سركة».

ذكرت كاتي براون أن فيبي في جزيرة سابيلو صنعت كعكا مسطحاً من الأرز مرة في السنة وفي يوم محدد. كان الكعك يسمى «سركة». ويبدو أن «سركة» هو تحريف غرب إفريقي للكلمة العربية «صدقة»، أي ما يعطى في سبيل الله للفقراء. كون الكعك يصنع مرة واحدة في السنة وفي يوم محدد من كل سنة يوحي بأنه يعطى للآخرين أثناء «عيد الفطر»، العيد الإسلامي الذي يتلو صيام الشهر الإسلامي رمضان. وقد لوحظ أن المسلمين في غرب إفريقيا كانوا، على خلاف ما يحدث في أمريكا، يقدمون كرات الأرز صدقة كل جمعة.[1] ولعل السبب في تقليص فترات تقديم الطعام في جورجيا إلى مرة واحدة في السنة عائد إلى فقر المسلمين العبيد هناك.

يبدو أن تقليد صنع كعك «السركة» انتقل من فيبي إلى ابنتها هستر. لقد تذكر شاد هول من جزيرة سابيلو أن جدته هستر كانت تصنع كعك «السركة»، وبمجرد انتهاء الكعك كانت هستر تدعو الأطفال ليجتمعوا وتعطي كل واحد كعكة ثم تطلب منهم أن يقولوا: «آمين، آمين، آمين».

---

(1) Diouf SA (1998).

ج7. خدمة كنسية

في وصف مؤثر للخدمة الكنسية على جزيرة سابيلو في جورجيا أثناء الثلاثينات من القرن العشرين، سجلت وحدة السافانا من مشروع كتّاب جورجيا عدة سمات توحي ببقايا إسلامية تسللت إلى مسيحية الأفارقة الأمريكيين في ذلك الوقت والمكان. فالقس، واسمه بريتشر لتل، كان كما يقال يطيل لحيته ويلبس غطاء على رأسه (كوفي)، مثلما هو الحال في التقليد الإسلامي. بل إن الكتّاب وصفوه على أنه «زنجي يبدو مثل محمدي». هذا بالإضافة إلى أن خطبة بريتشر لتل كانت تقسم إلى ثلاثة أقسام، تتصاعد كل واحدة منها إلى ذروة. إن تقسيماً مثل ذلك للخطبة ليس مما تتسم به الخطبة المسيحية التقليدية. غير أن الطريقة الإسلامية تقتضي أن تلقى خطبة الجمعة من قبل الإمام في قسمين منفصلين، على أن يجلس الإمام مابين القسمين.

د. بعض الأمثلة المتنوعة

د1. مقدمة

مع أن مشروع كتّاب السافانا يقدم القائمة الأكثر شمولية من البقايا الإسلامية في الحياة الأفرو أمريكية، فإن أمثلة عدة يمكن العثور عليها منثورة هنا وهناك. فيما يلي عرض موجز لتلك الأمثلة.

د2. من جزيرة سابيلو، جورجيا

من الأمثلة الإضافية للبقايا الإسلامية وهي تزحف على المسيحية الأفرو أمريكية كورنيليا وكر بيلي، التي كان بلالي محمد جدها الرابع، والتي وردت سيرتها الموجزة في الفصل الرابع. لقد تربت بيلي مسيحية كوالديها من قبل، بعد أن ضاع إسلام جدها الشهير مع تعاقب الأجيال. غير أن بقايا من ذلك الإسلام انحدرت عبر الأجيال على الرغم من أن تلك البقايا

لم يكن ينظر إليها بهذه الصفة. فمثلاً كانت بيلي في صغرها في جورجيا نهاية الأربعينيات من القرن العشرين تُعلم ضرورة الاتجاه إلى الشرق عند أداء الصلاة. في ذلك الوقت لم تكن بيلي تدرك لماذا كان عليها أن تتجه إلى الشرق حين تؤدي صلواتها المسيحية. كان ذلك جزءاً من الممارسة والتعليم المسيحي في منزلها لا أكثر. لكن بما أن المسلمين يصلون دائماً متجهين نحو مكة وبما أن مكة تقع إلى الشرق من جورجيا، فإن من الممكن أن نرى أن بيلي كانت تُعلَّم بقاياً من الممارسة الإسلامية ضمن دينها المسيحي، وهي بقاياً لم يعد من يؤدون الصلوات ينظرون إلى أصلها الإسلامي. الأكثر أهمية من ذلك هو أن جميع الكنائس المسيحية على جزيرة بيلي كانت تتجه إلى الشرق، أي باتجاه مكة، الأمر الذي يضمن أن كل الصلوات الجماعية في الكنيسة كانت تتلى باتجاه مكة.[1]

لم تكن البقايا الإسلامية في المسيحية الأفرو أمريكية في القرن العشرين مقصورة على الصلاة. هناك مثلاً عادات الدفن التي اقتضت أن يوضع المتوفى في القبر على نحو يجعله في مواجهة الشرق باتجاه مكة.[2]

د3. من البرازيل والكاريبي

لقد لاحظ ديوف وجود عدة بقايا إسلامية في الأديان الطائفية التي تنامت في الكاريبي وفي أمريكا الجنوبية. فلدى الكاندومبل في باهيا بالبرازيل نجد أحد الآلهة لديهم يدعى الله. وحتى الثلاثينات من القرن العشرين، كانت الأغاني التالية تسمع في بعض أماكن العبادة لدى الكاندومبل في باهيا: 1) «الله! الله! دي ديوس! الله!؛» و2) «الله! أولو الله! بابا كوارا دا!» لدى طائفة دينية من الكاندومبل بقيت حتى أوائل القرن العشرين في ألاغواس بالبرازيل، كان الإله الرئيس يعرف بأنه أوريكسا الله، ويعرف القس بأنه «ألوفا» (من «ألفا»)، وهي مفردة غرب إفريقية تقابل المفردة العربية «الفقيه»، أي الباحث في التشريع الإسلامي، ولكن في غرب إفريقيا تستعمل المفردة للدلالة بشكل أعم على زعيم ديني إسلامي)، وكانت جدران

(1) Curiel J (2004).

(2) Gomez MA (1994).

المباني المقدسة تزين بما كان يوصف بأنه «أرابيسك»، وكانت إحدى الأغاني الدينية الشعبية تتضمن الكلمات التالية: «إيدور، إيدور، أليلالا»، ويبدو أن الكلمة الأخيرة اشتقت من العبارة العربية «لا إله إلا الله».

أما طائفة السانتيريا في كوبا، فإن أتباعها يحيون بعضهم بعضاً بالعبارة العربية «سلام عليكم»، التحية الإسلامية المعروفة. وبعض الصلوات لدى طائفة الفودو الهايتية تتضمن اسم الله، وتمظهرات بعض الآلهة الثانويين تقابل بالتحية العربية «سلام». أما في ترينيداد، فهناك طائفة تمثل على ما يبدو فرعاً من الحركة المعمدانية الروحية للمسيحية الإحيائية وأعضاؤها يعرفون بالصائحين. غير أن عدداً من البقايا الإسلامية يمكن أن يرى ضمن الممارسات الدينية للصائحين. فالصائحون، مثلاً، يخلعون أحذيتهم في الكنيسة، ويركعون على قطعة من القماش مثلما يفعل المسلمون على سجاجيد الصلاة، ويمارسون رقصة الصيحة حول مذبح في وسط الكنيسة.

في توكو بكارياكو، وفي غرانادا، يقدم المنحدرون من أصل إفريقي «سركة» أثناء الأعياد والاحتفالات.

د4. في الموسيقى

إلى جانب إسهاماتها في توثيق البقايا الإسلامية في أمريكا الجنوبية والطوائف الدينية في الكاريبي، أسهمت ديوف في تبيان بقايا إسلامية في الموسيقى. فالعديد من الأغاني التي عثر عليها بين ذوي الأصل الإفريقي، على سبيل المثال، تتضمن كلمات عربية. حتى الستينيات من القرن العشرين، كان ذوو الأصل الإفريقي في ترينيداد يألفون الأغاني العربية. بعد ذلك بعقد، قدمت عجوز من الهاوسا في الثانية والثمانين من عمرها في غاسباريلو، ترينيداد، لمن أجروا معها مقابلة عدداً من الأغاني التي تسبق العرس وفيها جميعاً كلمات عربية.

ومع ذلك فإن وجود الكلمات العربية ليس وحده الذي يثبت التأثير الإسلامي على

الموسيقى الأفرو أمريكية التقليدية. إن صوت المؤذن المسلم للصلاة (الأذان) وصوت المسلمين وهم يتلون القرآن، تلك الأصوات التي ما تزال حية، قد اكتشفها العديد من المختصين في الموسيقى (مثل: غيرهارد كيوباي، وجون ستورم روبرتز، وآلان لوماكس) بوصفها العمود الفقري لتلك الموسيقى ذات الخصوصية الأمريكية المعروفة بـ «البلوز». ثلاث من سمات البلوز البارزة التي تبدو مستلة مباشرة من الأذان هي الترنيم المتموج، الخاصية الأنفية، والميليسما (أي استعمال عدة نغمات لمقطع لفظي واحد. بدلاً من التغني بـ «آه» واحدة يغنى بـ «آه – آههههه– آههههه– آه– آه»). يضاف إلى ذلك أن من أغاني البلوز المبكرة مثل «ليفي كامب هولر» تتضح عدة تشابهات مع الأسلوب المعروف للتلاوة القرآنية، منها الأصوات الممدودة، والوقفات، والغنة الأنفية، واللحن البسيط، والنغمات المزخرفة.

انطلاقاً من كثرة التشابهات بين «البلوز»، من ناحية، و«الأذان» والتلاوة القرآنية، من ناحية أخرى، اقترحت ديوف السيناريو التالي لتفسير ولادة البلوز.

> ربما يساعد حادث وقع في سيراليون في القرن الثامن عشر كثيراً في تفسير ولادة البلوز. في ساحة العبيد على الساحل كان هناك مسلم في الخامسة والثلاثين من العمر يستطيع قراءة العربية وكتابتها. كان مقيداً بالحديد، يستعد للمغادرة و«أحياناً يغني أغنية حزينة، ثم يتلو ذلك بدعاء صادق».[1] الأغنية الحزينة كانت على الأرجح تلاوة للقرآن. المسلمون من أمثاله يغنون بالطريقة نفسها على مستوطنات الجنوب، كنوع من العزاء، المرة تلو الأخرى، و«أغانيهم» المثقلة بالوحشة ربما تحولت إلى ما يعرف بالبلوز.[2]

لذا لا يبدو من المبالغة أن نفترض أن عظماء البلوز مثل بيسي سمث، وولي براون، وروبرت جونسون، وسون هاوس، ومدي ووترز، وما ريني، وممفس مني، وجون لي هوكر، ب. ب.

---

(1) Wadstrom CB (1794).

(2) Diouf SA (1998).

كنغ، وغيرهم، كانوا الورثة الموسيقيين لإسلام الغرب الإفريقي. عبر موسيقاهم، استمرت البقايا الإسلامية من «الأذان» ومن تلاوة القرآن حتى القرن العشرين من الحياة الأمريكية.

هـ. معبد العِلْم المغاربي

هـ1. مقدمة

شهد القرن العشرون تحولاً مهماً في تاريخ الأفارقة الأمريكيين. فبعد معاناتهم قروناً من العبودية ونصف قرن من العنصرية ومن عنصرية قانون جم كرو، رأى العديد من قادة المجتمع الأفرو أمريكي الحاجة إلى هوية جديد، هوية قادرة على التخلص من النظر إلى الذات من زاوية العبودية بوصفها جزءاً من شعب من الضحايا الخاضعين والأذلاء.

على المستوى العلماني، دعى قادة مثل ماركوس غريفي من «جمعية ترقية الزنوج» إلى تقوية الأفرو أمريكيين ذاتياً من خلال تطوير اقتصاد أفرو أمريكي يعتمد على أنشطة تجارية وتعاونيات أفرو أمريكية، بالإضافة إلى مشاركة سياسية وعودة في النهاية إلى إفريقيا. قادة آخرون دعوا أيضاً إلى تطوير مفهوم الملكية الاقتصادية بين الأفرو أمريكيين، ولكنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك وسعوا إلى إيجاد هوية ذاتية جديدة باستعادة هوية وطنية وإثنية ودينية سواء كانت حقيقية أم أسطورية تذهب إلى ما قبل العبودية زمنياً. في محاولتهم إعادة صنع هوية دينية سبقت العبودية، بنى بعض أولئك القادة بالضرورة على بقايا الإسلام في المجتمع الأفرو أمريكي.

الحركتان الأكثر نجاحاً في السعي إلى إيجاد هوية ذاتية جديدة والتي تأسست جزئياً على الأقل على ما تبقى من الإسلام كانتا «معبد العلم المغاربي» و«أمة الإسلام». كل واحدة من هاتين المجموعتين تبنت أساطير عرقية صممت بحيث تغرس كبرياءً أفرو أمريكياً على المستوى العرقي. بهذه الطريقة قدمت المجموعتان ما يعادل الأساطير السائدة آنذاك في مجتمع البيض المهيمن، أساطير أكدت الفكرة المزيفة حول وضاعة الأفارقة الأمريكيين.

الحركة الأقدم بين تلكما الحركتين الدينيتين كانت «معبد العلم المغاربي» التي أسسها تيموثي درو، المعروف بنوبل درو علي والتي يتناولها هذا الجزء من الفصل الحالي. الجزء الذي يتلوه سيتناول «أمة الإسلام».

لكن قبل البدء في تناول «معبد العلم المغاربي» ينبغي الاعتراف بأن ثمة اعتبارين يحدان بقوة من قدرتنا على التوصل إلى نتائج ثابتة حول هذه الحركة الدينية. أولاً، كان «معبد العلم المغاربي» وما يزال طائفة شبه سرية ومن الصعب جداً لمن لم يسمح لهم بالانضمام إلى الحركة أن يطلعوا على الثقافة التأسيسية للطائفة. ثانياً، بعد وفاة نوبل درو علي، انقسم «معبد العلم المغاربي» إلى فروع متنافسة بمعتقدات مختلفة إلى حد ما. لذا نجد أن ما يعد معتقداً أساسياً في أحد الفروع قد لا تكون له مصداقية بين أعضاء فرع آخر. من هنا كان ضرورياً أن نمارس قدراً من التمييز والتأني في الخروج بنتائج ثابتة حول «معبد العلم المغاربي».

هـ2. تاريخ

ولد تيموثي درو في الثامن من يناير عام 1886 في سامبسون بكارولاينا الشمالية، ولا تتوفر معلومات واضحة كافية حول حياته قبل عام 1913. غير أنه يبدو أن درو هاجر من نيوجرسي في عامه الرابع عشر. حياته المبكرة في نيوجرسي مضت في تعلم أساليب ممثلي الشوارع وأصحاب الألعاب السحرية. تقول أسطورة العلم المغاربي إنه انضم إلى البحارة المتاجرين عام 1905. بناء على هذه المهنة المفترضة، تمضي الأسطورة لتروي أنه تمكن من الذهاب إلى فلسطين ومصر والهند والمغرب والجزيرة العربية أثناء عمله. بحلول العام 1910، عاد درو إلى نيوجرسي حيث عمل مستخدماً في سكة الحديد وانضم إلى «اتحاد مستخدَمي حافلات البولمان».

تدعي أسطورة العلم المغاربي أنه أثناء ترحاله مع البحارة التجار، أعاد درو اكتشاف موروثه الإسلامي والعرقي. أثناء تلك الأسفار يقال إن ملكة إنجلترا منحته لقب النبالة ومنح اسم علي من قبل عبد العزيز بن سعود (الذي صار فيما بعد ملكاً للمملكة العربية السعودية)،

وأنه منح امتيازاً لإحضار الإسلام إلى الأفارقة الأمريكيين من قبل ملك المغرب، بالإضافة إلى أنه مر بامتحان ديني بأن طلب منه أن يجد طريقه إلى خارج هرم مصري وضع بداخله. ومهما تكن حقيقة هذه الدعاوى الأسطورية، فإن تيموثي درو رجل علّم نفسه بنفسه وأثناء الطريق التقط معلومات من هنا وهناك عن الإسلام والممارسات الدينية الشرقية استطاع أن يعيد صياغتها لتكون حركة دينية فريدة من نوعها ما تزال موجودة حتى الوقت الحاضر.

على الرغم من الدعاوى الأسطورية حول النبيل درو علي ورحلاته، فإنه لا يوجد سجل في وزارة الخارجية الأمريكية يشير إلى أنه سبق أن منح جواز سفر للترحال الدولي. فضلاً عن ذلك يبدو أنه في عام 1907 حاول علي أن يؤسس مذهبا مسيحياً ضمن الموروث المعمداني. لم توفق تلك المحاولة ثم نسيت تماماً. بناءً على هذه النتائج يبدو أنه من المشكوك فيه إلى حد كبير أن يكون علي قد سافر إلى الخارج يوماً ما.

في عام 1913 أسس علي «المعبد الكنعاني» في نيوجرسي، وقيل أن ذلك كان بمشاركة الدكتور سليمان، وهو مصري كان علي قد قابله كما قيل عام 1905 أثناء رحلاته مع البحارة التجار. في ذلك الوقت كان علي يعرف بـ «البروفسور درو، الخبير المصري»، مع أنه سيعرف لاحقاً بالنبيل درو علي. بعد ثلاث سنوات أدى صراع على القيادة إلى انقسام الحركة إلى مجموعتين. إحدى المجموعتين أعادت تسمية نفسها لتصير «المعبد المؤابي المقدس في العالم» وظلت في نيوارك. المجموعة الأخرى، بقيادة علي، صارت تعرف بـ «المعبد المغاربي المقدس للعلم» ثم انتقلت في آخر الأمر إلى شيكاغو بإلينوي عام 1919. في ذلك الوقت بدأ علي يكتب النصوص التأسيسية لـ «معبد العلم المغاربي»، ومن تلك «قرآن» مزيف (أطلق عليه «القرآن الكريم»)[1] سيرد الكلام فيه، ويطور أنشطة تجارية متنوعة ومرتبطة بالعلم المغاربي (مثل المطاعم، والبقالات، والمحلات التجارية المتنوعة، إلى جانب محلات لإصلاح الأحذية)، ومنتجات (مثل الشاي والزيت المعدني، ومركبات الاستحمام، وشراب التونك) وذلك لدعم

(1) مع أن صفة «كريم» هي المتبعة في حالة الإشارة إلى القرآن الذي يؤمن به المسلمون جميعاً، فإن الوصف هنا استعمله أصحاب مذهب «العلم المغاربي» لتمييز كتابهم المزيف فجعلوه هو «الكريم» بدلاً من إطلاق الصفة على الكتاب الذي يعرفه بقية المسلمين، وقد جارى المؤلف استعمال أصحاب المذهب للتوضيح والدقة فيما يبدو.

الاستقلال الاقتصادي لأتباعه. في عام 1928، تغير اسم حركته ليصير «معبد العلم المغاربي في أمريكا»، وقيل أن عدد أعضاء الحركة عندئذٍ في شيكاغو بلغ 1,200.

وجدت رسالة، علي التي كان يبثها في الساحات الخالية والأقبية وزوايا الشوارع والمنازل، قبولاً لدى العديد من أوساط المجتمع الأفرو أمريكي بما تضمنته من دعوة إلى الاعتماد على الذات والقيم العائلية والاعتدال في تناول الطعام والشراب والسلوك القويم والحاجة إلى إعادة اكتشاف هوية وطنية ودينية إيجابية تمثلت في «الأمريكيين المغاربيين» (سيرد الحديث عن هذه في موضع تالٍ ضمن موضوع المعتقدات العرقية). لذا بحلول 1928 كان يمكن العثور على معابد «العلم المغاربي» في أركنساس (باين بلف)، وفي إلينوي (شيكاغو)، وماريلاند (بالتيمور)، وميتشغان (لانسنغ وديترويت)، ونيوجرسي (نيوارك)، وأوهايو (كليفلاند ويونغستاون)، وبنسلفانيا (فيلادلفيا وبتسبرغ)، وفرجينيا (رتشموند وبيترسبرغ)، وفرجينيا الغربية (تشارلستون)، ووسكونسن (ميلووكي). بتنامي الحركة وانتشارها من ولاية إلى أخرى، اتضحت الحاجة إلى شكل من أشكال الإدارة المركزية الرسمية، واستجابة لذلك أوجد علي الحركة المغاربية الوطنية المقدسة في أمريكا الشمالية.

إحدى النتائج المؤسفة لتنامي معابد «العلم المغاربي» ونشاطها التجاري كان تجاوز المنظمة لقدرات علي على الاضطلاع بقيادة صلبة وفاعلة. وبإدراك علي لمحدوديته بدأ يجتذب الأفارقة الأمريكيين لمساعدته ممن كانوا أكثر تعليماً منه وممن كانت لديهم خبرات تجارية أفضل. المأساة كانت في استغلال بعض أولئك من رجال الأعمال لمناصبهم وبدئهم في استغلال مكاتبهم ضمن «العلم المغاربي» للإثراء الشخصي بالسماح ببيع أعشاب متنوعة، وتعاويذ وجرعات سحرية، وما إلى ذلك. هذه الممارسات غير الأخلاقية لم تؤد إلى تقويض الاكتفاء اقتصادي الذي كان علي يريد تحقيقه لأتباعه فحسب، ولكنها أدت أيضاً إلى إدخال ممارسات ومعتقدات دينية مناقضة لرسالة علي التي تدعي أنها إسلامية.

بتزايد الفساد داخل الممارسات التجارية للحركة، تطور صراع للسيطرة على المنظمة. هذه الحرب الداخلية وصلت أوجها في أوائل العام 1929 حين أعلن الشيخ كلود د. غرين،

مدير أعمال علي، نفسه الزعيم الجديد لحركة «العلم المغاربي» وأزال كل أثاث علي من مكتبه. لكن غرين قتل طعناً في 15 مايو، 1929. ومع أن علي لم يكن في شيكاغو عند مقتل غرين، فقد ألقى بوليس شيكاغو القبض عليه وإن أطلق سراحه مقابل رهن.

لم تمض إلا أسابيع قليلة على إطلاق علي برهن حتى مات في ظروف غامضة. قال البعض إنه مات جراء مضاعفات ثانوية نتجت عن الضرب الذي تعرض له أثناء استجوابه من قبل البوليس. آخرون قالوا إنه مات نتيجة ضربه من قبل أعضاء «العلم المغاربي» المعارضين.

مهما يكن سبب موت علي، فإن رحيله أدى إلى زيادة الصراع على الزعامة داخل الحركة. برزت من ذلك أربع شخصيات بوصفها المرشحة الرئيسة لتسلم زعامة الحركة: إيرا جونسون باي، ميلي إل، س. كيركمان باي، وجون غفنز إل. هؤلاء المرشحون الأربعة المتنافسون انحصروا سريعاً في اثنين هما: س. كيركمان باي، سكرتير علي السابق، وجون غفنز إل، سائقه السابق. في اجتماع تضامني تالٍ عقد في 1929، انتخب س. كيركمان باي زعيماً. لكن جون غيفنز إل أعلن أنه إعادة تجسيد للنبيل درو علي، الأمر الذي أدى إلى ظهور أقلية كبيرة من معابد «العلم المغاربي» التي قررت إتباع زعامة سائق علي السابق.

مابين عامي 1929 و1959، بقيت زعامة الأكثرية من معابد «العلم المغاربي» في شخص س. كيركمان باي. مابين 1959 و1967 تولى ف. نيلسون باي الزعامة خلفاً ل. س. كيركمان باي. تبعه بعد ذلك ج. بلاكلي باي من 1967 حتى 1971، ومنذ 1971 ظل زعيم الفرع الأكبر من حركة «العلم المغاربي» هو روبرت لف إل.

عند موت النبيل درو علي عام 1929 كان هناك ما يزيد على 1200 من أعضاء حركة «العلم المغاربي» في شيكاغو وحدها، وربما بلغ العدد الإجمالي لأتباع الحركة من الضخامة مابين 20,000 و30,000. إلى جانب ذلك، قدر أنه في العام 1950 كان عدد الأعضاء والأعضاء السابقين قد بلغ 10,000. أما اليوم فإن عدد أتباع الحركة غير معروف على وجه الدقة، لكن التقديرات هي أنه يوجد حوالي 10,000 منهم مفرقين في 15 مدينة مختلفة على امتداد الولايات المتحدة.

هـ3. أساطير عرقية

إن من الزيف في واقع الأمر أن نفرق بين الأساطير العرقية والمعتقدات الدينية التي يتبناها «معبد العلم المغاربي». الحقيقة هي أن أساطيره العرقية جزء أساسي من معتقداته الدينية. كما أن النبيل درو علي، كما يقال، كان يرى أن من الضروري للناس أن يكون لهم انتماء وطني قبل أن يكون لهم دين. غير أن هذا التمييز، وإن كان مخادعاً إلى حد ما، فإنه يسهل التعريف بهذه المعتقدات.

إحدى مرتكزات رسالة النبيل درو علي كانت الاعتقاد بأن تقدم الأفارقة الأمريكيين بانتقالهم من وضعهم كمواطنين من الدرجة الثانية لا يمكن أن يتم دون إعادة اكتشاف لأصولهم الوطنية والعرقية. لتحقيق هذا الهدف اقترح علي أن الأفارقة الأمريكيين مغاربة، أي من المغرب بالنسبة لأصولهم وأن دينهم الطبيعي والأصلي هو الإسلام، وليس مسيحية الأمريكيين الأوروبيين.

بيد أن أسطورة الأصل العرقي لدى علي لم تتوقف عند تحويل كل الأفارقة الذين جاؤوا من جنوب الصحراء إلى مغاربة من المغرب. افترض أيضاً أن المغاربة جاؤوا أصلاً من آسيا من الشعب الموآبي القديم (المذكورين في «سفر التكوين» بوصفهم من نسل لوط، ابن أخ إبراهيم) ومن الكنعانيين (سكان فلسطين في الفترة التي قاد فيها يوشع بني إسرائيل إلى فلسطين). وهكذا، بشكل عام، كان الأجداد القدامى للأفارقة الأمريكيين في الحقيقة «آسيويين». ادعى علي عندئذٍ أن أولئك الأجداد الآسيويين للأفارقة الأمريكيين هاجروا في فترة ما من الأزمنة القديمة إلى شمال غرب إفريقيا، حيث صاروا يعرفون بالمغاربة. وهكذا بشكل أدق كان أجداد الأفارقة الأمريكيين هم المغاربة.

انطلاقاً من هذه الأساطير العرقية، اقترح علي أن المصطلح الأدق للأفارقة الأمريكيين هو المغاربة الأمريكيون، ورفض بشكل خاص عدة مصطلحات كانت شائعة عندئذٍ للتعريف بالأفارقة الأمريكيين. فقد رفض مثلاً مصطلحات «زنجي» و«أسود» لأن المفترض أنها تشير إلى الموت. كما رفضت «ملونون» لأنها تعني شيئاً تم تلوينه. ورفضت أيضاً «أثيوبيون»

لأنها، كما قيل، تتضمن نوعاً من الانقسام.

ضمن تأكيده على تأسيس هوية عرقية ووطنية جديدة للأفارقة الأمريكيين بوصفهم «مغاربة أمريكيين»، وعظ علي أتباعه بتغيير أسماء العائلات التي أعطيت لأجدادهم أثناء العبودية. (كانت تلك الأسماء في الغالب ليست سوى أسماء ملاّك العبيد) بدلاً من «أسماء العبودية» التي كانت لهم، منح أولئك الأتباع أسماء عائلات تتضمن «باي» أو «إل» التي علمهم علي أنها الأكثر شيوعاً في المغرب. ومع أنه لم يتبن إلا القلة ما ارتآه علي من الأسماء، فإن ذلك، كما قيل، لم يكن مستغرباً داخل الحركة.

كانت العضوية في «معبد العلم المغاربي» وما تزال متاحة فقط لـ «الآسيويين»، ورفض انضمام كل من كانت أصوله أوروبية أمريكية فقط.

هـ4. المعتقدات الدينية

كما سبقت الإشارة في مقدمة هذا القسم، هناك اعتباران يجعلان من الصعب الوصول إلى معرفة موثقة بطبيعة المعتقدات والممارسات التي قام عليها «معبد العلم المغاربي». أول الاعتبارين هو التأكيد على السرية ضمن الحركة. فمثلاً كانت نسخ «القرآن المقدس» الذي جاء به النبيل درو علي قلما يسمح بأن تقع في يد غير الأعضاء. الاعتبار الثاني ناتج عن الحقيقة المتمثلة بانقسام حركة «العلم المغاربي» إلى فريقين متنافسين بعد وفاة علي، الأمر الذي أدى إلى بعض التباين فيما يتعلق بالمعتقدات والممارسات. فبعض معابد «العلم المغاربي»، مثلاً، تعلّم الإيمان بعودة الأرواح، في حين بعضها الآخر يبدو أنه لا يعلّم شيئاً من ذلك. لذا من الضروري الاحتراس والتمييز عند التعريف بمعتقدات وممارسات تلك الحركة.

في هذا القسم نناقش المعتقدات الدينية لـ «معبد العلم المغاربي»، مؤجلين مناقشة الممارسات الدينية إلى القسم التالي. ومع أن هذا التقسيم بين المعتقدات والممارسات الدينية اعتباطي إلى حد ما، فإنه يوفر نوعاً من الإطار التنظيمي والإدراكي الذي نحتاجه.

ادعى النبيل درو علي أنه كان يعلم الإسلام أو «الإسلامية» (Islamism)، وتدعي حركة «العلم المغاربي» أنها جماعة إسلامية أو مسلمة، وفي الحقيقة أن هناك الكثير من العناصر الإسلامية ضمن عقيدة «العلم المغاربي»، غير أن هناك بعض التباينات الواضحة بين الإسلام و«معبد العلم المغاربي».

يشير «معبد العلم المغاربي» إلى الإله بأنه الله، وذلك تمشياً مع الإسلام التقليدي،[1] مع أنه أحياناً يستعمل الاسم المسيحي «أب» حين يشير إلى الله. وانسجاماً أيضاً مع الإسلام التقليدي، يؤكد «معبد العلم المغاربي» على توحيد الله المطلق. لقد جعل النبيل درو علي من توحيد الله «مبدءاً أساسياً» و«العمود الأول والأهم» لـ «معبد العلم المغاربي» عندما كتب:

> الإسلام دين شديد البساطة ... المبدء الأساسي للإسلام هو توحيد الإله (الله). إننا نؤمن بإله واحد، والله هو الإله كله، وهو كل الرحمة، وكل القوة، وهو كامل ومقدس، كله حكمة وكله معرفة، وكله حقيقة...لم يلد ولم يولد لأنه هذه من صفات البشرية الهشة والضعيفة. هذه الوحدانية لله هي العمود الأول والأهم للإسلام وكل اعتقاد آخر يعتمد عليها.

العبارة السابقة لعلي تذكر بالعديد من النصوص القرآنية. بالتحديد يدهش المرء للتطابق بين قول علي «إنه لا يلد ولا يولد» والآية الثالثة من السورة 112 في القرآن.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾

(الإخلاص: 1–4)

---

(1) المقصود بالإسلام التقليدي هو التيار الرئيس من الإسلام، أو الإسلام الذي يعرفه وتتبعه الغالبية العظمى من المسلمين. يستخدم المؤلف صفة «orthodox» ليعبر عن ذلك في سياق الحديث عن مذاهب تدعي الانتماء إلى الإسلام بالقدر الذي يستلزم التفريق بين الإسلام المعروف لدى غالبية المسلمين والإسلام الذي تدعيه تلك المذاهب. وقد وجدت أن كلمة «تقليدي» هي الأقرب إلى ترجمة المفهوم الأجنبي مع أن لها إيحاءات قد لا تكون مقصودة هنا (المترجم).

يعترف «معبد العلم المغاربي»، على نحو يشبه ما يفعله الإسلام، بأن العديد من الأنبياء أرسلوا إلى البشرية. فجنسية «العلم المغاربي» وبطاقة الهوية التي يعطيها لأتباع حركته تقول إنه يقدر عيسى ومحمد وبوذا وكونفوشيوس والنبيل درو علي بوصفهم أنبياء. وفي نصوص أخرى من نصوص «العلم المغاربي» يعترف بمحمد بوصفه مؤسساً للإسلام «الموحد مرة أخرى»، ويشار إلى زرادشت بوصفه أحد الذين يمكن أن يوضعوا إلى جانب عيسى وبوذا وكونفوشيوس والنبيل درو علي. فضلاً عن ذلك، يقول الفصل 48 من «القرآن المقدس» الذي ألفه نوبل درو علي أن ماركوس غريفي كان ممهداً للنبيل درو علي وأن ماركوس غريفي كان بالنسبة لعلي مثل يوحنا المعمدان لعيسى.

إن الإسلام والقرآن يحددان يوحنا المعمدان [يحيى]، وعيسى، ومحمد على أنهم أنبياء الله. فضلاً عن ذلك يشير القرآن إلى العديد من شخصيات العهد القديم بوصفهم أنبياء ويعلن أن هناك العديد من أنبياء الله ممن لم يشر إليهم القرآن بشكل مباشر. غير أنه ليس في القرآن ولا المعتقد الإسلامي التقليدي ما يشير إلى بوذا أو كونفوشيوس أو زرادشت بوصفهم أنبياء، مع أن الآية 17 من السورة 22 فسرت على أنها تعتبر أتباع زرادشت من «أهل الكتاب»، أي أناساً تلقوا كتاباً أوحى به الله إلى نبي من أنبيائه. إلى جانب ذلك، يقول القرآن في الآية 40 من السورة 33 [الأحزاب] أن محمداً كان «خاتم النبيين»، الأمر الذي يجعل الإسلام التقليدي يقول إن محمداً آخر الرسل والأنبياء الذين أرسلوا إلى البشرية. من هنا كان الإسلام يرفض فكرة أن ماركوس غريفي والنبيل درو علي أنبياء من الله.

في عام 1927 نشر النبيل درو علي كتابه «القرآن المقدس»، الذي يعد الكتاب الديني الأساسي لـ «معبد العلم المغاربي» والكتاب المختلف بشكل جذري عن القرآن الذي أوحي به للنبي محمد. قرآن علي يتألف من نص مضغوط في 64 صفحة فقط ومنظم في 48 فصلاً. هذه الفصول يمكن تقسيمها إلى ثلاث وحدات، مع أنه لا توجد علامات فاصلة في ذلك القرآن. الوحدة الأولى تتألف من الفصول التسعة عشر الأولى وتركز على ترجمة غير معترف بها لحياة عيسى. فمما يتضمنه الفصل مثلاً قصة حول عيسى وهو يدرس في الهند مع «رافانا»

عندما كان في الثانية عشرة من عمره. الحقيقة هي أن الوحدة الأولى من «القرآن المقدس» مسروقة من «إنجيل برج الدلو لعيسى المسيح»، وهو كتاب ألفه ليفي داولنغ من ولاية أوهايو والمشتغل بالروحانيات. الوحدة الثانية تتألف من الفصول 20 إلى 44 وتتضمن تعليمات أخلاقية منوعة في مواضيع مثل المسؤولية الاجتماعية، والزواج، الواجبات العائلية، العدالة، تقديم الصدقات، الإخلاص، إلى غير ذلك. ضمن هذه الوحدة يبدو أن الفصول من 20 إلى 25 سرقت من كتاب نشر عام 1923 بعنوان «الحكمة الأبدية». يتضمن «الحكمة الأبدية» أنه نص قديم من التبت ترجم في وقت لاحق إلى الصينية ثم إلى الإنجليزية. الوحدة الثالثة، أي الفصول من 45 إلى 48 تتألف من أساطير عرقية ألفها علي، إلى جانب بعض أفكاره حول الحاجة إلى النقاء العرقي، والتاريخ المسيحي وعلم الأخرويات، وغيرها.[1]

على الرغم من أن النبيل درو علي ألف في حقيقة الأمر «قرآنه المقدس»، فإن أوراق المنظمة التي وثقها «معبد العلم المغاربي» في مقاطعة كوك في ولاية إلينوي، في 20 يوليو، 1928، تقول بالتحديد إن «معبد العلم المغاربي» يستمد قوته وسلطته من «قرآن» محمد.[2] غير أن «القرآن» كان قليل الاستعمال بين أتباع «العلم المغاربي» أثناء حياة النبيل درو علي، ربما لأنه لم يكن متوفراً بترجمة إنجليزية في ذلك الوقت. أما اليوم فيقرأ أتباع «معبد العلم» الترجمات الإنجليزية المعتمدة لـ «القرآن» ويدرسونها.

يقال إن النبيل درو علي كان يعلم أتباعه أن الفرد يتألف من ثلاثة مكونات، هي الجسد المادي، والروح الفردية الخاصة، والروح.[3] حسب نظام الاعتقاد في «العلم المغاربي»، الروح [spirit] ينظر إليها بوصفها غير شخصية وغير فردية، ينظر إليها من حيث هي بلا جنس [ليست ذكراً أو أنثى] وغير متغيرة، ومن حيث هي جزء من روح الله. يكمن الخلاص في إدراك الروح الشخصية [soul] أن الروح غير الشخصية [spirit] متماهية بالله وقبولها

(1) Haddad YY. Smith JI (1993). Fauset AH (1971). and McCloud AM (1995).

(2) يميز المؤلف بين «القرآن الكريم» والكتاب الذي أسماه مؤلفه النبيل درو علي «قرآناً» بتغيير تهجئة الأحرف. فهو يشير إلى القرآن الكريم المعروف بـ Qur›an بينما يشير إلى الكتاب الآخر «الزائف» بأنه «Holy Koran». (المترجم).

(3) يستعمل المؤلف كلمتي «soul» و«spirit» وكلاهما تعني: روح. الاختلاف يظهر في التفاصيل التي يشير إليها. (المترجم).

بذلك. في المقابل، ينظر إلى الجنة والنار من حيث هما مجرد حالتين ذهنيتين. فالسماء مثلاً ينظر إليها بوصفها شرط من شروط الاكتفاء والمتعة الروحيين اللذين يمكن تحقيقهما على الأرض. غير أن الهدف الأبعد ليس الجنة الأرضية وإنما توحد الروح بالله.

بعض جماعات «العلم المغاربي» تربط النظرية المشار إليها أعلاه، بشأن الجسد المادي، والروح الشخصية، والروح غير الشخصية، بمفهوم تناسخ الأرواح. فالموت عند أتباع «العلم المغاربي» الذين يؤمنون بتناسخ الأرواح هو موت الجسد المادي. الروح [soul] عندئذٍ تدخل منطقة الروح، وهذه نوع من الجسر مابين البعدين الروحي والمادي. في منطقة الروح تقيّم حياة الإنسان تقييماً يتعلم منه الإنسان عدداً من الدروس الروحية. وعندما تستوعب تلك الدروس، فإن الروح عندئذٍ تحل في جسد مادي آخر. عملية الموت والحلول مرة أخرى تستمر حتى تتوقف الحاجة إلى الروح الشخصية وتحقق الروح غير الشخصية [spirit] توحدها بالله.

على الرغم من وجود شبه بين بعض عناصر نظرية «الخلاص» المشار إليها، مثل البحث عن الاتحاد الروحي مع الله، وبعض وجوه التصوف الإسلامي، فإن الإطار العام لـ «الخلاص» المشار إليه يحمل شبهاً أكبر بالهندوسية التقليدية منه بالإسلام التقليدي. ففي «التشاندراغوبتا أوبانيشاد» من الهندوسية التقليدية، مثلاً، يتعلم المرء أن «تات تفام آسي»، أي أنك تكون. الهندوسية التقليدية عندئذٍ تقول إنه ليس سوى «مايا» أو الوهم يمنع الذات (في الحقيقة لا يوجد «ذات» لأن فكرة الذات هي نوع من الوهم الذي ينبغي التغلب عليه) من إدراك أن كل شيء هو ذاتية في حالة توحد صوفي. «أتمان» (الروح المتفردة spirit) هي في الواقع «براهمان» (الروح المعممة التي هي كل شيء)، وهدف الحياة هو التغلب على «مايا» (الوهم) والقبول بـ «تات تفام آسي»، والسماح لـ «أتمان» (الروح المتفردة spirit) بالارتباط مرة أخرى بـ «براهمان» في اتحاد تام. وإلى أن يتم التغلب على «المايا» تماماً، فإن «أتمان» يظل سجيناً في عَجَلة «سمسرا» (التناسخ)، في حين أن وضع الجسد المعاد تناسخه (سواء كان إنسانياً من إحدى الطبقات أو حيواناً من أحد الأنواع)

تحدده الـ «كارما» التي كسبها أثناء العملية السابقة مباشرة من التناسخ.

هـ5. الممارسات الدينية

مثل بقية المسلمين في جميع أنحاء العالم، يقف أتباع «العلم المغاربي» باتجاه الشرق، أي باتجاه مكة أثناء صلواتهم. غير أن أتباع «العلم المغاربي» يظلون واقفين طوال الصلاة، على عكس المسلمين الذين يقفون وينحنون، ويركعون، ويسجدون أثناء الصلاة. أكثر من ذلك، لا يتبع «معبد العلم المغاربي» المسلمين الآخرين في ما يقولونه في صلاتهم. في بعض المعابد تفرض ثلاث صلوات يومية. هذه الصلوات تؤدى في الفجر والظهر وعند الغروب. تلك الصلاة منسجمة مع كثير من البقايا الإسلامية التي ذكرها المسنون من الأفارقة الأمريكيين الذين أجريت معهم مقابلات من قبل «مشروع كتّاب السافانا» والذين يرجح أنهم رأوا المسلمين وهم يجمعون صلواتهم اليومية في ثلاث مرات بسبب صعوبات العبودية. ومع أن تكرار الصلاة هو ما تشجعه معابد أخرى فإنها لا تحدد أوقاتاً ملزمة للصلاة.

مثل الإسلام التقليدي، يحدد «معبد العلم المغاربي» يوم الجمعة يوماً خاصة في الأسبوع للأنشطة الدينية.

الأنشطة الدينية في بعض معابد «العلم المغاربي» تراعي الفصل بين الجنسين في الجلوس، وهو ما ينسجم مع الإسلام التقليدي. فضلاً عن ذلك فإن الإمام في الأنشطة الدينية لـ «العلم المغاربي» يتحدث غالباً بصوت خفيض، ويوصف أحياناً بأنه لا يكاد يتجاوز الهمس. وهذا مرة أخرى منسجم مع الإسلام التقليدي حيث أن خطبة الجمعة تلقى بصوت هادئ. معظم ما تتضمنه الخطبة نفسها في «العلم المغاربي» يأتي من «القرآن المقدس» الذي وضعه النبيل درو علي ومن القوانين الخاصة للمعبد. كما تشمل الأنشطة الدينية شهادات شخصية ومجموعة.[1] وتنتهي الأنشطة أحياناً بوقوف الأتباع مواجهين مكة شرقاً، يرفعون أيديهم وأذرعهم بطريقة

(1) وردت الجملة في الأصل بهذا الشكل القلق وغير الواضح: «Personal testimonials and a collection are also included»، فمن غير الواضح ما المقصود بـ «collection» أو «مجموعة» هنا: هل هي مجموعة كلمات أم غير ذلك؟ (المترجم)

تشبه بداية الصلاة عند المسلمين، ثم يتلون «الله، أبو الكون، أبو الحب، والحقيقة، والسلام، والحرية والعدالة. الله الذي يحميني، وهو دليلي، ومخلصي بالليل وبالنهار، عبر نبيّه المقدس، ودرو علي. آمين».[1]

كما هي الحال في الإسلام التقليدي، تخلو الأنشطة الدينية لـ «العلم المغاربي» من الموسيقى، مع أن بعض الأناشيد الهادئة تؤدى أحياناً، وهي أناشيد تعد تنويعاً على تراتيل مسيحية معروفة. ففي إحدى تلك الأناشيد، مثلاً، غيرت «أعطني ذلك الدين القديم...» إلى «دين المسلمين ذلك القديم...».

فيما يتصل باللباس، تقضي تعليمات المعبد أن يلبس الرجال طرابيشاً حمراً طوال الوقت، ويحظر عليهم حلق شعر وجوههم (المسلمون التقليديون ملتحون في العادة)، وفي بعض الحالات على الأقل ينبَّهون إلى عدم لبس ربطة العنق. في بعض جماعات «العلم المغاربي»، توجه النساء إلى لبس غطاء للرأس أو عمامة، وهو ما ينسجم مع الممارسة الإسلامية التقليدية، ويمنعن من وضع الماكياج والألبسة القصيرة، كما يمنع فرد الشعر لكلا الجنسين.

يتعلم المنتمون إلى «معبد العلم المغاربي» بعض الضوابط الأساسية للطعام. فكما هو الحال في الإسلام التقليدي، يحظر «معبد العلم المغاربي» تناول لحم الخنزير والكحول. غير أن بعض جماعات «العلم المغاربي»، لاسيما أولئك الذين يؤكدون على الاعتقاد بالتناسخ، يذهبون إلى أبعد من الحدود الإسلامية ويمنعون أيضاً تناول اللحوم والبيض.

يصر «معبد العلم المغاربي» على أن الزواج ينبغي أن يكون أحادياً [ليس تعددياً] ونادراً ما يسمح بالطلاق.[2] ومثلما يفعل الإسلام، يصر «معبد العلم المغاربي» أيضاً على الواجبات والمسؤوليات العائلية، ويلح على اللباس المحتشم، ويمنع القمار. أعياد «العلم المغاربي» تشمل الثامن من يناير (عيد ميلاد النبيل درو علي)، و15 من يناير (يوم السنة الجديدة بالنسبة لهم)، ويوم العلَم في أغسطس.

---

(1) Fauset AH (1971).

(2) لم يشر المؤلف إلى أن هذا القيد على الزواج والطلاق مخالف لتعاليم الإسلام. وقد يوحي صمته هنا بأنه يرى عكس ذلك، لذا وجب التوضيح (المترجم).

هـ6. نتائج

يتضح أن «معبد العلم المغاربي» يمثل مزيجاً غريباً من بقايا الإسلام، والهندوسية التقليدية، إلى جانب أساطير عرقية فريدة من نوعها. الجوانب المتصلة بالإسلام بشكل خاص من «معبد العلم المغاربي» تشمل: الاعتقاد بالتوحيد المطلق لله؛ الإيمان بنبوة يوحنا المعمدان، وعيسى، ومحمد؛ الإيمان بأن القرآن موحى به للنبي محمد؛ الوقوف باتجاه الشرق واستقبال مكة عند بدء الصلاة؛ تحديد يوم الجمعة يوماً خاصاً للأنشطة الدينية؛ إلقاء الخطب بصوت هادئ؛ غياب الموسيقى عن الأنشطة الدينية؛ اللباس والمظهر المحتشمان؛ الحظر الغذائي على لحم الخنزير والكحول؛ التأكيد على القيم والمسؤوليات العائلية؛ ومنع القمار.

و. أمة الإسلام

و1. مقدمة

مع أن العبودية انتهت نظرياً مع «إعلان العتق»، ومع أن العبودية انتهت في الواقع مع انتهاء الحرب الأهلية والمصادقة على 13 تعديلاً للدستور عام 1865، فإن الممارسة الرسمية للعبودية لم تزد على أن استبدلت بالخدمة التعاقدية، بالمحاصصة الإقطاعية، بالقيود والممارسات اللاإنسانية لقوانين جم كرو، بما فرضه الفصل العنصري من وضعية الطبقة الثانية، بمنع التعليم، بالقيود المفروضة على حقوق التصويت، وبالحد الواضح من الفرص في كل مجالات الحياة تقريباً. فضلاً عن ذلك، فقد وردت تقارير عن حدوث 1,831 حالة «لنتش»[1] مورست ضد الأفارقة الأمريكيين على يد أمريكيين أوروبيين ما بين 1891 و1911، مع وجود تقديرات تضيف 600 حالة «لنتش» لم تسجل. خلال ما لا يزيد على الخمسة عشر عاماً الممتدة ما بين 1900 و1914، تعرض 1,100 إفريقي أمريكي للنتش. هذا في حين تم إحراق 28 وهم أحياء

(1) «اللنش» lynching هو قيام جماعة بعقاب فرد دون محاكمة، وقد ارتبطت هذه الممارسة العنيفة في تاريخ الولايات المتحدة بما كان يفعله بعض البيض تجاه السود من إعدامات بالشنق عادة. وهناك تأويلات مختلفة بشأن الاسم أشهرها يعيدها إلى شخص اسم عائلته «لنتش» كان يمارس ذلك العنف تجاه الأمريكيين المؤيدين للبريطانيين أثناء حرب الاستقلال الأمريكية (المترجم).

مابين العامين 1918 و1921، وكان الكثيرون الذين لم يحصوا قد تعرضوا للنتش وإطلاق النار أو القتل بأساليب أخرى.

في هذا السياق من الكراهية العنصرية والتعصب الأعمى ولدت «أمة الإسلام» عام 1930. مثل «معبد العلم المغاربي» قبلها، بنيت «أمة الإسلام» على أساس من الأساطير العرقية، والعناصر الإسلامية، وبعض المعتقدات والممارسات التي يتضح أن لا علاقة لها بالإسلام. بموت النبيل درو علي عام 1929، وبما تعرض له «معبد العلم المغاربي» من صراعات داخلية وانقسامات حول القيادة، وبقيام «أمة الإسلام» عام 1930، فإنه ليس من المدهش أن ينظم عدد من الأعضاء السابقين في «العلم المغاربي» إلى «أمة الإسلام». على مدى الأربعة عقود التالية، قامت «أمة الإسلام» بالجمع بين رسالة شبه إسلامية وأساطير عرقية صيغت بحيث ترفع من شأن المجتمع الأفرو أمريكي وتغرس شعوراً مطلوباً بالكبرياء العرقية.

لقد ترسخ الاهتمام بأمة الإسلام لدى الأفارقة الأمريكيين نتيجة لاستمرار التعصب والتمييز العرقيين في المجتمع الأمريكي. على سبيل المثال، إذا استثنينا موسى فليتوود ووكر وعدداً من الأفارقة الأمريكيين يعدون على الأصابع في الجمعية الأمريكية القديمة التي تعود إلى ثمانينيات القرن التاسع عشر، لم يسمح للأفارقة الأمريكيين أن يشاركوا في لعبة البيسبول الرسمية حتى عام 1946. وكان لا بد أن تمضي عدة أعوام إضافية لكي يسمح للأفارقة الأمريكيين بالسير في الشوارع دون خوف من أن يعاقبوا باللنتش. وكان ينبغي الانتظار حتى عام 1954، حين اتخذت المحكمة العليا قرارها التاريخي في قضية براون ضد مجلس إدارة التعليم في توبيكا، لكي يمنح الأفارقة الأمريكيون الحق القانوني في الذهاب إلى المدارس العامة في جميع أنحاء الولايات المتحدة. ثم كان من الضروري انتظار أعوام عديدة أخرى قبل أن يفعّل ذلك الحق القانوني، في بعض الأحيان بعد التدخل العسكري من قبل الحرس الوطني. بعد ذلك كان لابد من الانتظار حتى 1964 لكي يقر الكونغرس، بعد تردد، مشروع الحقوق المدنية الشامل فيصبح قانوناً. وكان لابد من الانتظار حتى يأتي «تعديل الدستور» الرابع والعشرين عام 1964 لكي يمنع قانون ضريبة الرؤوس المقيد من أن يكون

معياراً للتصويت في الانتخابات الفيدرالية.[1] وسيحتاج الأمر عدة سنوات أخرى قبل أن يتمكن الأفارقة الأمريكيون من ممارسة حقهم غير المقيد في التصويت. ومع ذلك فإن نهاية الظلم العنصري الذي يسمح به القانون لم يعن نهاية الظلم العنصري الخفي، فهذا وضع ما يزال مستمراً حتى اليوم.

و2. التاريخ

لقد حملت أمة الإسلام أكثر من اسم في تاريخها. كانت قد أسست باسم «معبد الله الإسلامي». فيما بعد غير الاسم ليصير «أمة الإسلام المفقود–الموجود». غير أنها عرفت على المستوى الشعبي على أنها «أمة الإسلام» أو باختصار «الأمة».

يبدأ تاريخ «أمة الإسلام» في صيف 1930 في ديترويت بولاية ميتشغان، برجل عرف بعدة أسماء هي: والاس فارد محمد، وفراد محمد، وف. محمد علي، والبروفيسور فورد، ووالي فراد، وو. د. فارد. وهناك نظريات حول الأصل والخلفية بعدد ما هنالك من أسماء استعملها. قال البعض إنه كان فلسطينياً عربياً، وقال آخرون إن أباه كان جامايكياً من أصل إفريقي وإن أمه كانت مسلمة من سوريا. وقالت نظريات أخرى إنه كان من تركيا، وإنه كان من قبيلة قريش في الحجاز (الذي يشكل الآن جزءاً من غرب المملكة العربية السعودية)، وإنه كان من شبه القارة الهندية، وإنه كان من نيوزيلندا وسبق أن سجن عدة مرات في كاليفورنيا لبيعه الخمور بطريقة غير مشروعة، والمتاجرة بالمخدرات، والاختلاس، والسرقة.

بغض النظر عن أصله أو من أين جاء، فقد كان فارد بياعاً متجولاً في المجتمع الأفرو أمريكي في ديترويت في صيف 1930. كان في البدء يبيع معاطف المطر، وبعد ذلك بدأ يبيع أنواع الحرير التي قال إنها مطابقة لما كان الناس يلبسونه في إفريقيا، وهي منطقة كان يقول إنه زارها.

(1) تعني ضريبة الرؤوس، التي كانت مفروضة في بعض مناطق الولايات المتحدة، أن يدفع المواطن ضريبة لقاء السماح له بالتصويت. وقد أدى ذلك للحيلولة دون اشتراك عدد من الفئات، كالفقراء والأفارقة الأمريكيين والهنود الحمر والأوروبيين غير البريطانيين، في التصويت (المترجم).

الأفارقة الأمريكيون المتلهفون على معرفة أرض أجدادهم بدؤوا يدعونه إلى بيوتهم وإمطاره بالأسئلة. تلك الأحاديث المتبسطة حول وطنهم الإفريقي سرعان ما تحولت إلى سلسلة من الاجتماعات المصغرة التي تنقلت من بيت إلى بيت. وبتنامي الاهتمام، صار من الضروري أخيراً استئجار قاعة لتتسع لكل أولئك الراغبين في سماع شيء عن ذلك الغريب الغامض وهو يتحدث بإسهاب عن إفريقيا وأهلها.

كانت رسالة فارد في البداية مقصورة أساساً على حكايات حول رحلاته في البلاد الأخرى. بالتدريج توسعت رسالته إلى الحديث عن تاريخ الشعب الإفريقي وديانته. في هذه المرحلة المبكرة من كهانته، كان فارد يستعمل «الكتاب المقدس» مصدراً ابتدائياً لتوضيح ما يقول. بعد ذلك بدأ يهاجم الكتاب المقدس بوصفه كتاباً مشوهاً، ويلقي باللوم على الرجل الأبيض لما عاناه الأفارقة الأمريكيون، ويوصي بالتزام بعض القيود الغذائية، إلى جانب تثقيف مستمعيه حول التاريخ العظيم للأفارقة السود، والتأكيد على أن دين أجداد أولئك المستمعين كان الإسلام الذي قال عنه إنه هو الدين الوحيد الصحيح للشعوب الداكنة اللون في العالم، ولدعم دعاواه، كان يستشهد بالكتاب المقدس، وبما ألفه «شهود يهوه»[1] والماسونيون من كتيبات وآثار مختلفة، إضافة إلى كتب التاريخ، والقرآن.

لقد تحولت الاجتماعات التي كانت بداياتها غير رسمية في غرف جلوس مشتتة إلى حركة دينية رسمية لها إجراءاتها في اختبار الأعضاء، وسجل للمجموعات التي يشكلها الأعضاء، مع تراتبية في تشكيل المنظمة، ونظام تعليمي ضخم. صارت هناك فصول لمحو أمية الأعضاء. ثم أسست «جامعة الإسلام» (وهي مدرسة ابتدائية وثانوية). إلى جانب ذلك أنشئ «فصل تدريب الفتيات المسلمات» المنتميات للحركة في أساسيات الاقتصاد المنزلي وكيف يصرن زوجات وأمهات فاعلات. أما الرجال فأنشئت لهم وحدة ذات تنظيم عسكري أطلق عليها «ثمرة الإسلام» هدفها تعليم المجتمع الدفاع عن النفس ضد العنصرية المنتشرة في ذلك

---

(1) شهود يهوه «Jehovah Witnesses» جماعة دينية مسيحية تؤمن بأن العالم يعيش أواخر أيامه قبل يوم القيامة وأن أفراد الجماعة وقلة آخرين سيكونون الناجين في الآخرة. للجماعة، التي تدعي أن عدد أعضاءها يبلغ سبعة ملايين، تفسير خاص للكتاب المقدس (المترجم).

الوقت. فضلاً عن ذلك، كتب فارد كتيبين تعليميين لأتباعه: «الطقس السري لأمة الإسلام» و«التعليم لأمة الإسلام المفقودة الموجودة بطريقة رياضية».(1)

مع توسع الحركة أسس معبد دائم (المعبد 1). بالإضافة إلى ذلك، عين فارد في المنظمة أناساً يشكلون بنية هرمية أكثر تطوراً وبالتدريج عهد إلى مساعد له مهمة إدارة العمل اليومي أسماه «وزير الإسلام». في ذلك الوقت كان الأتباع يشيرون إلى فارد بوصفه نبياً، ويقال أنه وصف نفسه لبوليس ديترويت بـ«الحاكم العظيم للكون»، وعدّه بعض أتباعه مقدساً.

في يونيو من عام 1934، وبعد أن أوجد حركة دينية تعاونية وعرقية مؤلفة من 8,000 عضو (البعض يقدرهم بخمسة وعشرين ألفاً) اختفى فارد بطريقة غامضة تشبه مجيئه. وكما هي الحال في معظم هذه المذاهب عندما يموت أو يختفي قائد مؤثر، فقد اهتزت المنظمة في البدء بالخلافات الداخلية، إلى أن برز من فترة الانقسامات وتضاؤل العضويات إليجا محمد واستلم القيادة بوصفه «وزير الإسلام» لينقل المنظمة من ديترويت إلى شيكاغو حيث أسس «المعبد 2».

ولد إليجا محمد باسم إليجا بول في 7 أكتوبر، 1897، في بولد سبرنغز بالقرب من ساندرسفل في جورجيا. كان والداه من المحاصصين في الزراعة وعبيداً سابقين.(2) وكان أبوه وجده قساوسة معمدانيين. نتيجة الفقر، اضطر بول إلى ترك الدراسة في مرحلة مبكرة ليساعد عائلته في القيام بمهام الفلاحة. عند بلوغه الرابعة عشرة كان إليجا يقوم بنفسه بأعمال مختلفة.

في الثاني من مايو، 1917، تزوج كلارا إيفانز، وولد طفلهم الأول عام 1921. في عام 1923 انتقلت عائلة إليجا بول من الجنوب إلى ديترويت في ميتشغان. هناك تعرف إلى فارد عام 1930 وأعلن بعدها وبسرعة تخليه عن خلفيته المسيحية لكي يعتنق تعاليم فارد، وتخلص من «اسم

(1) عنوان الكتاب الأخير بالإنجليزية هو: «Teaching for the Lost Found Nation of Islam in a Mathematical Way» (المترجم).

(2) المحاصصة نظام زراعي يقوم بموجبه فلاح بفلاحة الأرض واقتسام المحصول مع مالك الأرض، وكان النظام شائعاً في الجنوب الأمريكي حيث العبيد المحررون الذين رأوا في ذلك النظام ما يقيم أودهم (المترجم).

العبودية» بول وسماه فارد بدلاً من ذلك «إليجا محمد». عند توليه قيادة «أمة الإسلام» بعد فارد، عمل إليجا محمد بتأن لتحقيق زيادة مضطردة وإن بطيئة في عضوية المنظمة على مدى العقد التالي. مع مضي الوقت صار لقبه نبي ورسول من الله، في حين اتضح أن فارد صار بنظر من حوله هو «الله» أو تجسد لله. بحلول عام 1946 كانت هناك فروع لأمة الإسلام في شيكاغو وميلووكي وواشنطن دي سي.

في الأيام الأولى من الحرب العالمية الثانية، حث إليجا محمد أتباعه على تجنب التجنيد وعبر عن تضامنه مع الشعب الياباني الذي رأى أنه جزء من مجتمع عالمي غير أبيض. نتيجة لذلك وجهت إليه تهمة التدخل في «مشروع قانون الخدمة الانتقائية» وسجن في الثامن من مايو، 1942. لم يطلق سراحه حتى عام 1946، وقد سجن أيضاً الكثير من أتباعه، منهم أخوه (ولِي) وابنه الأكبر (إيمانويل) لنفس السبب.

في الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين، بدأت «أمة الإسلام» تجتذب اهتماماً متزايداً في أوساط المجتمع الأفرو أمريكي نتيجة لدور الحركة النشط والمناضل ضمن حركة الحقوق المدنية ونجاحها في إعادة تأهيل مدمني الكحول والمخدرات والسجناء. خطب مالكوم إكس (انظر الفصل التاسع) أشعلت رغبة الكثير من الأفارقة الأمريكيين في الانضواء تحت لواء «أمة الإسلام» وأساطيرها العرقية. نتيجة لذلك بدأت وسائل الإعلام الأمريكية في الالتفات إلى حركة إليجا محمد لأول مرة، وبثت شبكة «سي بي إس» فيلماً وثائقياً حول «أمة الإسلام» في صيف عام 1959. في ذلك الوقت، كان عدد أعضاء الحركة يقدر بأقل من 30,000 بقليل. مع تزايد الحضور الإعلامي الذي وفرته شبكة «سي بي إس» ازدادت العضوية إلى أكثر من الضعف خلال شهر واحد. بنهاية 1960 كان هناك 69 معبداً في 27 ولاية، وارتفعت العضوية إلى المائة ألف. بعد ذلك بعامين قدر البعض العضوية بمائتين وخمسين ألفاً، ولربما بلغت في أعلى مستوياتها المليون عضواً.

المزيد من الحضور الإعلامي جاء في أواخر فبراير من عام 1964 عندما أعلن كاسيوس كلاي ذو الاثنين وعشرين عاماً، وقد فاز للتو ببطولة العالم في الملاكمة من الوزن الثقيل بعد

أن كان من شبه المؤكد أن يخسر، انضمامه إلى «أمة الإسلام». في الشهر التالي غير اسمه إلى «محمد علي».

كانت حركة «أمة الإسلام» ناشطة بشكل كبير في تطوير اقتصاد أفرو أمريكي وأسست عدداً من المشاريع التجارية الناجحة في خمسينيات وستينيات القرن العشرين. فقد امتلكت الحركة، مثلاً، بقالات، ومخابز، ومحلات لبيع الملابس، ومطاعم، ومتاجر كبرى، والعديد من المؤسسات التي تقدم خدمات متنوعة، مثل الحلاقة. إلى جانب ذلك بدأت «أمة الإسلام» نشاطاً زراعياً مزدهراً وامتلكت مزارع في ميتشغان وألاباما وجورجيا. حسب ما ذكرته صحيفة الحركة «محمد يتكلم» في 12 نوفمبر، 1971، تألفت مزارع «أمة الإسلام» من حوالي 10,000 هكتاراً (ما يزيد على 15,6 ميلاً مربعاً) تنتج 12,000 دزينة بيض، 2,200 غالون من الحليب، وآلاف الأرطال من البطيخ، وعشرات الآلاف من أرطال الفاصوليا الحمراء.

لقد أدرك إليجا محمد ببصيرة نافذة، وعلى الرغم من أنه لم يتلق من التعليم النظامي سوى سنوات قليلة، أن اقتصاداً أفرو أمريكياً ناجحاً وتحقيق تطور للأفارقة الأمريكيين يعتمد على التعليم. لذا نشطت حركة «أمة الإسلام» في تأسيس مدارس خاصة. في عام 1972، كانت «أمة الإسلام» تشغل 14 مدرسة خاصة في كل منها معلمون مرخص لهم وتتألف سنتها الدراسية من خمسين أسبوعاً. دُعِّمت المواد الأساسية (العلوم، والقراءة، والرياضيات، والتاريخ، والفنون، واللغة) بمادة للغة العربية وأخرى للأساطير العرقية والمعتقدات الدينية لـ «أمة الإسلام». في المدارس يتبع فصل الجنسين وهناك نظام صارم للباس. على الأولاد أن يلبسوا ربطات عنق ومعاطف، والبنات يلبسن ثياباً بيضاء تغطي الركبتين مع أغطية للرأس.

إن السر في اجتذاب «أمة الإسلام» للأفارقة الأمريكيين هو ما توضحه الأفكار التي عبر عنها أحد المنظمين إلى المنظمة عام 1970:

> لقد اجتذبني ما لاحظته بين أعضائها من روح تربط الأخوة والأخوات وما بينهم من حب... كانت رسالة [المنظمة] تتأسس على تحرير الأفارقة الأمريكيين...كنت أرى شباب «أمة

الإسلام» واقفين على مفارق الشوارع في فيلادلفيا وهم يبيعون جريدة «محمد يتكلم»، كما كانت تدعى في تلك الأيام. أولئك الشباب كانت لهم سيماء مميزة وكان يمكن التعرف عليهم من زيهم.

تألف لباسهم من بدلة، وقميص أبيض، وربطة عنق فراشية. كان مظهرهم في غاية الاكتمال وتميزوا بشعر قصير ووجه نظيف (بدون شعر على الوجه). لكنهم كانوا أحياناً يلبسون زي «ثمرة الإسلام» (FOI) الأزرق والأحمر. كان للأخوة، كما كانوا يسمون، مظهر نظيف وسلوك يدل على الذكاء...كانت تلك «أمة الإسلام» إذ تدعو كل الأفارقة الأمريكيين ليأتوا إلى المسجد ويستمعوا إلى القس[1] وهو يتحدث حول قيام الإنسان الأسود وسقوط الإنسان الأبيض...ما جذبني إلى «أمة الإسلام» كان ببساطة البحث عن زوج طيب...فائدة أخرى تمثلت في فصول «تدريب الفتيات المسلمات» (MGT) حيث كنا نتعلم كيف نصير نساءً وكيف نعتني بنظافتنا الجسدية، أي الجسد والشعر. كما كنا نتعلم كيف نحافظ على نظافة وترتيب بيوتنا، وكيف نطبخ ونخيط، ونعتني بأطفالنا. كان الرجال يتعلمون كيف يعاملون زوجاتهم باحترام وكيف يكونون منفقين مسؤولين على عائلاتهم...(كانت هناك) وحدة وترابط بين الأخوات والإخوان.

كما شهدت الحب، والاحترام، والرغبة في إيجاد أنشطة تجارية في المجتمع الأفرو أمريكي. هذه المسألة الأخيرة كانت مهمة، لأن تطور الأعمال التجارية الأفرو أمريكية يسهم مباشرة في التطور الاقتصادي وفي رفع مستوى المجتمع الأفرو أمريكي بأكمله.[2]

قد يكون العامان 1963 و1964 لحظة القمة لـ «أمة الإسلام». في ديسمبر من عام 1963، علقت عضوية مالكوم إكس في الحركة نتيجة لتعليقات غير مناسبة سياسياً صدرت عنه في

---

(1) القس أو minister بالإنجليزية هي الصفة التي يستخدمها أتباع المنظمة على ما يبدو، مثلما يستخدمه المؤلف نفسه للإشارة إلى «الإمام»، وهي إحدى المؤشرات على هيمنة المفردات وبالتالي الرؤية المسيحية على تعامل بعض أتباع المنظمات الإسلامية المشار إليها (المترجم).

(2) Beruni KR (2003). pages 176-179.

أعقاب اغتيال الرئيس جون ف. كنيدي. في مارس من عام 1964، ترك مالكوم «أمة الإسلام» وهاجم أساطيرها العرقية، معلناً اعتناقه الإسلام التقليدي، ومشكلاً منظمة إسلامية خاصة به. فوق ذلك، لم يكن مالكوم الوحيد الذي أدرك على نحو متزايد خروج «أمة الإسلام» على الإسلام التقليدي. أثناء الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين علقت عضوية وارث دين محمد، ابن إليجا محمد، مرتين على الأقل لأنه كان يعلم مبادئ إسلامية تقليدية خارجة عن مبادئ «أمة الإسلام» وبعد كل تعليق كانت تعاد عضويته. كان الانقسام قد بدأ يؤذي إليجا محمد.

ومع ذلك ففي نهاية عام 1972، كان يتبع «أمة الإسلام» خمسون معبداً على الأقل واستمر إليجا محمد في ادعاء أن عضوية المنظمة تضم بضع مئات من الآلاف. في إحدى التقديرات على الأقل كان لـ «أمة الإسلام»، عند وفاة إليجا محمد عام 1975، معابد في ما يزيد على 150 مدينة موزعة عبر الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، وجامايكا، وغانا، وبيرميودا، وبيليز. ويقال أن لجريدة «أمة الإسلام» «محمد يتكلم» توزيعاً أسبوعياً يصل إلى 950 ألف نسخة، ما يجعلها أكبر الصحف الأسبوعية المملوكة لأفارقة أمريكيين في تاريخ الولايات المتحدة.

و3. الأساطير العرقية

أنشأت «أمة الإسلام» أساطير عرقية على منوال ما فعله من قبل «معبد العلم المغاربي». فبعد قرون من تلقين المجتمع الأبيض المهيمن للأفارقة الأمريكيين أنهم أدنى درجة من الناحيتين العقلية والأخلاقية، رسخ في لاوعي أولئك الأفارقة ذلك التلقين وصار جزءً من هويتهم.

لقد توصل نعيم أكبر، وهو عالم نفس أفرو أمريكي، إلى عدد من الطرق التي مارس من خلالها موروث العبودية تأثيره على الهوية والنشاط النفسي للأفارقة الأمريكيين، وأثر من ثم، على نحو سلبي، على أنماطهم السلوكية. افترض أكبر أن موروث العبودية هذا أفرز: 1) موقفاً مشوهاً ومهيمناً ذاتياً بين الأفارقة الأمريكيين تجاه العمل ينظر بمقتضاه إلى الجهد على

أنه شيء يفيد «السيد الأبيض» فقط ويفشل في تحقيق فائدة مباشرة لـ «العبد الأسود»؛ 2) فشل في إدراك حقوق الملكية، الأمر الذي يؤدي إلى نهب وتدمير ممتلكات «السيد الأبيض» والفشل في الحفاظ على ممتلكات «العبد الأسود»؛ 3) عدم احترام القيادة الأفرو أمريكية، على أساس أن تلك القيادة ينظر إليها في الغالب بوصفها إما لعبة في يد «السيد الأبيض» أو تهديد لـ «السيد الأبيض» ربما تجلب العقاب على الأفارقة الأمريكيين؛ 4) ميل للعب دور المهرج لتفادي المسؤولية الذاتية وعقوبة «السيد الأبيض»؛ 5) إحساس عميق بالدونية الشخصية؛ 6) انقسامات مدمرة للذات في أوساط الأفارقة الأمريكيين؛ 7) افتقاد للالتزام والمسؤولية الزوجية والعائلية ناتج عن الطريقة الاعتباطية التي ربى فيها «السيد الأبيض» «العبيد السود» وشتت عائلاتهم من خلال منصة المزاد؛ و8) ممارسة داخلية للتمييز العنصري تبدو في الأغنية التي كانت شائعة يوماً: «أصفر، أنت لين؛ أسمر، لا تبتعد؛ أسود، إذهب إلى الوراء».

لقد حاول «معبد العلم المغاربي» أن يقاوم هذه العقلية بين الأفارقة الأمريكيين بالتأكيد على المساواة العرقية من خلال أساطير عرقية للأفارقة الأمريكيين أبرزت ماضيهم المغاربي العظيم ووفرت نسباً يمكن تتبعه حتى المؤابيين والكنعانيين. «أمة الإسلام» ذهبت إلى أبعد من ذلك بكثير حين استبدلت المساواة العرقية في «معبد العلم المغاربي» بمبدأ أعلن تفوقاً عرقياً كامناً للأفارقة الأمريكيين.

تقول الأساطير العرقية لـ «أمة الإسلام» إن الرجل الأسود كان دائماً وما يزال مقدساً، كان موجوداً عند خلق الكون، وكان داخلياً وفي جوهره مسلماً، وأنتج جسماً كوكبياً يتألف من أرض وقمر مجتمعين. قبل 66 ترليون سنة مضت تقريباً حدث انفجار هائل فصل القمر عن الأرض إلى جسمين كونيين منفصلين، أنقذ منه الرجال والنساء السود من قبيلة «شاباز» من النجاة بأعجوبة ليعيشوا على ما يعرف الآن بالأرض.

بعد الانفصال الكوني للأرض عن القمر، تزايدت أعداد الرجال والنساء السود، وقاموا باستكشاف سطح الأرض والاستيطان عليه، ثم أسسوا حضارات عظيمة على امتداد وادي نهر النيل وفي أماكن أخرى. آذن ذلك بعصر ذهبي من الحضارة السوداء، صارت الإنجازات

العلمية شيئاً معتاداً، وكانت مدة الحياة للأفراد هائلة، واستمتعت البشرية السوداء بعهد طويل من السلام والازدهار. ويبدو أنه أثناء تلك الفترة كتب التاريخ كله مسبقاً على يد 24 عالماً أسوداً يشرف عليهم عالم أسود هو الخامس والعشرين والذي كان يقوم بدور القاضي والمحكم النهائي. ثم بقي كل شيء كما هو لمدة 6,000 سنة بعد ذلك تقريباً.

في العام 4,686 قبل الميلاد بدأ يعقوب، وهو عالم مجنون متمرد على الله، في إجراء تجارب على إيجاد جنس بشري جديد من خلال تغيير جيني لـ«الميكروبين» الموجودين في كل شخص أسود. الميكروب الأقوى بين هذين هو الأسود، والأضعف هو الأسمر، ومن الاثنين تتألف كل الأجناس والإثنيات على الأرض ماعدا البيض. (حسب هذه الأساطير العرقية، ينبغي رفض كلمة «زنجي» واستبدالها بالإنسان الأسود، لأن «الزنجي» ليس أكثر من تعبير جديد اصطنع لفصل السود عن إخوتهم الآسيويين).

واصل يعقوب العمل على أبحاثه لمدة 600 عام. أخيراً في العام 4,086 قبل الميلاد استطاع يعقوب أن يصل بالميكروب الأسمر إلى مرحلته النهائية وهي مرحلة البياض. بذلك الاكتشاف العلمي ولد الجنس الأبيض.

نتيجة للأصول التي ولد منها فإن الجنس الأبيض من الناحية الوراثية في مرتبة أدنى من الجنس الأسود. فإلى جانب افتقارهم للون، يفتقر البيض أيضاً إلى قدسية الإنسان الأسود وإنسانيته وقدرته الأخلاقية على الاحتمال. فالبيض بطبيعتهم أناس كذابون، وقتلة وغادرون. على عكس السود المقدسين والذين ولدوا مسلمين، البيض جنس من الشياطين الزرق العيون المهيئين في دواخلهم لرفض الإسلام. لذا فإنه في حين يأتي السود مسلمين منذ الولادة، فإن البيض يأتون على نحو مغاير. فضلاً عن ذلك، هناك بيض قليلون يمكن اعتبارهم قادرين بشكل استثنائي على أن يكونوا مسلمين نتيجة لفعل إيماني متأخر.

(فيما يتعلق بوصف البيض جميعاً بشياطين زرق العيون، قد يكون ذلك مبنياً على ترجمة مزاجية وحرفية، في مقابل ترجمة اصطلاحية، للآية 102 من سورة طه في القرآن. ففي الإشارة إلى «يوم الحساب»، تترجم هذه الآية بهذا الشكل: «The day when the trumpet

[1].«...will be sounded: that day. We shall gather the sinful. bleary-eyed with terror
في تلك الآية، الكلمة العربية التي تترجم إلى «bleary-eyed» هي «زرقا». الترجمة الحرفية لـ «زرقا» ستكون «blue-eyed». لكن ترجمة أكثر دلالة وصحة من الناحية الاصطلاحية ستكون «bleary-eyed أو blind-eyed».[2]

في الخطة المقدسة للعالم، منح الجنس الأبيض 6,000 سنة ليحكم الأرض، وبانتهاء ذلك الحكم عام 1914 (نفس العام الذي تنبأ تشارلز تيز رسل، مؤسس حركة «شهود يهوه»)، تبدأ حرب كبرى بين الرأسمالية والشيوعية/الاشتراكية التي ستؤدي إلى نهاية الزمان). لقد أتيح للبيض، على مدى ستة آلاف عام، أن يستعبدوا السود، ويدمروا حضارتهم، ويسلبوا شعبهم (شعب قبيلة «شاهباز» الأفرو–آسيوي الأسود) ولغتهم (العربية) وأسمائهم، ودينهم الطبيعي (الإسلام). أتيح للبيض أن يصطنعوا ديانتهم (المسيحية) ويبقوا السود حائرين، أغبياء، ومستعبدين، وجهلة إزاء ماضيهم العظيم وطبيعتهم المقدسة. باختصار، السود أمة ضائعة. في عام 1914، منح البيض تمديداً يصل إلى 70 عاماً ليحكموا وذلك لإتاحة الفرصة للسود كي يكتشفوا أنفسهم كأمة. من هنا جاءت الإشارة المتكررة إلى «أمة الإسلام» بوصفهم «أمة الإسلام المفقودة–الموجودة».

على غرار أخرويات كتاب «النبوآت» في الكتاب المقدس، افترضت «أمة الإسلام» حدوث معركة نهائية بين قوى الخير وقوى الشر تحدث عند نهاية العالم «أرماغيدون»، التي تعرف أيضاً بـ «هار – ما غيدون» أو «ميغيدو» (انظر «النبوآت 16: 16).[3] بيد أن هذا الحدث الرؤيوي يفسر من خلال الأساطير العرقية لـ «أمة الإسلام». لذا يصير «سهل ميغيدو» أو «إسدرايلون» أمريكا الشمالية، وقوى الخير تصير السود، أما قوى الشر فالبيض. بعد «معركة أرماغيدون» يرث السود الأرض، ويطرد البيض.

---

(1) تقول الآية الكريمة: «يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذٍ زرقا». (المترجم).

(2) الترجمتان الإنجليزيتان تشيران إلى صعوبة النظر أو العجز التام عنه، إما بسبب العمش «bleary-eyed» أو العمى «blind-eyed» (المترجم).

(3) «أرماغيدون» والمفردات الشبيهة بها تعود إلى العبرية حيث تشير إلى «معركة ماغيدو»، وماغيدو اسم جبل في فلسطين (المترجم).

بعد هذا العرض الموجز للأساطير العرقية التي تبنتها «أمة الإسلام»، حان الوقت للالتفات إلى الأهداف العرقية لتلك الأساطير. باختصار، دعت «أمة الإسلام» إلى فصل الأجناس. وكالعادة جاء التعبير عن ذلك الفصل على شكل هدف ثلاثي الخطوات. الخطوة الأولى هي الفصل الاجتماعي والشخصي. لذا منع الاختلاط الاجتماعي والتزاوج عبر الأجناس ودعم مبدأ انفصال الأجهزة التعليمية. الخطوة الثانية تمثلت في الفصل الاقتصادي للأجناس وإيجاد اقتصاد أفرو أمريكي منفصل. لتحقيق هذه الهدف وتطوير الأفارقة الأمريكيين مالياً، وُجه الأعضاء إلى التسوق فقط في المخازن الأفرو أمريكية وشراء المنتجات الأفرو أمريكية فقط. الخطوة الثالثة والأخيرة كانت الفصل السياسي للأجناس. للوصول إلى هذا المبتغى سعت «أمة الإسلام» إلى دولة مستقلة أو منطقة تخصها ضمن الإطار الجغرافي للولايات المتحدة.

إن الأساطير العرقية التي ابتدعتها «أمة الإسلام» لا تشبه شيئاً حتى من بعيد في الإسلام المعروف. بشكل أدق، الانعزالية العرقية لـ «أمة الإسلام» تتناقض مباشرة مع الأخوة الإنسانية بين البشر التي دعا إليها الإسلام. فكما سبقت الملاحظة في الفصل الرابع، ليس للعرق أو الإثنية دور في إضفاء التفوق أو الدونية على أحد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾. (الحجرات: 13)

«أيها الناس اتقوا الله وإن أمر عليك عبد حبشي مجدع فاسمعوا له وأطيعوا ما أقام فيكم كتاب الله».[1]

(1) يستشهد المؤلف هنا بنص طويل نسبياً بوصفه «خطبة الوداع» للنبي ﷺ، ولكن النص، كما سبقت الإشارة في هامش الفصل الرابع، حيث يستشهد المؤلف بالخطبة نفسها، لم يرد في أي من المصادر المعروفة على النحو الذي يورده وإنما هو مجموعة نصوص من الخطبة نفسها ومن أحاديث مختلفة. لذا اكتفيت هنا بما ورد في الأصل.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقي وفاجر شقي أنتم بنو آدم وآدم من تراب ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن».

و4. المعتقدات الدينية

انطلاقاً من بقايا الإسلام في المجتمع الأفرو أمريكي، ادعت «أمة الإسلام» أنها إسلامية مؤكدة أن الدين الأصلي والأصيل للأفارقة الأمريكيين هو الإسلام. غير أن المعتقدات الأساسية لـ «أمة الإسلام» كانت في الغالب متناقضة بشكل حاد مع الإسلام التقليدي. كمثال أولي على هذا الاختلاف بين الإسلام و«أمة الإسلام» تأمل مفهوم الإله.

كما في الإسلام التقليدي، قالت «أمة الإسلام» إن الله هو الإله. لكن أوجه الشبه تنتهي هنا. فقد ادعت «أمة الإسلام»، مثلاً، أن كل الأفارقة-الآسيويين مقدسون وأن الإنسان العظيم بينهم هو الله. هذا الإنسان الأسود العظيم أو الله قيل عندئذٍ أنه تجسد في شخص و. د. فارد. بادعاءات كهذه خالفت «أمة الإسلام» مخالفة تامة أكثر المبادئ أساسية في المعتقد الإسلامي في الوقت الذي ادعت فيه أن الأفارقة-الآسيويين مختلفون عن الله فقط في الدرجة.

مثل الإسلام التقليدي من قبل، اعتقدت «أمة الإسلام» أن عيسى المسيح ومحمد كانا نبيين من أنبياء الله. لكن «أمة الإسلام» قالت، في واقع الأمر، إن العديد من الحكايات الرمزية التي نسبت إلى عيسى في الكتاب المقدس (مثل الحمل المفقود والابن الضال) كانت إشارة إلى الأفارقة الأمريكيين. ومع ذلك فإن أمة الإسلام أكدت أن عيسى كان أقل نبوة بكثير من محمد. بمقارنة كهذه، وقفت «أمة الإسلام» وقفة مناقضة وبشكل مباشر لتعاليم القرآن.

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾. (البقرة: 136)

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾. (البقرة: 285)

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾. (النساء: 152)

بالإضافة إلى ذلك، خالفت «أمة الإسلام» المعتقد الأساسي في الإسلام حين ادعت منذ البدء أن و. د. فارد نبي الله ثم ادعت أن إليجا محمد نبي ورسول من الله. فوق ذلك، شاع الاعتقاد في أوساط الحركة أن إليجا محمد لن يموت فعلياً وإنما سيختفي لمدة قصيرة ليس أكثر. بعد ذلك سيعود مع الله المتجسد في فارد. ضمن الإسلام التقليدي، ينظر إلى النبي محمد على أنه آخر الأنبياء إلى البشرية جمعاء. إنه خاتم النبيين، ولن يكون بعده نبي.

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾.

(الأحزاب: 40)

أحد المعتقدات الستة الأساسية في الإسلام هي أنه سيأتي اليوم الآخر وستكون هناك حياة أخروية لكل فرد سواء في الجنة أو في النار. على عكس هذا الاعتقاد الإسلامي، اعتقدت «أمة الإسلام» أنه لن تكون هناك حياة أخروية ولن تكون هناك جنة أو نار غير تلك الموجودة

على الأرض. النار على الأرض ناتجة عن حكم البيض، في حين أن الجنة على الأرض ستنتج عن حكم السود.

في ما يتعلق بالنص المقدس، قبلت «أمة الإسلام»، بالاسم، أن القرآن نصهم المقدس. وللمرء أن يتساءل كيف تأتى لأعضاء «أمة الإسلام» أن يتخطوا باستمرار التناقض بين القرآن، من ناحية، والمعتقدات الدينية والأساطير العرقية لـ «أمة الإسلام»، من ناحية أخرى. الإجابة تكمن في حقيقة أن الأعضاء علموا أنهم ليسوا مهيئين بعد للقرآن. لذا يمكنهم أن يحتفظوا بقرآن وعليهم أن يضعوه في مكان رفيع ومبجل، لكنهم ليسوا جاهزين لقراءته وفهم رسالته. من هنا جاء تجاهل معظم أعضاء «أمة الإسلام» للقرآن مصدراً للتعاليم الدينية، على الرغم من اعتباره النص المقدس المعلن للحركة.

في الحقيقة كان الكتاب المقدس (البايبل) يستعمل في «أمة الإسلام» بنفس القدر، إن لم يكن أكثر، من استعمال القرآن بينهم. ومع ذلك فإن الحركة كانت، كما هو الإسلام التقليدي، تشير وبسرعة إلى أن الكتاب المقدس كان كتاباً محرفاً ومشوهاً إلى حد بعيد.

و5. الممارسات الدينية

الدخول في «أمة الإسلام» كان نوعاً من «طقوس المرور» التي تعني استبدال المبتدئ هويته السابقة بوصفه عضواً في شعب ضائع بهوية جديدة بوصفه عضواً في شعب الأفارقة الأمريكيين المقدسين الذي وجد من جديد. «طقوس العبور» هذه يدعمها اضطرار المبتدئ أن يغير سلوكه واسمه ودينه وهويته العرقية والوطنية.

حين يقرر المبتدئ أن ينظم إلى عضوية «أمة الإسلام»، عليه أن ينسخ رسالة/نموذجاً إلى إليجا محمد. هذه الرسالة/النموذج ينبغي أن تنسخ بدقة تامة تشمل أصغر الحروف وعلامات الترقيم. أي خطأ من أي نوع يؤدي إلى إعادة الرسالة واضطرار المتقدم أن يعيد نسخ الرسالة/النموذج.

بمجرد قبول الرسالة يمنح المبتدئ اسماً جديداً. وفي العادة أن هذا الاسم يتألف من الاسم الأول للمبتدئ، وإلغاء اسم العائلة الذي كان قد حدد لجده المستعبد من قبل السيد الأبيض، ووضع الحرف «X» بديلاً لاسم العائلة السابق. استعمال الحرف «X» كان ذا قوة رمزية. لقد مثل شيئين: المتغير غير المعروف الذي كان اسم العائلة لجد المبتدئ قبل العبودية، ومبدأ أن حياة المبتدئ قبل انضمامه تعد شيئاً سابقاً.[1] إن كان في المعبد الذي انضم إليه المبتدئ شخص آخر بنفس الاسم الأول، فإن المبتدئ يمنح رقماً يسبق الـ «X». على هذا يصير جون 3 X هو الشخص الثالث الذي ينظم إلى ذلك المعبد باسم جون. أحياناً كان إليجا محمد يقوم في وقت لاحق بمنح اسم عربي الأصل ليحل محل الـ «X».

إلى حد ما كان في الإسلام التقليدي ما يشبه التغيير المشار إليه. بعض معتنقي الإسلام كانوا يغيرون أسماءهم إلى أسماء عربية. غير أن هذا التغيير لم يكن مطلباً لتحول الإنسان إلى مسلم، وقد اختار العديد من معتنقي الإسلام ألا يغيروا أسماءهم.

تقوم الممارسة الدينية في الإسلام على خمسة أعمدة. هذه الأعمدة هي: الشهادة (قول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)، أداء الصلوات الخمس المفروضة في أوقاتها كل يوم، صيام الشهر الإسلامي رمضان، أداء الزكاة (التي تعني عادة تقديم 2,5٪ مما يزيد من المال إلى المحتاجين)، وأداء الحج إلى مكة على الأقل مرة واحدة في العمر. هذه الأعمدة الخمسة أجرت «أمة الإسلام» تعديلات بارزة على معظمها.

فيما يتعلق بالعمود الأول من تطبيق الإسلام، شهادة أن لا إله إلا الله، أشارت «أمة الإسلام» إلى أن الإله هو الله واعترفت بمحمد رسولاً لله. غير أن الحركة مضت لتعرف بالله بطريقة مختلفة تماماً عن الإسلام التقليدي واعترفت بأنبياء بعد محمد.

العمود الثاني هو الصلاة (الصلوات الخمس المفروضة) التي يسبقها وضوء. أكدت «أمة الإسلام» بالفعل على الوضوء قبل الصلوات، وعلمت أتباعها أداء الصلوات الخمس في أوقات محددة منسجمة مع جدول الصلوات الإسلامية. فضلاً عن ذلك، اشترطت «أمة

(1) يستعمل المؤلف حرفي ex اللذين يسبقان الكلمة بالإنجليزية ليعنيان شيئاً سابقاً، وهما حرفان يلفظان كما يلفظ حرف «x» وحده.

الإسلام» على أعضائها أن يتوجهوا نحو مكة في صلواتهم. لكن صلوات «أمة الإسلام» لم تتضمن الأوضاع والحركات المتنوعة التي يقوم بها المصلي في الإسلام التقليدي أثناء أداء صلواتهم. فليس هناك انحناء أو ركوع أو سجود. أكثر من ذلك، يختلف المحتوى اللفظي للصلوات في «أمة الإسلام» اختلافاً جذرياً عما يقوله المسلمون.

فيما يتعلق بالأعمدة المتبقية من الممارسة الدينية الإسلامية، أدخلت «أمة الإسلام» تعديلات كبيرة على كل واحدة منها. بدلاً من الصيام الإسلامي أثناء شهر رمضان القمري، أدخلت «أمة الإسلام» صياماً أثناء الشهر الشمسي ديسمبر. أصرت «أمة الإسلام»، من ناحية أخرى، على أن تعطى الزكاة للحركة، وهذا مخالف للقواعد الإسلامية التي تنظم الزكاة. وفي حين أعلت «أمة الإسلام» كثيراً من أداء الحج، فإنها لم تجعله مطلباً ينفذه القادرون جسمانياً ومادياً.

كانت هناك ممارسات أخرى في «أمة الإسلام» أقرب إلى الإسلام. فمثلاً، لم يكن مسموحاً للأعضاء أن يشربوا الكحول، أو أن يأكلوا لحم الخنزير، أو أن يقامروا، أو أن يدخلوا في علاقات زنا. كما منعت الملابس المثيرة، والكاشفة، واللماعة، والصارخة، وفُصل الرجال عن النساء أثناء النشاط الديني. إلى جانب ذلك حثت «أمة الإسلام» على الابتعاد عن ممارسات عديدة حث الإسلام أيضاً على اجتنابها، مثل التدخين، والرقص، والإكثار من تناول الطعام، والخلوة غير الشرعية. ومن التوافق أيضاً أن «أمة الإسلام» وقفت، كما فعل الإسلام، ضد التعامل بالربا في البنوك وضد الزواج من خارج الجماعة. (في الإسلام يمكن للمسلم أن يتزوج مسلمة أو مسيحية أو يهودية، في حين أن المرأة المسلمة لا تستطيع الزواج من غير المسلم). مثلما فعل الإسلام، حثت «أمة الإسلام» على عدم الطلاق وأكدت الروابط والمسؤولية العائلية.

ممارسات أخرى تبنتها «أمة الإسلام» ولا يوجد ما يوازيها في الإسلام. فقد منع أتباع أمة الإسلام من أكل خبز الذرة والكرنب، ومنعت معظم أنواع أدوات التجميل، وطلب من الأعضاء الذكور أن يكونوا حليقي اللحى وأن يكون شعر رؤوسهم قصيراً طوال الوقت.

و6. أمة الإسلام بعد إليجا محمد

مات أليجا محمد في 25 فبراير 1975. بعد موته بفترة وجيزة، تسلم القيادة ابنه وارث دين محمد، الذي كانت آخر إعادات تعيينه في «أمة الإسلام» قد جرت في السنة التي سبقت وفاة والده. بدأ الابن بسرعة في إعادة تفسير بعض جوانب فلسفة الأب ورفض بعضها الآخر. وكان مما رفض بشكل خاص الأساطير العرقية للحركة إلى جانب تأليه فارد. أثناء فترة الانتقال تلك، غير وارث دين محمد اسم «أمة الإسلام» ليصير «المجتمع العالمي للإسلام». وفي عام 1982 تغير اسم الحركة مرة أخرى، ليصير هذه المرة «الإرسالية الأمريكية الإسلامية». ثم في مايو من عام 1985، ألغيت «الإرسالية الأمريكية الإسلامية» من قبل و. د. محمد الذي قاد الأعضاء السابقين في «أمة الإسلام» إلى المجتمع العالمي للإسلام التقليدي.

لكن كان هناك من رفض الانضمام إلى الإسلام التقليدي وكذلك قيادة و. د. محمد. فقاد لويس فرخان وجون محمد – الأخير هو أخو إليجا محمد – انقساماً داخل الحركة، ثم قاد كل منهما بعض أعضاء «أمة الإسلام» في مجموعة منفصلة. المعارك القانونية التي نتجت عن ذلك في المحاكم الأمريكية استنفدت ثروة الأول وممتلكات «أمة الإسلام». وفي نهاية المطاف، نجح لويس فرخان في الاستيلاء على معبد شيكاغو والسكن السابق لإليجا محمد. أما و. د. محمد فقد باع العديد من المدارس والأعمال التجارية التي كانت سابقاً لـ «أمة الإسلام» ليغطي التكاليف القانونية الناتجة عن التقاضي.

انفصل لويس فرخان عن قيادة و. د. محمد عام 1977. وبعد ذلك بسنتين أعاد «أمة الإسلام» إلى الوجود وبدأ ينشر جريدة داخلية، اسمها «الدعوة الأخيرة». وقد قدر أهاريوف مؤخراً أن «أمة الإسلام» التي أعادها فرخان ربما تألفت من حوالي مائة معبد وخمسين ألف عضو.

يمكن تلخيص معتقدات وممارسات «أمة الإسلام» التابعة لفرخان على النحو التالي:

1) يعتقد الأعضاء أنه لا إله إلا الله، الذي جاء في شخص و. د. فارد.

2) فارد هو أيضاً مسيح المسيحيين ومهدي المسلمين.

3) إليجا محمد رسول من الله.

4) إليجا محمد لم يمت جسدياً وإنما بدا كذلك.

5) القرآن مقبول بوصفه كتاباً موحىً به، والأتباع مطالبون أن يؤمنوا بالكتب المقدسة التي سبقته، كالكتاب المقدس. غير أنه نظر إلى الكتاب المقدس على أنه قد غير وأن من الضروري إعادة تفسيره. ومع ذلك فإن كلا الكتابين، القرآن والكتاب المقدس، يستعملان في الطقوس الدينية.

6) هناك من الأنبياء ما يعادل عدد الكتب المقدسة المنزلة عبر الزمن.

7) ينظر إلى بعث الموتى على أنه عملية ذهنية وليست بعثاً جسدياً بأية حال.

8) يؤمن الأعضاء بالحساب. هذا الحساب يراه الأعضاء كما في تعليمات «أمة الإسلام» الأصلية، أي أنه سيحدث أولاً في أمريكا.

9) الفصل العنصري مستمر، ويستمر كذلك بث الكثير من الأساطير العرقية التي وضعها إليجا محمد.

10) صيام ديسمبر ما يزال مستمراً في تعارض مع صيام رمضان، مع أن فرخان اقترح على الأعضاء أن يصوموا أيضاً خلال رمضان.

11) المبتدئون ما يزالون مطالبين بإرسال نموذج طلب للعضوية وطلب لتغيير الاسم. غير أن حرف «X» لم يعد جزءاً من الاسم، وإنما يعطى المبتدئ اسماً عربياً.

12) التعليمات المتعلقة بالزكاة والحج لم تعد مهمة، بينما تقديم الصدقات للمنظمة يبقى محل اهتمام.

إن «أمة الإسلام» التي أعاد جون محمد تأسيسها أصغر بكثير من مجموعة لويس فرخان ويحتمل أنها تتألف من عدد يقل عن الألف عضو. المعتقدات والممارسات الأساسية لهذه

المجموعة يقال أنها منسجمة تماماً مع التي سبق أن وعظ بها إليجا محمد وتتضمن الآتي:

1) جاء الله في شخص و. د. فارد.

2) إليجا محمد كان آخر أنبياء الله، ومات موتاً جسدياً في الخامس والعشرين من فبراير، 1975، ولن يعود.

3) الجنس الأبيض هو الشيطان.

4) صيام ديسمبر يستمر بديلاً لصيام رمضان الإسلامي.

5) كل الأعمدة الخمسة في الإسلام مرفوضة.

و7. ملخص

على الرغم مما يبدو للقراء المعاصرين من غرابة في بعض المعتقدات التي قامت عليها «أمة الإسلام»، فقد قدمت الأساطير العرقية التي تبنتها الحركة للأفارقة الأمريكيين بديلاً ضرورياً لمقاومة النظرية الكريهة الممقوتة حول دونية الأفارقة الأمريكيين والظلم العرقي والتعصب الأعمى التي كانت شائعة في المجتمع الأمريكي. أهم من ذلك، قدم «أمة الإسلام» خدمة لمئات الآلاف من الأفارقة الأمريكيين بأن هيأ لهم فرصة تقودهم إلى اعتناق الإسلام بقيادة و. د. محمد. إن «أمة الإسلام»، لكونها تطورت جزئياً من بقايا الإسلام في المجتمع الأفرو أمريكي، يمكن اعتبارها حركة انتقالية إلى الماضي حيث الموروث الديني لأجداد الأفارقة الأمريكيين الحاليين، الأجداد الذين كانوا مستعبدين أصلاً.

ز. نتائج

مع أن إسلام الملايين من الأفارقة المستعبدين لم يستطع أن يقاوم قروناً من العبودية وقرناً من تشريع جم كرو الذي حل بأحفادهم – على الأقل لم يبق بشكله النقي وعلى نحو شديد

التنظيم، فإن ما تبقى من الإسلام ترك أثره على الحياة الأفرو أمريكية. الذكريات الباهتة والجزئية للأجداد المسلمين، والممارسات الدينية الخاصة ببعض الكنائس الأفرو أمريكية، إلى جانب الموسيقى الأمريكية التي تمثل العمق الأمريكي والمعروفة بالبلوز، والحركات الدينية مثل «معبد العلم المغاربي» و«أمة الإسلام»، كل ذلك يشهد بأن البقايا الإسلامية ظلت حاضرة.

8. المهاجرون

1. مقدمة

بينما كان الأفارقة المسلمون يجلبون إلى العالم الجديد عبيداً، كان المسلمون من أنحاء العالم يهاجرون طواعية إلى الأمريكتين لسبب أو لآخر. بالنسبة لبعض أولئك المهاجرين الأحرار، ربما انحصر الإغراء في حب المغامرة. آخرون رأوا ما يعد بحياة أفضل، الحصول على تعليم جامعي أو ما بعد الجامعي، أو تفادي مصاعب اقتصادية معيقة في بلدانهم الأصلية. غير أولئك ربما بحثوا عن مهرب من الاضطهاد السياسي أو الديني. بتعبير آخر، الأهداف، الأحلام، والتطلعات التي دفعت بالمهاجرين المسلمين ربما لم تختلف جذرياً عن تلك التي اجتذبت المهاجرين غير المسلمين.

العديد من الأمريكيين يعتقدون أن الهجرة الإسلامية إلى أمريكا ظاهرة جديدة نسبياً. لكن السجلات التاريخية تشير بوضوح إلى أن المسلمين كانوا يهاجرون بوصفهم رجالاً ونساءً أحراراً منذ قرون. لقد حارب المسلمون المهاجرون لتحقيق الاستقلال الأمريكي من بريطانيا العظمى أثناء حرب الثورة. كما ساعد المهاجرون المسلمون في السيطرة على الغرب الأمريكي المتوحش. صحيح أن عدد المسلمين المهاجرين إلى الأمريكتين ظل محدوداً إلى أن انتهت الحرب الأهلية. غير أن موجات متتالية من المهاجرين المسلمين بدأت تدخل الولايات المتحدة بأعداد كبيرة ابتداءً من نهاية القرن التاسع عشر وعلى امتداد الجزء الأكبر من القرن العشرين.

يقدم الفصل الحالي عرضاً موجزاً لتاريخ المسلمين الذين هاجروا طوعاً إلى الأمريكتين. ضمن هذا الإطار سيكون تركيز الفصل على أولئك المسلمين الذين هاجروا إلى ما أصبح الآن الولايات المتحدة القارية.

2. المهاجرون الأوائل

ب1. مقدمة

المعلومات حول أوائل المسلمين الذين هاجروا طوعاً إلى الأمريكتين هي بالضرورة قليلة إلى حد ما. غير أن بعض أولئك المهاجرين الأوائل حققوا سمعة سيئة بما يكفي لأن تبقى بعض نتف من تاريخهم. من أولئك الأشخاص هناك اثنان يستحقان الإشارة إليهما. هؤلاء هما يوسف بن -ان- هالي في القرن الثامن عشر و«حاجي» علي في منتصف القرن التاسع عشر. كلا الاثنين هاجرا إلى ما يعرف الآن بالولايات المتحدة، وكلاهما خدم بلاده الجديدة بشرف في الجيش الأمريكي، وكلاهما حقق قدراً من الشهرة الباقية بين معاصريهم. قصصهم وقصص آخرين من المهاجرين المسلمين الأوائل ترد فيما يلي.[1]

ب2. الإخوة وهب

تحطمت سفينة الإخوة وهب الذين كانوا يحملون شحنة من الخيول العربية على السواحل البعيدة لكارولاينا الشمالية في العقد السابع من القرن الثامن عشر أو قبل ذلك بقليل. يقال أنهم كانوا مبعوثين من ملك عربي وجههم بمهمة نشر الإسلام في العالم الجديد. بعد نجاتهم من تحطم السفينة، أقام الإخوة وهب، وتزوجوا، وبدؤوا يزرعون، ثم أسسوا «قرية وهب»، وهو موقع «نزل» ما يزال أحفادهم يملكونه.

ب3. يوسف بن علي

يبدو أن يوسف بن علي (ويعرف أيضاً بأسماء أخرى هي يوسف بن -ان- هالي وجوزيف بينينهالي أو بينينهالي) يعود إلى أصل عربي من شمال إفريقيا في القرن الثامن عشر، وربما يكون

(1) يستعمل المؤلف كلمة «notoriety» لوصف الشهرة التي حققها المهاجرون الأوائل. والكلمة تعني الشهرة السيئة في مقابل كلمة «fame» التي تعني الشهرة الإيجابية أو الطيبة. وقد أبقيت على المعنى الحرفي للكلمة الأولى، أي المعنى الذي تؤكده المعاجم، على الرغم من أن ما يقوله المؤلف عن أولئك المهاجرين يتضمن شهرة إيجابية لا سيئة.

من المغرب. مع أنه وصف في وقت من الأوقات بأنه «تركي» فإن هذا الوصف استعمل على الأرجح فقط لأن الإمبراطورية العثمانية سيطرت على معظم شمال إفريقيا في ذلك الوقت ولأن المقيمين في تلك الإمبراطورية كانوا في الغالب يسمون «أتراكاً». وعلى الرغم من قلة المعلومات عن حياته قبل مجيئه إلى أمريكا، فقد اقترح البعض أنه كان إما قرصاناً أو أنه ممن أسرهم القراصنة.

على أية حال، كان يوسف قد عثر عليه في الأحراش الأمريكية من قبل الجنرال توما سومتر الذي جند يوسف إلى صفه في محاربة البريطانيين في حرب الاستقلال. كان يوسف جندياً استطلاعياً للجنرال سومتر وكان من أوائل المتطوعين في لواء الجنرال سومتر. بعد الحرب انتقل يوسف مع سومتر إلى منطقة قريبة من ستيتبرغ في مقاطعة سومتر، في كارولاينا الجنوبية. مع أنه كان من ضمن من شملهم إحصاء 1790 لمقاطعة سومتر، فإن اسمه لم يرد في القائمة الإحصائية لتلك المقاطعة. فيما بعد تزوج يوسف من إليزابيث ملر وأنجبا ثلاثة أطفال: فرانسس بينينهالي، وهو صبي ولد حوالي 1802؛ وجوزيف بينينهالي، وهو صبي ولد حوالي 1805؛ ولوكاديا، وهي ابنة ولدت في 12 مارس، 1809. تزوج فرانسس بينينهالي امرأة اسمها سارة أنجب منها خمسة أطفال: جيمس س.، وقد ولد حوالي 1835؛ وجون و.ن وقد ولد حوالي 1843؛ وهنرييتا، وقد ولدت حوالي 1845؛ وفرانسس و. وقد ولد حوالي 1847، وإليزابيث، وقد ولدت حوالي 1849. تزوج جوزيف بينينهالي امرأة اسمها كاثرين أنجب منها على الأقل خمسة أطفال: وليم، ولد حوالي 1838؛ وتوماس، ولد حوالي 1840؛ وإليزابيث، ولدت حوالي 1842؛ راندال، ولد حوالي 1845؛ وماري أ.، ولدت حوالي 1846. أما لوكاديا بينينهالي فقد تزوجت وليم تيلور الذي أنجبت منه إما سبعة أو أحد عشر طفلاً.

أحفاد يوسف بن علي ما زالوا يعيشون في مقاطعة سومتر، كارولاينا الجنوبية، حيث يعرفون بـ «أتراك مقاطعة سومتر».

ب4. «حاجي» علي

لا يعرف سوى القليل عن «حاجي» علي قبل هجرته إل الولايات المتحدة. حتى اسمه عند الولادة غير معروف، وهناك خلاف حول مكان مولده. قيل أنه ولد في تركيا وقيل في سوريا وقيل مصر أيضاً، مع أن معظم المصادر تشير إلى سوريا. ولد حولي عام 1828 لأب عربي وأم يونانية، وصار مسلماً قبل عام 1856 حيث اتخذ اسم علي، ثم حج إلى مكة فأضاف لقب «حاجي» إلى اسمه. قيل أنه في شبابه عمل مع الجيش الفرنسي في الجزائر. ووصفه أولئك الذين عرفوه فيما بعد في الولايات المتحدة بأنه عربي قصير، ممتلئ الجسم، واتكالي.

في عام 1856 غادر مدينة سميرنا[1] غرب تركيا وسافر إلى الولايات المتحدة على سفينة الشحن «سبلاي» مع شحنة مكونة من 33 جملاً اشتراها للجيش الأمريكي الرائد هنري س. وين والملازم أول د. د. بورتر، الأول من الجيش الأمريكي والثاني من البحرية الأمريكية. كان علي والجمال جزءاً من مشروع يطوره جيفرسون ديفيز، وزير الحرب عندئذٍ في عهد الرئيس فرانكلين بيرس والذي صار بعد ذلك رئيس الولايات الكونفدرالية الأمريكية. كان ديفز يحث الجيش على تجربة الجمال كوسيلة للنقل في صحاري جنوب الغرب الأمريكي. شراء الجمال وتوظيف علي راعياً لها كانت ردة فعل مباشرة لما كان ديفز يحث عليه. في شحنة تالية من الجمال من الشرق الأوسط ارتفع عدد الجمال إلى 74 وعدد الرعاة إلى ستة.

دخل علي الولايات المتحدة عبر إنديانولا في تكساس في 10 فبراير، 1856. في 25 نوفمبر، 1856، بدأ العمل في الجيش الأمريكي راعياً للجمال في فالفيردي بتكساس، وبراتب قدره 15 دولاراً شهرياً. في ذلك الوقت تقريباً، أخذ الأمريكيون غير المعتادين على لفظ اسم علي يشوهون اسم «حاجي علي» بجعلها «هاي جولي»، ليلتصق به التشويه بقية حياته.

في 25 يونيو، 1857، غادر علي سان أنطونيو بتكساس مع حملة الجمال التي قادها الملازم إدوارد فتزجيرالد بيل. سارت الحملة إلى إل باسو بتكساس، ومن هناك إلى ألبيكركي في مقاطعة نيو مكسيكو. من ألبيكركي، سارت الحملة عبر الصحاري الشمالية لنيو مكسيكو

(1) سميرنا مدينة تركية قديمة تحولت إلى إزمير حالياً (المترجم).

لتصل إلى نهر كولورادو في 18 أكتوبر، 1857. من هناك استمرت الحملة إلى فورت تيجون في كاليفورنيا. من 1 نوفمبر، 1859، إلى 31 مايو، 1860، استمر علي يعمل في الجيش في فورت تيجون راعياً للجمال، وكان يتقاضى 30 دولاراً شهرياً. بحلول 29 يوليو، 1861، عاد ليعمل في الجيش مرة أخرى راعياً للجمال في لوس أنجلس، في كاليفورنيا وكان راتبه قد ازداد إلى 50 دولاراً شهرياً وكان مسؤولاً عن 31 جملاً، ثم فصل مرة أخرى في 5 أغسطس، 1861، ليعود بعد ذلك في 17 نوفمبر، 1862، وكان راتبه هذه المرة 35 دولاراً شهرياً في سان بيدرو بكاليفورنيا. ثم زيد راتبه إلى 50 دولاراً شهرياً في الأول من مايو، 1863. وفي الأول من يوليو، 1863، ارتفع راتبه إلى 75 دولاراً شهرياً، ورقي إلى راكب سريع تشتمل واجباته على حمل البريد السريع إلى فورت موجافي. بعد ذلك بستة أشهر بالضبط، في الأول من يناير، 1864، نقل إلى بينيسيا ديبو، في كاليفورنيا ليصير مساعد رئيس عربة راتبه 90 دولاراً شهرياً. في تلك الوظيفة ظل مسؤولاً عن جمال الجيش حتى 29 فبراير، 1864.

تجربة الجيش للجمال فشلت إلى حد بعيد لأن البغال والخيول في جنوب الغرب الأمريكي لم تكن قد رأت الجمال وفزعت عند رؤيتها. الأعداد الكبيرة من البغال والخيول الهاربة ما لبثت أن دفعت المدنيين إلى إطلاق النار على الجمال حيثما رأوها ويقال أن العديد من الجمال قتل بهذه الطريقة. أخيراً استجابة لشكاوى المدنيين، ألغى الجيش الأمريكي تجربة الجمال، وتم بيع بعضها أو منحها، في حين أطلق سراح البعض الآخر ليمضي على غير هدى ويتوالد في الصحراء.

من بين الجمال التي احتفظ بها بعض الأفراد، حصل علي على العديد واستعملها لبدء خط شحن بين يوما وتوسان في مقاطعة أريزونا. فشلت العملية في نهاية المطاف وبعد تردد أطلق علي جمله الأخير بالقرب من غيلا بند في عام 1868. ما بين 13 من مايو، 1868، والسابع من أغسطس، 1869، استعان الجيش مرة أخرى بعلي ليعمل رئيس تعبئة في فورت ماكدويل في مقاطعة أريزونا، براتب قدره 100 دولاراً شهرياً. في 25 أكتوبر، 1869، بدأ العمل كمعبئ براتب قدره 45 دولاراً شهرياً.(1) في الأول من يناير، 1870، تغير واجباته ليصير دليلا

(1) هبوط الراتب من 100 دولار إلى 45 دولار يلفت النظر ولكن المؤلف لم يفسره، وقد يكون هناك خطأ طباعي =

ومستكشفاً، وهي وظيفة استمر فيها حتى يونيو 1870.

في عام 1880، صار علي مواطناً أمريكياً باسم فيلبب تيدرو وفي نهاية العام نفسه، تزوج غيرترودس سيما من توسان. نتج عن الزواج بنتان رباهما علي لتكونا مسلمتين. غير أن الحياة المستقرة لم تكن ما يبحث عنه علي، ففي 1889 انطلق بعيداً ليقضي بقية سنوات عمره يبحث عن الذهب في أريزونا من كابينة صغيرة في تايسونز ويلز (صارت الآن كوارتزسايت، أريزونا).

توفي «حاجي» علي في تايسونز ويلز في 16 ديسمبر، 1902. حسب الأسطورة المحلية، مات حين ذهب إلى الصحراء باحثاً عن جمل متوحش. عندما عثروا على جسده، كانت إحدى ذراعيه ملتفة على الجمل الميت. في 1938، قدر قسم الطرق السريعة في أريزونا إسهامات علي في تحقيق الاستيطان في الغرب الأمريكي بإقامة نصب تذكاري على قبره وبدفن رماد آخر جمل للحكومة معه. يعد النصب الأكبر بفارق كبير في المدينة ويعلوه جمل نحاسي كبير اعترافاً بمساهمة علي في تجربة الجمال في الجيش الأمريكي. يقول النقش على الضريح:

المخيم الأخير لهاي جولي، الذي ولد في مكان ما في سوريا حوالي 1828.

مات عند كوارتسايز في 16 ديسمبر، 1902. جاء إلى هذه البلاد في 10 فبراير، 1856. راعي جمال معبئ مستطلع ولما يزيد على ثلاثين عاماً مساعد مخلص للحكومة الأمريكية.

الدور الذي لعبه حاجي علي في برنامج الجمال في الجيش الأمريكي هو ما صورته سيرة موغلة في الخيال تضمنها فيلم بعنوان «هومبز» جاء ليخلد تلك السيرة.

= جعل الراتب 45 بدلاً من 145، وهو الرقم المنطقي. وقد يلاحظ القارئ أن تفاوتاً مشابهاً قد حدث عند رصد المؤلف لمرتبات علي حين كان راعياً للجمال في كاليفورنيا، حيث هبط الراتب من 50 إلى 35، دون أن يفسره المؤلف أيضاً (المترجم).

ب5. نتائج

الأخوان وهب، يوسف بن -ان-هالي، و«حاجي» علي، لم يكونوا بالتأكيد المسلمين الوحيدين اللذين هاجروا إلى الأمريكتين كأشخاص أحرار. كان هناك آخرون حاضرين دون شك منذ فترة مبكرة، غير أن إرثهم التاريخي لم يسجل بأدنى تفصيل. مثلاً يلاحظ محمد (2001) أن مسلمَين لم يذكر إسماهما، وهما رجل وامرأة من الجزائر نزلا في فرجينيا عام 1786 ثم سافرا براً إلى تشارلستون في كارولاينا الجنوبية. غير أن مصيرهما النهائي ما يزال غير معروف. فضلاً عن ذلك، تشير إحصائية الولايات المتحدة لعام 1820 أنه كان في ذلك الوقت في الولايات المتحدة 21 تركياً يفترض أن أكثرهم مسلمين.

مثال آخر للمسلمين الأحرار المهاجرين إلى الأمريكتين يأتي من فترة ما بعد العبودية في جزر الكاريبي التي كانت تسيطر عليها بريطانيا. بعد إلغاء الرق عام 1807 ظهر نقص هائل في العمالة، الأمر الذي دفع وليم برنلي، وهو مالك عقار ثري من ترينيداد، لكي يقترح أن يجلب أشخاصاً من شبه القارة الهندية ليكونوا عمالاً. لذا شهد القرن التاسع عشر مجيء ما يزيد على 500,000 من الهنود، معظمهم من المسلمين، يهاجرون إلى جزر الكاريبي.

ج. موجة إثر أخرى

ج1. مقدمة

من المعترف به بشكل عام أن أربع موجات متتالية من الهجرات الإسلامية إلى الولايات المتحدة بدأت بنهاية الحرب الأهلية الأمريكية عام 1865. في نهاية القرن التاسع عشر، بدأت الهجرة إلى الولايات المتحدة تتصاعد بشكل حاد. مهاجرون من مختلف أنحاء العالم بدؤوا يتقاطرون على الضفاف الأمريكية بحثاً عن حلمهم الأمريكي الذي حددوه سلفاً. حسب نظرية الموجات الأربع، لم يكن المسلمون استثناءً من هذه الظاهرة، وقد شهدت نهاية القرن التاسع عشر والقرن العشرون موجة أولى وثانية وثالثة ورابعة من المهاجرين الأمريكيين.

المشكلة في نظرية الموجات الأربع أنها لا تولي اهتماماً للمسلمين المستعبدين الذين جلبوا من إفريقيا إلى الأمريكتين بدءاً بالقرن السادس عشر وامتداداً حتى مطلع القرن التاسع عشر. إن الطبيعي هو أن ينظر إلى أولئك المهاجرين بوصفهم الموجة الأولى من الموجات المتتالية إلى أمريكا، على الرغم من أن تلك الموجة لا ينظر إليها في الغالب بوصفها كذلك. لذا أعيدت صياغة نظرية الموجات الأربع المتعلقة بهجرة المسلمين فيما يلي. بدلاً من الحديث عن موجة أولى حتى رابعة من هجرات المسلمين، يقترح هذا الفصل موجة ثانية حتى خامسة.

ج2. الموجة الثانية

بالنظر إلى إعادة صياغة نظرية الموجات الأربع لتصير نظرية خمس موجات، يمكن النظر إلى الموجة الثانية من الهجرات الإسلامية بوصفها قد حدثت ما بين نهاية الحرب الأهلية الأمريكية وبداية الحرب العالمية الأولى.

كانت الهجرة الإسلامية إلى الولايات المتحدة قبل الموجة الثانية قليلة، نتيجة، من ناحية، للقوانين القائمة التي تحكم التجنيس الأمريكية. قانون الهجرة لعام 1790 نص على أن البيض فقط يمكنهم أن يكونوا مواطنين للولايات المتحدة، ولاشك أن هذا ثبط من رغبة العرب والهنود والمسلمين الأفارقة من ذوي اللون الأسمر في الهجرة إلى الولايات المتحدة. مع أن تفاصيل ذلك القانون ظلت قائمة طوال فترة الموجة الثانية من الهجرة الإسلامية إلى الولايات المتحدة، فقد تمت المصادقة على التعديل رقم 14 للدستور الأمريكي في 1868 الذي نص على أن كل شخص يولد في الولايات المتحدة يعد مواطناً أمريكياً بشكل تلقائي، بغض النظر عن العرق أو اللون. هكذا أمكن للمهاجرين المسلمين السمر البشرة أن يتطلعوا إلى أن يكون أطفالهم مواطنين أمريكيين طالما أن أولئك الأطفال ولدوا في الولايات المتحدة، حتى وإن ظلت تلك المواطنة غير ممكنة للمهاجرين.

أثناء الموجة الثانية من هجرة المسلمين، تألف المهاجرون المسلمون إلى الولايات المتحدة في المقام الأول من عرب ينتمون إلى الإمبراطورية العثمانية الذين استقروا على امتداد الساحل

الشرقي وفي أماكن متفرقة داخل الولايات شرق نهر الميسسبي. كمثال على منطقة الاستيطان من النوع الأخير، تأسست مكة[1] في إنديانا عام 1873 على يد مسلمين عرب. من حيث الانتماء إلى دول معاصرة، جاء العرب المسلمون في الموجة الثانية من المهاجرين مما يعرف اليوم بسوريا، لبنان، الأردن، فلسطين. بالنسبة للكثير من المهاجرين العرب، كان هاجس البحث عن فرص اقتصادية دافعاً قوياً وراء الهجرة. لذا ليس من المدهش أن يؤدي «المعرض المئوي في فيلادلفيا» لعام 1876، و«المهرجان العالمي في شيكاغو» لعام 1893، و«المهرجان العالمي في سانت لويس» لعام 1904، إلى زيادات في عدد المهاجرين من العالم العربي.

ومع ذلك لم يكن المسلمون من سوريا ولبنان وفلسطين هم الذين شكلوا الموجة الثانية من المهاجرين المسلمين إلى أمريكا. بدءً بنهاية القرن التاسع عشر، دُعمت الموجة الثانية بمسلمين من شبه القارة الهندية، الكثير منهم هاجروا في البدء إلى كندا قبل أن ينتقلوا جنوباً إلى الولايات المتحدة. لكن لسوء الحظ، جاء المكون الهندي للموجة الثانية صغيراً نسبياً، وأحد أسباب ذلك عنصرية قوانين التجنيس الأمريكية، التي نصت على أن البيض فقط يمكنهم أن يكونوا مواطنين أمريكيين.

بالرغم من ذلك استطاع مهاجر هندي واحد هو بدر الدين عبد الله كور أن يقف في وجه ذلك التمييز العنصري. كان بدر الدين مسلماً ثرياً من بومباي هاجر فيما يبدو إلى الولايات المتحدة بعيد الحرب الأهلية. في عام 1873 كان قد أسس «الحركة الإسلامية للدعاية الأمريكية»، والتي كان هدفها نشر الإسلام بين الأمريكيين.[2] بحلول عام 1891، كانت فروع هذه الحركة قد انتشرت في عدد من المدن الأمريكية الكبيرة، ووصلت العضوية كما قيل إلى عدة مئات في عام 1900.

بالإضافة إلى المهاجرين العرب والهنود، تضمنت الموجة الثانية مسلمين من جنوب

(1) يشير المؤلف إلى الاسم المستعمل للبلدة بالإنجليزية (Mecca) ثم يتلوها بالاسم كما ينبغي أن يكتب، أو الاسم الفعلي للمدينة التي تحمل البلدة الأمريكية اسمها وهو (Makkah). وهذا الاسم الأخير هو ما دأب المؤلف على استعماله في مختلف فصول الكتاب (المترجم).

(2) تضمن اسم الحركة كلمة Propaganda (the American Propaganda Islamic Movement) التي تحمل الآن مدلولاً سلبياً لكلمة «دعاية» لكن من الواضح أن الكلمة لم تحمل ذلك المدلول حين استعملت (المترجم).

شرق أوروبا، من أماكن، على سبيل المثال، تعرف الآن بألبانيا والبوسنة وكوسوفو واليونان وأوكرانيا. فيما يتعلق بالمهاجرين البولنديين/الأوكرانيين الذين وصلوا في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع العشرين، ينبغي ملاحظة أن حوالي 3,000 منهم استوطنوا نيويورك ونجحوا في إيجاد «الجمعية المحمدية في أمريكا» مقرها بروكلين، نيويورك، عام 1928، إلى جانب بناء مسجد في بروكلين في ذلك العام، واستطاعوا أن يحافظوا على هويتهم الاجتماعية حتى الخمسينيات والستينيات. بالإضافة إلى ذلك، أسس المسلمون الألبان مسجداً في بديفورد في ولاية مين عام 1915، ومسجداً ثانياً في كونيتيكت عام 1919. كما أسست مجموعات أخرى من المهاجرين المسلمين مساجد في مدينة روس بولاية داكوتا الشمالية عام 1912، وفي هايلاند بارك، في ميتشغان، عام 1912، وفي برجفورد في مين عام 1915، وفي واتربري في مين عام 1919، وفي ميتشغان سيتي في إنديانا، عام 1924، وفي ديربورن في ميتشغان عام 1924، وفي سيدار رابدز في أيوا، عام 1925، وفي كوينسي في ماساشوستس، عام 1930، وفي غراند رابدز في ميتشغان، عام 1932، وفي ساكرامنتو في كاليفورنيا، عام 1941.

لسوء الحظ فقد الكثير من أحفاد أولئك المسلمين الذين شكلوا الموجة الثانية من المهاجرين إسلام أسلافهم. أصبح الكثير من أولئك، إما عن طريق الزواج من غير مسلمين أو من خلال الذوبان في الحياة الأمريكية المسيحية المهيمنة، مندمجين تماماً في الحياة الأمريكية من دون إسلام.

ج3. الموجة الثالثة

إذا كانت الأعوام الواقعة مابين الحرب الأهلية الأمريكية وبداية الحرب العالمية الأولى قد شكلت الموجة الثانية من هجرة المسلمين، فإن الفترة ما بين نهاية الحرب العالمية الأولى وبداية الحرب الثانية شكلت الموجة الثالثة.

أثناء هذه الفترة، تركت قوانين الهجرة وقرارات المحكمة الجديدة أثرها على الهجرة الإسلامية إلى الولايات المتحدة مداً وجزراً. فقد حكمت المحاكم الأمريكية في قضية

الولايات المتحدة ضد بالسارا عام 1910، مثلاً، أن الهنود الأسيويين قوقازيون، ولذلك فإن المهاجرين من شبه القارة الهندية يستحقون أن يكونوا مواطنين أمريكيين. هذا القرار صادقت عليه المحكمة العليا في قرار أجكوي كومار مازومدار لعام 1913. غير أن ما حصل عليه المسلمون نتيجة لتلك القرارات انمحى بسرعة نتيجة لقانون الهجرة الصادر عام 1917 الذي أوجد «المنطقة الممنوعة على الآسيويين» لتُمنع بموجبه الهجرة من الهند وأفغانستان والجزيرة العربية. ما تضمنه قانون الهجرة لعام 1917 خفف إلى حد ما ما تضمنه «قانون حصص الأصول الوطنية» لعام 1921. فحسب ما تضمنه التشريع الأخير، فإن الهجرة السنوية من البلاد الأخرى تقيد بثلاثة بالمائة من العدد الكلي للأشخاص المنتمين إلى تلك الجنسية الذين يعيشون في الولايات المتحدة. وفر هذا نافذة صغيرة من الفرص للمهاجرين المسلمين. غير أنه بعد ثلاث سنوات فقط قلل قانون الاستثناء من الهجرة (المعروف بـ«قانون الاستثناء الشرقي» و«قانون جونسون–ريد») من النسبة لتصير 02٪ بدلاً من 03٪ ومنع منعاً تاماً هجرة أي شخص ليس مؤهلاً للحصول على الجنسية الأمريكية، كما في حالة الأشخاص غير القوقازيين. في عام 1929 صدر قانون هجرة آخر أعاد نسبة الثلاثة من عشرة بالمائة.

برز من بين الموجة الثالثة عدد كبير من المهاجرين المسلمين الفقراء من اليمن الذين نجحوا في التحايل على مضامين «قانون الهجرة» لعالم 1917. الكثير من أولئك بدؤوا العمل في «شركة فورد للسيارات» وأسسوا مجتمعا مزدهراً في ديربورن بميتشغان. مسلمون يمنيون آخرون أقاموا في بافالو بنيويورك حيث وجدوا عملاً في الصناعة الثقيلة. هاتان المجموعتان ما تزالان موجودتين حتى اليوم. عدد أقل من المسلمين اليمنيين تجمعوا في بروكلين بنيويورك.

شملت الموجة الثالثة من المهاجرين المسلمين أيضاً عدداً قليلاً من منطقة البنجاب في شبه القارة الهندية. غير أن عدد أولئك كان قليلاً نتيجة للمعايير المتغيرة باستمرار التي أوجدها التشريع والقرارات القضائية الأمريكية. كان «قانون الهجرة» لعام 1917 قد منع المهاجرين من الهند وهذا الاستثناء الشامل للمهاجرين المسلمين من شبه القارة الهندية لم يلغ حتى صدر «قانون حصص الأصول الوطنية» في 1921. بعد ذلك لم تتجاوز الهجرة من شبه القارة الهندية

نسبة الثلاثة من عشرة بالمائة (من 1921 حتى 1924 و1929 وما بعده) أو اثنان من عشرة بالمائة (من 1924 حتى 1929) من عدد الهنود المقيمين في الولايات المتحدة. بيد أن هذا التخفيف الضئيل من القيود على الهجرة من شبه القارة الهندية ما لبث أن أنهي تماماً نتيجة لعدد من الأحداث.

كما سبقت الإشارة، منع «قانون التجنيس» لعام 1790 منح المواطنة لأي مهاجر ليس أبيضاً. وبدا أن هذا القيد قد رفع حسب قرار المحكمة العليا لعام 1913 بشأن أكجوي كومار مازومدار. في ذلك الوقت، كانت المحكمة العليا قد أعلنت أن الأشخاص القادمين من شبه القارة الهندية كانوا قوقازيين ومستحقين بالتالي للمواطنة الأمريكية. لكن المحكمة في قضية الولايات المتحدة ضد بهاغافات سنغ ثند في عام 1923 ناقضت نفسها جزئياً. قررت المحكمة بتعبير مبسط أن بشرة المهاجر القوقازي إذا كانت أكثر سمرة من المعتاد فإنه يمكن حرمانه من المواطنة. فيما يتعلق بالحالة المعروضة أمام المحكمة، مع أن المدعي كان قوقازياً حسب شهادة ذوي الخبرة العلمية، فإنه ليس قوقازياً حسب إدراك رجل الشارع القوقازي العادي. لذا فإن من الممكن منعه من الجنسية وقد منع منها بالفعل. فضلاً عن ذلك تم إلغاء الجنسية الممنوحة للمسلمين القادمين من شبه القارة الهندية الذين سبق منحهم إياها. ومن الواضح تماماً أن هذه المواقف وتشعباتها القانونية عملت بقوة على الحد من هجرة المسلمين من شبه القارة الهندية.

غير أن الحد من الهجرة تحول بسرعة إلى منع فعلي. وكما سبقت الملاحظة، فإن قانون الاستثناء من الهجرة لعام 1924 منع هجرة الأفراد الذين لم يكونوا مستحقين للحصول على الجنسية. بتمرير ذلك التشريع أصبح العدد الضئيل من المهاجرين المسلمين الذي كان يتسرب متوقفاً تماماً. وبمنع أولئك المهاجرين المسلمين من شبه القارة الهندية الذين سبق دخولهم الولايات المتحدة من الجنسية أو بسحب جنسيات من سبق منحهم إياها، غادر الكثيرون في نهاية الأمر إما إلى أوروبا أو إلى بلادهم في آسيا.

قبل الانتهاء من مناقشة الموجة الثالثة من المهاجرين المسلمين إلى الولايات المتحدة، من

المهم التوقف عند حياة أحد أولئك المهاجرين. إنه الشيخ «الحاج» داوود أحمد فيصل الذي ولد عام 1891. كان أبوه وجده لأبيه من قبيلة بامبارا في المغرب. جدته لأبيه ولدت في موريتانيا، مع أن نسبه يعود إلى شبه القارة الهندية. كانت أمه من الكاريبي، وكان قد هاجر إلى الولايات المتحدة شاباً وتزوج من زوجته خديجة عام 1920. بعد ذلك بدأ برنامجاً دعوياً لنشر الإسلام بين الأمريكيين، الأفارقة الأمريكيين في المقام الأول. في عام 1928 أسس «مركز نشر الإسلام في أمريكا» في بروكلين، نيويورك. بعد ذلك بستة أعوام أسس «قرية مدينة السلام الإسلامية»[1] بالقرب من فشكل في نيويورك. في عام 1965، نشر «مركز نشر الإسلام» كتابه «الإسلام الدين الصحيح، دين البشرية» الذي جاء في 280 صفحة. وفي فبراير 1980 توفي فيصل.

ج4. الموجة الرابعة

موجة رابعة من المهاجرين المسلمين إلى الولايات المتحدة بدأت بعد انتهاء المواقف العدائية عند نهاية الحرب العالمية الثانية. استمرت هذه الموجة دون توقف حتى مطلع الستينيات من القرن العشرين. طغى على الموجة الرابعة مهاجرون من شبه القارة الهندية وفلسطين.

«قانون الاستثناء الصيني المعاد» لعام 1943 ألغى ما تضمنه «قانون الاستثناء من الهجرة» لعام 1924، بأن سمح مرة أخرى للمسلمين من شبه القارة الهندية بالهجرة إلى الولايات المتحدة. بعد خمس سنوات، فتح «مشروع قانون لوس سيلر» لعام 1946 الباب للمهاجرين من شبه القارة الهندية ليحصلوا على الجنسية الأمريكية. لكن لسوء الحظ لم يعط شبه القارة الهندية في البداية سوى حصة لا تتجاوز المائة من المهاجرين سنوياً. بحصول شبه القارة الهندية على الحكم الذاتي من بريطانيا العظمى عام 1947، تزايدت بشكل كبير أعداد طالبي الهجرة وعلى نحو فاق ما كان مسموحاً به. لكن لحسن الحظ جاء قانون الهجرة لعام 1952 ليزيد من عدد المهاجرين المسموح لهم من شبه القارة الهندية. نتيجة لذلك بدأ المهاجرون

---

(1) في الأصل: «Muslim Village Madinah Al-Salaam».

المسلمون مما يعرف اليوم بالهند وباكستان وبنغلاديش بالوصول بأعداد كبيرة لأول مرة.

أولئك المهاجرون من شبه القارة الهندية صاروا بسرعة قوة مؤثرة في الشؤون الإسلامية في أمريكا. فقد أسسوا في سبعينيات القرن العشرين «الدائرة الإسلامية في شمال أمريكا (آي سي إن أي)» بوصفها منظمة إسلامية للمتحدثين بالأردية. في عام 1980 غيرت اللغة الرسمية للدائرة إلى الإنجليزية وأصبحت واحدة من أوائل المنظمات الإسلامية الوطنية الواسعة الانتشار في أمريكا. وقد أسهم المهاجرون من شبه القارة الهندية أيضاً في تشكيل الجمعية الإسلامية في شمال أمريكا (آي إس إن أي) لتكون مظلة لمختلف المجموعات والمنظمات الإسلامية المحلية والإقليمية في الولايات المتحدة وكندا. منذ ذلك الحين أصبحت قيادة (الآي سي إن أي) و(الآي إس إن أي) بيد المنحدرين من مهاجري شبه القارة الهندية.

نتيجة للحرب العربية الإسرائيلية الأولى وقيام دولة إسرائيل عام 1948 أجبر مئات الآلاف من الفلسطينيين من أرض أجدادهم وأرغموا على التحول إلى مهاجرين. بعض أولئك الفلسطينيين وجدوا ملجئاً في الأردن وسوريا وبلاد عربية أخرى، ولكن الكثيرين بدؤوا الهجرة إلى أمريكا. بشكل عام شكل أولئك الفلسطينيون طبقة مهنية وعالية التعليم بين المهاجرين.

حوالي نهاية الموجة الرابعة بدأ المسلمون من جنوب الصحراء الإفريقية بالهجرة إلى أمريكا. من ناحية كانت الهجرة نتيجة للرحلة الإفريقية التي قام بها مالكوم إكس ودعوته للشيخ أحمد حسون للمجيء إلى أمريكا لتعليم الإسلام التقليدي في «المسجد الإسلامي، المحدود» الذي أسسه مالكوم إكس.[1]

ج5. الموجة الخامسة

الموجة الخامسة من المهاجرين المسلمين إلى الولايات المتحدة بدأت بعد إقرار «قانون

(1) تشير صفة «محدود» هنا إلى أن ما أسسه مالكوم إكس منظمة وليس مسجداً فحسب: The Muslim Mosque. Inc (المترجم).

الهجرة والتجنيس» لعام 1965 الذي ألغى نظام الحصص القومية للمهاجرين. بدلاً من الحصص، سمح القانون لمائة وعشرين ألفاً من المهاجرين من النصف الغربي للكرة الأرضية ومائة وسبعين ألفاً من النصف الشرقي بدخول الولايات المتحدة كل عام. ومع ذل فقد حدد20,000 مهاجر من كل دولة في النصف الشرقي. ثم حققت الهجرة الإسلامية إلى الولايات المتحدة تقدماً آخر من خلال «قانون الهجرة» لعام 1978، الذي ألغى نظام الحصص في نصفي الكرة الأرضية وسمح بعدد إجمالي يبلغ 299,000 من المهاجرين كل عام.

إلى جانب ما تضمنه «قانون الهجرة والتجنيس» لعام 1965، و«قانون الهجرة» لعام 1978، فقد كان للأحداث الجيوبوليتيكية في الشرق الأوسط دور في الدفع بهذه الموجة الخامسة من المهاجرين المسلمين. هنا تجدر الإشارة إلى الدور الحاسم لثلاثة أحداث. الاحتلال الإسرائيلي عام 1967 للضفة الغربية أدى إلى ترحيل مئات الآلاف من الفلسطينيين المسلمين، الذين لجأ الكثير منهم إلى الولايات المتحدة. ثورة عام 1979 في إيران التي أدت إلى قيام الجمهورية الإسلامية هناك دفعت بأعداد كبيرة من الإيرانيين المسلمين إلى البحث عن مناخ سياسي أقل كبتاً في الولايات المتحدة. وأخيراً، نتجت الحرب الإسرائيلية في لبنان عام 1982 إلى هجرة أعداد كبيرة من المسلمين اللبنانيين إلى الولايات المتحدة.

غير أن هجرة المسلمين في الموجة الخامسة لم تكن ناتجة فقط عن الكبت الجيوبوليتيكي. كما هو الحاصل دائماً، كان البحث عن الفرص الاقتصادية حافزاً آخر وراء الهجرة الإسلامية. فقد أدى «قانون الهجرة» لعام 1965، مثلاً، إلى تدفق أعداد كبيرة من المهاجرين من سوريا ومصر وفلسطين. بشكل عام، أولئك المهاجرون كانوا من الناحية التعليمية أدنى بكثير من الفلسطينيين الذين سبقوهم في الموجة الرابعة، إلى جانب أن الهاجس الاقتصادي كان قوياً وراء هجرتهم.

يضاف إلى ذلك أن الثمانينات من القرن العشرين شهدت أول الهجرات الكبيرة من مسلمي غرب إفريقيا منذ أيام العبودية. بدافع الاقتصاد بدأ المسلمون من غامبيا، وغانا، وغينيا، ومالي، ونيجيريا، والسنغال، في دخول الولايات المتحدة بأعداد متزايدة.

د. الأحمدية في أمريكا

د1. مقدمة

سيكون من الإهمال أن نغلق هذا الفصل عن المهاجرين المسلمين إلى أمريكا دون أن نشير إلى الأحمدية. مع أنها تدعي أنها مذهب إسلامي، فإنه ينظر إلى الأحمدية من قبل المسلمين التقليديين بشكل عام على أنها مذهبِ منحرف في أفضل الحالات وخارجة عن الإسلام في أسوئها. ومع ذلك فإنه نظراً للأثر العميق الذي تركه دعاة الأحمدية في أمريكا وأن كثيراً من الأمريكيين الذين اعتنقوا الإسلام وصلوا إلى الإسلام التقليدي عن طريق الأحمدية، فقد أعد العرض التالي لذلك المذهب.

د2. تاريخ الحركة

ولد ميرزا غلام أحمد في عائلة مسلمة في قاديان في إقليم البنجاب الهندي عام 1835. يقال أنه كرس معظم سني حياته المبكرة للدراسات الدينية. في عام 1876، بعد وفاة والده بوقت قصير، بدأ أحمد يتلقى ما وصفه بأنه وحي مقدس. في البدء رأى أن دوره دور «مجدد» للدين الإسلامي. ولكن بمجيء العام 1889 كان يعلن على الناس أنه المسيح (الذي يحدده القرآن بوضوح أنه عيسى المسيح) و«المهدي»، الذي يعد شخصية أخروية يرى الكثير من المسلمين أن النبي محمد تنبأ بها. ثم تعدى الأمر إلى أن يدعي أنه نبي والتجسيد العاشر للإله الهندي فشنو. مات ميرزا غلام أحمد عام 1908 وانقسمت حركته، التي يشار إليها بالأحمدية أو بالقاديانية، إلى مجموعتين، مجموعة في لاهور ومجموعة قاديانية. المجموعة الأخيرة استمرت في اعتبار ميرزا غلام أحمد نبياً، في حين لم تفعل ذلك مجموعة لاهور.

فيما يتعلق بتعاليم الأحمدية، هناك عدة معتقدات يرفضها معظم المسلمين التقليديين والتي دعت العديد من المنظمات الإسلامية إلى اعتبار الأحمدية خارجة عن الإسلام. المعتقد الرئيس هنا هو قول المجموعة القاديانية أن ميرزا غلام أحمد كان نبياً. إن المسلمين جميعاً

تقريباً، كما سبقت الإشارة، يؤمنون بأن ما تضمنته الآية الأربعين من سورة الأحزاب من أن محمداً هو «خاتم النبيين» ينفي أي احتمال لأن يأتي نبي آخر بعده.[1] المعتقدات الأحمدية الأخرى التي تخالف التعاليم الإسلامية التقليدية تشمل ما يلي:

1) في مقابل الاعتقاد الإسلامي بأن عيسى لم يصلب (النساء: 157–158)، تعتقد الأحمدية أن عيسى قد علق على الصليب ولكنه أغمي عليه بدلاً من أن يموت.

2) تعتقد الأحمدية أنه بمجرد أن أنزل عيسى الفاقد الوعي من الصليب شفي وذهب يعلم في كشمير، حيث مات ميتة طبيعية وعمره 136 عاماً. في المقابل يقول القرآن في الآية 55 من سورة آل عمران والآية 158 من سورة النساء أن عيسى صعد إلى الله، وهو نص يفسره معظم المسلمين على أنه يعني أن عيسى لم يمت ميتة طبيعية.

د3. الأحمدية في أمريكا الشمالية

كان أول من دخل أمريكا الشمالية من دعاة الأحمدية هو محمد صديق عام 1920. بدأ صديق عمله الدعوي في مدينة نيويورك ثم انتقل إلى شيكاغو في أواخر العشرينات من القرن العشرين. كان هو ودعاة أحمديون آخرون أكثر تأثيراً في دعوتهم بين الأفارقة الأمريكيين، ربما بسبب بقايا إسلامية كانت ما تزال موجودة بين أولئك الأفارقة. ومع ذلك، عاد الكثير من أولئك الأفارقة الأمريكيين إلى الإسلام التقليدي فيما بعد.

بحلول عام 1933 كانت مراكز الأحمدية قد انتشرت في شيكاغو، وسينسيناتي، وديترويت، وإنديانابولس، وكانساس سيتي، ونيويورك سيتي، وبتسبرغ. قيل أن العضوية الأمريكية في المجموعة بلغت ما بين 5,000 و10,000 بحلول عام 1940. في عام 1999 كان هناك 35 مركزاً موزعاً في عدد من المدن الأمريكية وما يزيد على 20 مركزاً في كندا.

(1) ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ (المترجم).

هـ. نتائج

ليس هناك أدنى شك في أن الهجرة الإسلامية إلى أمريكا كانت عاملاً حاسماً في تشكيل النمو الحالي للمجتمع الإسلامي الأمريكي وطبيعته واتجاهه. غير أنه على الرغم من أن هؤلاء المسلمين المهاجرين جاؤوا إلى الولايات المتحدة من معظم أرجاء العالم الإسلامي، فقد أسهموا في واحدة من أكثر المشكلات التي تواجه الإسلام في أمريكا تفرداً: نزوع المجتمع الإسلامي إلى الانقسام والتشظي على أسس إثنية وقومية. هذه القضية ستُتناول بتفصيل أكثر في الفصل العاشر.

9. المعتنقون

1. مقدمة

سيظل عدد الذين اعتنقوا الإسلام نتيجة لمحاولات المسلمين في مرحلة ما قبل كولومبس في الأمريكتين، على افتراض وجود أحد من أولئك، مسألة تخمين في المقام الأول. غير أن السجلات المحفوظة من القرن السادس عشر توثق مخاوف إسبانية من أن المسلمين المستعبدين في الكاريبي كانوا يحققون تقدماً في دعوة العبيد غير المسلمين من إفريقيا والهنود المحليين إلى الإسلام. ومع ذلك فإن تاريخ اعتناق الإسلام بين غير المسلمين في الأمريكتين تاريخ يظل غائماً في أفضل الحالات حتى نهاية القرن التاسع عشر. منذ ذلك الحين انطلق جدول متدفق من المعتنقين للإسلام من كل مجالات الحياة، من كل طبقات المجتمع الأمريكي، ومن خلفيات إثنية شديدة التنوع.

فيما يلي نورد سيراً موجزة لسبعة من مشاهير الذين اعتنقوا الإسلام. من هؤلاء، كان اثنان (هما محمد أليكساندر رسل ويب وهومر كالفن دانفبورت) من أصل أوروبي، في حين كان ستة (والي عبدل أكرم،[1] مالكوم إكس، وارث دين محمد، محمد علي، كريم عبد الجبار) من الأفارقة الأمريكيين[2].

2. بعض السير الموجزة لمعتنقي الإسلام

ب1. محمد أليكساندر رسل ويب

ولد إليكساندر رسل ويب، ابن أليكساندر نيلسون ويب، في عائلة متوسطة الثراء في 9 نوفمبر، 1846 في هدسون، نيويورك. نشأ في المذهب المشيخي من المسيحية ولكنه رفض دين

(1) رأيت أن من الأفضل تهجئة بعض الأسماء كما تتهجى وتلفظ في الغرب، فبدلاً من كتابة «عبد الأكرم»، وهي التهجئة الأدق لغوياً، من المهم أن يعرف الاسم كما يلفظ لدى مستعمليه (المترجم).

(2) «من الواضح أن المجموعة الثانية ممن يعددهم المؤلف خمسة وليسوا ستة، كما يقول» (المترجم).

شبابه عندما بلغ العشرين. بعد ذلك نشط في البحث والدراسة في رحلة فكرية تسعى لتحقيق الاكتفاء الروحي. وفيما يرجح أنه من قبيل المبالغات، قيل أنه قرأ ثلاثة عشر ألف كتاب اثناء تحوله من المسيحية إلى الإسلام. وحسب ما روى هو، فقد درس في شبابه الكتابات الفلسفية لمل، ولوك، وكانط، وهيغل، وفخته، وهكسلي[1] إلى جانب فلاسفة آخرين كثر. ويبدو أنه اهتم كثيراً بعدد من الأديان الشرقية، منها البوذية.

غير أن حياة ويب المبكرة لم تكن مجرد تأمل عقلي في أديان العالم. لقد عمل أيضاً في نشاط العائلة التجاري في مجال الصحافة، محرراً وناشراً لبعض الوقت لصحف والده في يونيون فيل («ميسوري ريبليكان») وفي سانت جوزيف («سانت جوزيف جازيت»)، في ميسوري. في عام 1887، قرر الرئيس غروفرت كليفلاند تعيين ويب قنصلاً أمريكياً في الفلبين فانشغل أثناء عمله هناك بدارسة مكثفة للإسلام انتهت باعتناقه إياه عام 1888. (يقال أن زوجة ويب وأولاده صاروا مسلمين أيضاً). بعد ذلك أضاف للاسم الذي منح عند الولادة اسم محمد.

هناك عدة طرق لاعتناق دين ما. بالنسبة للبعض، ينتج الاعتناق عن تجربة مكثفة عاطفياً. بالنسبة لآخرين، مثل ويب، ينتج عن محاولة فكرية وعقلية مكثفة. لقد وصف ويب طريقه إلى الإسلام بملاحظة أن «...تبنيَّ للإسلام لم ينتج عن خاطرة ضلت طريقها، أو سذاجة عمياء، أو نزوة عاطفية مفاجئة، وإنما ولدت من دراسة جادة، صادقة، مثابرة، وغير متحيزة وبحث ورغبة متقدة في معرفة الحقيقة».

ولأنه لم يكن ممن يتفادون التصريح بالدين الذي اهتدوا إليه، سرعان ما استرعى ويب انتباه العديد من المنتمين إلى الأحمدية من الهند، فنشر أحدهم، وهو عبد الله كر، عدداً من رسائل ويب حول الإسلام في جريدته في بومباي. تلك الرسائل انتبه لها في النهاية «الحاج» عبد الله عرب، وهو غني مسلم من المدينة، التي تقع الآن في المملكة العربية السعودية. «حاجي» عبد الله كان مكرساً نفسه بعمق للدعوة إلى الإسلام وكان قد أسس جمعية دعوية إسلامية في بومباي. قرر «الحاج» عبد الله، بعد أن تركت رسائل ويب في نفسه أثراً عميقاً، أن يزوره

(1) جون ستيوارت مل، وجون لوك وألدوس هكسلي فلاسفة إنجليز من عصور مختلفة، والباقون فلاسفة ألمان (المترجم).

في الفلبين عام 1892، فأعجب كثيراً بمدى الصدق في تدين ويب ورتب له أن يلقي محاضرات حول الإسلام في مناطق مختلفة من الهند. جولة المحاضرات تلك شملت وقفات في دلهي، بومباي، كلكتا، وحيدر آباد، ولابد أن تكون قد حققت نجاحاً لأن «الحاج» عبد الله عمل ترتيبات فيما بعد لتخصيص ثلث ثروته كي تدعم نشاط ويب المستقبلي في نشر الإسلام في أمريكا.

لم تكن جولة المحاضرات في الهند نزهة ويب الوحيدة أثناء عام 1892، فقد سافر بعد ذلك إلى مصر وتركيا، حيث واصل دراسته للإسلام. وكان في زيارته لاسطنبول حين قرر ويب أخيراً أن يستقيل من وظيفته القنصلية. في 1893 عاد ويب إلى الولايات المتحدة وأقام في مدينة نيويورك.

مع أن ويب بعد عودته استقال من عمله في وزارة الخارجية، فإنه لم يتخل عن دوره في الحياة العامة. الدعم المالي الذي تلقاه من «الحاج» عبد الله، مكن ويب من تأسيس أول مطبوعة دورية مسلمة تنشر في الولايات المتحدة وذلك في مايو 1893. دورية ويب، «العالم الإسلامي»، تألفت من 16 صفحة كرست للفكر الإسلامي وكانت أداة التعبير الأولى للحركة التي أسسها ويب في ذلك الوقت باسم «حركة الدعوة الإسلامية الأمريكية» (وتعرف أيضاً باسم «الدعوة الإسلامية في أمريكا» وباسم آخر هو «بعثة الدعاية الإسلامية في يو إس أي). شهد العام 1893 قيام ويب بتأسيس شركة النشر الشرقية إلى جانب محل لبيع الكتب اسمه «أورينتاليس»، تضمن قاعة للمحاضرات، وأخرى للصلاة، ومكتبة. كلا المشروعين قاما في مدينة نيويورك، مثلما كان المسجد الذي أسسه في عالية شارع برودواي. في تلك السنة عمل ممثلاً للإسلام في «المجلس البرلماني العالمي الأول للأديان» في شيكاغو، حيث ألقى محاضرتين («أثر الإسلام على الأوضاع الاجتماعية» و«روح الإسلام»). كلتا المحاضرتين طبعت فيما بعد في الكتاب ذي الجزأين الذي تضمن أعمال البرلمان.

واصل ويب جهوده في خدمة الإسلام طوال الفترة المتبقية من حياته، فقد توفي في الأول من أكتوبر عام 1916 وهو في السبعين من العمر، تاركاً وراءه إرثاً ثقافياً حول الإسلام

تضمن «المحاضرات الثلاث لمحمد أليكساندر رسل ويب»، و«محاضرات في أماكن مختلفة، و«الإسلام في أمريكا»، و«حقائق قليلة حول تركيا تحت حكم عبد الحميد الثاني». تأسيساً على تلك الكتابات وما احتوته مكتبته يمكن القول بأن ويب دعا إلى علم إسلامي متأثر بالتصوف في الإسلام. لقد كان التأثير الصوفي قاسماً مشتركا في الغالب بين الغربيين الذين انتهوا معتنقين للإسلام في القرن التاسع عشر.

ب2. هومر كالفن دافنبورت

ولد هومر كالفن دافنبورت في 8 مارس، 1867 في «أحراش أوريغن» ابناً لتيموثي وفلوريندا دافنبورت. بتفحص طفولته يمكن تحديد حادثتين تقدمان رؤية نفسية تساعد على فهم التغيرات التي مر بها دافنبورت في حياته فيما بعد والظروف التي أدت إلى تحوله إلى الإسلام.

أولاً، طور الشاب هومر دافنبورت علاقة خاصة بأبيه، حتى قبل أن يبلغ الثالثة من العمر. وتركزت تلك العلاقة بشكل عام على قدرة الأب دافنبورت على شد انتباه ابنه بالقصص المليئة بالحياة حول عظمة وعنفوان الحصان العربي الأسطوري. كان الطفل مستمعاً متلهفاً لتلك القصص، يتوسل باستمرار لأن يُسمعه والده المزيد منها، وبدأ يحلم بالرحيل إلى صحراء الجزيرة العربية وإحضار العرب البدو إلى الولايات المتحدة.

ثانياً، عندما كان دافنبورت في الثالثة من عمره توفيت والدته في وباء الجدري القاتل. كان طلب أمه وهي على فراش الموت أن يصير ابنها رسام كاريكاتير، فما كان من دافنبورت إلا أن اندفع يستجيب لوصية والدته فيظهر ميلاً فنياً واضحاً في سن مبكرة جداً وكانت معظم رسوماته في طفولته المبكرة لخيول عربية، الخيول التي رآها بمخيلته فقط.

لم تكن حياة دافنبورت المهنية في البداية تبشر بنجاح كبير. فقد مر بمعاناة طويلة نتيجة لسلسة من الوظائف التي لم تدم طويلاً، ومن تلك عمله «جوكياً» للخيول، ومساعد إسطبل،

ومهرج سيرك، وإسكافياً، وكاتباً في متجر إحدى المزارع التعاونية، وعضواً في فريق لتعبئة القش، ومساعد في السكة الحديد. مع أن دافنبورت كان ما يزال صغيراً فقد بدا أن القدر ينتظره بحياة من الفشل المتكرر.

غير أن دافنبورت، على الرغم من تلك الخيبات، لم ييأس واستمر في السعي نحو الهدف الذي حددته له أمه عند وفاتها، فنشرت رسمه الأول جريدة «إيفننغ تيليغرام» في بورتلاند. لكن اللافت هو أنها كانت محاولة يتيمة ولم يتلق أجراً لقاء نشرها. الوظيفة الأولى التي تلقى أجراً عليها في القسم الفني من جريدة كانت في جريدة «الأوريغانونيان» حيث عمل لمدة شهرين في صيف 1890. وفي سبتمبر من ذلك العام سرح من عمله كما يبدو وظل بدون عمل في الدوائر الصحفية حتى مطلع عام 1891. في تلك الفترة اشتغل لفترة قصيرة مع جريدة «سندي ميركوري» في بورتلاند، وهي صحيفة رياضية أسبوعية. مرة أخرى لم يدم هذا العمل طويلاً واضطر دافنبورت للعودة مرة أخرى فاشلاً إلى عائلته في سلفرتون، أوريغن.

فرصة دافنبورت الكبرى جاءت عندما وظفته جريدة «الإكزامينر» في سان فرانسيسكو عام 1892. عمل هناك لمدة عام، وكان يكسب 10 دولارات أسبوعياً. ومع ذلك ظل دافنبورت مغموراً ولم يسمح له برسم كاريكاتيرات تحريرية أو سياسية. بعد سنة من العمل في «الإكزامينر»، كان دافنبورت من التهور بحيث تقدم طالباً زيادة مرتبه إلى 12,50 دولاراً أسبوعياً، فكانت نتيجة الطلب تسريحه من العمل.

في مطلع عام 1893، كان دافنبورت يرسم لصحيفة «كرونيكلر» في سان فرانسيسكو. لكنه ترك عمله بسرعه ليحضر «المعرض الكولومبي» (المعرض العالمي، 1893) في شيكاغو. هناك، في شيكاغو، حصل على وظيفة مع «الديلي هيرالد» حيث وظف لرسم لوحات للخيول أثناء السباق. لكن العمل مرة أخرى لم يطل ووجد دافنبورت نفسه عند نهاية المعرض دون وظيفة. غير أن حضور دافنبورت لـ «المعرض الكولومبي» منحه فرصته الأولى على الأرجح لرؤية خيول عربية حقيقية. تلك الخيول كانت قد استوردت من الأجزاء اللبنانية والسورية من الإمبراطورية العثمانية عن طريق «جمعية حميدي–هيبودروم»، وكان دافنبورت يزورها

بشكل يومي أثناء انعقاد المعرض.

على الرغم من المتعة التي تحققت له أخيراً برؤية الخيول العربية بجلدها، فقد وجد دافنبورت، رسام الكرتون الطموح، نفسه مرة أخرى بلا عمل. لابد أن ذلك بدا وكأنه خيبة أخرى في سلسلة من الخيبات. لكن حظوظه هذه المرة كانت على وشك التحول بشكل نهائي.

في عام 1894 وجد دافنبورت نفسه عائداً إلى صحيفة «كرونكلر» سان فرانسيسكو. بدأ عمله بخمسة عشر دولاراً أسبوعياً، ولكنه منح فرصة لإنتاج رسوم كارتونية سياسية للمرة الأولى. هنا وبسرعة تحول دافنبورت إلى صانع للسياسيين في كاليفورنيا، شخص يشكّل الرأي العام، وذي تأثير واسع. لذا تضاعف أجره ليصل إلى 35 دولاراً.

بتزايد تأثير دانفبورت وشعبيته بسرعة هائلة، قرر وليم راندولف هيرست أن الوقت قد حان لإعادة دانفبورت إلى «إكزامينر» سان فرانسيسكو. وهكذا، في نهاية 1894 كان الانتقال إلى جريدة هيرست قد تم وصار دانفبورت يكسب راتباً أميرياً في ذلك الوقت يبلغ 75 دولاراً أسبوعياً. لكن إقامة دانفبورت في «الإكزامينر» لم تطل. وجاءت مغادرته هذه المرة دالة ليس على الفشل وإنما على النجاح.

في أكتوبر 1895، اشترى هيرست «الجورنال»، وهي إحدى صحف مدينة نيويورك وذات توزيع غير مربح يصل إلى حوالي 40,000. وكان أول ما فعله هيرست هو أن يرسل دافنبورت على أمل أن تؤدي شعبية رسام الكاريكاتير في سان فرانسيسكو إلى بث روح الحياة في «الجورنال» التي تحتضر. بإطلاق حريته في جريدة لوحده، تجاوز دافنبورت كل التوقعات التي رسمها هيرست ولم يلبث أن صار حديث المجتمع حين أبرزت رسوماته الكاريكاتيرية القضايا الشعبية ضد فساد حكومي متجذر واحتكارات رأسمالية ضخمة. مرة أخرى، صار دافنبورت قادراً على رفع الساسة أو خفضهم، ولكن هذه المرة ليس على المستوى المحلي فحسب، ولكن على المستوى الوطني أيضاً. بعد ستة أعوام من وصول دافنبورت اتسع توزيع «الجورنال» إلى ما يزيد على المليون قارئ، ما جعلها الجريدة الأكثر توزيعاً في العالم

آنذاك. لقد وصل دافنبورت إلى ذرى مهنته وصار يكسب من المال ما يكسبه رئيس الولايات المتحدة.

في الأول من يوليو 1904، استطاعت جريدة «الإيفننغ ميل» في نيويورك، وهي جريدة ذات ميول جمهورية تضررت كثيراً من منافسة «الجورنال» ذات الميول الديمقراطية، أن تحقق واحدة من أكبر الانقلابات في ذلك العصر. لقد استطاعت أن تأخذ دافنبورت من «الجورنال». تضمنت الصفقة حصول دافنبورت على 25,000 دولار في الستة أشهر الأولى من توليه العمل، الأمر الذي جعله أعلى رسامي الكاريكاتير أجراً في العالم. (ملاحظة: حين يقيم مرتب دافنبورت في «الإيفننغ ميل» حسب التضخم، فإنه يصل إلى حوالي 700,000 دولار سنوياً حسب عملة 1996). لقد امتطى دافنبورت طريق الصحافة من الفشل المتوالي إلى قمة النجاح.

.بمجرد توقيعه عقد «الإيفننغ ميل» رسم دافنبورت أكثر الرسوم الكاريكاتيرية تأثيراً في حياته العملية. كان ذلك أثناء السباق الرئاسي لعام 1904، ورمى دافنبورت تأثيره السياسي وراء تيودور روزفلت في كاريكاتير أظهر «الأنكل سام» واقفاً خلف الرئيس روزفلت ويده اليسرى متكئة على كتف روزفلت. تحت الصورة ظهر التعليق: «إنه صالح بما فيه الكفاية بالنسبة لي». صار الكاريكاتير أكثر الرسومات جلباً للأصوات في التاريخ الأمريكي وساعد روزفلت على الوصول إلى البيت الأبيض، ممهداً الطريق لتحقيق حلم دافنبورت في شبابه.

لقد وصل دافنبورت الآن إلى محطة في حياته يمكنه منها أن يحقق حلم طفولته باستيراد خيول عربية أصيلة من «صحراء الجزيرة العربية». لسوء الحظ بقيت أمامه عقبتان كبيرتان. أولاً، عرف عن القبائل البدوية تاريخياً أنها لا تقبل بسهولة التخلي عن أفراسها العربية الأصيلة. ثانياً، كانت الحكومة العثمانية، التي كانت عندئذٍ تحكم معظم الجزيرة العربية، قد منعت تصدير الأفراس العربية الأصيلة بقوانين تحكم ذلك.

كلا العقبتين أمكن التغلب عليهما بتدخل شخصي من الرئيس تيودور روزفلت. كان ذلك التدخل مدفوعاً بعاملين: الاعتراف بالجميل الذي أسداه دافنبورت من خلال رسمه

الكاريكاتيري الذي اجتذب الأصوات، كما سبقت الإشارة، وثانياً رغبة الرئيس في إيجاد خيول بديلة للولايات المتحدة ذات أنساب عربية. من أجل ذلك تدخل الرئيس لدى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، واستطاع دافنبورت نتيجة لذلك التدخل الرئاسي أن يحصل على «إرادة» خاصة أتاحت له تصدير عدد قليل من الخيول العربية من سوريا إلى الولايات المتحدة.

في الخامس من يوليو، بدأ دافنبورت رحلته التاريخية من أمريكا إلى سوريا. وصل إلى حلب في السادس من أغسطس وفي اليوم التالي قابل الشيخ أحمد الحافظ، وهو محسن مهم. على مدى الثمانية عشر يوماً التالية، استطاع دافنبورت أن يحصل على حوالي 28 من الخيول، 24 منها جاءت بمساعدة الشيخ الحافظ. كانت 10 من تلك الخيول إما أفراساً أو أمهاراً، وثمانية على الأقل كانت هدايا، ومن تلك حصان فحل كان صاحبه قد رفض في البدء بيعه بأي ثمن للحكومة الإيطالية. أحد تلك الخيول مات في طريق العودة إلى أمريكا، ما ترك 27 حصاناً وصلت إلى أمريكا في السادس من أكتوبر في هوبوكن، نيوجيرسي. من تلك السبع وعشرين حصاناً، سجل 24 في «نادي الحصان العربي»، وخلّف عشرون منها نسلاً مسجلاً. حسب عينة عشوائية من 100 حصان عربي مسجل في كتاب «ستدبوك 50» لـ «سجل الخيول العربية»، يمكن ربط 90٪ منها إلى واحد أو أكثر من الخيول التي استوردها هومر دافنبورت عام 1906.

لم يحدث من قبل في تاريخ الحصان العربي أن حصل مستورد على ذلك العدد من الخيول العربية الأصيلة من «صحراء الجزيرة العربية» في فترة قصيرة كتلك. كان المستوردون الأوروبيون يقضون في الجزيرة العربية أشهراً عادة ليحصلوا على عدد محدود جداً من الخيول. أما أن يعطى أحد ثمانية خيول هدية فهو ما لم يحدث من قبل. ذلك أن موافقة البدو على التخلي عن عشر من الأفراس والأمهار كان مما يستحيل تصديقه. حتى في فترة متأخرة كنهاية التسعينيات من القرن العشرين، كان مربو الحصان العربي في سوريا يشيرون إلى استيراد دافنبورت بوصفه المرة الوحيدة في التاريخ التي يتمكن فيها أجنبي من الحصول على أفضل ما

لدى البدو من خيول. كيف ولماذا يا ترى حدثت هذه الأعاجيب؟ هذه الأسئلة جاءت لتؤرق مؤرخي الحصان العربي وعشاقه في الولايات المتحدة على مدى الثمانية وثمانين عاماً التالية. لم تتضح الإجابة إلا عام 1994 حين بدأت الإجابة تتضح في النصوص المنشورة.

لماذا أتيح لدافنبورت وحده، من بين كل الغربيين الذين ذهبوا إلى الصحراء السورية لشراء الخيول العربية، الحصول على ذلك العدد الكبير من الخيول المهداة؟ لماذا كان هو الوحيد الذي تمكن من الحصول على خيول عربية خالصة النسب في فترة قصيرة جداً؟ من بين كل المربين العرب في شمال أمريكا، لماذا كان دافنبورت الوحيد الذي بدا وكأن لديه اتصالات مكثفة بالعرب الذين يعيشون في الولايات المتحدة؟ إن المفاتيح كانت متاحة دائماً. كتابات دافنبورت سجلت الكلمات التي قيلت في احتفال «أخوة الدم» مع الشيخ أحمد الحافظ، ولكن الغربيين لم يدركوا المعنى الحقيقي لذلك الاحتفال.

لقد كان في الولايات المتحدة في مطلع القرن العشرين قدر أقل بكثير من التسامح تجاه التعدد الديني مما هو متاح اليوم. قد يجد الإنسان البارز عالمه المهني والاقتصادي منهاراً إن خرجت معتقداته الدينية بشكل واضح عن غالبية الأمريكيين. لذا لم يكن مستغرباً ألا يعلن دافنبورت المعنى الحقيقي لأخوته مع الشيخ أحمد الحافظ. القليلون جداً في أمريكا في مطلع القرن العشرين كانت لديهم الخلفية الضرورية لتفهم القسم المنشور حول الأخوة بين دافنبورت والشيخ أحمد الحافظ. أما الآخرون فبإمكانهم أن يمروا على تهجئة دافنبورت للنثر العربي ولا يدركوا ما تعنيه.

واللهِ! واللهِ!... واللهِ! واللهِ!....باللهِ! باللهِ! تاللهِ!

تالله!...أخوان، أخوان، اليوم وبكره وللأبد، أخوان.[1]

هذه الكلمات نقلها دافنبورت عن قسم الأخوة بينه وبين الشيخ أحمد الحافظ. ويمكن ترجمة الكلمات العربية إلى التالي.[2] المهم في تلك الكلمات هو الذكر المتكرر لله. ومن الواضح أنها لم تكن مجرد مناسبة لإعلان «أخوة في الدم». إنها فوق ذلك إعلان أن دافنبورت والشيخ أحمد الحافظ قد أصبحا أخوين في الله. بتعبير آخر، صار دافنبورت مسلماً.

التأكيد المستقل لاعتناق دافنبورت للإسلام نشر أخيراً عام 1994، بعد اعتناق دافنبورت الإسلام بحوالي 88 عاماً. الدافع إلى ذلك كان رسالة وصلت من أفراد عائلة الحافظ في حلب بسوريا، العائلة التي حافظت بعناية على التاريخ الشفاهي للصداقة التي ربطت جدهم بزائر أمريكي عام 1906. الاقتباس التالي ترجمة من رسالة بالعربية تضمنتها رسالة مؤرخة من محمد علي حافظ في الخامس عشر من يونيو، 1993:

> عندما جاء السيد دافنبورت...كان أحد أفضل الناس الذين كان بإمكانهم قبوله ولقاؤه في شمال بلاد الشام جدي (الشيخ أحمد الحافظ). عندما علم عن رغبته في شراء خيول، أهداه حصاناً أصيلاً، وجعله أخاً له...وكان الأمريكي، السيد دافنبورت، إنساناً صادقاً، كان يعتمد عليه، وأحب أخلاق الرجولة في الناس، وكذلك أحب الحقيقة، وأحب الصدق. ولذا فقد طلب من جدي، الذي أحبه بصدق، أن يكون أخاً له. ولذا فقد أقام جدي معه أخوة في الله...وكان جدي يتحدث عن معاملة أخيه الأمريكي بالحب والصدق. وكان أيضاً يتحدث عن حب دافنبورت للطيبة وحبه لدين الإسلام والمسلمين. منذ أن قال (أي دافنبورت): «إذا كان المسلمون بهذا الصدق وهذه الاستقامة، فإنني مسلم أيضاً»- كان

---

(1) Davenport H.: *Davenports Arabians*. Fort Collins. Caballus Publications. 1973. Page 134. This is a reprint of Davenport's *My Quest of the Arabian Horse*. originally published in 1909. تشير ملاحظة المؤلف الهامشية هذه إلى كتاب دافنبورت «خيول دافنبورت العربية» الذي نشر عام 1973 في فورت كولنز بولاية كولورادو وهو، كما يشير المؤلف إعادة طبع لكتاب سابق لدافنبورت بعنوان «بحثي عن الحصان العربي» الذي نشر عام 1909 (المترجم).

(2) لم أثبت الترجمة لأنها إلى الإنجليزية وقد ورد النص العربي المترجم ضمن النص المثبت هنا (المترجم).

ذلك إعلاناً لدخوله في الإسلام.(1)

ربما كان ينبغي أن يدرك ذلك من قبل. فمن الممكن أن نفهم ا لآن لماذا تلقى دافنبورت ذلك العدد من الخيول المهداة، الخيول التي لم يكن بإمكان المال أن يشتريها، وكيف استطاع أن يشتري خيولاً لم يتمكن الغربيون الآخرون من الحصول عليها، وكيف استطاع أن يمتلك ذلك العدد من الخيول العربية الأصيلة في ذلك الوقت القصير وعلى نحو استثنائي. لم يكن دافنبورت مجرد مسلم يتعامل مع مسلمين آخرين، وإنما كان أيضاً المسلم الوحيد من الغرب الذي سافر إلى العالم العربي بغرض اقتناء الخيول. فضلاً عن ذلك، كان حديث عهد بالإسلام، ولذا فقد استمتع بمزايا تقاليد قديمة في العالم الإسلامي: لقد أمطر بهداياً ممن سبقوه إلى الإسلام.

على خلاف محمد أليكساندر رسل ويب، لم يعلن دافنبورت إسلامه. ويبدو أنه نتيجة لمكانته في الدوائر الصحفية والإعلامية، فضل أن يبقى مسلماً متخفياً يعرف معتقداته الدينية المسلمون من أمثاله. وللمرء أن يتساءل، على أية حال، إن كان دافنبورت وويب لم يتصلا بعضهما ببعض حول الإسلام. كان الاثنان في منطقة نيويورك وفي الوقت ذاته، ولابد أن يكون دافنبورت قد علم أن ويب كان مسلماً مثله، كما أن كليهما، كما يبدو قد تقبلا إسلاماً متأثراً بالتصوف. لسوء الحظ، مسألة ما إذا كان هذان المعتنقان للإسلام قد بنيا علاقة ما بينهما تحتاج إلى مزيد من البحث.

المعروف هو أن دافنبورت احتفظ باتصالات مدونة مع الشيخ أحمد الحافظ عندما كان في حلب وكذلك مع الرئيس تيودور روزفلت. لقد عرض خيوله العربية المستوردة عبر البلاد وصار أحد تلك الخيول نجماً في «عرض وايلد ويست لبفالو بل كودي». لقد صار القوة المحركة وراء تكوين «نادي الحصان العربي» (الذي تغير اسمه فيما بعد إلى «سجل الحصان العربي في أمريكا»)، وفي نهاية الأمر واصل تأثيره في الرأي العام برسوماته الكاريكاتيرية

.Al-Hafez M›A. Rabia JAA. Dirks DL. Dirks JF (1994) (1)

السياسية والتحريرية.

في أبريل من عام 1912 مرض دافنبورت مرضاً بذات الرئة وكان مرضه شديداً. ومع ذلك، فحين سمع بالأخبار المزعجة عن غرق سفينة «تايتانيك» في 4 أبريل، 1912، تحامل على نفسه وترك سرير المرض ليرسم الرسمين الكاريكاتيريين الأخيرين. الرسم الأخير كان لجبل جليدي يقف تذكاراً لأولئك الذين قضوا عندما غرقت «التايتانيك». نشر الكاريكاتير في طبعة أبريل التاسعة عشرة من «الأميريكان» النيويوركية وكانت له ردود فعل مباشرة بين الجمهور.

استمرت حالة دافنبورت في التدهور وأنفق وليم راندولف هيرست 12,000 دولار على ثمانية أطباء مختلفين في ثلاثة أيام فقط في محاولة يائسة لإنقاذ حياة دانفبورت. لم يجد ذلك فمات هومر دافنبورت في 2 من مايو، 1912 وهو في الخامسة والأربعين. وما يزال حتى اليوم رسام الكاريكاتير السياسي والتحريري الأكثر تأثيراً في التاريخ الأمريكي.

ب3. «الحاج» والي عبدل أكرم»[1]

ولد والي عبدل أكرم في 4 أغسطس، 1904، في مزرعة بالقرب من برايان، تكساس، واسمه عند الولادة والتر رايس غريغ. نشأ نشأة مسيحية في المذهب المعمداني وكان الكتاب المقدس دائماً حاضراً في بيت طفولته.

توفي أبوه عندما كان في التاسعة من عمره، واضطر والتر وأخوه للانخراط في العمل لمساعدة والدتهما وإخوتهما الخمسة الصغار. كان الولدان يؤجران نفسيهما لدى المزارعين القريبين لإصلاح آلات المزرعة وسرعان ما طورا سمعة بوصفهما أفضل الحدادين في المنطقة. على هامش عملهما كانا يصنعان مضارب البيسبول كما بدءا في إشغال نفسيهما ببعض الاختراعات، الأمر الذي أدى إلى اختراعهما بندقية باعا براءة اختراعها بخمسين دولاراً.

(1) أبقيت تهجئة الاسم كما وضعه المؤلف توخياً للدقة في كتابة الاسم بالإنجليزية وإلا فالاسم هو «عبد الأكرم» (المترجم).

لكن على الرغم من تلك النجاحات، كانت الظروف المالية قاسية، فاضطر الأخوان إلى دخول مقاولات في «سكة حديد سانتا في» لإصلاح السكك والعربات والمحركات. وقبل أن يمضي وقت طويل كانا يقومان بمعظم مقاولات الإصلاح لـ «سكة حديد سانتا في» في شرق تكساس.

في عام 1918، غادر والتر البيت وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة ليدرس في «كلية الولاية في بريري فيو»، وهي كلية مقسمة عنصرياً ومقامة على أرض ممنوحة في تكساس، درس فيها الهندسة الكهربائية. بعد سنتين في الكلية، ترك والتر الدراسة لينظم إلى سكة الحديد عاملاً. خلال عدة أشهر من بدء العمل في هيوستن، اخترع جهازاً لربط عربات القطار. سجل الاختراع باسم «رابط رايس»، وتحول ذلك الجهاز بسرعة إلى الرابط المستعمل في القطارات بشكل عام واستمر كذلك حتى الحرب العالمية الثانية. لكن والتر لسوء الحظ لم يحصل ثمن نجاح اختراعه لأنه باع براءة الاختراع لسكة الحديد مقابل مرتب شهر.

بما حصل عليه من مال لاختراعه مضى والتر شمالاً على «سكة حديد سانتا في»، يختلس الركوب في عربات الشحن. كان ينزل في بعض المحطات ويجد عادة عملاً مؤقتاً كميكانيكي لزيادة ما معه من مال قبل أن يمتطي عربة شحن أخرى باتجاه الشمال. بحلول عام 1921 حط والتر الرحال في سانت لويس، ميسوري حيث عمل حارساً في «كلية برنسيبيا»، وهي مدرسة للبيض مقسمة عنصرياً.

في سانت لويس التقى والتر أحد معتنقي الأحمدية ودعاتها اسمه الشيخ أحمد الدين، الذي كان يعرف من قبل باسم بول ناثانييل جونسن. تحت تأثير أحمد الدين، اعتنق والتر الأحمدية عام 1923 وغير اسمه إلى والي عبدل أكرم بعد ذلك بسنة.

في عام 1924، تزوج أكرم من كريمة، التي كانت قد اعتنقت الأحمدية واسمها السابق حنة دادلي. بعد ذلك بوقت قصير فتح المتزوجان حديثاً بقالة اتضح أنها مصدر دخل جيد وثابت لهما. بالإضافة إلى ذلك، أتاحت البقالة لأكرم وقتاً لدراسة الترجمة الإنجليزية للقرآن، إلى جانب تعلم كيفية تشغيل ماكينة الطباعة المعقدة التي اشتراها والتي استعملها لطباعة

إعلانات يدوية لنشر الأحمدية..

لسوء الحظ لم يلبث أكرم أن اكتشف أنه لم يعد لدى الشيخ أحمد الدين المزيد من المعرفة وأنه لم يعد بإمكانه تحقيق المزيد من التقدم في دراسة العربية ومعرفة القرآن. لذا غادر أكرم وكريمة سانت لويس في أكتوبر من عام 1925 بصحبة داعية آخر للأحمدية هو الشيخ عاشق أحمد، الذي عمل مشرفاً على معتنقي الأحمدية في سنسيناتي وديتون بولاية أوهايو. في ديتون تمكن أكرم من إجادة اللغة العربية تحت إشراف أحمد، ومن تعميق معرفته بالقرآن وتطوير آلية للتعرف على أوجه الشبه بين القرآن والكتاب المقدس (البايبل).

في عام 1927، انتقلت العائلة إلى كليفلاند، ومرة أخرى بدأت العائلة تقديم خدمات بقالية، غير أن أكرم صار يقضي وقتاً أطول في الدعوة بين السكان الأفارقة الأمريكيين مابين الشارع الأربعين والشارع الرابع والخمسين على امتداد «سنترال أفنيو». خلال سنوات قليلة، كان قد أقنع 150 عائلة باعتناق الأحمدية، وقامت الأحمدية من جانبها بإسباغ لقب «شيخ» عليه، ليصير واحداً من حوالي خمسين أمريكياً يحصلون على ذلك اللقب. هذا إلى جانب أنه أسس «مسجد كليفلاند الأول» عام 1932.

ما بين 1932 و1936 سعى أكرم دون كلل لبناء الحركة الأحمدية في كليفلاند والمناطق المجاورة. حصل على مطبعة تمكن بواسطتها من طبع إعلانات الأحمدية وغير ذلك من المطبوعات. إلى جانب ذلك كتب ونشر كتيبات حول اللغة العربية والقرآن والتاريخ الإسلامي، دون أن يتوقف أثناء ذلك عن دراسة القرآن.

أخيراً في نهاية عام 1936 ومطلع 1937، قال أكرم: كفى. لقد تعب من مسؤولي الأحمدية من شبه القارة الهندية وهم يستنزفون الموارد المالية للمجتمع الافرو أمريكي. يضاف إلى ذلك أن دراسته للقرآن نتجت عن اكتشافه للعناصر الجوهرية غير الإسلامية في المبادئ الأحمدية. لذا انفصل عن الأحمدية ومضى بـ «مسجد كليفلاند الأول» نحو الإسلام التقليدي، ثم أقام علاقات وثيقة بالمساجد الشبيهة في المدن المجاورة وطور منظمة عرفت بـ «الخطة الإسلامية العشرية».

تحت قيادة أكرم، تحول «مسجد كليفلاند الأول» بسرعة إلى حامل للشعلة الإسلامية على امتداد أوهايو والوسط الغربي الأمريكي. فإلى جانب صلاة الجمعة وما تحتاجه من خدمات، أسس المسجد مدرسة إسلامية تعمل في نهاية الأسبوع حيث يمكن للدارسين أن يتعلموا تفسير القرآن وبعض الفروض الأساسية مثل الوضوء والصلاة. وفي تلك الفترة بدأ أكرم يطبع أول تقويم إسلامي يمكن الحصول عليه في أمريكا الشمالية. لكن مطبعة أكرم لم تتوقف عند ذلك الحد وإنما انشغلت بطباعة الكتب العملية والتعليمات المتعلقة بكيفية أداء الصلاة، وتواريخ الإسلام، وغير ذلك من النصوص الإسلامية. فوق ذلك وفرت مخازن أكرم للبقالة لحماً مذبوحاً على الطريقة الإسلامية.

لم يلبث «مسجد كليفلاند الأول» حتى دعم بـ «الخطة الإسلامية العشرية»، وهي منظمة غير ربحية هدفها دعم الأفارقة الأمريكيين بحيث لا يحتاجون الضمان الاجتماعي من خلال التعليم وتطوير المهارات والقدرة الشرائية التعاونية. دفع أعضاء الخطة من خمسين سنتاً إلى دولار شهرياً لتوضع في صندوق تمويل يستعمل لشراء مواد تربوية ومهنية منوعة، إلى جانب بعض ضروريات الحياة مثل الطعام واللباس. وهكذا استطاع أعضاء «الخطة الإسلامية العشرية»، بتوحيد قواهم، أن يشتروا المنتجات بكميات كبيرة وبسعر مخفض. كما أنه كان بإمكانهم أن يبيعوا تلك المنتجات للمجتمع بأسعار مخفضة، الأمر الذي عزز من القدرة الشرائية لكل الأعضاء. بشراء الكتب المدرسية وغيرها من وسائل التعليم أصبح من الممكن مساعدة الأعضاء على الحصول على مهارات وظيفية متنوعة ويحتاجها سوق العمل، الأمر الذي دفع بالتقدم الاقتصادي للمجتمع في هذا الجانب أيضاً.

في عام 1938ن بدأ أكرم في تطوير «الجمعية الإسلامية الأمريكية الموحدة» (يو إس آي أي)، وهي مظلة تنظيمية لمجموعات إسلامية متنوعة مثل «الخطة الإسلامية العشرية» و« جمعية محمد عز الدين أدينو الله العربية العالمية» وغيرها من الجمعيات الإسلامية الأخرى. المؤتمر الأول لـ «الجمعية الإسلامية الأمريكية الموحدة» عقد في فيلادلفيا في أغسطس من عام 1943. في ذلك المؤتمر انتخب أكرم رئيساً ثم أعيد انتخابه في مؤتمر بتسبرغ في العام

التالي. لقد كان مؤتمر «الجمعية الإسلامية الأمريكية الموحدة» هذا مهماً لأن النساء المسلمات شاركن على شكل وفود إلى جانب أنهن عُينَّ في مواقع حساسة من اللجان. كانت تلك هي المرة الأولى التي تمنح فيها النساء المسلمات دوراً بارزاً في الشؤون الإسلامية في أمريكا. المؤتمر التالي للجمعية لم يعقد في عام 1945، أما مؤتمر 1946 فقد عقد في كليفلاند في أغسطس من ذلك العام. وكان أن انتخب أكرم مرة أخرى رئيساً للمنظمة. لسوء الحظ، لم يحضر مندوبون لذلك المؤتمر سوى من خمس مجموعات مسلمة، الأمر الذي جعل ذلك المؤتمر هو الأخير للمنظمة. لقد ظلت «الجمعية الإسلامية الأمريكية الموحدة» طوال تاريخها عرضة لتجاذبات الاختلافات السياسية والمذهبية، نتيجة لسعي الجماعات المختلفة للحصول على حصتها في منظومة القوة، ونتيجة أيضاً للمناقشات الحادة التي دارت حول دور المرأة في الإسلام الأمريكي، والجدل حول العلاقة المناسبة بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية للولايات المتحدة.

استمر أكرم في التزامه بالإسلام طوال ما تبقى من حياته. أولاده الاثنا عشر، وأحفاده الستون، وأحفاد أحفاده الخمسة والسبعون، كلهم نشؤوا وتعلموا كمسلمين. في عام 1957، أدى أكرم الحج ليصير ثاني أمريكي الولادة يسمح له نظاماً بالدخول إلى مكة. بعد ذلك أضاف لقب «الحاج» إلى اسمه. وفي أغسطس من عام 1994 توفي «الحاج» والي عبد الأكرم، واجتذبت جنازته ما يزيد على الألف ممن حزنوا لفقده. عند وفاته كان مسجلاً باسمه 27 براءة اختراع كهربائية وميكانيكية.

ب4. مالكوم إكس

ولد مالكوم لتل، أو مالكوم إكس، كما يشتهر، في 19 مايو، 1925 في أوماها بنبراسكا، ابناً لأيرل ولويس لتل. كان واحداً من سبعة أطفال.

لقد تشوهت حياة مالكوم المبكرة بالأحقاد العنصرية والتعصب الأعمى في تلك الفترة وكذلك بالأزمات النفسية المتكررة. فأم مالكوم، مثلاً، ولدت نتيجة عملية اغتصاب تعرضت

لها جدته من قبل رجل أبيض. لقد كان لذلك الإرث أثره في توالي الأزمات الواحدة فوق الأخرى.

عندما كان في التاسعة من عمره احترق منزل العائلة تماماً. بعد ذلك بثلاثة أعوام، انتقلت العائلة إلى بيت يقع على أربعة هكتارات إلى الجنوب من لانسنغ، ميتشغان. كانت العائلة هي الوحيدة من أصل أفرو أمريكي في تلك المنطقة، وخلال ثلاثة أشهر ذهبت العائلات البيضاء المحيطة إلى المحكمة لمنع عائلة لتل من العيش وسط أحياء يفترض أن تتألف من البيض فقط. القاضي المحلي أصدر سريعاً حكماً بأن تلك المنطقة حكر على البيض، غير أن عائلة لتل تحدت حكم القاضي واستمرت في السكن في المنزل. بعد ذلك بوقت قصير قامت جماعة الـ «كو كلكس كلان»، الجماعة التي تؤمن بتفوق البيض والتي ظهرت في الجنوب الأمريكي في أعقاب الحرب الأهلية، بتفجير المنزل، وحين رفضت الإطفائيات المجيء للإنقاذ احترق المنزل عن آخره.

في سبتمبر 1931، عندما كان مالكوم في السادسة من عمره، دهست والده إحدى عربات «الترولي» في وقت متأخر من إحدى الليالي. كاد جسده ينفصل إلى قطعتين منفصلتين تماماً بفعل عجلات العربة، لكن البوليس قرر أن ما حدث كان عرضياً، في حين رأى معظم الأفارقة الأمريكيين أن والد مالكوم دفع أسفل العجلات من قبل «الكو كلكس كلان». بعد ذلك بسبعة أعوام، في 23 من ديسمبر، 1938، أدخلت أم مالكوم مستشفى الولاية في كالامازو، بسبب حالتها النفسية فقد شخصت على أنها تعاني من جنون الارتياب (بارانويا)، وظلت في المستشفى لستة وعشرين عاماً تلت.

بعد إدخال والدته المستشفى، انفصل مالكوم عن إخوته وأرسل إلى دار للرعاية. بعد ذلك بسنوات قليلة، وأثناء سنوات مراهقته، انتقل إلى روكسبري في ماساشوستس، وهو حي يتألف معظم سكانه من الأفارقة الأمريكيين، حيث عاش مع أخته الكبرى. في شوارع بوسطن تعلم مالكوم أساسيات المهن التي يزاولها مدعو الفن، و«عربجية» الشوارع، والمجرمون الصغار. إلى جانب ذلك حصل على عمل في مطبخ قطار مدينة نيو هيفن من

بوسطن إلى واشنطن دي سي.

في عام 1942 انتقل مالكوم إلى هارلم في مدينة نيويورك، حيث اعتاد على ممارسة الجرائم الصغيرة، وألقي القبض عليه مرتين. في عام 1945، انتقل إلى بوسطن وتطورت حياته الإجرامية إلى السرقة، وفي نهاية ذلك العام ألقي القبض عليه بسبب السطو وجريمة السرقة المتصلة به. حكم عليه ما بين ثمان إلى عشر سنوات في سجن الولاية وأصبح السجين رقم 22843 في إصلاحية تشارلستون، ماساشوستس.

كان موقفه وتصرفاته المبدئية في السجن سيئة وغاضبة إلى حد أن السجناء الآخرين كانوا يسمونه «الشيطان». غير أن شخصية مالكوم بدأت تتغير بعد أن بدأ إخوانه وأخواته يكاتبونه بشأن «أمة الإسلام» أثناء السنة الثانية من سجنه. بدأ مالكوم عندئذٍ يقرأ تعاليم إليجا محمد وكانت تلك تجربة أدت إلى تحوله كلية. بدأ باعتناق موروثه الإفريقي بشكل كامل للمرة الأولى، وبدأ يدرس ليحسن من مستواه التعليمي، بل إنه انضم إلى فريق المناظرة في السجن وصار نجماً فيه.

في السابع من أغسطس، 1952 أفرج عن مالكوم إفراجاً مبكراً لحسن سلوكه، وكان قد أمضى ست سنوات ونصف في السجن. بعد ذلك مباشرة رحل مالكوم إلى شيكاغو، قابل إليجا محمد وقبل في «أمة الإسلام» خلال شهر واحد من وصوله إلى شيكاغو، ثم غير اسمه إلى مالكوم إكس.

مبدئياً عُين مالكوم، بقدراته الخطابية المؤثرة وعباراته التي ترن في الذاكرة، مساعداً للقائد في «معبد محمد رقم 1 في ديترويت». غير أن مكوثه في ديترويت كان قصيراً نسبياً، لأنه عين قائداً لـ «أمة الإسلام» في بوسطن ثم ما لبث أن مثل «الأمة» في جولات خطابية حول البلاد. خلال خمسة أشهر من وصوله إلى بوسطن، ارتفع عدد العضوية إلى حد أن مبنى صغير بمخازن على الشارع كان يمكن اتخاذه معبداً. قبل مضي فترة طويلة ساد الاعتراف بأن مالكوم هو الأكثر تأثيراً، على مستوى «الأمة»، في الخطابة وفي التنظيم على مستوى القاعدة. وكان قد أسس معابد لـ «أمة الإسلام» في بوسطن وهارتفورد وفيلادلفيا. لقد

أدت قيادته إلى طفرة غير مسبوقة في عضوية المنظمة بعد أن كانت في حالة جمود. وبتزايد العضوية وتأسيس معابد جديدة في أنحاء مختلفة من البلاد، نقل مالكوم خارج بوسطن وعين قائداً للمعبد رقم 7 في حي هارلم في مدينة نيويورك. وما إن عين خارج نيويورك حتى عمل مالكوم من أجل «أمة الإسلام» دون كلل. فإلى جانب كونه مسؤولاً دينياً في «المعبد رقم سبعة»، استمر في التحدث باسم «الأمة» عبر البلاد وبدأ جريدة باسم «محمد يتكلم» بوصفها الوسيلة الإعلامية الرسمية لـ «الأمة». جهوده تلك في خدمة «أمة الإسلام» كافئها إليجا محمد بمنحه اسم «شاهباز» ليكون اسماً عائلياً بدلاً من «X» الذي كان يستعمله.

نتيجة لمعاناته من التمييز العنصري من ناحية، وإعجابه الشديد، من ناحية أخرى، بالأساطير العنصرية التي ابتدعتها «أمة الإسلام»، تزعم مالكوم قضايا الفصل العنصري، والكبرياء الأفرو أمريكية، والاستقلال الذاتي للأفارقة الأمريكيين. مع أنه في البداية هاجم حركة الحقوق المدنية التي قادها الدكتور مارتن لوثر كنغ، الابن، بوصفها مسالمة أكثر مما ينبغي في مواقفها وخاطئة في تركيزها على الدمج العرقي، فإنه دعا دون كلل إلى حقوق الأفارقة الأمريكيين طوال الخمسينيات وأوائل الستينيات.

في عام 1957 تزوج مالكوم بيتي X، وهي خريجة جامعية تعيش في هارلم. نتج عن الزواج خمسة أطفال.

في عام 1963 بدأ مالكوم يجري اتصالات مع المسلمين المهاجرين من إفريقيا، ومنهم أحمد عثمان، وهو طالب سوداني في الولايات المتحدة. الرؤية التي وجدها لدى أولئك للإسلام بوصفه أخوة عالمية تتجاوز كل الخطوط العرقية والإثنية، والأثر الذي تركه إطلاعه المتزايد على تعاليم القرآن والإسلام التقليدي، كل ذلك جعل مالكوم يبدأ مسائلة هادئة لبعض تعاليم «أمة الإسلام». هذه المسائلة تضاعفت بتزايد وعي مالكوم بممارسات إليجا محمد الجنسية خارج إطار الزواج، الممارسات التي نتج عنها ولادة ثمانية أطفال من ست فتيات مراهقات كن في فترات مختلفة يعملن سكرتيرات عنده.

في ديسمبر من عام 1963 علقت صلة مالكوم بـ «أمة الإسلام» في أعقاب إشارته إلى

اغتيال الرئيس جون ف. كينيدي بوصفه «حالة دجاج جاء إلى البيت ليجثم على البيض». في الثامن من مارس، 1964، ترك مالكوم «أمة الإسلام» بشكل رسمي واعتنق الإسلام التقليدي، ليؤلف بعد ذلك منظمته الإسلامية الخاصة (المسجد الإسلامي، المتحد) بمقرها في هارلم. في الشهر الذي يليه، وبحث من أحمد عثمان وآخرين أدى مالكوم فريضة الحج إلى مكة وغير اسمه إلى «مالك الشباز». بعد إنهائه مناسك الحج أضاف لاسمه الجديد لقب «الحاج».

كانت تجربة الحج نقطة تحول بالنسبة لمالكوم. فكما كتب بعد ذلك، كان الحج تجربة أقنعته أن الإسلام يعني أخوة المؤمنين في كل مكان، بغض النظر عن العرق أو الإثنية أو لون البشرة. في مكة شاهد مالكوم وجرب شخصياً هذه الأخوة الإسلامية، حين رأى الناس من كل الأجناس يقفون ويصلون جنباً إلى جنب وهم يؤدون مناسك الحج. أدرك أن المسلمين البيض الذين كانوا يصلون بالقرب منه ليسوا شياطين وإنما إخوة له.

بينما هو في المملكة العربية السعودية، التقى مالكوم عدداً من أفراد العائلة المالكة، وحين غادر المملكة قضى بعض الوقت في إفريقيا، ليعود بعد ذلك إلى مدينة نيويورك في 21 مايو، 1964. لكنه حين عاد كان إنساناً مختلفاً.

رفض مالكوم إيمانه السابق بالفصل العرقي وكل جوانب الأساطير العرقية التي قامت عليها «أمة الإسلام»، كما رفض أشكال الفساد الكامنة في نسيج الفلسفة والمعتقدات التي انطوت عليها تلك الحركة. بوصفه شخصية بارزة ذات صوت قوي وخارجة في الوقت نفسه عن «أمة الإسلام»، أدى اعتناق مالكوم للإسلام التقليدي إلى عدد كبير من التهديدات بالقتل من قبل «الأمة». في يوليو، 1964، هوجم أمام بيته على يد عدد من الرجال لكنه تمكن من الهرب.

بعد ذلك بشهر، دعي إلى حضور اجتماع منظمة مؤتمر الاتحاد الإفريقي في القاهرة. بعد المؤتمر سافر إلى 14 دولة وقابل 11 من رؤساء الدول. كان محل ترحيب الجميع كما يتضح من منح الشعب النيجيري إياه اسماً يمكن أن يترجم إلى «الابن العائد».

بعد عودته إلى الولايات المتحدة في أواخر نوفمبر، 1964، ضاعف من مساعيه من أجل الإسلام ومن أجل الحقوق المدنية للأفارقة الأمريكيين. بعد ذلك بشهر، ذهب إلى جامعة أكسفورد بإنجلترا، حيث شارك في مناظرات اتحاد أكسفورد. لسوء الحظ أدى عمله المكثف من أجل الإسلام التقليدي وبروزه في وسائل الإعلام العالمية إلى زيادة الكراهية له من قبل عناصر من «أمة الإسلام».

في الثالث عشر من فبراير، 1965، أحرق بيته في هارلم أثناء نوم عائلته في الداخل. اتهم مالكوم إليجا محمد و«أمة الإسلام» بارتكاب تلك الجريمة. لحسن الحظ لم يصب أي من عائلة مالكوم بإصابات خطرة نتيجة ذلك الهجوم. لكن بعد ذلك الهجوم بأسبوع واحد تم اغتيال مالكوم على يد أعضاء من «أمة الإسلام» (هم توماس X 15 جونسن، ونورمان X 3 بتلر، وتلماج X هاير). كان ذلك في 21 فبراير، 1965، بينما هو يلقي كلمة في قاعة أودوبورن في هارلم. ارتطم جسمه المثقل بالرصاص على الأرض إلى جانب المنصة شهيداً من شهداء الإسلام.

أقيمت جنازته في 27 فبراير، 1965ن في مدينة نيويورك. كان من الحضور زوجته وأطفاله الأربعة، وطفل لم يولد بعد، مع آلاف من الأتباع. وكان دفنه في مقبرة فيرنكليف.

قبل وفاته بوقت قصير أجرى أليكس هيلي مقابلات معه صارت أساس كتاب بعنوان «السيرة الذاتية لمالكوم إكس»، تحول بسرعة إلى منجز أدبي كبير بعد وفاته.

ب5. وارث دين محمد

ولد وارث دين محمد في ديترويت، ميتشغان، في 30 من أكتوبر، 1933، وكان الطفل السابع لإليجا محمد وكلارا محمد. كان اسمه عند الولادة والاس ديلاني محمد، أما اسمه الجديد فقد اختاره له و. د. فارد، مؤسس «أمة الإسلام»، الذي توقع أن المولود سيعقب إليجا محمد في قيادة «الأمة».

كان والاس في الثانية عشرة من عمره حين أدرك لأول مرة حجم الاختلاف بين رسالة القرآن وتعاليم والده. أثار الشاب والاس الشك بالتحديد حول القول بأن و. د. فارد هو الله. فكما استذكر في حديث يعود إلى العام 2002:

> مررت بتجربة حين كنت في المنزل وحيداً في إحدى الليالي ووجدت نفسي خائفاً. بدأت أصلي ثم وجدت أمامي وجه فارد، فجاء شيء يوقفني. لذا دعوت: «أوه يا الله، إن كنت لا أراك بشكل صحيح، فساعدني لكي أراك بشكل صحيح». عندئذٍ أديت صلاتي. لم أدر كيف أرى الله.

بعد إنهائه الدراسة الثانوية بدأ والاس يعمل ضمن «أمة الإسلام». عند الخامسة والعشرين عين مسؤولاً عن المعبد رقم 11 في فيلادلفيا بنسلفانيا. غير أن عمله في «الأمة» توقف عام 1961 عندما حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات لرفضه الخدمة العسكرية. في السجن وجد الوقت لدراسة القرآن والإسلام التقليدي بتفصيل أكثر. عندها اقتنع بالفروقات الكبيرة بين الإسلام وتعاليم «أمة الإسلام» التي يقودها والده، فاستقال من «الأمة» عام 1963. عندما بلغ 32 خرج من السجن.

بعد اغتيال صديقه الحميم مالكوم إكس عام 1965 عاد والاس إلى «أمة الإسلام» آملاً أن يغيرها إلى حركة إسلامية حقيقية. وبدأ بعد ضمه يدفع تدريجياً ولكن بثبات نحو موائمة معتقدات «الأمة» مع الإسلام التقليدي. لكن ذلك النشاط أدى إلى تعليق عضويته مرتين، الأولى عام 1969 والثانية عام 1971.

يقال أن والده إليجا محمد، في السنة الأخيرة من حياته، عينه خليفة له ومنح ابنه الإذن بتحويل «أمة الإسلام» إلى إسلام صافٍ. غير أنه قيل أنه اشترط على والاس أن ينتظر حتى وفاة والده ليتولى إحداث ذلك التغيير الكبير.

بعد وفاة والده في 25 فبراير 1975، صار والاس الزعيم الأكبر لـ «أمة الإسلام» وبدأ

حالاً عملية التغيير التي ستنتهي بأكبر اعتناق للإسلام يقوم به أحد في التاريخ الأمريكي. في عام 1976 غير اسم «أمة الإسلام» إلى «المجتمع العالمي للإسلام في الغرب»، وغير اسمه إلى وارث دين محمد، ثم غير لقبه من زعيم أكبر إلى اللقب الإسلامي التقليدي «إمام».[1] أهم من ذلك، رفض وارث دين الأساطير العرقية والمعتقدات الشديدة الفساد التي قامت عليها «أمة الإسلام»، وقاد تحركاً منظماً وجماهيرياً لأتباعه نحو أحضان الإسلام التقليدي. وهكذا تم تعليم أعضاء حركة «أمة الإسلام» أن يصلوا خمس مرات في اليوم حسب تعاليم الإسلام. كما علموا أن يصوموا رمضان بدلاً من ديسمبر. وتلقوا التعاليم المتعلقة بالزكاة إلى جانب تشجيعهم على أداء الحج.

(من الصعب التعرف على الرقم الدقيق لأعضاء «أمة الإسلام» الذين قادهم وارث دين محمد نحو الإسلام، لأسباب تعود جزئياً إلى كون الأرقام المتعلقة بعضوية «أمة الإسلام» سرية إلى حد ما. بعض التقديرات تخفض الرقم إلى 100,000 وبعضها يرفعه إلى أقل من مليون بقليل).

في عام 1977، أدى وارث دين فريضة الحج. بعد ذلك بسنة تغير اسم منظمته مرة أخرى ليصير هذه المرة «البعثة الأمريكية الإسلامية».[2] في عام 1985، تغير الاسم مرة أخرى إلى «الجمعية الإسلامية الأمريكية» (كما تعرف أيضاً بـ «زعامة وارث دين محمد»). في الأعوام الأخيرة تخلى «الإمام» وارث دين محمد عن «الجمعية الإسلامية الأمريكية» وركز جهوده على منظمة «المسجد يهتم».

على مدى ربع القرن الأخير، صار «الإمام» وارث دين محمد واحداً من أعظم المنادين في

(1) يشير المؤلف بين قوسين بعد اسم «محمد» إلى أن وارث دين غير تهجئة اسم «محمد» بالإنجليزية من Mohammad إلى Mohammed دون أن يشير إلى المغزى من ذلك التغيير (المترجم).

(2) اسم المنظمة بالإنجليزية هو: American Muslim Mission وقد ترجمت Mission إلى «بعثة» لكن كان يمكن أن تترجم إلى «إرسالية» وهو الاسم الشائع في أسماء المنظمات المسيحية ومن غير المستبعد أن تكون الإيحاءات المسيحية موجودة في اسم المنظمة شأنه في ذلك شأن سمات أخرى في العمل الإسلامي في أمريكا بين الأفارقة الأمريكيين بشكل خاص على النحو الذي يتضح في مواضع أخرى من هذا الكتاب، كما في استعمال كلمة «قس» للإمام (المترجم).

الإسلام إلى الحوار بين الأديان في أمريكا. في عام 1992 أصبح أول مسلم يؤدي صلاة الصبح في مجلس الشيوخ الأمريكي. وبعد ذلك بستة أعوام، دعي لمقابلة البابا جون بول الثاني في الفاتيكان، وخلال رئاسة بل كلينتون دعاه الرئيس مرتين لحضور إفطار الرئيس للحوار بين الأديان.

حتى كتابة هذه الأسطر، يواصل وارث دين محمد خدماته قائداً روحياً ودينياً لما يقارب مليونين ونصف من المسلمين في أمريكا. إن من المحتمل أن يكون له تأثير على تحول الناس إلى الإسلام على نحو يفوق تأثير أي مسلم آخر في العالم المعاصر.(1)

ب6. محمد علي

ولد محمد علي في 17 يناير 1942 في مدينة لويفيل، كنتاكي، حيث الفصل العنصري. والده هو كاسيوس مارسيلوس كلاي، الأب، ووالدته أوديسا غريدي كلاي. كان اسمه عند الولاده كاسيوس مارسيلوس كلاي، الابن، ولم يكن له إخوة. أعال والده الأسرة بالعمل رساماً للوحات الإعلانات، وعملت أمه خادمة منزلية.

لم تكن الحياة سهلة بالنسبة لكاسيوس الشاب. كان أفرو أمريكياً ناشئاً في لويفيل المقسمة عنصرياً وخاضعاً بالتالي لكل أنواع التمييز والعنصرية التي عرفتها تلك الفترة. عندما كانت عائلته تذهب إلى كنيسة مسيحية، كان يطلب منهم الجلوس في آخر الكنيسة فقط لأن لون بشرتهم داكن قليلاً بالمقارنة بنظرائهم المتدينين من البيض. وكان مما عقد المسألة أكثر أن والد كاسيوس يقال عنه أنه يميل للعنف وأنه كان يسيء معاملة والدة كاسيوس جسدياً، الأمر الذي أدى إلى استدعاء البوليس إلى مسكنهم على الأقل مرة واحدة.

عندما بلغ كاسيوس الثانية عشرة من العمر، سرقت دراجته بينما كان يحضر إحدى المناسبات. يقال أنه بلغ السرقة لرجل بوليس في لويفيل، اسمه جو مارتن، الذي تعامل مع

---

(1) توفي وارث دين محمد في 9 سبتمبر 2008، حسب موسوعة «ويكيبيديا» في طبعة الإنترنت الإنجليزية التي تشير إلى بعض المعلومات المختلفة عما ورد في الكتاب المترجم هنا والذي نشر قبل الوفاة بعامين (المترجم).

الشكوى بتعاطف. غير أنه لم يكن هناك الكثير مما يمكن لذلك البوليس الأبيض أن يفعله لاستعادة الدراجة. وعندما ذهب مبتعداً تمتم كاسيوس الصغير أنه لو وجد سارق الدراجة فسيعطيه «علقة». عندئذٍ تسائل مارتن عما إذا كان ذو الاثنتي عشرة عاماً يعرف كيف يعارك، وعندما أجاب كاسيوس بالنفي، أخذ مارتن على عاتقه تدريب الصبي فن الملاكمة ومهاراتها.

مستفيداً من تدريب مارتن، بدأ كاسيوس ستة أعوام من ممارسة الملاكمة هاوياً. في سن السابعة عشرة، فاز ببطولة «القفازات الذهبية»، وعند الثامنة عشرة توج بالميدالية الذهبية الأولمبية لوزن 175 رطلاً (الوزن الخفيف) في أولمبياد 1960 في روما. (بعد مضي فترة رمى بميداليته الذهبية الأولمبية في نهر أوهايو احتجاجاً على سياسات أمريكا العنصرية). بعد ذلك مباشرة، تحول كاسيوس ذو الثمانية عشرة عاماً إلى محترف تحت رعاية أحد عشر رجلاً من البيض عرفوا باسم «مجموعة لويفيل الراعية»، الذين عملوا الترتيبات اللازمة له كي يدربه ويدير أعماله أنجيلو دندي، أحد مدربي الملاكمة الكبار آنذاك.

ابتداءً من أواخر الستينيات واستمراراً حتى نهاية 1963، فاز كاسيوس في 19 ملاكمة متتالية كمحترف، 14 منها بالضربة القاضية. طوال تلك الملاكمات المبكرة، أظهر سرعة استثنائية في القدم واليد، وردود فعل بسرعة البرق، إلى جانب أسلوب غير تقليدي في تفادي ضربات الخصم، بمعنى أنه بدلاً من التحرك إلى أعلى وأسفل أو إمالة الرأس جانباً لجعل الضربة تمر إلى جانب وجهه، كان يسحب رأسه إلى الوراء لكي يصير خارج متناول قبضة الخصم. وغني عن القول أن كاسيوس صعد بسرعة سلم الوزن الثقيل وكان قادراً على التنبؤ باستمرار بدقة عجيبة في أي جولة سيسقط خصمه.

في 25 فبراير، 1964، دخل كاسيوس كلاي الحلبة ضد سوني ليستون، الذي كان عندئذٍ بطل العالم للوزن الثقيل. ولم يعطه الكثيرون فرصة وافرة أمام ليستون، الذي كان يرى الكثير من خبراء الملاكمة أن من المستحيل هزيمته. فقد استطاع ليستون في نهاية المطاف أن يزيح فلويد باترسون عن عرش الملاكمة في ضربة قاضية في الجولة الأولى واستطاع مرة أخرى أن

يهزم باترسون في الجولة الأولى من مباراة ثانية. المخمنون جعلوا كاسيوس هو المهزوم بنسبة ثمانية إلى واحد في مواجهة ليستون الذي لا يقهر.

حين تواصلت المباراة، أثبت كاسيوس ان سرعته وطريقته غير التقليدية في الدفاع كانت أكثر مما يستطيع ليستون أن يحتمل. على الرغم من صعوبة الرؤية التي مني بها على مدى جولتين نتيجة لمرهم دخل عينيه، فقد استطاع كاسيوس أن يتجاوز المشكلة راقصاً، مظهراً قدرته على «التحليق مثل فراشة واللسع مثل نحلة»، حسب وصفه، وأن يحصل ضربة قاضية فنية غير متوقعة عندما لم يعد ليستون قادراً على مغادرة ركنه عند بدء الجولة السابعة. وهكذا في سن لا يكاد يتجاوز الثانية والعشرين، أصبح محمد أصغر بطل وزن ثقيل في العالم. بتعبيره البليغ والمكثف عند نهاية المباراة، «استطعت أن أهز العالم!»

بعد فوزه ببطولة العالم للوزن الثقيل بوقت قصير، هز محمد العالم مرة أخرى بإعلانه أنه ترك المسيحية التي اعتنقها صبياً ليعتنق تعاليم «أمة الإسلام». كانت تلك حركة أبعدت الكثير من الأمريكيين عنه في فترة الحقوق المدنية في منتصف الستينيات وما اتسمت به من توتر عاطفي. في السادس من مارس، 1964، رفض أيضاً اسمه عند الولادة وتبنى اسم «محمد علي» الذي منحه إياه إليجا محمد.

طوال الفترة المتبقية من عام 1964، أخذ محمد علي إجازة مستحقة عن الملاكمة. بعد ذلك قام بجولة في إفريقيا بإلحاح من مالكوم إكس ليصير بذلك أول نجم رياضي يقوم بجولة كتلك، واستقبل في جولته استقبال الأبطال. ثم وجد في الفترة نفسها وقتاً ليتزوج، حيث اقترن بسونجي روا لتصير زوجته الأولى. لكن الزواج لم يدم طويلاً، لأن سونجي وجدت صعوبة في التأقلم مع قيود «أمة الإسلام»، لينتهي الزواج بالطلاق.

كانت عودة محمد علي للملاكمة في 25 من مايو، 1965، حين التقى سوني ليستون في مباراة أخرى لبطولة الوزن الثقيل. هنا تبخر أي شك في أن فوز محمد السابق كان مجرد وضع شاذ، وذلك حين وجه محمد ضربة قاضية لليستون بقبضته اليمنى التي تحركت بسرعة لم يتمكن الكثير من المحيطين بالحلبة من رؤيتها. بعد فوزه السهل على ليستون دافع محمد

بنجاح عن لقبه ثماني مرات إضافية ما بين 1965 و1967. بعد ذلك بدأ الكثير من القريبين من عالم الملاكمة يعترفون بالحقيقة الماثلة وهي أن محمد علي ربما يكون فعلاً أعظم ملاكم في التاريخ.

كان محمد علي يجلس على قمة عالم الملاكمة. الثروة والشهرة والمجد الرياضي كانت متاحة له. ومع ذلك فقد كان مستعداً للتخلي عن كل ذلك من أجل مبدأه. في 28 أبريل، 1967، أثناء حرب فيتنام، رفض محمد الخدمة العسكرية على أساس أن دينه يمنعه من ذلك بوصفه منتمياً لـ «أمة الإسلام». ردود الفعل لذلك كانت شديدة القسوة. جميع لجان الملاكمة في الولايات المختلفة ألغت الترخيص الممنوح له للملاكمة، وسحبت منه بطولة الوزن الثقيل، ثم وجهت له تهمة رفض الانضمام لجيش الولايات المتحدة. في 20 يونيو، 1967 مثل أمام القضاء وأدين ثم حكم عليه بخمس سنوات سجن.

مع أنه ظل طليقاً أثناء استئناف الحكم، فقد منع من الملاكمة. لذا كان عليه أن يكافح ليدفع فواتيره وذلك بالظهور في مسرحية، ثم بإلقاء محاضرات، وقبول المعونات من الآخرين. لقد أصبح نشازاً في المجتمع الأمريكي لأنه استند إلى مبادئه الدينية.

كاستطراد قصير، ينبغي أن نلاحظ أن رفض محمد علي أن يؤدي الخدمة العسكرية لم يكن نتيجة خوف أو جبن. فبوصفه بطل العالم في الملاكمة للوزن الثقيل لم يكن سيطلب من محمد أن يذهب ليحارب في فيتنام. كان سيقضي كل فترة خدمته في الجيش يقيم عروض ملاكمة للجيش ويقدم خدمات في العلاقات العامة وأعمال من شأنها رفع المعنويات. كان محمد يعرف ذلك، لكنه لم يفكر في المساومة حول مبادئه.

تحسنت أحوال محمد علي في السنتين الأوليين من سبعينيات القرن العشرين. الحكم الذي صدر ضده رفضته المحكمة العليا في الولايات المتحدة، وسمح له مرة أخرى بالعودة إلى الحلبة. غير أن ابتعاده عن الملاكمة كلفه الكثير. لقد فقد أربعة أعوام من قمة نشاطه كرياضي، ولن يكون الملاكم الذي كان من قبل، كما أنه لن يحقق بطولة العالم من جديد. لقد قدم التضحية القصوى رياضياً ومادياً.

عودة محمد إلى الحلبة حدثت في أكتوبر 1970، وبسرعة حقق النصر في مباراتين وهيأ نفسه لملاكمة بطل العالم آنذاك، جو فريزر. التقى الاثنان في 8 مارس، 1971، فيما سمي حينها بـ «مباراة القرن». وكانت بالفعل مباراة بمستوى ما توقع أن تكون، فبعد 15 جولة منهكة فاز جو فريزر بالإجماع. لقد خسر محمد علي أولى مبارياته الاحترافية.

على مدى العامين التاليين استمر محمد علي في الملاكمة، منتصراً في 10 مباريات على التوالي ضد منافسين من الوزن نفسه. غير أنه في 31 مارس، 1973، بدا أن مسيرة محمد قد تعرضت لصدمة يستحيل التعافي منها حين خسر قرار الحكام بعد 12 جولة ضد كين نورتن، وهو ملاكم مغمور ولا يؤخذ بجدية في ذلك الوقت. لكن محمد استمر في الملاكمة على الرغم من تلك الهزيمة، وهزم نورتن وفريزر في مباراتين أخريين.

في 30 أكتوبر، 1974 قابل محمد علي بطل الملاكمة للوزن الثقيل جورج فورمان في أول بطولة عالمية للوزن الثقيل تقام في إفريقيا، مباراة سماها محمد من باب الدعاية «ضجيج في الغابة». كان فورمان قد طرح فريزر بضربة قاضية وحشية في جولة مبكرة ليفوز بالبطولة وكان مرشحاً للفوز بها. في المباراة ضد محمد استطاع المرة تلو الأخرى أن يضغطه على الحبال وينهال بضربات كالمطارق استطاع محمد أن يتلقى الكثير منها بذراعيه. وبينما بدا أن محمد كان يتلقى ضرباً مبرحاً، كانت تلك في واقع الأمر إستراتيجية دفاعية طورها خصيصاً لمباراة فورمان. أطلق على تلك الإستراتيجية «ربط المغفل»، وكان يتيح لفورمان أن ينهك نفسه باللكم. أخيراً في الجولة الثامنة، بدأ محمد يعيد اللكمات بجد ضد فورمان الذي أنهكت ذراعه. وهكذا توالت اللكمات الواحدة تلو الأخرى لتتوج بلكمة من اليد اليمنى أرسلت فورمان إلى الأرض في حالة من اللاوعي. صار محمد بذلك ثاني رجل في التاريخ يستعيد بطولة العالم في مناسبتين منفصلتين.

من عام 1975 حتى عام 1977 تمكن محمد من الدفاع عن لقبه 10 مرات، منتصراً في خمس من تلك بالضربة القاضية. وفي تلك الفترة كانت المشاعر السيئة السابقة ضد محمد قد ذهبت ليحل محلها إعجاب الجماهير وحبهم. أهم من ذلك، شهدت السبعينيات محمد وهو يعتنق

الإسلام التقليدي ويتخلى عن الأساطير العرقية والمعتقدات الفاسدة لـ «أمة الإسلام». لقد أصبح بطل العالم للملاكمة مسلماً.

في عام 1978، تراجعت تلك المهارات في الملاكمة بشكل كبير نتيجة العمر، وفقد محمد علي البطولة في مباراة من خمسة عشر جولة ضد ليون سبنكس، وهو بطل سابق في الألعاب الأولمبية لم يسبق له أن فاز سوى بسبع مباريات احترافية. في نهاية ذلك العام، نهض محمد علي مرة أخرى وهزم سبنكس بقرار التحكيم في مباراة معادة من خمس عشرة جولة. لقد أصبح محمد علي الإنسان الوحيد في تاريخ الملاكمة الذي يكسب بطولة العالم للوزن الثقيل ثلاث مرات. بعد ذلك الانتصار اعتزل الحلبة.

لكن محمد لسوء الحظ عاد إلى الحلبة عام 1980. خاض مباراة في تلك السنة ومباراة أخرى في السنة التي تليها. في تلك الفترة بدا أنه قد بدأ يعاني من مرض باركنسون، وهي حالة يبدو أن السبب فيها يعود إلى الضربات التي تلقاها على الرأس طوال تاريخه المميز. في النهاية كان سجله يتضمن 56 انتصاراً (37 منها بالضربة القاضية) وخمس خسائر.

تزوج محمد من يولاندا وليمز عام 1986، وكان قد تزوج سونجي روا، وبيلندا بويد (التي عرفت بخليله)، ومن فيرونيكا أندرسن، وأنجب تسعة أطفال.

على الرغم من تضاؤل قدرته على النطق ومهاراته الحركية نتيجة لمرض باركنسون، فقد أصبح محمد علي أكثر أبطال الملاكمة السابقين شعبية إلى جانب تحوله إلى سفير إلى العالم. أثناء فترة ضعفه الصحي انهمر عليه التكريم بأشكاله المختلفة. في عام 1996، اختير ليوقد شعلة الأولمبياد في أتلانتا، جورجيا. لقبته مجلة «سبورتز إلستريتد» «رياضي القرن» والأمم المتحدة سمته أحد «رسل السلام» التسعة الذين اختارتهم.

حتى كتابة هذه الكلمات، مايزال محمد علي المسلم الأكثر شهرة والأسهل في التعرف عليه.

ب7. كريم عبد الجبار

ولد فرديناند لويس السيندور، الابن، في 16 أبريل، 1947، في مدينة نيويورك. وكانت قدراته الأسطورية في لعبة السلة واضحة عندما كان في المرحلة الثانوية. ثم صار نجماً على مدى أربع سنوات حين لعب للأكاديمية التذكارية بطوله البالغ 6 أقدام و8 إنشات، محققاً 2,067 نقطة، ومحققاً بذلك رقماً قياسياً في مدينة نيويورك لعدد النقاط التي حققها في لعبة السلة.

في عام 1965 دخل جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلس في منحة دراسية للعبة السلة. في مباراته الأولى حقق 56 نقطة، وهو رقم قياسي في الجامعة. بعد ذلك قاد فريق الجامعة لثلاث بطولات متتالية في لعبة السلة على مستوى «الجمعية الرياضية للكليات الوطنية» (إن سي أي أي). طوال مسيرته في السلة في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلس، لم يخسر الفريق سوى مباراتين، محققاً بذلك مستوى من التميز على المستوى الجامعي لم يتجاوزه أحد. وفي تلك الفترة من دراسته الجامعية اعتنق فرديناند الإسلام وذلك في عام 1971وسمى نفسه كريم عبد الجبار.

لقد أثبتت مسيرة عبد الجبار في جمعية السلة الوطنية (إن بي أي) استمرار هيمنته على اللعبة التي بدأت في المرحلة الثانوية وتأكدت في المرحلة الجامعية. حين انضم إلى «ميلوكي بكز» (1969–1975) وبعد ذلك إلى «لوس أنجلس ليكرز» (1975–1989)، فاز عبد الكريم بجائزة جمعية السلة الوطنية «روكي العام» عام 1970 واعتبر بالتصويت «لاعب جمعية السلة الوطنية الأعلى قيمة» لستة مرات متتالية كانت رقماً قياسياً. طوال مسيرته الاحترافية في السلة، قاد فريقه إلى ست بطولات على مستوى «جمعية السلة الوطنية» 1971، 1980، 1982، 1985، 1988). وهو في الوقت الحاضر صاحب الأرقام القياسية التالية بوصفه لاعباً في «جمعية السلة الوطنية»: أكثر النقاط تسجيلاً (38,387)، أكثر الأهداف المحققة على الساحة (15,837)، أكبر عدد من الدقائق في اللعب (57,446). من هنا كان طبيعياً أن يدخل قاعة السلة للمشاهير عام 1995.

ج. نتائج

يمثل معتنقو الإسلام بين الأمريكيين إسهاماً متزايداً في الوجود الإسلامي في أمريكا، وإسهامهم ليس محدوداً بعددهم. لقد بدأ معتنقو الإسلام في تسلم مواقع قيادية على نحو متزايد ضمن مجتمعاتهم الإسلامية وصاروا أصواتاً للدراسات الإسلامية في أمريكا. صار وجه الإسلام يتشكل بالأمريكيين المولودين محلياً مثلما يتشكل بالمهاجرين.

10. الإسلام في أمريكا الشمالية في العصر الحديث

1. مقدمة

لقد حدث الكثير على مدى الألف ومائة عام ما بين رحلة 889 التي قام بها خشخش بن سعيد بن أسود والوقت الحاضر. رحلة البحر الممتدة على مدى شهر والمحفوفة بالمخاطر حلت محلها رحلة جوية لا تستمر أكثر من ساعات قليلة. الأندلس الإسلامية لم تعد قائمة، ومملكة الماندينكا جاءت وذهبت. العالم الجديد الذي كان ذات يوم منفى للعالم من الزاوية الأوروبية صار وطناً للقوة الكبرى الوحيدة في العالم وقوة اقتصادية مهيمنة.

عبر هذه التغيرات، جاء المسلمون إلى الأمريكتين وذهبوا. في ذروة تجارة العبيد عبر الأطلسي، ربما كان عدد المسلمين في الأمريكتين يقاس بالملايين. بمرور الزمن وتعاقب الأجيال، توارى الموروث الإسلامي للأفارقة الأمريكيين تدريجياً في التلافيف الداخلية لمجتمعاتهم وكان غالباً ما يصعب التعرف عليه في حقيقته. عدد المسلمين في الأمريكتين تضاءل بعد ذلك وبسرعة ليصير محدوداً جداً، وفي مطلع القرن العشرين بدا أن الإسلام سيندثر تماماً في أمريكا الشمالية. في تلك اللحظة اجتمعت ثلاثة عوامل لقلب ذلك التوجه بطريقة مثيرة.

العامل الأول كان عودة الأفارقة الأمريكيين إلى موروثهم الإسلامي. ضمن بحثهم عن المساواة العرقية وعن هوية مقبولة، بدأ الأفارقة الأمريكيون في النصف الأول من القرن العشرين في إعادة اكتشاف جذورهم الدينية في الإسلام. هذا البحث نتج في البداية عن جملة من المعتقدات الشديدة الفساد والتلوث، كتلك التي حملها «معبد العلم المغاربي» و«أمة الإسلام». غير أن تلك المعتقدات على ما فيها من عيوب عملت فيما بعد لتكون قاعدة ثمينة قادت عدداً لا يحصى من الأفارقة الأمريكيين في عودة إلى أحضان الإسلام

الذي آمن به أجدادهم.

العامل الثاني وراء عودة ظهور الإسلام في أمريكا الشمالية كان هجرة المسلمين في القرن العشرين من شبه القارة الهندية والشرق الأوسط وأماكن أخرى إلى أمريكا. نتيجة لتغيرات اقتصادية وقلاقل سياسية ونتيجة أيضاً للتغييرات في قوانين الهجرة الأمريكية، بدأت الموجة تلو الموجة من المهاجرين المسلمين تدعم الحضور الإسلامي في أمريكا الشمالية.

أخيراً، شهد الربع الأخير من القرن العشرين آلافاً مضاعفة من الأمريكيين يعتنقون الإسلام كل عام. على عكس التدفق الأفرو أمريكي على الإسلام، لم تكن هذه الاعتناقات جماهيرية أو جماعية. كانت تلك اعتناقات فردية أو اعتناقات على مستوى العائلة. فضلاً عن ذلك، لم تكن تلك الاعتناقات تأتي من فئة إثنية أو جماعة عرقية. جاء الأمريكيون من كل مجالات الحياة، كل مستويات التعليم، كل طبقات الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ومن موروثات إثنية وعرقية متعددة، جاؤوا كلهم ليعتنقوا الإسلام.

في الوقت الحاضر، ربما يكون الإسلام ثاني أكبر الأديان في أمريكا. إنه أيضاً الدين الأسرع نمواً فيها. لكي يتضح أن الإسلام بات جزءاً أساسياً من النسيج الأمريكي، ينبغي أن نلاحظ أن المؤتمرين الوطنيين للحزبين الديمقراطي والجمهوري للعام 2000 بدءا بصلوات إسلامية. تلا طلعت عثمان الافتتاح الإسلامي للجمهوريين والدكتور ماهر حتحوت قام بعمل مشابه لدى الديمقراطيين. بالإضافة إلى ذلك جلس ما يزيد على المائة من المسلمين مندوبين في المؤتمر الجمهوري.

2. عدد المسلمين في أمريكا الشمالية

ب1. مقدمة

ليس من السهل تحديد عدد دقيق للمسلمين في أمريكا الشمالية. لا توجد قائمة مركزية بالأعضاء، ولا يمكن القول بأن أي من المنظمات الإسلامية تمثل كل المسلمين في أمريكا الشمالية أو حتى معظمهم. حتى على مستوى المساجد الفردية، الغالب هو أن المسلمين الذين يصلون في تلك المساجد لا ينتمون إلى المسجد أو لا تظهر أسماؤهم على قائمة العضوية لذلك المسجد. ومما يزيد المسألة تعقيداً أن تقاليد الاستطلاعات وأساليب المقابلات عبر الهاتف أقرب إلى التقليل من عدد المسلمين بشكل حاد.

ب2. معلومات الاستطلاع

هناك عدة أسباب تجعل استطلاعات الهاتف والمقابلات فيما يتعلق بالانتماء الديني ليست مما ينبغي الاعتماد عليه حين يتعلق الأمر بالعدد التقريبي للمسلمين في أمريكا الشمالية. أولا، الكثير من المسلمين يشكّون في تلك الاستطلاعات ومن المرجح أنهم يمتنعون عن المشاركة فيها. المسلمون المهاجرون الذين جاؤوا في حالة لجوء سياسي من أنظمة حكم متسلطة تعلموا في بلادهم التي جاؤوا منها أنه كلما قلت المعلومات عنهم كلما كان ذلك أفضل لهم. ثانياً، بعض المسلمين المهاجرين ما يزالون يفتقرون إلى المهارات الأساسية في اللغة الإنجليزية التي تسمح لهم بالمشاركة في تلك الاستطلاعات. ثالثاً، في جميع العائلات الإسلامية المحافظة، يحتمل ألا ترد الزوجة على الهاتف إن لم تعرف رقم الشخص المتصل. رابعاً، المسلمون من كافة الأطياف يدركون أنهم يمثلون أقلية يساء فهمها في أمريكا. بعد أن عانوا من كونهم ضحايا التهجم على الإسلام من قبل اليمين المسيحي المتطرف لعدة سنوات سبقت الحادي عشر من سبتمبر وبعد أن تعاملوا مع نتائج الحادي عشر من سبتمبر، يتردد كثير من المسلمين في الكشف عن انتمائهم الديني للغرباء وللمستطلعين الخفيين على الجهة الأخرى من الخط الهاتفي. لكل تلك الأسباب وغيرها، من المحتمل أن تؤدي استطلاعات

الهاتف حول الانتماء الديني إلى التقليل من عدد المسلمين في أمريكا الشمالية إلى حد كبير. وانطلاقاً مما سبق حول كون المعلومات المتوفرة من الاستطلاعات تقلل من عدد المسلمين بشكل كبير، يمكننا الالتفات إلى المعلومات المنشورة القادمة من ذلك المصدر.

في فترة مبكرة تعود إلى العام 1991، قدر غولدمان أن عدد المسلمين في أمريكا كان مليون وربع المليون، مع كون 40٪ من المسلمين أفارقة أمريكيين. النتائج التي توصل إليها غولدمان تأسست على ما اعتبر عندئذٍ أكبر مسح من نوعه حتى ذلك التاريخ.

في تقرير يعود إلى العام 2001 بعنوان «مسح الانتماء الديني لعام 2001»، خلص كوسمن ومايير إلى أن عدد المسلمين في الولايات المتحدة يبلغ مليون ومائة ألف من البالغين منهم 17٪ معتنقون، 0,7 مليون من الأطفال. مع أن تلك النتائج بنيت على مقابلات شملت 51,281 أمريكي، فإن تلك المقابلات حملت جميع المشكلات التي سبقت الإشارة إليها فيما يتصل بعمل مسح لانتماءات المسلمين الدينية عبر الهاتف.[1]

تقرير آخر أعده توم و. سمث حمل تقديراً أعلى بقليل لعدد المسلمين. التقرير جاء بتكليف من «اللجنة الأمريكية اليهودية». تضمن التقرير، الذي جمع في سبتمبر أو أكتوبر من عام 2001، أن عدد المسلمين بلغ مليونين وثمانمائة ألف في أعلى التوقعات. وانتهى التقرير إلى أن الرقم الأقرب إلى الواقع هو مليون وأربعمائة ألف من المسلمين البالغين ونصف المليون من الأطفال.[2]

أخيراً قدرت «الموسوعة المسيحية العالمية» في عام 2001 أن عدد المسلمين في أمريكا كان 4,1 مليون، منهم 39٪ من الأفارقة الأمريكيين.[3]

في التقديرات السابقة لعدد السكان المسلمين في أمريكا الكثير من المتغيرات. المشترك بينها هو أن جامعيها من غير المسلمين. كما سيتضح، التقديرات التي توصل إليها المسلمون كانت أعلى باستمرار من تلك التي توصل إليها غير المسلمين. يعود ذلك جزئياً إلى حقيقة

(1) Neibuhr G (2001); Las JV (2001); & Kosmin BA. Mayer E (2001).

(2) Neibuhr G (2001).

(3) Barrett DB. Kurian GT. Johnson TM (2001).

أن الباحثين المسلمين لديهم عادة سبل أفضل للوصول إلى المسلمين مما هو متوفر لغير المسلمين.

ب3. التقديرات الإسلامية

إحدى المحاولات الإسلامية المبكرة لتقدير السكان المسلمين أجراها «اتحاد المنظمات الإسلامية في أمريكا». قدرت هذه الدراسة أن عدد السكان المسلمين في الولايات المتحدة يبلغ 1,2 مليون في عام 1960. غير أن التقدير لم يشمل بعض المسلمين البنجابيين والمسلمين المنحدرين من أصول تركية وشرق أوروبية. فضلاً عن ذلك ينبغي أن نتذكر أنه في هذا التاريخ المبكر لم يكن أعضاء «أمة الإسلام» قد وجهوا إلى الإسلام التقليدي على يد وارث دين محمد ولربما أضافوا مائة ألف شخص آخرين.[1]

في عام 1992 قدر نومان أن المسلمين المقيمين في الولايات المتحدة يبلغ خمسة ملايين.

في عام 1994 أوضحت إحصائية لأئمة المساجد أنه كان هناك 500,000 مسلم في عضوية المساجد.[2] للوهلة الأولى، يبدو هذا الرقم منخفضاً جداً. غير أنه ينبغي أن نتذكر أن هذا الرقم يتضمن فقط أولئك المسلمين المتصلين مباشرة بمسجد معين. الكثير من النساء والأطفال لا يذهبون إلى المساجد، مع أنهم من المسلمين الممارسين لدينهم. يضاف إلى ذلك أن هناك الكثير من المسلمين في المناطق التي لا يوجد فيها مساجد. كما يضاف إلى ذلك أن الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين كانت فترة بناء سريع للمساجد، ومن الصعب جداً تجميع قائمة بكل المساجد في أمريكا. بالنظر إلى اعتبارات كتلك، يمكن القول إن المسح قدر العدد الإجمالي للمسلمين في الولايات المتحدة بمليونين أو أكثر.

بالاعتماد على وسيلتي الاستطلاع الهاتفي والمقابلات مع ممثلي المساجد، قدر بايونس أن العدد الإجمالي للمسلمين في ولاية إلينويَ 320,644 عام 1994، وهو أقل بقليل من 03٪

(1) Ba-Yunus I (1998).

(2) Bagby I. Perl PM. Froehle BT (2001).

من العدد الإجمالي لسكان إلينوي في ذلك الوقت. (لكي يتأكد من مشاركة المسلمين في الاستطلاع الهاتفي الذي أنجز في شيكاغو، أعلن بايونس عن الاستطلاع وشرحه في مساجد شيكاغو قبل القيام به).

قد تكون المحاولة الأكثر طموحاً لتقدير عدد المسلمين في أمريكا هي ما قام به باغبي وبيرل وفروهل في مارس وسبتمبر من عام 2000 لحساب «مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية» (سي أي آي آر)، و«الجمعية الإسلامية في أمريكا الشمالية» (آي إس إن أي)، و«زعامة الإمام وارث دين محمد» و«الدائرة الإسلامية في أمريكا الشمالية» (آي سي إن أي). جمعت الدراسة التي حملت عنوان «المسجد في أمريكا: صورة وطنية»، قائمة رئيسة بألف ومائتين وتسعة مساجد في الولايات المتحدة. من هذه هناك 631 مسجداً اختيرت بشكل عشوائي لتشارك في الدراسة، و416 مسجداً من التي اختيرت عشوائيا قامت بالمشاركة الفعلية. عندئذٍ أجريت مقابلات مع قيادات تلك المساجد. بين الأسئلة التي طرحت على كل إمام مسجد كان عن عدد المسلمين المتصلين بذلك المسجد. كان المعدل في تلك الإجابات هو 1,625. بضرب هذا الرقم في عدد المساجد على القائمة نتج الرقم الإجمالي 1,964,625. القائمون بالدراسة اقترحوا أنه بوجود مليوني مسلم لهم صلة بالمساجد، فإنه ليس من غير المعقول تقدير العدد الإجمالي للسكان المسلمين بستة أو سبعة ملايين في أمريكا بحلول العام 2000.

ب4. النمو بين السكان المسلمين

بغض النظر عن الرقم الدقيق لعدد المسلمين في أمريكا، ليس ثمة شك في أن الإسلام هو أسرع الأديان نمواً في الولايات المتحدة. فقد ذكر بايونس، مثلاً، أن معدل النمو بين السكان المسلمين في إلينوي هو 4,3٪ سنوياً ما بين 1990 و1994، ما يوحي بأن السكان المسلمين يتضاعفون كل 16,28 سنة. بمزيد من تحليل النتائج، قرر بايونس أن 44٪ من نسبة النمو كان

ناتجاً عن مكاسب تعود إلى صافي الهجرة،[1] وأن 31٪ يعود إلى نمو طبيعي (المواليد ناقص الوفيات)، و25٪ ناتجة عن الاعتناقات الدينية الصافية (الاعتناقات ناقصة الارتدادات).

بمقارنة نتائج مطابقة تقريباً لدراسات أجريت عامي 1994 و2000، اكتشف باغبي وآخرون زيادة تصل إلى 300٪ في عدد المسلمين المرتبطين بمساجد، و25٪ زيادة في عدد المساجد، وزيادة معدلها 235٪ في عدد المسلمين المتصلين بكل مسجد. وأشاروا بالإضافة إلى ذلك أن المشاركة في المساجد زادت في 77٪ من المساجد التي تم مسحها عام 2000 وأنها نقصت في 5٪ فقط من تلك المساجد. وأعادت هذه الدراسة ما سبق أن ذكرته دراسة بايونس من أن النمو بين السكان المسلمين ليس مرده إلى الهجرة والولادة فحسب. ذكر باغبي وآخرون أنه حتى عام 2000 كان معدل معتنقي الإسلام في مقابل المسجد الواحد كان 16,3٪ كل عام. بضرب عدد 16,3 معتنق كل عام بعدد المساجد وهو 1,209 حسب القائمة الرئيسية في الدراسة يعطينا مجموعاً كليا يزيد عن 19,700 أمريكي يعتنق الإسلام كل عام حتى عام 2000.

المؤشرات التي يتناقلها الناس توحي بأنه منذ الحادي عشر من سبتمبر، 2001، بدأ الكثير من الأمريكيين يستكشفون الإسلام للمرة الأولى، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع في نسب الاعتناق عما كان يذكر سابقاً. في أعقاب 11 سبتمبر، أشارت تقارير مختلفة أن عدد معتنقي الإسلام زاد ما بين 100٪ و300٪.[2]

ب5. نتائج

يتضح مما سبق أن التقديرات الإسلامية لعدد المسلمين في أمريكا هي باستمرار وعلى نحو بارز أعلى من التقديرات التي يقدمها غير المسلمين. ربما يعود ذلك جزئياً إلى تردد بعض

(1) يشرح المؤلف المقصود بصافي الهجرة بالتمييز بين كلمتين إنجليزيتين لا تفرق بينهما المعاجم، هما immigrate و emigrate، بالمعنى الذي يبدو أنه يقصده، وهو قصد غير واضح، فلربما أنه يقصد الفرق بين الهجرة المؤقتة والهجرة الدائمة، أو بين الهجرة والتهجير، لكن المعاجم لا تدعم هذا التمييز، فهو يقول (immigration minus emigration) (المترجم).

(2) Wilgoren J (2001); Ritz MK (2001); Jimenez M (2002); & Abeljabbar FM (2002).

المسلمين في إظهار انتمائهم الديني لغير المسلمين. يضاف إلى ذلك أنه من المحتمل أن غير المسلمين لديهم من سبل الوصول إلى المسلمين أقل مما لدى المسلمين أنفسهم. أخيراً، لا يمكن استبعاد أن أئمة المساجد يميلون إلى المبالغة في عدد المنتمين إلى مساجدهم. بناء على هذه الاعتبارات مجتمعة، اقترح لانغ رقم خمسة ملايين مسلم رقماً متوسطاً بين التقديرات المنتشرة حالياً، مع أن التقديرات الشائعة بين معظم المسلمين في الوقت الحاضر تميل إلى المراوحة بين سبعة وثمانية ملايين.

ج. تركيبة المجتمع المسلم في أمريكا الشمالية

ج1. مقدمة

يشكل السكان المسلمون في الولايات المتحدة اليوم مقعداً ذا ثلاثة أرجل. أحد تلك الأرجل تمثلها هجرة المسلمين من عدة مناطق في العالم، ورجل أخرى يشكلها المعتنقون ورجل ثالثة يشكلها الجيل الثاني من المسلمين في أمريكا، أي أبناء أولئك الذين تمثلهم الرجلان الأخريان. كما يمكن للمرء أن يتخيل، يؤدي هذا إلى تجمع غير متجانس من الأفراد، الأمر الذي يؤدي بدوره إلى تعددية مثرية من الثقافات، والإثنيات، والأعراق، والقوميات، وكذلك اللغات، مع فرصة لظهور الانقسام والتمييز غير العادل.

ج2. بعض المعلومات السكانية

في عام 1992 قدر نومان أن 42٪ من السكان المسلمين في الولايات المتحدة من الأفارقة الأمريكيين. بالإضافة إليهم هناك 24,4٪ من المسلمين يعودون إلى أصل جنوب آسيوي، 12,4٪ من أصل عربي، 5,2٪ من المهاجرين الأفارقة، 3,6٪ من الإيرانيي الأصل، 2,4٪ من الأصل التركي، 2,0٪ من جنوب شرق آسيا، 1,6٪ من غرب أوروبا، 0,8٪ من شرق أوروبا.

قدر غولدمان أن 40٪ من جميع المسلمين في أمريكا عام 1991 كانوا من الأفارقة الأمريكيين. باريت وآخرون اقترحوا أن النسبة هي 39٪ في 2001، وفي 2002 ذكر دانن أن 90٪ من المجموع الكلي لمعتنقي الإسلام من الأفارقة الأمريكيين. استناداً إلى نتائج المسح الذي قام به عام 1994، قدر بايونس أن 46٪ من المسلمين في شيكاغو كانوا من الأمريكيين الأصليين (يعني هذا أنهم جميعاً على وجه التقريب من الأفارقة الأمريكيين)، و20٪ من العرب، و19٪ من جنوب آسيا، و07٪ من تركيا، و04٪ من شرق أوروبا، 04٪ لم تحدد أصولهم.

مقاربة مختلفة عما سبق استعملها بغبي وآخرون. بدلاً من تقدير التركيبة الإثنية للمسلمين في أمريكا، نظرت هذه الدراسة إلى الخلفية الإثنية للمشاركين المنتظمين في المسجد المتوسط الحجم في أمريكا. بناء على مقابلات أجريت مع أئمة المساجد موضوع المسح، قدر أن المشاركين في المسجد المتوسط الحجم تضمن 33٪ من جنوب آسيا، 30٪ من الأفارقة الأمريكيين، 25٪ من العرب، 3,4٪ من الأفارقة، 2,1٪ من شرق أوروبا، 1,6٪ من الأمريكيين البيض، 1,6٪ من جنوب شرق آسيا، 1,2٪ من الكاريبي، 1,1٪ من الأتراك، 0,7٪ من الإيرانيين، و0,6٪ من أمريكا اللاتينية.

ج3. مأزق يتصاعد

كما سبقت الملاحظة في مقدمة هذا القسم، يتسم السكان المسلمون في الولايات المتحدة بالتعدد والاختلاف فيما يتعلق بالبلاد التي جاؤوا منها، وثقافاتهم الأصلية، وإثنياتهم، وأعراقهم، وفي لغاتهم الأصلية. في جانبه الإيجابي يعد هذا التنوع بثراء ضمني للمجتمع المسلم في أمريكا إذا ما توفرت وحدة إسلامية تظلله. لكن على الجانب الآخر، ربما يؤدي التنوع إلى الانقسام والتشتت.

ناقش تيرنيكار (Ternikar) الاحتمال الأخير ووصف مخاطره بأنها القبلية بين مسلمي أمريكا. قال إن هذه القبلية قامت على ميل المسلمين الأمريكيين إلى تحديد هوياتهم على أساس الأصول القومية، والتشابهات العرقية، والوعي الإثني، بدلاً من دينهم المشترك.

واستنتج من ذلك أن هذه القبلية تكمن خلف الانقسام بين المسلمين الأمريكيين.

إن من الحقائق المؤسفة أنه ليس على المرء أن ينظر بعيداً جداً في المجتمع المسلم قبل أن يرى الكثير مما يؤكد فرضيات تيرنيكار. معظم اللقاءات الاجتماعية بين المسلمين يمكن أن يوصف بأنه ذا طابع أفرو أمريكي، جنوب آسيوي، أو عربي. فضلاً عن ذلك، إذا كانت المجموعات المهاجرة كبيرة في منطقة معينة، فإن المرء ما يلبث حتى يكتشف أن العرب يميلون إلى الانقسام الضمني إلى سوريين وفلسطينيين ومصريين وسعوديين وأن المجموعة الجنوب آسيوية تتجزأ أيضاً إلى مجموعات صغرى منفصلة.

أدلة أخرى على هذا التشظي يمكن العثور عليها في مسح أئمة المساجد الذي أجراه باغبي وآخرون. وجد المسح أن 64٪ من المساجد في أمريكا تهيمن عليها مجموعة إثنية واحدة، وهذه إما أن تكون أفرو أمريكية أو جنوب آسيوية. نسبة أخرى من المساجد تشكل 31٪ تهيمن عليها مجموعتان إثنيتان يغلب أن تكونا إما جنوب آسيوية أو عربية. 7٪ من المساجد تشكلت من مجموعة إثنية واحدة، وفي 24٪ من المساجد 90٪ من الحضور كانوا من المجموعة الإثنية نفسها. أخيراً تضمن المسح أن 27٪ من المساجد في أمريكا كانت تسعى إلى الحفاظ على إرث إثني أو قومي معين، وهو وضع يميل إلى استثناء المسلمين الذين لا ينتمون إلى إثنية أو موروث قومي محدد تجري المحافظة عليه.

نتائج كالتي أشير إليها أعلاه تمنح الكثير من المصداقية لفرضيات تيرنيكار. غير أن دليلاً أكثر إزعاجاً يمكن استنتاجه بالنظر إلى المعلومات التي يشير إليها قسم سابق فيما يتعلق بتركيبة المجتمع الإسلامي في أمريكا الشمالية. بشكل عام فشل الباحثون في التمييز بين الجيل الثاني من المسلمين من ناحية وآبائهم من ناحية أخرى. الأطفال الذين نشؤوا في أمريكا وآباؤهم من العرب صنفوا على أساس أنهم عرب، والأطفال الذي نشؤوا في أمريكا أيضاً وآباؤهم من جنوب آسيا صنفوا على أساس أنهم من جنوب آسيا، الخ. تصنيف كهذا يطرح أسئلة مهمة حول فرضيات الباحثين المشار إليهم.

بوصفي متخصصاً في علم النفس الإكلينيكي من الناحيتين المهنية والتعليمية، أود أن

أطرح مرتكزاً نفسيا أساسيا يجد الكثير من المهاجرين المسلمين صعوبة في تقبله. الجيل الثاني والثالث من المسلمين في أمريكا هم بشكل عام أمريكيون. ليس من المهم مكان ولادتهم أو البلد التي ولد فيها آباؤهم. كما ليس من المهم ما إذا كان آباؤهم مهاجرين مسلمين أو أمريكيين اعتنقوا الإسلام. ليس من المهم ما إذا كانت اللغة التي تتحدثها عائلاتهم في المنزل هي الأوردو أو العربية أو سواحيلي أو الإنجليزية. ليس من المهم ما إذا كانت أسماؤهم محمد أو جم أو فاطمة أو سوزي. لقد نشؤوا في أمريكا وهويتهم ستكون هوية الأمريكيين.

ستجد ما يدعم هذا المرتكز لو نظرت إلى كلمات يحيى إمريك، وهو معلم قديم في مدارس إسلامية خاصة ومؤلف كتاب مدرسي مهم في الدراسات الإسلامية لطلاب المرحلة المتوسطة:

> الشكوى الأكثر تكراراً والتي سمعت من الشباب هي شعورهم أن والديهم يحاولون أن يفرضوا ثقافة غريبة وأجنبية على أبنائهم المولودين في أمريكا ونشؤوا فيها.
>
> يقول الشباب إنهم مضطرين للتصرف بطريقة غير طبيعية ومصطنعة عندما يكونون في المنزل، وأنهم لا يكونون في «العالم الحقيقي» إلا عندما يبتعدون عن والديهم.(1)

لسوء الحظ أن الكثير من المهاجرين المسلمين لا يعترفون بهذا المرتكز المهم ولا يتقبلونه. إنهم كثيراً ما يخلطون بين ثقافتهم الأصلية والإسلام وكثيراً ما يصرون على أن أطفالهم لا بد أن يكونوا باكستانيين أو فلسطينيين، أو ما إلى ذلك، لكي يكونوا مسلمين. فضلاً عن ذلك نجدهم يميلون كثيراً إلى مقابلة كون الإنسان أمريكياً بكونه مسلماً، وبهذه الطريقة يكرسون، وربما يغرسون، صراعاً نفسياً أساسياً في هوية أطفالهم الذين غالباً ما يشعرون في النهاية بأن عليهم أن يختاروا بين أن يكونوا إما أمريكيين أو مسلمين. يشعرون في الغالب بأن عليهم الاختيار إما أمريكا أو الإسلام.

إذا فرض على الجيل الثاني أن يربط الإسلام بالأصول القومية للأبوين وإذا اضطروا إلى

Emerick Y (1996). p. 46 (1)

الاختيار بين أن يكونوا أمريكيين أو يكونوا مسلمين، بين أمريكا والإسلام، فإن المجتمع الإسلامي في أمريكا مقدم على سلسلة طويلة من خيبات الأمل المؤلمة جداً. إذا كان الخيار الوحيد المتاح أمام الجيل الثاني هو أن يختار إما هذا أو ذاك، فإن معظمهم بكل صراحة سيختار أن يكون أمريكياً، لا أن يكونوا مسلمين ممارسين لدينهم. ذلك هو الخطر الأكبر الناتج عن القبلية في المجتمع المسلم في أمريكا.

المأزق المتصاعد الذي يواجه الجيل الثاني من المسلمين في أمريكا هو كيفية أن يكونوا أمريكيين ومسلمين بدون أن يتخلوا عن أي من الانتماءين. أحد مكونات الحل لهذا المأزق هو قبول تاريخ المسلمين في أمريكا بما فيه من عمق تاريخي وفهمه والاعتزاز به. مهما قلنا عن أهمية ذلك فلن نبالغ، لأن قدرة الجيل الثاني على تجاوز هذا المأزق هي ما سيقرر ازدهار الإسلام في أمريكا على المدى البعيد.

ج4. نتائج

ينبغي أن يكون التعدد في الموروث القومي والثقافي والإثني والعرقي واللغوي مصدراً للقوة بالنسبة للمجتمع الإسلامي في أمريكا. ينبغي أن يثري المجتمع ككل ويوفر فرصة للمعرفة والفهم الأعمق. لكي يفعل ذلك، لابد من الحيلولة دون أن تتمكن القبلية من اقتلاع الإسلام من حيث هو المدماك الأساسي لهوية الفرد، وفي مرحلة ينبغي وضع التاريخ القبلي في المقعد الثاني خلف تاريخ المسلمين في أمريكا بما فيه من ثراء وتنوع.

د. المساجد والمراكز الإسلامية في أمريكا الشمالية

مثلما أن غياب منظمة مركزية تخدم كمظلة لكل الجماعات الإسلامية يجعل من الصعب تقدير العدد الدقيق للمسلمين في أمريكا، فإن ذلك الغياب يجعل أيضاً من الصعب معرفة العدد الدقيق للمساجد والمراكز الإسلامية التي تملأ الفضاء الأمريكي. لذا فإن المرء مضطر

مرة أخرى للاعتماد على التقديرات.

في عام 1992، ذكر نومان أن في الولايات المتحدة 843 مسجداً ومركزاً إسلامياً. وذكر دانن أن في ولاية نيويورك 112 مسجداً في عام 2002، وحوالي 40 في مدينة شيكاغو، وحوالي 1,200 على امتداد الولايات المتحدة. باغبي وآخرون استطاعوا أن يجمعوا قائمة رئيسة لألف ومائتين وستة مساجد ومراكز إسلامية في عام 2000. وقدر خان عدد المساجد والمراكز الإسلامية بحوالي 2000 عام 2002 ورفع تقديراته إلى 3000 مركز ومسجد عام 2005.

جزء من المشكلة في تحديد عدد المساجد والمراكز الإسلامية في أمريكا يعود إلى أنها أنشئت بسرعة. استطاع باغبي وآخرون أن يحددوا 130 مسجداً تقريباً بنيت في ثمانينيات القرن العشرين وحوالي 120 مسجداً بنيت في تسعينيات ذلك القرن. مع ظهور مساجد جديدة بهذه السرعة وبغياب منظمة مركزية تعود إليها كل المساجد، يظل من المستحيل أن يتابع أحد ذلك النمو السريع.

هـ. المدارس الإسلامية في أمريكا الشمالية

في السنوات الأخيرة، انشغل المجتمع المسلم في أمريكا بمحاولة دائبة لتأسيس مدارس إسلامية خاصة لضمان التعليم الديني الصحيح للأطفال وتكريس انتمائهم لدين الإسلام. بعض تلك المدارس تقدم تعليماً شاملاً للتعليم الديني والدراسة الرسمية في نظام التعليم الأمريكي العام. البعض الآخر مدارس جزئية تكرس نفسها للتعليم الديني فتكون بذلك مكملة للمدارس العامة.

يقول نومان أنه في عام 1992 كان في الولايات المتحدة 165 مدرسة إسلامية خاصة. من تلك المدارس 92 شاملة و73 جزئية.

ووجد بغبي وآخرون أن 21٪ من المساجد التي تم مسحها عام 2000 اشتملت على مدرسة، بزيادة 17٪ عما كان عليه الحال عام 1994، وأن 71٪ من المساجد اشتملت على مدرسة جزئية

تفتح أبوابها في نهاية الأسبوع بانتظام. إذا كانت القائمة الرئيسية التي وفرها بغبي وآخرون لألف ومائتين وتسع مساجد حتى عام 2000 صحيحة وكاملة، فإن ذلك يعني أنه في عام 2000 كان هناك حوالي 254 مدرسة إسلامية شاملة وحوالي 858 مدرسة جزئية ومتصلة بالمسجد. بالاعتماد على هذه المعلومات إلى جانب الأرقام المتعلقة بمعدل الحضور في المدارس، كما هو مشار إليه في التقارير، قدر بغبي وآخرون أنه يوجد حوالي 31,700 طالب يدرسون في المدارس الإسلامية الشاملة، وأن 79,600 من الأطفال غير أولئك يدرسون في مدراس نهاية الأسبوع. (ملاحظة: لم تأخذ هذه الدراسة بعين الاعتبار تلك المدارس الإسلامية الخاصة التي لا صلة لها مباشرة بالمسجد).

قدر خان أن في أمريكا في عام 2005 حوالي 400 مدرسة إسلامية كاملة و800 مدرسة جزئية. على أساس ذلك قدر خان أنه يوجد مليونا شاب مسلم في أمريكا وأن حوالي 100,000 منهم يدرسون في مدارس إسلامية كاملة، ما يوحي بأن معدل الطلاب في المدارس الإسلامية الكاملة هو 250 طالباً لكل مدرسة. لكنه لم يذكر أي تقديرات تتعلق بعدد الطلاب المسلمين الإضافيين في المدارس الجزئية.

و. المنظمات الإسلامية في أمريكا الشمالية

و1. مقدمة

على مدى الأربعة عقود الأخيرة، أسست مجموعة متنوعة من المنظمات الإسلامية في أمريكا الشمالية. المساحة لا تسمح بإيراد قائمة كاملة لكل هذه المنظمات، لكن ما يرد هنا يمثل البقية. تلك المنظمات ترد هنا حسب تسلسل تاريخي يبدأ بأقدمها تأسيساً.

و2. منظمة الطلبة المسلمين (إم إس أي)

تعد «منظمة الطلبة المسلمين» (إم إس أي) في الولايات المتحدة وكندا أقدم المنظمات

الإسلامية الوطنية. في يناير من عام 1963 اجتمع ما يزيد على 70 طالباً مسلماً من أنحاء البلاد في جامعة إلينوي في إربانا–شامبين ليشكلوا «منظمة الطلبة المسلمين». كان معظم أولئك المنظمين طلبة دراسات عليا أجانب. في نهاية ذلك العام، 1963، عقدت المنظمة أول مؤتمراتها في إربانا–شامبين ومنذ ذلك الحين وهي تعقد مؤتمرها كل عام.

الهدف الأول للمنظمة كان دائماً «الدعوة». لتحقيق ذلك الهدف أسست المنظمة أول شركة ائتمان إسلامية (الائتمان الإسلامي الأمريكي الشمالي)، وأول دار نشر إسلامية (إنترناشيونال غرافيكز، التي تحولت إلى ملكية خاصة وصارت الشركة الأم لـ «أمانا بليكيشنز») في أمريكا الشمالية، وأول نشرة صحفية ومجلة إسلامية («إسلاميك هورايزنز» و«الإتحاد») تصدر بانتظام، إلى جانب «أسبوع التوعية الإسلامي» كجزء منتظم من الحياة السنوية للعديد من الجامعات الأمريكية. وقد أسس المنظمتين التاليتين، «آي إس إن أي» و«آي سي إن أي» عضوان سابقان في «منظمة الطلبة المسلمين».

و3. الدائرة الإسلامية لأمريكا الشمالية

تربط «الدائرة الإسلامية لأمريكا الشمالية» (آي سي إن أي) تاريخها بتشكل المنظمة الإسلامية المتحدثة بالأوردو والمعروفة باسم «حلقة إسلامي» في عام 1968. ما بين عامي 1971 و1977، عملت «حلقة إسلامي» ضمن «منظمة الطلاب المسلمين». في عام 1977 سميت باسمها الحالي وعقدت مؤتمرها السنوي في العام نفسه. في عام 1980 تغيرت لغة المنظمة الرسمية إلى الإنجليزية وصارت أول منظمة وطنية للمسلمين في أمريكا غير مقتصرة على الطلاب الجامعيين وطلاب الدراسات العليا.

هدف «الدائرة» هو رضا الله من خلال السعي لتأسيس نظام إسلامي في الحياة على النحو الذي يوضحه القرآن وسيرة النبي محمد. لتحقيق ذلك الهدف، يركز برنامج «الدائرة» على دعوة البشرية للخضوع لله، تحفيز المسلمين لأداء واجبهم في أن يكونوا قدوة للبشرية من خلال كلماتهم وأعمالهم، تقديم التعليم والفرص التدريبية لزيادة المعرفة الإسلامية، الوقوف

في وجه فساد الأخلاق والاضطهاد بكل أشكاله، دعم المحاولات للحصول على الحريات المدنية وتحقيق العدالة الاجتماعية الاقتصادية، تقوية الروابط الإنسانية لخدمة المحتاجين، والتعاون مع المنظمات الأخرى في تطبيق هذا البرنامج وتوحيد المسلمين. «إغاثة الآي سي إن أي» (وهي منظمة إسلامية للإغاثة في الكوارث وللأعمال الخيرية)، و«خدمة كتاب الآي سي إن أي»، و«877-لماذا الإسلام» (وهي منظمة إسلامية لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام) هي من بين إسهامات «الآي سي إن أي» في الحياة الإسلامية في أمريكا الشمالية.

تقع المكاتب الرئيسية لـ «الآي سي إن أي» في جامايكا، نيويورك، ولها فروع في تورنتو، وشيكاغو، وهيوستن، ونيوجيرسي. يحكمها «أمير» له مجلس استشاري يتألف من خمسة أعضاء يختارهم الأمير من «مجلس الشورى». جميع أعضاء الـ «آي سي إن أي» يتوقع منهم أن يقرؤوا القرآن يومياً، وأن يدرسوا سنة النبي محمد أسبوعياً على الأقل، وأن يدرسوا الثقافة الإسلامية، ويقضوا بضع ساعات على الأقل كل شهر في تعليم الإسلام والدعوة إليه.

تقيم الـ «آي سي إن أي» مؤتمراً كل صيف وشتاء، ومنذ 2002 وهذه المؤتمرات تعقد بمشاركة «الجمعية الأمريكية الإسلامية» «إم أي إس» (سيرد الحديث عنها).

و4. المعهد العالمي للفكر الإسلامي

أسس المعهد العالمي للفكر الإسلامي (آي آي آي تي) عام 1981 وهو مؤسسة ثقافية وأكاديمية خاصة وغير ربحية تهتم بالقضايا العامة للفكر الإسلامي. مقرها الرئيس في هيرندون، فرجينيا، ولها فروع في عدة عواصم عبر العالم.

يكرس المعهد العالمي نفسه لإحياء وتقويم الفكر الإسلامي ومنهجه. يركز في المقام الأول على النشاط البحثي الإسلامي في العلوم الإنسانية وما يسميه «أسلمة المعرفة». أهدافه المعلنة هي كالتالي: أن يكون مركز أبحاث في حقل الثقافة والمعرفة الإسلامية؛ تطوير رؤية إسلامية ومنهجية شاملة يمكنها أن تخدم الباحثين المسلمين في تحليلهم النقدي للمعرفة المعاصرة؛

تطوير منهجية مناسبة لفهم القرآن والسنة النبوية؛ جعل القرآن والسنة مصدرين للهداية والمعرفة والحضارة؛ تطوير منهجية مناسبة للتعامل مع الموروث الإسلامي والمعرفة المعاصرة، من أجل الإفادة من تجارب الماضي والحاضر ولبناء مستقبل أفضل للمجتمع المسلم والإنسانية جمعاء؛ وتطوير منهجية مناسبة لفهم الواقع المعاصر والتعامل معه سواء كان واقع المجتمع الإسلامي أو العالمي.

لتحقيق أهدافه، يرعى المعهد العالمي مجموعة من المؤتمرات والندوات، ويعمل بالتعاون مع جامعات مختلفة ومعاهد أكاديمية في أنحاء العالم، ويدعم باحثين ودارسين مختلفين.

و5. الجمعية الإسلامية لشمال أمريكا

أسست الـ «آي إس إن أي» عام 1982 على يد أعضاء سابقين في «منظمة الطلبة المسلمين» ومقرها الآن في بلينفيلد، إنديانا. منذ إنشائها تولت عدداً كبيراً من المهام التي كانت في الأصل على عاتق «منظمة الطلبة المسلمين». يديرها رئيس منتخب، وهيئة تنفيذية، ومجلس مديرين («مجلس الشورى»)، ويدير أنشطتها اليومية أمين عام.

حسب تركيبتها الحالية، تعمل الـ «آي إس إن أي» بوصفها منظمة جامعة تنسق وتوحد جهود العديد من المنظمات الإسلامية الأخرى. يقول البيان المحدد لرسالتها أنها توفر أرضية مشتركة للتعريف بالإسلام، دعم المجتمعات الإسلامية تطوير البرامج التعليمية والاجتماعية والبرامج البعيدة المدى، والعلاقات الجيدة مع المجتمعات الدينية الأخرى والمنظمات المدنية والمنظمات الخدمية. أهدافها الإستراتيجية تتضمن تدريب الأئمة وتطوير القياديين، دعم الاندماج الشبابي، إشاعة صورة إيجابية وعامة عن الإسلام، بناء تحالفات وتفاهم بين الأديان، وتشجيع التطور الاجتماعي.

تقيم الـ «آي إس إن أي» مؤتمراً سنوياً كل صيف وعدداً كبيراً من المؤتمرات الصغيرة كل عام.

و6. المجلس الإسلامي للشؤون العامة

تأسس المجلس الإسلامي للشؤون العامة (إم بي أي سي) عام 1988. وهو وكالة خدمات عامة تعمل من أجل الحقوق المدنية للمسلمين الأمريكيين، ودمج الإسلام في التعددية الأمريكية، إلى جانب عملها من أجل علاقة إيجابية وبناءة بين المسلمين الأمريكيين وممثليهم. لتحقيق هذه الأهداف، تعمل الـ إم بي أي سي) من أجل هوية أمريكية إسلامية، ومن أجل المنظمات الصغيرة، إلى جانب رسم صورة دقيقة للإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام والثقافة الشعبية.

و7. الجمعية الأمريكية الإسلامية

تأسست الجمعية الأمريكية الإسلامية (إم أي إس) عام 1992 ومقرها الرئيسي فولز تشيرتش، فرجينيا. أهدافها المعلنة هي كالتالي: تقديم رسالة الإسلام للمسلمين وغير المسلمين وتشجيع التفاهم بين المجموعتين؛ تشجيع المشاركة الإسلامية في بناء مجتمع تسود فيه الفضيلة؛ تقديم بديل إسلامي عملي للعديد من المشكلات الاجتماعية السائدة؛ تشجيع القيم العائلية المنسجمة مع تعاليم الإسلام؛ تشجيع قيم إسلامية كالأخوة، والمساواة، والعدالة، والرحمة والعطف، والسلام؛ إيجاد الوحدة، والتعاون، والتنسيق بين المنظمات الإسلامية وغير الإسلامية. وتقيم الجمعية مؤتمراً وطنياً مشتركاً مع الـ «آي سي إن أي» كل صيف وشتاء.

و8. الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية

تشكلت «الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية (آي أي إن أي) عام 1993 لتمثل أولئك المسلمين الذين يتبنون تفسيراً للإسلام أكثر تقييداً وإقصاءً ويعرفون بأسماء مختلفة مثل «أهل

السنة والجماعة» و«السلفيين». من مبادئ هذه الجمعية أن المنهج الإسلامي الصحيح يؤخذ من القرآن وسنة النبي محمد كما فهمت وطبقت بين الأجيال الأولى من المسلمين بعد النبي. ولكي تحقق أهدافها، تقوم الجمعية بالدعوة إلى الإسلام (أي النشاط الدعوي) وترعى مؤتمرات إلى جانب أن لديها مكتبة.

و9. مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية

تأسس هذا المجلس (س أي آي آر – كير) عام 1994 كمجموعة شعبية لتحقيق المطالب وللدعوة إلى الحقوق المدنية. مقرها الرئيس في واشنطن دي سي، ولكن لها فروع في مناطق أخرى من الولايات المتحدة وكندا. تحدد «كير» رسالتها بأنها العمل من أجل فهم الإسلام، تشجيع الحوار، حماية الحريات المدنية، ودعم المسلمين الأمريكيين، وبناء تحالفات تعد بالعدالة والفهم المتبادل.

و10. المسجد يهتم

«المسجد يهتم» جمعية إسلامية يقودها «الإمام» وارث دين محمد. نشأت هذه الجمعية من منظمة وارث دين محمد السابقة، «الجمعية الأمريكية للمسلمين» وتمثل قسماً كبيراً من المسلمين في أمريكا.

ز. المنشورات الإسلامية في أمريكا الشمالية

ذكر نومان أنه في عام 1992 كان في الولايات المتحدة 89 مطبوعة إسلامية. مع أن الكثير من هذه المطبوعات قد لا تكون أكثر من نشرات، فقد شهدت العقود الأخيرة تدفقاً هائلاً من المطبوعات الإسلامية في أمريكا الشمالية.

في الوقت الحالي، تمثل الإسلام في الولايات المتحدة أربع صحف أسبوعية وثلاث مجلات شهرية. الصحف الأسبوعية تتضمن «مسلمز ويكلي» الصادرة من جامايكا، نيويورك،

«المسلم أوبزيرفر» من فارمنغتون، ميتشغان، و«ميرور إنترناشيونال» من غيرين بوينت، نيويورك، و«مسلم جورنال» التي تطورت عن الجريدة القديمة «المسلم يتكلم» التي أصدرتها «أمة الإسلام»، والمرتبطة في المقام الأول بالزعامة الإسلامية لوارث دين محمد والتي تطبع في شيكاغو، إلينوي. بالإضافة إلى الصحف المشار إليها أعلاه، هناك العديد من المجلات الشهرية التي تمثل المجتمع الإسلامي في أمريكا الشمالية. بين هذه يمكن إدراج «إسلاميك هورايزنز» (المجلة الرسمية لـ «الجمعية الإسلامية لشمال أمريكا» «آي إس إن أي»)، «ذا ميسج إنترناشيونال» (المجلة الرسمية لـ «لدائرة الإسلامية لأمريكا الشمالية»)، و«الجمعة».

على مدى السنين ظهر عدد من دور النشر الإسلامية المختلفة لخدمة احتياجات المجتمع المسلم في أمريكا الشمالية. سواء من خلال ترجمة النصوص العربية والأردية إلى الإنجليزية أو من خلال نشر أعمال أصلية بالإنجليزية، لعب هؤلاء الناشرون دوراً حاسماً في تعليم المجتمع المسلم وتوسيع دائرته. في مقدمة دور النشر هذه تأتي «أمانا ببليكيشنز» (منشورات أمانا)، المتفرعة عن «إنترناشيونال غرافيكز» التي أسستها «منظمة الطلبة المسلمين». تنشر أمانا أنواعاً مختلفة من الأعمال الأصلية بالإنجليزية (ترجم العديد منها إلى لغات أخرى)، مثل ترجمة عبد الله يوسف علي الشهيرة للقرآن إلى الإنجليزية، والترجمات الإنجليزية لعدد من الأعمال الأساسية في الفكر الإسلامي. الناشرون الآخرون يتضمنون «كازي ببليكيشنز» «دار السلام»، «مؤسسة إقرأ التعليمية الدولية»، «شركة البشير للنشر والترجمة»، «أميريكان ترست ببليكيشنز»، «المعهد العالمي للفكر الإسلامي»، «خاتونز، المحدودة».

يمكن تبين المدى الذي وصل إليه النشر الإسلامي وما حققه من نجاح في أمريكا الشمالية بالنظر إلى حقيقة أنه يقدر أن عدد النصوص الإسلامية التي تنشر بالإنجليزية يفوق ما ينشر بالعربية.

ح. الدراسات الإسلامية في التعليم العالي

أحد المؤشرات على تزايد الحضور الإسلامي في أمريكا يمكن العثور عليه في عدد

الدراسات الإسلامية التي أدرجت ضمن مناهج الدراسة في الكليات والجامعات الأمريكية. في مسح لمؤسسات الدراسات العليا الأمريكية، حدد بخاري 225 برنامج دراسات إسلامي. بينما تشهد هذه البرامج لتزايد التأثير الإسلامي في الوعي الأمريكي، فإن الكثير منها يظل مع الأسف يدار من قبل أساتذة غير مسلمين. في حين نجد المسلمين بكثرة في تخصصات علمية وطبية وتقنية مختلفة في العالم الأكاديمي الأمريكي، يظل عددهم قليلاً جداً في ما ينبغي أن يكون منطقة قوتهم، أي برامج الدراسات الإسلامية في الكليات والجامعات الأمريكية.

ط. نتائج

إن الإسلام حالياً أسرع الأديان نمواً، وحسب معظم التقديرات فإنه الدين الثاني في أمريكا الشمالية. نموه بين السكان، وفي عدد المساجد، والمدارس، والمنظمات، والمطبوعات، يشير إلى نجاح إسلامي كبير في أمريكا في النصف الثاني من القرن العشرين. غير أن هذه النجاحات ما تزال تتأثر بنوعين مختلفين من الفشل. أحد هذين هو عجز المجتمع المسلم أو عدم رغبته في تجاوز القبلية القائمة على الإثنية، والعرق، والجذور الثقافية، والقومية، واللغوية. الفشل الثاني يتضح في عدد المسلمين من الجيل الثاني الذين لم يعودوا ممارسين لدينهم. كلا الفشلين يؤكد الحاجة إلى أن يؤسس المسلمون في أمريكا هوية إسلامية بالكامل وأمريكية بالكامل. (وينبغي أن يضاف سريعاً أن هذا لا يعني قبول كل نزوة، أو صرعة، أو شذوذ يدخل الثقافة الأمريكية، ولا يعني الاتفاق مع كل السياسات الحكومية. ففي النهاية يبقى حق الاعتراض جزءً من الهوية الأمريكية).

فيما يتعلق بتأسيس هوية إسلامية بالكامل وأمريكية بالكامل، المؤمل أن يكون في تقديم هذا الكتاب حول تاريخ المسلمين في أمريكا ما يتيح إرثاً قد يساعد على تشكيل تلك الهوية.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

نبذة عن المترجم:

سعد البازعي باحث وناقد ولد في المملكة العربية السعودية عام 1952. حصل على البكالوريوس في الأدب الإنجليزي من جامعة الملك سعود، وعلى الدكتوراه في الأدب الأنغلو- أمريكي والمقارن من جامعة بردو بالولايات المتحدة الأمريكية.

عمل إلى جانب التدريس في جامعة الملك سعود، رئيساً لتحرير صحيفة «رياض ديلي» الإنجليزية، ورئيساً لتحرير «الموسوعة العربية العالمية»، ورئيساً للنادي الأدبي بالرياض. وهو حالياً عضو في مجلس الشورى السعودي.

للبازعي ما يقارب الثلاثة عشر مؤلفاً منها: «استقبال الآخر» (2004)، و«المكون اليهودي في الحضارة الغربية» (2007).

المسلمون في التاريخ الأمريكي

يقدم هذا الكتاب صورة شاملة ومتوازنة لتاريخ المسلمين في الولايات المتحدة بشكل خاص والأمريكتين بشكل عام. يعود بفصوله العشرة إلى بدايات الإسهام الإسلامي في استكشاف الأمريكتين فيرجع ذلك إلى ما قبل كولومبس، ثم يؤرخ لاستمرار الحضور الإسلامي من خلال الأفارقة المستعبدين لعدة قرون. وينتهي إلى العصر الحديث حيث يبرز المشهد الإسلامي في الولايات المتحدة بأفراده وتنظيماته ومنجزاته ومشكلاته. والكتاب في هذا كله يعتمد على عدة مصادر يقول المؤلف إنه قام بتلخيصها، لكن كتابه يظل متميزاً بأسلوب تأليفه وما يخلص إليه من نتائج تجعله مرجعاً مهماً لمن يريد التعرف على إسهامات إسلامية يقل من يعرفها ومجتمعات إسلامية يجدر بالجميع أن يعرفوها.

Biblioth... Alexandrina
095075

9 789948 016113

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

كلمة
KALIMA

- المعارف العامة
- الفلسفة وعلم النفس
- الديانات
- العلوم الاجتماعية
- اللغات
- العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
- الفنون والألعاب الرياضية
- الأدب
- التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة